PRAYER

by

Timothy Keller

الصّلاة

اختبار الرهبة والحميميَّة مع اللّه

تيموثي كَلِر

إنَّ الصلاةَ هي أمرٌ يصعبُ جدًّا الكتابة عنه. وليس هذا لأنَّها أمرٌ لا يمكن تعريفه، بل لأنَّنا أمامه نشعر بالصغر والعجز. وقد قال كُتَّابٌ كبارٌ عديدون إنَّهم لم يكتبوا عن الصلاة بتاتًا؛ لأنَّهم كانوا يشعرون بحالةٍ من عدم الكفاءة للكتابة في هذا المجال.

الصلاةُ هي المدخل الوحيد إلى المعرفة الحقيقيَّة للنفس. وهي الطريقُ الأساسيُّ نحو اختبار التغيير الأصيل والعميق، وإعادة ترتيب محبَّاتنا للأمور المختلفة. والصلاة هي الطريقة التي يُغدقُ بها الله علينا الكثير من العطايا التي تفوق تصوُّراتنا، والتي يريدُ أن يمنحنا إيَّاها.

الصلاة أيضًا هي الطريق إلى معرفة الله، والطريق الذي نعاملُ به الله بحسب مكانته الحقيقيَّة أنَّه الله فعلًا. الصلاة ببساطة هي مفتاح كلِّ شيء نريد أن نكونَه ونفعلَه في هذه الحياة.

يجب أن نتعلَّم أن نصلِّي. وليس أمامنا خِيار.

الصَّلاة

الصَّلاة

اختبار الرهبة والحميميَّة مع اللّه

تيموثي كَلِر

ترجمة: د. أوسم وصفي

ophir

Originally published in English by The Penguin Group
under the title: **Prayer**.
Penguin Group (USA), L.L.C. USA
375 Hudson Street
New York, New York 10014.
Copyright © 2014 Timothy Keller.

Arabic Edition Copyright © 2016 by **Ophir Printers & Publishers**.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الصلاة

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٦م
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٦/٥/٢٤٣٤
ISBN 978-90-5950-246-8

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إهداء

إلى دِك كوفمان (Dick Kaufmann)

الصديق ورجل الصلاة

قائمة المحتويات

مقدِّمة ٩

الجزء الأوَّل: التَّوقُ إلى الصلاة

الفصل ١: ضرورة الصلاة ١٧

الفصل ٢: عَظَمةُ الصلاة ٢٧

الجزء الثاني: فهمُ الصلاة

الفصل ٣: ما معنى الصلاة؟ ٤٣

الفصل ٤: الحوارُ مع الله ٥٩

الفصل ٥: اللقاء مع الله ٧٥

الجزءُ الثالث: تعلُّم الصلاة

الفصل ٦: رسائلُ عن الصلاة ٩٣

الفصل ٧: قواعدُ الصلاة ١٠٧

الفصل ٨: صلاةُ الصلوات ١١٩

الفصل ٩: الصلاةُ على المحكّ ١٣١

الجزءُ الرابع: تعميقُ الصلاة

الفصل ١٠: التأمُّل في كلمة الله بوصفه حوارًا ١٥٥

الفصل ١١: لقاء: طلبُ وجهه ١٧٥

الجزءُ الخامس: ممارسةُ الصلاة

الفصل ١٢: الرهبة: مدحُ مجده ١٩٧

الفصل ١٣: الحميميَّة: الحصول على نعمته ٢١٥

الفصل ١٤: الصراع: طلبُ معونته ٢٣٣

الفصل ١٥: الممارسة: الصلاة اليوميَّة ٢٥١

تذييل: بعضٌ من أنماط الصلوات اليوميَّة ٢٧٥

شكرٌ وعرفان ٢٧٩

حواشٍ مختارةٌ عن الصلاة مع شرحها ٢٨١

ملاحظات ٢٨٩

مقدّمة

لماذا كتاب عن الصلاة؟

منذ بضع سنوات، لاحظتُ أنّه لم يكن عندي كتابٌ أوّليٌّ أقدّمه، بوصفي راعيَ كنيسة، إلى مَن يرغب في فَهم الصلاة المسيحيَّة وممارستها. لا يعني هذا أنّه ليست هناك كتبٌ جيّدة عن الصلاة، بل هناك أعمالٌ أقدَمُ وأكثرُ حكمةً بما لا يُقاس، بل هي أيضًا أكثر اختراقًا من أيّ شيء يمكنني أن أؤلّفه الآن. إنّ أفضل ما كُتِبَ عن الصلاة قد كُتِبَ بالفعل. لكنّ الكثير من هذه المؤلّفات الممتازة كُتِب بلُغةٍ وتعبيرات موغلةٍ في القِدَم لا يستطيع أغلب القرّاء المعاصرين فهمَها. فضلًا عن ذلك، تميلُ هذه الأعمال لأن تكونَ لاهوتيَّةً أو تَعبُّديّة أو عمليَّة، لكنّها نادرًا ما تجمع بين التوجُّهات اللاهوتيّة والاختباريَّة والمنهجيَّة معًا بين دفّتَي غلافٍ واحد.[1]

أمّا الكتاب الذي يتناول أساسيّات الصلاة، فينبغي أن يتناول هذه التوجُّهات الثلاثة. أيضًا، فإنّ كلّ الكلاسيكيّات المكتوبة عن الصلاة تقريبًا تصرفُ وقتًا طويلًا نسبيًّا لتحذير قُرّائها من الممارسات غير المفيدة، أو ربّما الضارّة روحيًّا التي كانت شائعة في أيّام كتابة هذه الأعمال. وينبغي تحديث مثل هذه التحذيرات لتُخاطِبَ القرّاء المعاصرين.

نوعان من الصلاة؟

يميل الكتّاب المعاصرون الذين يكتبون عن الصلاة أن يتبنّوا منظورًا أو منظورَين عن الموضوع. ويؤكّد غالبيّتهم أنّ الصلاة هي طريقةٌ لاختبار محبّة الله والاتّحاد به،

ويَعِدون المصلِّين بحياةٍ من السلام والراحة في الله. وهكذا يقدِّم مثل هؤلاء الكتَّاب شهاداتٍ برَّاقةً لأشخاص اختبروا بصورةٍ متواترة مشاعرَ من الحضور الإلهيّ. بينما ترى كتبٌ أخرى، أنَّ جوهرَ الصلاة ليس في كونها اختبارًا للراحة الداخليَّة، بل في أنَّها دعوة لله لكي يأتيَ بملكوته إلى الأرض. وهكذا يُنظَر إلى الصلاة حاسبين إيَّاها مصارعةً مع الله، وعادة ما تكون بلا شعورٍ مباشرٍ بالحضور الإلهيّ. وأحد هذه الكتب مثلاً هو كتاب "**الساعة الهادئة**"[٢] *(The Still Hour)* للمؤلِّف أوستن فيلبس (Austin Phelps)، والذي يبدأ بفرضيَّة أنَّ الشعور بغياب الله هو الأمر المعتاد للمصلِّي المؤمن بالمسيح، وأنَّ اختبارَ حضور الله هو أمرٌ يصعب تحقيقه لدى أغلب الناس.

كتابٌ آخر يتبنَّى التوجُّه نفسَه هو كتاب دونالد جي. بلويش (Donald G. Bloesch) بعنوان "**الصراع في الصلاة**" *(The Struggle of Prayer)*.[٣] وينتقدُ هذا الكتاب ما يُسمِّيه التصَوُّف المسيحيّ (Christian Mysticism)، وهو يقاوم التعليم القائل إنَّ الهدف النهائيَّ للصلاة هو الشركة الشخصيَّة مع الله، ويعتقد أنَّ مثل هذا التعليم يجعل من الصلاة أمرًا أنانيًا؛ لأنَّ الصلاة تكون عندئذٍ "هدفًا في حدِّ ذاتها".[٤] ولوجهة النظر هذه، ليسَتِ الصلاةُ تأمُّلًا هادئًا، بل هي تضرُّعٌ محمومٌ من أجل ملكوت الله ليأتيَ ويثمر في هذا العالم وفي حياتنا. وهكذا يكون الهدف النهائيُّ للصلاة هو "طاعة مشيئة الله، وليس التأمُّل في شخصه".[٥] ولا تكون الصلاةُ عندئذٍ حالةً داخليَّة، بل توافقًا مع مقاصد الله.

كيف يمكن أن نفسِّر هذين الرأيين- اللذين يمكن أن نسمِّيَهما "الصلاة المتمحورة حول الشركة مع الله" و"الصلاة المتمحورة حول التوافق مع الملكوت"؟ من التفسيرات التي يمكن تقديمها هو أنَّ هذين الموقفَين يعكسان الخبرات الفعليَّة لأصحابهما. يكتشف بعض الاشخاص أنَّ مشاعرهم لا تتجاوب مع الله، وربَّما يجدون صعوبة شديدة في الاحتفاظ بانتباههم في أثناء الصلاة لأطول من دقائق قليلة، بينما يختبر آخرون شعورًا بحضور الله. لعلَّ هذا يشرح، على الأقلِّ جزئيًّا،

هذا الاختلاف في وجهات النظر. وتلعبُ الاختلافات اللاهوتيَّة أيضًا دورًا في الأمر. فيرى بلويش مثلًا أنَّ صلاة التنسُّك هذه تتَّفق أكثر مع المنظور الكاثوليكيِّ الذي يرى أنَّ نعمة الله تتدفَّق إلى الإنسان مباشرة بالمعموديَّة والقدَّاس، بينما يرى البروتستانتيُّون أنَّنا نخلصُ بالإيمان بكلمة الله وبوعد الإنجيل.[٦]

أيُّ المنظورين إلى الصلاة هو الأفضل؟ ما الشكل الأمثل للصلاة: العبادة الهادئة أم صراع الطلب والتضرُّع؟ ويفترضُ هذا السؤال في حدِّ ذاته أنَّ الإجابة هي واحدة من الاثنين، وهذا ليس من المرجَّح.

الشركة والملكوت

لكي نجيبَ عن هذا السؤال، ينبغي أن نذهب أوَّلًا إلى المزامير، سفر الصلاة الموحى به في الكتاب المقدَّس، وهناك سنرى أنَّ كلا النوعَين ممثَّلان فيه. فمزاميرُ مثل ٢٧ و٦٣ و٨٤ و١٣١، فضلًا عن مزامير التسبيح الطويلة من ١٤٦ إلى ١٥٠- هي كلُّها مزاميرُ تُصوِّر العبادة والشركة مع الله. ففي مزمور ٢٧: ٤ يقول داود إنَّ أوَّل ما يطلبه من الربِّ هو أن "ينظر إلى جمال الرَّبِّ". ومع أنَّ داوُد كان يصلِّي من أجل أمورٍ أخرى، فإنَّه يقصد بهذه الكلمات أنْ ليس عنده ما هو أفضل من محضر الله. لذلك يقول: "يا الله، إلهي أنتَ. إليكَ أُبكِّر. عَطِشَت إلَيكَ نَفسي، يَشتاقُ إليكَ جَسَدي في أرضٍ نَاشِفةٍ ويابِسةٍ بلل ماءٍ، لكي أُبصِرَ قوَّتكَ ومَجدَكَ. كما قد رأيتُك في قُدسِكَ (مزمور ٦٣: ١-٣). وعندما يدخلُ في محضر الله ويعبده، يقول إنَّ نفسَه تشبع، كما من شحمٍ ودَسَم (مزمور ٦٣: ٥). هذا بالفعل هو الشركة مع الله.

لكنَّنا نجد أيضًا مزامير الشكوى، أو طلب المعونة، والطلب إلى الله أن يمارس سلطانَه في العالم. وهناك مزامير تعبِّر عن الشعور بغياب الله. وهنا نرى الصلاة صراعًا أكثر من كونها شركة وتواصلًا. فالمزامير ١٠ و١٣ و٣٩ و٤٢ و٤٣ و٨٨، ليست سوى أمثلة قليلة لمثل هذه المزامير. مثلًا يبدأ المزمور ١٠ بسؤال الله عن

السبب الذي يجعله يقف بعيدًا و"يختفي" في أزمنة الضيق. ثمَّ فجأةً يصرخُ كاتب المزمور: "قُم يا ربُّ. يا الله ارفَعْ يَدَك. لا تَنسَ المساكين" (مزمور ١٠: ١٢). لكنْ عندئذٍ يبدو كأنَّه يكلِّم نفسَه أيضًا مذكِّرًا إيَّاها بالقول: "قد رأيتَ. لأنَّك تُبصِرُ المشقَّةَ والغَمَّ لتُجازيَ بيدِكَ. إليكَ يُسلِّمُ المسكين أمره. أنتَ صِرتَ مُعينَ اليَتيم" (مزمور ١٠: ١٤). وتُختتَم الصلاة بكاتب المزمور وهو يخضع لتوقيتات الله وحكمته في كلِّ الأمور، لكنَّه لا يزال بقوَّة يطالب بالعدل في الأرض. وهذه مباراة المصارعة التي تتميَّز بها الصلاة المتمحورة حول الملكوت. وهكذا فإنَّنا نجد أنَّ المزامير تُبرزُ كلا النوعَين: الصلاة التي ترغب في الشركة مع الله، وتلك التي تتشفَّع وتتضرَّع من أجل ملكوت الله.

علاوة على فحص الصلوات الفعليَّة التي في الكتاب المقدَّس، يمكننا أيضًا أن نفحصَ لاهوتَ الصلاة كما يردُ في الكتاب المقدَّس. ما الأسباب التي في الله وفي طبيعتنا المخلوقة التي تجعل البشر قادرين على الصلاة؟ يخبرنا الكتاب المقدَّس بأنَّ يسوع المسيح يقف شفيعًا ووسيطًا بيننا وبين الله، حتَّى نتمكَّن نحن غير المستحقِّين أن نتقدَّم بجرأة إلى عرش الله ونطالبَ بتسديد احتياجاتنا (عبرانيِّين ٤: ١٤-١٦، ٧: ٢٥). ويقول لنا الكتاب المقدَّس أيضًا إنَّ الله يسكن فينا بروحه (رومية ٨: ٩- ١١)، ويعيننا ونحن نصلِّي (رومية ٨: ٢٦- ٢٧) حتَّى يمكننا بالإيمان أن ننظرَ ونتأمَّل مجدَ المسيح (٢كورنثوس ٣: ١٧- ١٨). وهكذا فإنَّ الكتاب المقدَّس يقدِّم إلينا تعضيدًا لاهوتيًّا لكلٍّ من الصلاة المتمحورة حول الشركة وتلك المتمحورة حول الملكوت.

وبقليل من التأمُّل، يسعُنا أن نُدرك أنَّ هذين النوعَين من الصلاة ليسا متضادَّين، ولا هما نوعَين منفصلَين من الصلاة. إنَّ عبادتنا وإكرامنا لله حافلان أيضًا بالتضرُّع. وعندما نتعبَّد لله فإنَّنا نطالبه بأن "يتقدَّس اسمه" ونسأله أن يُظهر للعالم مجده حتَّى يُكرمَه الجميع بصفته الإله الوحيد. لكنْ كما أنَّ العبادة تتضمَّن

التضرُّع، فإنَّ التضرُّع من أجل ملكوت الله ينبغي أن تتخلَّله أيضًا الصلاة من أجل معرفة الله نفسه. يخبرنا مختصر قانون الإيمان الوستمنسري أنَّ القصدَ من الحياة الإنسانيَّة هو أن "نمجِّدَ الله ونستمتع معه إلى الأبد". وتعكس هذه العبارة المشهورة كلا النوعين من الصلاة؛ فهذان الأمران- تمجيد الله والاستمتاع معه- لا يوجدان معًا دائمًا في الحياة، لكنَّهما ينبغي في النهاية أن يكونا أمرًا واحدًا. يمكننا أن نصلِّي أن يأتي ملكوت الله، لكنَّنا إن كنَّا لا نستمتع بحضور الله وسيادته بكلِّ قلوبنا، فإنَّنا لا نُكرمه عندئذٍ بما يليقُ بوصفه ربًّا.[٧]

أخيرًا، فإنَّنا عندما ننظرُ إلى أعظم ما كتبَه العظماء عن الصلاة- مثل القدِّيس أغسطينوس ومارتن لوثر وجون كالفن- فلن يسعَنا أن نصنِّفَهم ونحسبَ أنَّهم يقعون حصريًّا في هذا المعسكر أو ذاك.[٨] حتَّى إنَّنا نجد أنَّ اللاهوتيَّ الكاثوليكيَّ البارز هانس أورس ڤون بلثاصَر (Hans Urs von Balthasar) قد حاول أن يُحدِثَ بعض الاتِّزان في تقليد التنسُّك التأمُّليِّ في الصلاة. إنَّه يُحذِّر من الاتِّجاه إلى الداخل أكثر من اللازم. "لا يمكن أن تكونَ الصلاة التأمُّليَّة، ولا يجب أن تكونَ، تأمُّلًا في النفس، بل يجب أن تكونَ تطلُّعًا واستماعًا بإجلالٍ لا إلى نفسي، بل إلى كلمة الله".[٩]

من الواجب إلى الاستمتاع

إلى ماذا يقودنا هذا التفكير إذًا؟ لا ينبغي أن نضعَ هوَّة ما بين طلب الشركة الشخصيَّة مع الله، وطلب امتداد ملكوت الله في قلوب البشر وفي العالم. وإذا استَطَعْنا الحفاظَ على نَوعي الصلاة هذين معًا، فإنَّ الشركة عندئذٍ لا تكون من جهة مجرَّد وعيٍ صوفيٍّ بالحضور بلا كلمات، ولا تتحوَّل الصلاةُ من جهة أخرى إلى محاولة "لترديد الكلام" (متَّى ٦: ٧) لشراء نعمة الله.

سيكشفُ لنا هذا الكتاب أنَّ الصلاة تشتمل على الأمرَين معًا: الحوار اللطيف مع الله، والمواجهة القويَّة معه أيضًا. ويقدِّمُ إلينا هذان المفهومان تعريفًا

للصلاة، كما يقدِّمان أيضًا مجموعةً من الأدوات لتعميق حياة الصلاة لدينا. إنَّ الأشكال التقليديَّة للصلاة- العبادة والاعتراف والشكر والتضرُّع- هي ممارسات ملموسة ومحدَّدة، وهي أيضًا خبرات شخصيَّة عميقة. وينبغي لنا أن نعرفَ رهبةَ تسبيح مجد الله العظيم، وحميميَّة استقبال نعمته، وصراع طلب معونته، وتقودُنا هذه كلُّها لأن ندركَ الواقع الروحيَّ لحضوره. فالصلاة إذًا هي الرهبة والحميميَّة معًا. الصراع من أجل المستقبل وقبول الواقع معًا. وبكلِّ تأكيد، لن تحدُثَ كلُّ هذه الأمور معًا في كلِّ مرَّة نصلِّي فيها، لكنَّها ينبغي أن توجَدَ في مسار حياة الصلاة على امتداد العمر.

لعلَّ العنوان الفرعيَّ لكتاب جاي. آي. پاكر (J. I. Packer) وكارولين نِسترُوم (Carolyn Nystrom) عن الصلاة يلخِّص كلَّ هذا بصورةٍ لطيفة؛ فالصلاة تعينُنا أن "نجد طريقنا من الضرورات إلى المسرَّات". هذه هي مسيرة الصلاة.

الجزء الأوَّل

التَوقُ إلى الصلاة

الفصل ١

ضرورة الصلاة

"لن نصمدَ بغير ذلك!"

اكتشفتُ الصلاة في النصف الثاني من حياتي في مرحلة الرُّشد، وكُنت مُضطرًّا إلى ذلك.

في خريف عام ١٩٩٩م، درَّستُ منهجًا كتابيًّا عن سفر المزامير. وصار واضحًا عندي أنِّي بالكاد خدشتُ السطح في ما يخصُّ وصايا الكتاب المقدَّس ووعوده المتعلِّقة بالصلاة. ثمَّ أتت الأسابيع المُظلمة في نيويورك بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، عندما غرقت مدينتنا في ما يمكن أن نسمِّيه اكتئابًا إكلينيكيًّا عامًّا، حتَّى والمدينة كلُّها محتشدة لمواجهة هذا المصاب الجَلَل. وقد كان تأثير الأحداث مُضاعَفًا في أسرتي، حيث كانت زوجتي كاثي (Cathy) تصارع مع تأثيرات مرض كرون (Chron's Disease)، وأخيرًا، شُخِّصتْ إصابتي بسرطان الغدَّة الدرقيَّة.

في ذلك الوقت، حثَّتني زوجتي أن أفعل معها أمرًا لم نستطع قَطُّ أن نواظبَ على فعله معًا: أن نصلِّي معًا بانتظام. طلبتْ منِّي أن أصلِّيَ معها كلَّ ليلة- كلَّ ليلة. واستخدمَتْ عندئذٍ تشبيهًا بلْوَرَ مشاعرها جيِّدًا. وبحسب ما أتذكَّر كان ما قالته:

> "تخيَّل أنَّك أُصِبتَ بهذه الحالة المميتة وقال لك الأطبَّاء إنَّك ستموت في غضون ساعات إلَّا إذا تناولتَ دواءً معيَّنًا- حبَّة كلَّ

ليلة قبل أن تُخلدَ إلى النوم. تخيَّل أنّه قيل لك إنَّك إذا فوّتَّ ليلةً واحدةً ستموت على الفور. هل ستنسى؟ هل ستراوغ لتتهرَّب في بعض الليالي؟ لا- سيكون مهمًّا جدًّا ألَّا تنسى. حسنًا، إذا لم نصلِّ معًا لله، لن نستطيع أن نصمدَ وسط كلِّ ما نواجهه. على الأقلِّ أنا. لن أستطيع أن أصمد. علينا أن نصلِّي. ليس أمامنا سوى أن نفعل ذلك".

ربَّما كان الأمر مرتبطًا بقوَّة التشبيه، أو بالتوقيت، أو ربَّما كان ذلك روح الله. أو في الأغلب، كان الروح القدس هو الذي يستخدم التوقيت ويُلهمُها ذلك التشبيه الواضح. الأكيد هو أنَّ الأمر صار محسومًا؛ إذ أدركنا مدى خطورة الأمر، واعترفنا أنَّ ما يُعدُّ ضرورةً غير قابلة للنقاش هو أمر نستطيع أن نفعله. كان هذا منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، ولا نستطيع، كاثي وأنا أن نتذكَّر أنَّنا فوَّتنا أمسية واحدة لم نصلِّ فيها معًا، وإن كان ذلك عبر التليفون، حتَّى وإن كنَّا على جانبَي الكرة الأرضيَّة.

كان التحدِّي القويُّ الذي قدَّمته كاثي، مع اقتناعي المتنامي أنِّي لم أفهم الصلاة جيِّدًا، هما الدافعان اللذان حفَّزاني لأبدأ في البحث. كنتُ أريد أن أصل إلى حياة صلاة شخصيَّة أفضل بكثير. فبدأت أقرأ بتوسُّع، وأمارس الكثير من التجريب في الصلاة. وكلَّما نظرت من حولي، أدركتُ سريعًا أنِّي لست وحدي.

"هل يمكن أن يعلِّمني أحدٌ كيف أصلِّي؟"

عندما كانت فلانري أوكونور (Flannery O'Connor) الكاتبة الجنوبيَّة المشهورة، في سنِّ الحادية والعشرين وتدرس الكتابة في أيوا، سعَتْ لأن تُعمِّق حياة الصلاة. وكان عليها أن تفعلَ ذلك.

في عام ١٩٤٦م، بدأت تحتفظ بيوميَّات صلاة مكتوبة بخطِّ اليد. وفيها كانت تصفُ صراعاتها لتصيرَ كاتبة عظيمة. "أريد بشدَّة أن أنجحَ في عالم الكتابة. أشعر

بالإحباط الشديد من عملي... «متوسِّط القيمة»- هذا تقييم يصعب أن أصف به نفسي...لكنَّ من المستحيل ألَّا أصف نفسي به...لا يوجد فيَّ ما أفتخر به؛ أنا غبيَّة، كغَباء هؤلاء الذين أسخر بهم". يمكن أن تجدَ مثل هذه الاعترافات في يوميَّات أيِّ فنان يتطلَّع إلى الأفضل، لكنَّ أوكونور فعلتْ أمرًا مختلفًا بهذه المشاعر. لقد كانت تُصلِّي بها. وهي هنا طَرَقت دربًا قديمًا جدًّا، طَرقه من قبلها ناظمو المزامير، الذين ليس فقط تعرَّفوا مشاعرهم وعبَّروا عنها، بل تعاملوا أيضًا مع هذه المشاعر بأمانة شديدة في محضر الله. كتبت أوكونور:

> "أنا مهتمَّةٌ بجهودي في فنِّ الكتابة أكثر من التفكير فيك والشعور بالإلهام بالمحبَّة التي كنتُ أتمنَّى أن تكون لديَّ من نحوك. إلهي العزيز، لا أستطيع أن أحبَّك كما أتمنَّى ذلك. إنَّك هلال القمر الرفيع الذي يُضيء ظلمةَ السماء، وذاتي هي ظلُّ الأرض الذي يحجب عنِّي القمر المُنير...إنَّ ما أخاف منه يا إلهي الحبيب، هو أن ينموَ ظلُّ ذاتي فيُغطِّيَ تمامًا القمر الكامل، وعندئذٍ أحكُمُ على نفسي بالظلِّ (وهو لا شيء) بدلَ النُّور (وهو كلُّ شيء). أنا لا أعرفك يا ربّ؛ لأنِّي أنا مَن يقفُ في طريق هذه المعرفة".[١]

هنا أدركت أوكونور ما كان قد رآه القدِّيس أغسطينوس بوضوح وسجَّله في مُذكِّرات صلاته، "**الاعترافات**" *(Confessions)*: أنَّ الحياة السليمة تعتمد دائمًا على إدراكنا وتسجيلنا لحقيقة ما نحبّ. أن نُحبَّ نجاحَنا أكثر من الله ومن القريب يُقسِّي قلوبنا، ويجعلنا أقلَّ قدرةً على الإحساس والإدراك. وهذا يجعلنا فنَّانين أردأ. ولأنَّ أوكونور كانت كاتبة تمتاز بمواهب استثنائيَّة؛ وكان يمكن جدًّا أن تصير متعالية ومحصورة في ذاتها، كان رجاؤها الوحيد هو الصلاة التي تساعدها دائمًا على تصحيح توجُّه قلبها. "يا ربّ، أرجوك اجعل عقلي صافيًا ونظيفًا...ساعِدْني أن أدخلَ عُمقَ الأمور وأكتشفَ أين تكون".[٢]

وكانت تتأمَّل في الانضباط الذي ألزمَتْ نفسَها به: أن تكتبَ صلواتها في هذه المذكِّرات. وأدركت أنَّ هناك مشكلة في الشكل. "لقد قرَّرت أنَّ هذا ليس وسطًا مباشرًا للصلاة. إنَّ الصلاة أكثر تلقائيَّة من الكتابة- إنَّها صرخةُ قلبٍ لحظيَّة وهذه الكتابة بطيئة جدًّا الآن".[٣] ثمَّ بدأ يعتريها القلق ألَّا يكونَ ما تكتبه بالفعل صلوات، بل مجرَّد تنفيس عن مشاعرها. "أريد لهذا أن يكون...أمرًا أعبد به الربّ. ربَّما يكون هذا الذي أكتبه مجرَّد علاج نفسيٍّ ذاتيّ...لأنَّ أغلب أفكاري تدور حول نفسي".[٤]

لكنَّها مع هذه المذكِّرات كانت تعتقد: "لقد بدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ من حياتي الروحيَّة...التخلُّص من بعض عادات المراهقة، وعادات التفكير القديمة. لا يحتاج الأمر إلى الكثير من التأمُّل ليُدرك كم نحن حمقى، لكنَّ هذا التأمُّل البسيط كثيرًا ما يتأخَّر في الوصول إلى أذهاننا. أنا أرى كيف أنَّ نفسي مثيرةٌ للسُّخرية إلى حدٍّ بعيد".[٥] لقد تعلَّمتْ أوكونور أنَّ الصلاة ليست مجرَّد ذلك الاستكشاف الشخصيِّ للذَّات. ففي الصلاة تكون في حضورِ آخرَ، وهو شخصٌ فريدٌ جدًّا. الله هو الشخص الوحيد الذي لا تستطيع أن تخفيَ عليه شيئًا. ولا تستطيعُ أمامه أن تتجنَّب أن ترى نفسك في ضَوءٍ جديدٍ وفريد. فالصلاة إذًا تقودُ إلى معرفة النفس بصورةٍ لا يمكن الحصول عليها بأيِّ شيءٍ آخر.

لقد كان من أبرز ما يميِّز مذكِّرات أوكونور أنَّها كانت تعكسُ تَوقًا بسيطًا لتعلُّم الصلاة الحقيقيَّة. لقد وصلَتْ بحدسها المباشر أنَّ الصلاةَ هي مفتاح كلِّ شيء آخر كانت تحتاجُ لأن تفعلَه وأن تكونَه في هذه الحياة. لم تكنْ راضية بالطقوس الدينيَّة القديمة البسيطة التي كانت تمارس آليًّا. "لا أقصد أن أنكرَ الصلوات التقليديَّة التي كنتُ أردِّدها طَوالَ حياتي، لكنِّي كنتُ أردِّدُ هذه الصلوات دون أن أشعرَ بها. كثيرًا ما يتشتَّت انتباهي ويهيم. أمَّا بهذه الطريقة فأستطيع أن أركِّز انتباهي في كلِّ لحظة. أستطيع أن أشعرَ بدفء الحبِّ ينبضُ داخلي، بينما أفكِّر وأكتب هذه الكلمات إليك يا ربّ. من فضلك لا تجعل تفسيرات اختصاصيِّي

علم النفس تحوِّل هذه الخواطر بغتةً إلى كلمات باردة تتمحور حول نفسي".[٦]

في نهاية إحدى فِقرات مذكِّراتها، نادت ببساطةٍ قائلة: "هل يمكن أن يعلِّمني أحدٌ كيف أصلِّي؟"[٧] إنَّ ملايين البشر يطرحون اليوم السؤال نفسه. إنَّ هناك شعورًا بالاحتياج إلى الصلاة- ينبغي أن نصلِّي. لكن كيف؟

مشهد مُحيِّر

هناك اهتمامٌ متنامٍ في المجتمع الغربيِّ بالروحانيَّة والتأمُّل والصلاة. وقد بدأ هذا الاهتمام منذ نحو جيلٍ مضى، ربَّما كان مدفوعًا باهتمام إحدى الفرق الموسيقيَّة الشهيرة جدًّا في ذلك الوقت "البيتلز" (The Beatles) بالأشكال الشرقيَّة من التأمُّل، وقد تزامن ذلك مع تَناقُصِ تأثير المؤسَّسات الدينيَّة. كان عدد الذين يمارسون الطقوس الدينيَّة دوريًّا يتناقص بشدَّة، إلَّا أنَّ نوعًا من الاشتياق الروحيِّ ظلَّ موجودًا. واليوم نجد أنَّ ذهاب الغربيِّين سنويًّا إلى الهند لتمضية خلوات روحيَّة من التأمُّل الشرقيِّ هو أمرٌ معتاد جدًّا.[٨] ومؤخَّرًا غرَّدَ روبرت مردوخ (Rupert Murdoch) أنَّه كان يدرس التأمُّل المتسامي، فقال: "الكلُّ ينصحون به"، وأضاف: "ليست البداية سهلة، لكنَّهم يقولون إنَّهُ يُحسِّن من كلِّ شيء في حياتك".[٩]

وفي داخل الكنيسة أيضًا، ظهرَ ما يشبه الانفجار في الاهتمام بالصلاة. وهناك حركة قويَّةٌ في اتِّجاه أساليب الصلاة والتأمُّل وممارساتها. والآن لدينا إمبراطوريَّة صغيرة من المعاهد والمؤسَّسات والهيئات والشبكات والممارسين الذين يعلِّمون أساليب الصلاة ويدرِّبون عليها مثل الصلاة المركَّزة، والصلاة التأمُّليَّة، وصلاة "الإصغاء"، والقراءات الروحيَّة (Lectio divina)، وغيرها الكثير ممَّا يُدعى الآن "التدريبات الروحيَّة".[١٠]

لكنْ لا يسعُنا أن نحسبَ كلَّ هذا الاهتمام مجرَّد "موجة" مترابطة، بل هو مجموعةٌ من التيَّارات المتداخِلة التي تجعلُ المياه مضطربةً وخَطِرة للكثير من

الباحثين والمتسائلين. لقد كان هناك دائمًا الكثير من الانتقادات والمراجعات موجودة ضدَّ هذا التأكيد الجديد على مثل هذه الروحانيَّة التأمُّليَّة، في الكنيستَين الكاثوليكيَّة والپروتستانتيَّة على حدٍّ سواء.[١١]

وعندما بدأت أبحث عن مصادر لمساعدتي في حياة الصلاة الخاصَّة بي وبآخرين، فهمتُ كيف أنَّ المشهد مُحيِّر.

نُسكٌ عقلانيّ

كان طريق التقدُّم نحو الأمام لي هو العودة إلى جذوري الروحيَّة اللاهوتيَّة. في أثناء رعويَّتي الأولى في ڤيرجينيا، ثمَّ بعد ذلك في نيويورك، خُضتُ خبرةَ أن أعظ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية. في منتصف الأصحاح الثامن من هذه الرسالة يكتب الرسول:

> "إذ لم تأخُذوا روح العُبوديَّة أيضًا للخَوف، بل أخذتُم روحَ التبنِّي الذي به نصرُخُ: «يا أبا الآبُ». الرُّوحُ نفسُه أيضًا يشهدُ لأرواحنا أنَّنا أولادُ الله. فإنْ كنَّا أولادًا فإنَّنا ورثةٌ أيضًا، ورثةُ الله ووارثون مع المسيح. إنْ كنَّا نتألَّمُ معه لكي نتمجَّد أيضًا معه" (رومية ٨: ١٥-١٦).

إنَّ روح الله هو الذي يؤكِّد لنا محبَّته. أوَّلًا يُمكِّننا الروح أن نقترب ونصرخ إلى الله العظيم بوصفه أبانا، كما أنَّه (أي الروح القدس) يساند أرواحنا ويقدِّم إلينا في أعماقنا شهادةً أقربَ وأكثر مباشَرة. أوَّل مرَّةٍ أتَقابل مع هذه الآيات كانت بقراءتي لعِظاتِ الدكتور مارتن لويد جونز (Martyn Lloyd-Jones)، وهو واعظٌ وكاتبٌ بريطانيٌّ من منتصف القرن العشرين. كان جونز يقترح أنَّ بولس كان يكتب من منطلق خبرةٍ عميقةٍ عن حقيقة الله في حياته.[١٢] في الواقع، وجدتُ أنَّ أغلبَ المفسِّرين المعاصرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الأعداد تصف، كما يكتب أحد دارسي

العهد الجديد، "اختبارًا دينيًّا لا تصفُه كلمات". ذلك لأنَّ الاطمئنان إلى محبَّة الله هو أمرٌ "صوفيٌّ تنسُّكيّ، علي أفضل ما تدُلُّ الكلمة". ويضيف توماس شراينر (Thomas Schreiner) أنَّنا يجب "ألَّا نُقَلِّل من التركيز على الخلفيَّة الوجدانيَّة" لهذا الاختبار. "يميل بعض الناس إلى تجاهُل هذه الفكرة بسبب ذاتيَّتها، غير أنَّ إساءة استخدام كلِّ ما هو ذاتيٌّ في بعض الدوائر لا يُسوِّغ استبعاد الأبعاد الوجدانيَّة من الاختبار المسيحيّ".[١٣]

كما قادني تفسيرُ لويد جونز أيضًا إلى كتَّاب كنتُ قد قرأتُ لهم في كلِّيَّة اللاهوت، مثل مارتن لوثر وجون كالڤن وجون أوين (John Owen)، والفيلسوف واللاهوتيِّ الأميركيِّ من القرن الثامن عشر جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards)، وهناك اكتشفتُ أنَّه لا يوجد اختيار ما بين الروح والحقّ، أو بين العقيدة والاختبار. وأحد أهمِّ اللاهوتيِّين الأقدمين- جون أوين- كان مفيدًا لي بصورةٍ خاصَّة في هذه النقطة. ففي عِظة عن الإنجيل، ركَّز أوين على وضع الأساس العقائديِّ للخلاص المسيحيّ. ثمَّ كان يُشجِّع سامعيه قائلًا: "يجب أن تنالوا اختبار قوَّة الإنجيل...في قلوبكم، وإلَّا فإنَّ اعترافكم العقليَّ بحقِّ الإنجيل سيفقدُ صلاحيَّته بعد حين".[١٤] ولا يمكنُ أن يَحدثَ الاختبارُ القلبيُّ لقوَّة الإنجيل سوى بالصَّلاة- سواءُ الصلاة العلنيَّة وسط جماعة المؤمنين أم الصلاة التأمُّليَّة الشخصيَّة.

وفي سعيي الشخصيِّ إلى حياةِ صلاةٍ أعمقَ، اخترتُ الطريق غير المطروق. فبشكلٍ مقصود تجنَّبت قراءة أيِّ كتب حديثة عن الصلاة. على العكس، عُدتُ إلى الخلف إلى النصوص التاريخيَّة للَّاهوت المسيحيِّ التي شَكَّلتني، وبدأتُ أطرحُ أسئلةً عن الصلاة واختبار الله- أسئلةً لم تدُر في ذهني بهذه الدرجة من الوضوح عندما كنتُ أدرس هذه الكُتُب في كلِّيَّة اللَّاهوت مُنذ عدَّة عقود. واكتشفت الكثير من الأشياء كانت قد فاتتني تمامًا. وجدتُ إرشادًا عن حياة الصلاة الداخليَّة، وحملَني هذا الإرشاد بعيدًا عن التيَّارات الخَطِرة للجدل المُعاصر حول الروحانيَّة

وحركاتها المختلفة. ومن الذين استَشَرتُهم، اللاهوتيُّ الاسكتلنديُّ أندرو موراي (Andrew Murray)، وقد أمدَّني بأحد أهمِّ التبصُّرات على الإطلاق:

> من الضروريِّ لنا أن نُدرك أنَّ هناك "نُسكًا عقلانيًّا" في حياة الإيمان...للحياة في وحدة حيَّة، وشركة مستمرَّة مع الفادي المُمجَّد الحاضر معنا كلَّ حين...إنَّه يتواصل مع شعبه، وشعبه يتواصل معه في علاقة من المحبَّة الواعية الجادَّة المتبادَلة...لا يمكن أن تكونَ حياة الإيمان الحقيقيِّ حياةً باردةً كالمعدِن. يجب أن تحتوي على الدفء العاطفيِّ والحرارة الوجدانيَّة؛ لأنَّ التواصل مع الله هو تاج الإيمان الحقيقيِّ وقِمَّته الشامخة. [١٥]

لم يكن موراي من الكتَّاب الذين يميلون إلى جمال الأسلوب الأدبيّ، لكنَّه عندما يتكلَّم عن "النُّسك" و"التواصل" مع ذلك الذي مات وقام وهو حيٌّ إلى الأبد من أجلنا، فيفترض أنَّه ستكونُ للمسيحيِّين علاقةُ حبٍّ ملموسةٌ به، وستكون لهم إمكانيَّة المعرفة الشخصيَّة والاختبار الحيِّ لله على نحو يفوق التصوُّر. وهو دون شكٍّ يقصد الصلاة- لكنْ أيَّ صلاة يقصد؟ وسط الفقرة، يقتبس موراي من رسالة بطرس الرسول الأولى: "وإنْ كنتُم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به، فتبتَهِجون بفَرحٍ لا يُنطَقُ به ومجيد". يترجم بعض الأشخاص العبارة الأخيرة هكذا: "فرح مُمجَّدٍ مجدًا يفوق الكلمات". [١٦]

وعندما تأمَّلت في هذه الآية، تعجَّبت من أنَّ بطرسَ الرسول، وهو يكتب للكنيسة، يستطيع أن يخاطب كلَّ المؤمنين بهذه الطريقة. لم يقل مثلًا: "حسنًا، بعضٌ منكم ممَّن لهم روحانيَّة متقدِّمة سيبدأون في اختبار أوقاتٍ من الفرح الشديد في الصلاة. أتمنَّى أنَّ الباقين يستطيعون الاشتراك في ذلك أيضًا بمرور الوقت". لا! لقد افترض أنَّ اختبارَ الفرح في الصلاة، الذي يكون أحيانًا غامرًا، كان أمرًا اعتياديًّا. لقد اقتنعت.

وكان لعبارة أخرى ممَّا كتبه موراي صدًى عندي بصورةٍ خاصَّة. إنَّها عبارة "النُّسك العقلانيّ" (Intelligent Mysticism)، وهذا يعني لقاءً مع الله يتضمَّن ليس فقط عواطف القلب، بل أيضًا قناعات العقل. إنَّنا لسنا مدعوِّين لأن نختارَ ما بين حياة مسيحيَّة مبنيَّة على الحقِّ والعقيدة، وحياة من القوَّة الروحيَّة والخبرات الفائقة. فهما يمكن أن يكونا معًا، بل لا بدَّ أن يكونا معًا. أنا لم أُدعَ لأتركَ ورائي اللاهوت لأبحثَ عن أمرٍ آخر- عن اختبار روحيّ، بل أنا مدعوٌّ لأسألَ الروح القدس أن يساعدَني على اختبار اللاهوت الذي أومن به اختبارًا شخصيًّا.

تَعلُّم الصلاة

وكما كان صُراخ فلانري أوكونور اليائس: "كيف يمكننا فعلًا أن نتعلَّم الصلاة؟" أجريتُ في الصيف الذي تلى علاجي بنجاح من سرطان الغدَّة الدرقيَّة، أربعةَ تغييرات عمليَّة في حياة الصلاة الشخصيَّة. أوَّلًا، خصَّصتُ عدَّةَ شهورٍ لقراءة المزامير كلِّها، ولخَّصتُ كلَّ مزمور منها. ومكَّنَني هذا من أن أصلِّي المزامير كلَّها بصورةٍ منتظمة أكثر من مرَّة على مدار السنة.[١٧] الأمر الثاني هو أنِّي خَصَّصتُ وقتًا انتقاليًّا بين قراءتي للكتاب المقدَّس ووقت الصلاة. ثالثًا، حاولتُ بكلِّ طاقتي أن أصلِّي في النهار وفي الليل، بعد أن كنتُ أصلِّي في النهار فقط. رابعًا، بدأتُ أصلِّي وعندي توقُّعات كبيرة لاستجابة الصلاة.

مرَّ بعض الوقت قبل أن تؤتي هذه التغييرات الأربعة ثمارها، لكنْ بعدَ أن تأسَّستْ وتأصَّلتْ هذه الممارسات في حياتي، بدأت أرى بعض الاختراقات. فرغم الارتفاعات والانخفاضات منذ ذلك الوقت، فقد بدأتُ أختبر حلاوةً جديدةً في السيِّد المسيح، كما اختبرت مرارةً جديدةً أيضًا؛ لأنِّي بدأتُ أرى حقيقة قلبي أيضًا بصورة أوضح في نور الصلاة الحيَّة. بكلمات أخرى، كانت هذه أكثر خبرات الراحة في محبَّة الرَّبّ، فضلًا عن كونها خبرات الصراع الروحيِّ التي رأيتُ فيها الربَّ ينتصر على الشرِّ الذي في قلبي وفي العالم من حولي. وقد نما هذان النوعان

من الخبرات في الصلاة التي ناقشناها في مقدِّمة الكتاب، مثل شجرتَين توأمين متضافرتَين معًا. والآن أومن بأنَّ هذا هو ما ينبغي أن يكون. الواحدة تستثير الأخرى فتنموان معًا، والنتيجة حيويَّةٌ روحيَّةٌ وقوَّةٌ لم أختبرها من قبل طَوال أوقات وعظي وتعليمي. أمَّا باقي الكتاب فهو سردٌ لكلِّ ما تعلَّمتُه في هذا المجال.

إنَّ الصلاة مع كلِّ هذا، هي أمر يصعبُ جدًّا الكتابة عنه. وليس هذا في المقام الأوَّل لأنَّها أمرٌ لا يمكن تعريفه، بل لأنَّنا نشعر أمامه بالصغر والعجز. لقد قال لويد جونز ذات مرَّة إنَّه لم يكتب عن الصلاة بتاتًا لأنَّه كان يشعرُ بحالةٍ من عدم الكفاءة لأن يكتبَ في هذا المجال."[١٨] لكنِّي أشكُّ أنَّ أيًّا من أفضل الكتَّاب عن الصلاة في التاريخ، شعروا بكفاءة أكثر ممَّا شعر لويد جونز. لعلَّ الكاتب البريطانيّ، وهو من حقبة أوائل القرن العشرين، پي. تي. فورسيث (P. T. Forsyth)، يعبِّر عن هذه المشاعر بطريقة أبرع من طريقتي:

> "من الصعب، بل من الرهيب، أن يكتبَ المرء عن الصلاة. إنَّها رهبةُ مَن يهمُّ بلَمسِ تابوت العهد...لكنَّه ربَّما ينظر إلى المجهود المبذول بنعمه؛ فهو الذي عاش دائمًا ليرفعَ تضرُّعات هي في حدِّ ذاتها صلوات لنعرف كيف نصلِّي".[١٩]

الصلاةُ هي المدخل الوحيد إلى المعرفة الحقيقيَّة للنفس. وهي الطريقُ الأساسيُّ نحو اختبار التغيير الأصيل والعميق وإعادة ترتيب محبَّاتنا للأمور المختلفة. والصلاة هي الطريقة التي يُغدقُ بها الله علينا الكثير من العطايا تفوق تصوُّراتنا، والتي يريدُ أن يمنحنا إيَّاها. في الواقع، الصلاة أيضًا هي الطريق إلى معرفة الله، والطريق الذي نعاملُ به الله بحسب مكانته الحقيقيَّة أنَّه الله فعلًا. الصلاة ببساطة هي مفتاح كلِّ شيء نريد أن نكونَه ونفعلَه في هذه الحياة.

يجب أن نتعلَّم أن نصلِّي. وليس أمامنا خِيار.

الفصل ٢

عَظَمةُ الصلاة

"لذلك أنا أيضًا إذ قد سمعتُ بإيمانكُم بالربِّ يسوع، ومحبَّتكُم نحو جميع القدِّيسين، لا أزالُ شاكرًا لأجلكُم، ذاكرًا إيَّاكُم في صلواتي، كي يُعطيكُم إلهُ ربِّنا يسوع المسيح، أبو المجد، روحَ الحكمة والإعلان في معرفته، مُستَنيرةً عُيونُ أذهانكُم، لتعلَموا ما هو رجاءُ دَعوَته، وما هو غنى مجدِ ميراثِه في القدِّيسين، وما هي عظمةُ قُدرتِه الفائقةُ نحونا نحنُ المؤمنين، حسب عمل شدَّة قوَّته" (أفسس ١: ١٥-١٩).

أولويَّة الصلاة

إنَّ مقارنةً سريعةً بين هذه الصلاة في أفسس ١ والصلوات في فيلبِّي ١، وكولوسِّي ١، ثمَّ أفسس ٣، تكشفُ أنَّ هذه هي الطريقة التي كان بولس معتادًا أن يصلِّي بها من أجل مَن يحبُّهم. ويتَّضح من تركيب الجملة الطويلة التي يستخدمها بولس، إيمانُه بعَظَمَة الصلاة وأهمِّيَّتها. في العدد ١٧، يكتب أنَّه يستمرُّ في الصلاة والطلب من الله من أجلهم...أن يعرفوا الربَّ أكثر.

من المثير للاهتمام أنَّه في كلِّ مرَّة يكتب بولس صلواته من أجل أصدقائه، فإنَّ تلك الصلوات لا تحوي أيَّة طلبات من أجلهم لتغيير أحوالهم. من المؤكَّد أنَّهم عاشوا وسط الكثير من الأخطار والصِّعاب: واجهوا الاضطهاد والموت من

الأمراض، والضيق من القوى المختلفة، والافتراق عن الأحبَّاء. كان وجودهم أقلَّ أمانًا بكثير ممَّا نعيشه الآن. لكنْ في كلِّ هذه الصلوات، لا نرى طلبةً واحدةً من أجل إمبراطورٍ أفضل، أو حماية من الجيوش الغازية، أو حتَّى خبزًا للوجبة التالية. لم يصلِّ بولس من أجل الأمور التي عادةً ما نضعها في مقدِّمة قائمة طلباتنا.

هل يعني هذا أنَّه من الخطأ أن نُصلِّي من أجل هذه الأشياء؟بالتَّأكيد لا. لأنَّه، كما يعرف بولس، يدعونا يسوع لأن نصلِّي من أجل الطعام (خبزنا كفافنا) ومن أجل الحماية من الشرِّ (نجِّنا من الشرِّير). في الأصحاح الثاني من رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس، يُوَجِّه بولس نظر تلاميذه أن يُصلُّوا من أجل السلام، ومن أجل مَن هم في سلطة، ومن أجل احتياجات هذا العالم. وفي صلاته هو نفسه، لم يقصد بولس أن يعطيَنا نموذجًا شاملًا للصلاة كما فعل يسوع في الصلاة الربَّانيَّة، لكنَّه يكشفُ في هذه الصلوات صلواته المتكرِّرة لأصدقائه. وهذا ما كان يعتقد أنَّه أهمُّ شيء يمكن أن يمنحهم الله إيَّاه.

ما هذا الذي يصلِّيه؟ أن نعرفَه أكثر. يشرح بولس هذا بتفاصيل حَيَّة. ويعني هذا أن "تستنير...عيون أذهانهم" (أفسس ١: ١٨). بحسب الكتاب المقدَّس، القلب هو مركَز قيادة النفس كلِّها. إنَّها مستودع كلِّ ما يعتنقُه الإنسان ويلتزمه، وكلِّ ما يتمنَّاه الإنسان، وكلِّ الذين يحبُّهم محبَّة عميقة. وتتحكَّم هذه الأمور العميقة في مشاعرنا وأفكارنا وسلوكيَّاتنا. أن "تستنير عيون أذهاننا" بحقائق معيَّنة يعني أن تخترقَ هذه الحقائق أعماقنا وتتمكَّن منَّا بطريقةٍ تجعلُها تُغيِّر حياتَنا تمامًا. بكلمات أخرى، رُبَّما نعرف أنَّ الله قدُّوس، لكن عندما تستنير عيونُ أذهاننا بهذه الحقيقة، سيتجاوز إدراكنا لهذه الحقيقة مجرَّد المعرفة العقليَّة؛ إذ سنجد وجدانيًّا أيضًا أنَّ قداسة الله هي أمرٌ عجيبٌ وجميل، وهكذا سنتجنَّبُ بصورةٍ إراديَّة التوجُّهات والسلوكيَّات التي يمكن أن تُغضِبَ الله أو تقلِّل من إكرامنا له. في أفسس ٣: ١٨، يقول بولس الرسول إنَّه يطلب من أجلهم أن يمدَّهم الروح القدس "بالقدرة أن

يُدركوا" كلَّ البركات الماضيَّة والحاضرة والمستقبلة التي حصلوا عليها عندما آمنوا بالمسيح. دون شكّ، فإنَّ كلَّ المسيحيِّين يعرفون معرفةً عقليَّة هذه البركات، غير أنَّ صلاة بولس هي من أجل شيءٍ آخر يتجاوَزُ ذلك: أن ينالوا شعورًا حيًّا بحقيقة حضور الله والحياة المشتركة معه.

يرى بولس الرسول أنَّ هذه المعرفة الأعمق بالله هي أمرٌ أهمُّ من تغيير الأحوال المحيطة بالإنسان. فدون هذا الشعور القويِّ بحقيقة الله، يمكن أن تؤدِّي الأحوال الجيِّدة بنا إلى الثقة الزائدة بهذا العالم، ومن ثَمَّ إلى بعضٍ من اللامبالاة الروحيَّة. عندما تصير كلُّ الأمور متاحةً عند أطراف أصابعنا، فيمكن عندها أن تقولَ قلوبُنا: ومَن يحتاج إلى الله عندئذٍ؟ وفي الوقت نفسه، دون هذا القلب المستنير، يمكن أن تقودَنا الأحوال الصعبة إلى الإحباط واليأس؛ لأنَّه محبَّة الله تتحوَّل في هذه الحال إلى فكرة مُجرَّدة بدلَ أن تكون حضورًا حقيقيًّا مُعزِّيًا ومستمرًّا. لذا فإنَّ معرفة الله هي الأمر الذي يجب أن نطلبَه فوق كلِّ شيء، إذا كنَّا نريد أن نواجهَ بإيمانٍ كلَّ أحوال الحياة. إنَّ الاهتمامَ الأساسيَّ لبولس الرسول إذًا هو حياة الصلاة العلنيَّة والخاصَّة لهؤلاء المؤمنين. إنَّه يؤمن بأنَّ الخيرَ الأقصى هو الشركة مع الله. إنَّ حياة الصلاة الحيَّة والفعَّالة والمشبِعة لهي الخير الذي يفتح الباب أمام كلِّ أشكال الخير الأخرى بصورةٍ سليمة ومفيدة. إنَّه لا يرى أنَّ الصلاة هي مجرَّد طريقة للحصول على مزيد من الأشياء من الله، بل هي الوسيلة الأهمُّ للحصول على مزيد من معرفة الله نفسه.

الصلاة هي السعي إلى "التمسُّك بالله" (إشعياء ٦٤: ٧) بالطريقة ذاتها التي كان بها القدماء يتمسَّكون بعباءةِ شخصٍ عظيم يرجونه، أو الطريقة التي نحتضنُ بها الآن شخصًا ما للتَّعبير عن المحبَّة.

تفترض هذه الطريقة التي يُصلِّي بها بولس أولويَّة الحياة الروحيَّة الداخليَّة مع الله.[1] أغلب المؤمنين المعاصرين يؤسِّسون حياتَهم الداخليَّة على أحوالهم الخارجيَّة. ويعتمد سلامهم الداخليُّ على تقييم الآخرين لهم، وعلى وضعهم الاجتماعيّ،

ورخائهم الاقتصاديّ، وأدائهم المهنيّ. ويفعل المسيحيُّون هذا شأنهم شأن الآخرين تمامًا. إذا لم يبن المؤمنون حياتهم على محبَّة الله غير المتغيِّرة، سيُضطرُّون لأن "ينظروا إلى النجاح بالنظرة ذاتها التي ينظرُ بها غيرهم إلى النجاح، ويربطون سعادتَهم، بل حياتَهم كلَّها، بالأسعار اليوميَّة. ويرتعدون عندما يفكِّرون في مصيرهم، ولهم في ذلك أسبابهم".[٢]

استقامة الصلاة

إذا كنَّا نعطي أولويَّة للحياة المادِّيَّة الخارجيَّة، فستصير حياتنا الداخليَّة مظلمةً ومخيفة. لن نعرف ما علينا فعله مع الوَحدة. لن نشعر بالراحة لدى فحص نفوسنا، ولن تكونَ لدينا قدرة كبيرة على التركيز والتأمُّل. والأخطر من ذلك أنَّ حياتَنا سينقصُها الصِّدق وتعوزها الاستقامة. أمَّا من جهة الشكل الخارجيّ، فسنحتاج لأن نعكسَ إحدى صور الثقة بالنفس، والصحَّة الروحيَّة والوجدانيَّة، بينما قد نكون في الداخل مملوئين بالشكِّ والقلق والمرارة والشفقة على الذات. لكنَّنا لن نعرف كيف ندخل حجرات القلب الداخليَّة، ونرى بوضوح ما فيه، ونتعامل معه. باختصار، عندما لا نضع أولويَّة للحياة الداخليَّة، فإنَّنا نحوِّل أنفسنا إلى مجموعة من المنافقين. كتب اللاهوتيُّ الإنكليزيُّ جون أوين الذي عاش في القرن السابع عشر تحذيرًا للخدمات التي تتمتَّع بالشعبيَّة والنجاح قائلًا:

> "يُمكن أن يملأ الخادم مقاعد كنيسته عن آخرها، ويملأ آذان شعبه بالعظات، وأفواهَهم بمائدة الرَّبّ، أمَّا ما يفعله هذا الخادم وهو راكع سرًّا أمام الله، فهو حقيقته ولا شيء أكثر من ذلك".[٣]

لكي تعرف نفسك على حقيقتها، عليك أن تسألها: ما الأمور التي تفكِّر فيها عندما لا يكون أحد معك، وعندما لا يكون هناك ضغطٌ عليك من أيِّ شيء آخر لتفكِّر فيه؟ في مثل هذه اللحظات، هل تتَّجه أفكارك نحو الله؟ ربَّما ترغب في

أن يراك الآخرون متواضعًا وغير متظاهر، لكن هل تبادرُ بالاعتراف بخطاياك أمام الله؟ ترجو أن يراك الناس إيجابيًّا ومرحًا، لكن هل تشكر الله باستمرار على كلٍّ ما لديك؟ والأهمُّ من ذلك، هل تعبد الله وتشكره لشخصه وصفاته؟ قد تتكلَّم كثيرًا عن "بَرَكة" الإيمان التي في حياتك، وكيف أنَّك "تحبُّ الرَّبّ"، لكنَّك إنْ كُنتَ غير مُصلٍّ، فهل ما تقوله حقيقيٌّ فعلًا؟ إنْ لم تكن فَرِحًا ومتواضعًا وأمينًا أمام الله في السريرة، فإنَّ صورتك التي تريد أن تبدو عليها أمام الناس لا تتوافق مع حقيقتك.

قبل أن يعطيَ يسوع تلاميذه الصلاة الربَّانيَّة مباشرة، قدَّم إليهم بعض الأفكار الأوَّليَّة. وإليكم منها هذه الفكرة: "ومتى صلَّيتَ فلا تكُن كالمرائين، فإنَّهم يُحبُّون أن يُصلُّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع، لكي يظهَروا للنَّاس. الحقَّ أقولُ لكم: إنَّهم قدِ استوفَوا أجرَهم" (متَّى ٦: ٥-٦). إنَّ الاختبار الصادق دائمًا للاستقامة الروحيَّة، كما يقول يسوع، هو حياة الصلاة الداخليَّة. كثيرون يصلُّون عندما يتطلَّب منهم ذلك الموقف الثقافيُّ أو الاجتماعيُّ، أو ربَّما بدافع من القلق الذي تسبِّبه المواقف المزعجة. أمَّا الذين لهم علاقة حيَّة أصيلة بالله بوصفه أباهم، فهم الذين سيريدون من داخلهم أن يُصلُّوا، فسيُصلُّون حتَّى لو لم يكن هناك في الخارج ما يدفعهم إلى ذلك.

عندما يعطي الإنسان الأولويَّة للحياة الداخليَّة فهذا لا يعني أن يتميَّز بالحياة الفرديَّة؛ فلا يمكنُ أن ينالَ الإنسان بمفرده المعرفة الأعمق بإلهِ الكتاب المقدَّس. بل هي تتطلَّب شركةَ مجتمع الكنيسة، والاشتراك في العبادة الجماعيَّة جنبًا إلى جنب مع التكريس الفرديّ، وتتطلَّب التعَلُّم من الكتاب المقدَّس، مثلما تحتاج إلى التأمُّل الصامت. وفي قلب الطرق المختلفة لمعرفة الله، هناك مكانان: أحدهما للصلاة الجماعيَّة والآخر للصلاة الشخصيَّة.

قال لي صديقي القسُّ جاك ميلر (Jack Miller) ذات مرَّة إنَّه يستطيع، بقدرٍ كبيرٍ من الصحَّة، أن يُحدِّد حقيقةَ الحياة الروحيَّة لشخصٍ ما، بالإصغاء إليه يصلِّي. كان

جاك يقول: "يُمكنك أن تعرف ما إذا كانت لهذا الإنسان علاقة حواريَّة مع الله أم لا". كان ردُّ فعلي الأوَّل هو أن أذكِّرَ نفسي بعدم الصلاة بصوتٍ مسموع ثانيةً وأنا بالقرب من جاك. كانت لديَّ فرصةٌ على مدى سنوات أن أمتحنَ نظريَّة جاك. يمكن أن تكونَ صلاتك العلنيَّة لامعةً ومنضبطة لاهوتيًّا، وحارَّة وجدانيًّا دون أن تكونَ قد نمَّيتَ حياةَ صلاةٍ شخصيَّة غنيَّة. لكنَّك لا تستطيع أن تصطنع تلك النغمة المميَّزة التي يتمتَّع بها مَن يتكلَّمون مع الله، من أولئك الذين يرفعون صلاةً نحو الله. عادةً ما يترسَّخ عُمقُ الصلاة الشخصيَّة والصلاة العلنيَّة معًا.

صعوبة الصلاة

لا أستطيع أن أذكر أمرًا عظيمًا يكون سهلًا في الوقت نفسه؛ إذ يتَّسمُ كلُّ ما هو قيِّمٌ ببعض الصعوبة. لذلك ينبغي أن تكون الصلاة من أصعب الأمور في الوجود. ربَّما يكون مُشجِّعًا أن نعترفَ أنَّ الصلاة صعبة جدًّا. وإذا كنتَ تصارع في هذا الأمر، فثقْ بأنَّك لستَ وحدك في هذا المضمار.

يبدأ كتاب "**الساعة الهادئة**"، وهو كتاب كلاسيكيٌّ عن الصلاة كتبَه اللاهوتيُّ الأميركيُّ أوستن فيلبس، وهو أحد لاهوتيِّي القرن التاسع عشر، بفصل بعنوان "غياب الله في الصلاة". ويستهلُّ الكاتب هذا الفصل بالعدد من أيُّوب ٣: ٢٣: "مَن يُعطيني أنْ أجده؟". فيبدأ كتاب فيلبس بفرضيَّة أنَّ "إدراك غياب الله هو أحد الأحداث الثابتة التي تميِّز الحياة الدينيَّة. فحتَّى لو كان التكريس والعبادة يمارسان بثباتٍ وانتظامٍ ودقَّة، فالشُّعور بحضورِ الله كصديقٍ غير منظور، تتميَّز رفقتُه بالفرح، هو أمرٌ غالبًا ما نختبره بصورة مُتقطِّعة".[٤]

ويستمرُّ فيلبس في شرح الأسباب المتعدِّدة لوجود مثل هذا الجفاف في الصلاة، وكيف يمكن احتمال هذا الشعور بعدم حقيقيَّة الله. وأوَّل ما نتعلَّمه بينما نحاول أن نُصلِّي هو فراغنا الروحيّ- وهذا الدرس غايةٌ في الأهمِّيَّة. لقد اعتدنا جدًّا أن

نكونَ فارغين، حتَّى إنَّنا صرنا لا ندرك ذلك، ولم نعدْ نحاول أن نصلِّي. إنَّنا لا ندرك فراغَنا إلَّا عندما نبدأ في قراءة ما يقوله الكتاب المقدَّس، ويقوله الآخرون عن عَظَمة الصلاة ومواعيدها. عندئذٍ فقط نبدأ نشعرُ بالوحدة والخواء والجوع. إنَّها خطوة أولى مهمَّة في الشركة مع الله، غير أنَّها خطوةٌ يمكن أن تُربكَنا.

عندما تبدأ حياة الصلاة تزدهر أخيرًا، فإنَّ التأثيرات تصيرُ جليَّةً. ربَّما تكون مملوءًا بالشَّفقة على النفس، وتعمل على تسويغ الاستياء والغضب. ثمَّ تجلس لتصلِّي، وفي لحظة يكشف لك محضرُ الله تفاهةَ مشاعرك. وتهوي إلى الأرض كلُّ مسوِّغاتك وأعذارك الواهية. أو ربَّما تكون مملوءًا بالقلق، ثمَّ بعد قليل تكاد تنسى في الصلاة ما كان يقلقك. فتضحك على نفسك وتشكر الله على عمله من أجل شخصه. هذا هو التغيير الدراميُّ الذي يأتي به منظورٌ جديد. في واقع الأمر يُمكن أن يكونَ هذا التغيير في المنظور هو الخبرة المعتادة التي نمرُّ بها. غير أنَّ الصعوبة تظلُّ هي الطريقة المعتادة التي تبدأ بها حياة الصلاة. في البداية تكون مشاعر الفقر والخواء والغياب هي المشاعر السائدة، لكنَّ أفضل الذين ساروا في هذا الطريق من قبلنا يشجِّعوننا أن نتقدَّم إلى الأمام ونستمرَّ في الصلاة بانتظام وانضباط، حتَّى نتجاوز الإحساس بالفرض وصولًا إلى الإحساس بالفرح، كما يقول پاكر (Packer) ونيستروم (Nystrom).

لكنْ يجب أن نكونَ حَذِرين من سوء فهم مثل هذه العبارات. فمواسم الجفاف، إنْ ولَّتْ، يمكن أن تعودَ من جديد، ولأسباب متعدِّدة. إنَّ الأمر لا يسير بصورةٍ روتينيَّةٍ حيث نمرُّ بفترة مُحدَّدة من الجفاف حتَّى يحدث الاختراق مرَّة وللأبد نحو مشاعر الفرح والابتهاج. على العكس، فإنَّ الرؤية الجديدة، والشعور الغامر بحضور الله في القلب، يأتيان في مرَّات عديدة، وبطرق مفاجئة- وبالتبادل أيضًا مع أوقات الصراع والشعور بالغياب. لكنْ رغم كلِّ هذا، فإنَّ السعي وراء الله في الصلاة هو أمرٌ يُثمر دائمًا؛ لأنَّ الله طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين (يوحنَّا ٤: ٢٣)، ولأنَّ حياة الصلاة هي حياةٌ عجيبةٌ وغنيَّة دون حدود.

مركزيَّة الصلاة

لأنَّ كلَّ الكتاب المقدَّس يتكلَّم عن الله، فإنَّ ممارسة الصلاة أمرٌ يتخلَّل كلَّ صفحاته. وليست عَظَمة الصلاة إلَّا امتدادٌ لعَظَمة الله ومجده في حياتنا. وليست الأسفار المقدَّسة سوى شهادةٍ واحدةٍ طويلة لهذه الحقيقة. في سفر التكوين نرى كلَّ واحد من الآباء الأوائل- إبراهيم وإسحاق ويعقوب- يصلِّي إلى الله بطريقةٍ مباشرةٍ وحميمة. فنرى بوضوح إبراهيم يصلِّي بإصرار ولجاجة لكي يرحم الله الشعب الوثنيَّ الساكن في سدوم وعمورة (تكوين ١٨: ٢٣). وفي سفر الخروج، كانت الصلاة هي الطريقة التي قاد بها موسى الشعب من العبوديَّة في مصر إلى الحرِّيَّة. إنَّ عطيَّة الصلاة هي التي جعلت من الشعب العبرانيِّ أمَّةً عظيمة: "أَيُّ شَعبٍ هو عَظيمٌ له آلِهَةٌ قَريبَةٌ منه كالرَّبِّ إلهِنا في كلِّ أدعِيَتِنا إليه؟" (تثنيَّة ٤: ٧).[٥]

لا يمثِّلُ الفشلُ في الصلاة مُجرَّد تجاوُزِ قاعدة دينيَّة، بل هو الفشل في التعامل مع الله بوصفه إلهًا. إنَّها خطيَّة تُجاهَ مجد الله. قال النبيُّ صموئيل لشعبه: "وأمَّا أنا فَحاشا لي أنْ أُخطِئَ إلى الرَّبِّ فأَكُفَّ عن الصَّلاة من أَجلكُم" (١صموئيل ١٢: ٢٣).[٦] كما نعرف أنَّ داوُد الملك هو الذي نظمَ أغلب المزامير، وهي منظومةٌ بوَحي الله، وحافلةٌ بالتضرُّعات إلى الله الذي هو "سامع الصلاة" (مزمور ٦٥: ٢)، وابنه سليمان بنى الهيكل في أورشليم ودشَّنه بصلاةٍ عظيمة.[٧] لقد كانت طلبة سليمان العليا هي أن يكون الهيكل مكانًا يسمع الله منه صلاة شعبه- في الواقع، كانت صلاة سليمان الأولى هي بشأن عطيَّة الصلاة نفسها.[٨] وليس ذلك فقط، لكنَّه كان يرجو أن تسمعَ شعوبُ الأمم الأخرى بِاسْم الربِّ العظيم، ويصلُّون هُم أيضًا نحو هذا البيت (١ملوك ٨: ٤٢). مرَّة أخرى نرى أنَّ الصلاة ببساطة هي إدراكٌ لعَظَمة الله.

أمَّا سفر أيُّوب في العهد القديم، فهو في معظمه تسجيلٌ لمعاناة أيُّوب وآلامه، وهي كلُّها تُروى من منظور الصلاة. وفي النهاية، نرى كيف أنَّ الله غضبَ من أصدقاء

أيُّوب قساةِ القلوب وقال لهم إنَّه سيتوقَّف عن معاقبتهم فقط إنْ صلَّى أيُّوب من أجلهم (أيُّوب ٤٢: ٨). لقد تخلَّلتِ الصلاةُ خدمةَ كلِّ أنبياء العهد القديم.[٩] وربَّما كانت الصلاة هي الطريقة المعتادة التي بها جاءت كلمة الله إليهم.[١٠] أيضًا استرداد اليهود وعودتهم من السبي في بابل حدث بالصلاة. بدأ سبيهم بالدَّعوة إلى الصلاة من أجل المدينة الأمميَّة (بابل) ومن أجل جيرانهم (إرميا ٢٩: ٧). ودانيال- الذي كاد أن يفقدَ حياتَه بسبب إصراره على الصلاة ثلاثَ مرَّات في اليوم- كان يصلِّي من أجل توبة شعبه، طالبًا من أجلهم أن يعودوا من سبيهم، وقد سمع الله صلاته.[١١] ثمَّ بعد ذلك، نرى نحميا يعيدُ بناء السور حول أورشليم بسلسلة من الصلوات التي تخلَّلتها ممارسات قياديَّة حكيمة.[١٢]

لقد علَّم يسوع المسيح تلاميذه أن يُصلُّوا، وشفى المرضى بالصلاة، وندَّدَ بفساد العبادة في الهيكل (الذي قال عنه إنَّ ينبغي أن يكون "بيت صلاة"). وأعلنَ أنَّ بعضَ الأرواح الشرِّيرة لا يمكن أن تخرج إلَّا بالصلاة والصوم. كان يسوع يصلِّي كثيرًا وبانتظام صلواتٍ حارَّةً وبدموع (عبرانيِّين ٥: ٧)، وفي بعض الأحيان كان يصلِّي طَوال الليل. وحلَّ الروح القدس عليه ومَسَحَه بينما كان يصلِّي (لوقا ٣: ٢١-٢٢)، كما تغيَّرت هيئتُه بمجدٍ سماويٍّ بينما كان يصلِّي (لوقا ٩: ٢٩). وعندما واجهَ أزمتَه العُظمى، جابَهَها بالصلاة. نسمعه يصلِّي من أجل تلاميذه ومن أجل الكنيسة في الليلة التي سبقت موته (يوحنَّا ١٧: ١-٢٦)، ونراه يتضرَّع إلى الله بألم في بستان جَثسَيماني. وأخيرًا مات وهو يُصلِّي.[١٣]

وبعد موت الربِّ مباشرةً، كان تلاميذه يستعدُّون للمستقبل بأن كانوا "يواظبون على الصلاة" معًا (أعمال ١: ١٤). وكلُّ تجمُّعات الكنيسة كانت "تُكرِّس... للصَّلوات" (أعمال ٢: ٤٢، ١١: ٥، ١٢: ٥، ١٢). وكانت قوَّة الروح القدس تحلُّ على المسيحيِّين الأوائل في تفاعلٍ مع الصلوات القويَّة، وقد اختيرَ القادة بالصلاة. لذا فإنَّ المتوقَّع من كلِّ المسيحيِّين أن تكون لهم حياة صلاة أمينة ومنتظمة وحارَّة.

وفي سفر الأعمال كانت الصلاة إحدى العلامات الأساسيَّة الدالَّة على أنَّ الروح القدس حلَّ في القلب بالإيمان بالمسيح. والروح يعطينا الثقة والرغبة في الصلاة إلى الله، ويُمكِّننا من الصلاة حتَّى إنْ كنَّا لا نعلم ما نصلِّي من أجله. ويتعلَّم المسيحيُّون أنَّ الصلاة يجب أن تسودَ اليومَ كلَّه والحياةَ كلَّها؛ فهم ينبغي أن يصلُّوا "بلا انقطاع" (١تسالونيكي ٥: ١٧).[١٤]

إنَّ الصلاة أمرٌ عظيم حتَّى إنَّك ستجدها أينما نظرتَ في الكتاب المقدَّس. لماذا؟ لأنَّه حيث يوجد الله، توجد الصلاة. وإذا كان الله في كلِّ مكان؛ وإن كانت عظمته بلا استقصاء، فالصلاة ينبغي أن تتخلَّل كلَّ حياتنا.

غنى الصلاة

إنَّ من أعظم أوصاف الصلاة خارج الكتاب المقدَّس هو ما كتبه الشاعر جورج هربرت (George Herbert)، الذي عاش ما بين عامَي ١٥٩٣ و١٦٣٣م في "الصلاة (١)". تتميَّز هذه القصيدة بأنَّها تتناول تلك القضيَّة الروحيَّة الهائلة فقط في مئة كلمة دون فعل واحد، ودون بناء نثريّ. على العكس من ذلك، يقدِّم هربرت عشرات من الصور الكلاميَّة.

في الفصول التالية، سنحاولُ أن نضعَ تعريفًا للصلاة، غير أنَّ هناك خطورةً كامنةً في تلك المحاولة. وتسعى التعريفات دائمًا إلى تصغير الأمور إلى أبسط صورةٍ جوهريَّة لها. أمَّا هربرت فيريد أن يذهبَ بنا إلى الاتِّجاه الآخر؛ فهو يريدنا أن نستكشفَ غنى الصلاة بكلِّ ضخامتها ولامحدوديَّتها الفائقتَين. إنَّه يفعل ذلك بأن يغمرَ قريحةَ خيالنا وتحليلنا بهذه الصور البلاغيَّة الجميلة عن الصلاة.

> الصلاة هي ولائمُ الكنائس، عَصر الملائكة، نسمة الله في الإنسان عائدة إلى لحظة ميلاده. إنَّها إعادة صياغة النفس الإنسانيَّة، وسياحة القلب نحو الله. إنَّها الزِّيج الذي يغمرُنا في مياه الله العميقة. هي فرقةُ

الرماة التي تحاصرُ برج الله الحصين، والرعد الصاعد من الأرض إلى السماء، والحَربة التي تخترقُ جنب السيِّد المسيح. إنَّها النغمة التي تغيِّر صوت الأيَّام العاديَّة، والنغمة التي يسمعُها الجميع ويخافونها. إنَّها الرقَّة والسلام والفرح والمحبَّة والبهجة والمَنُّ المجيد، والسماء عندما تعانق المعتاد، والإنسان في أبهى صوره. إنَّها درب التبَّانة، وطيور الفِرْدَوس، وأجراس الكنائس تُسمع فيما وراء النجوم. إنَّها رداءُ النفوس وأرض الأطياب، وشيء يُفهَم.

"الصلاة هي نسمة الله في الإنسان عائدة إلى لحظة ميلاده". يُصدَمُ كثير من المتشكِّكين واللَّادينيِّين عندما يَجِدون أنفسهم يُصلُّون حتَّى وإن لم يكونوا مؤمنين رسميًّا بالله. يقدِّم إلينا هربرت تفسيره لهذه الظاهرة. الكلمة العبريَّة "روح" و"نفس" هما الكلمة ذاتها، وهكذا يقول هربرت إنَّ هناك فينا شيئًا مصدره الله، وهو شيء يجعلنا ندرك في ما وراء العقل أنَّنا لسنا وحدَنا في هذا الكون، وإنَّ من غير المفترض أن نسيرَ فيه بمفردنا. الصلاة هي غريزة إنسانيَّة.

يمكن أن تكونَ الصلاة "الرقَّة والسلام والفرح والمحبَّة والبهجة"- راحة النفس العميقة. إنَّها رداءُ القوَّة الذي يُغلِّف النفس. مصدر الحياة والحيويَّة. بالصَّلاة بِاسْم يسوع والثقة بخلاصه، نأتي بصورة الإنسان "في أبهى حالة" روحيَّة للمثول في حضرة الملك. لذا يمكنُنا أن نجلسَ معه في "وليمة الكنائس". كانت الولائم ليس فقط فرصةً للأكل، فالمدعوُّ إلى الوليمة يختبرُ أيضًا حالةً من القبول والشركة مع صاحب الدعوة. الصلاة هي الصداقة المشبِعة مع صاحب الكون.

الصلاة أيضًا "نغمة" يُضبَطُ بها القلب على إيقاع الله. في الغناء ينخرط الإنسان بجملته- تخلبُ الموسيقا القلب، ويتأمَّلُ العقل في الكلمات. الصلاة أيضًا نغمةٌ يمكن أن يسمعَها الآخرون معك. عندما يُضبَطُ قلبُك على إيقاع الله، فإنَّ الفرحَ الذي يغمرُك يؤثِّرُ أيضًا في مَن هم حولك. لا يمكنُ في الصلاة أن يكونَ

الإنسان متكبِّرًا أو باردًا أو قلقًا أو ضجرًا-بل في الصلاة ينسى المرءُ نفسَه، ويشعر بالدِّفء والسلام العميق، وبأنَّه ملآنٌ بالاهتمام بما يصلِّي من أجله. الكلُّ يسمعون ويخافون. الصلاة تغيِّر مَن هم حولنا.

يمكن أن تكون الصلاة "أرض الأطياب"، مكان يغمرُ مَن فيه بالأحاسيس، والروائح والنكهات التي تفوحُ من أرض بعيدة، وهي "درب التبَّانة"، مكان العَجَب والإبهار. عندما يحدث هذا، تصيرُ الصلاة بالفعل "عصر الملائكة"، وخبرة أبديَّة خارج الزمن. لكنْ لم يعثر أحدٌ في التاريخ على "أرض الأطياب" هذه بسهولة ويُسر. الصلاة هي "سياحة القلب"، وفي العصر الذي كتب فيه هربرت هذا الكلام كان السائح هو الشخص الذي انخرط في مسيرة طويلة وصعبة ومجهدة نحو مكان منشود. يوجد في الصلاة توقٌ لا يُشبَع بتاتًا في هذه الحياة الدُّنيا، وأحيانًا ما نشعر بأنَّ لحظات الرِّضا العميقة التي نبحث عنها في الصلاة ليست سوى لحظاتٍ قليلةٍ ومتباعدة. الصلاة رحلة.

وفي أوقات الصعوبة الروحيَّة، تكونُ الصلاةُ أشبهَ بالمنِّ السماويِّ المجيد والبهجة الساكنة التي تجعلُنا نمضي قُدُمًا، مثلما ساعد المنُّ العبرانيِّين على المضيِّ في مسيرهم نحو الرجاء المنشود. كان المنُّ غذاءً بسيطًا ولذيذًا، لكنَّه لم يكنْ وليمةً كما نعرف. غير أنَّه سندَ قلوبَهم بصورةٍ رائعة، وأعطاهم احتمالًا ضمن مسيرتهم في تيه الصحراء. تساعدُنا الصلاة دون شكٍّ على الاحتمال.

إنَّ أحد أسباب المشقَّة هو أنَّ الصلاةَ الحقيقيَّة هي "إعادة صياغة النفس الإنسانيَّة". إنَّ الله لا ينتظر طِلباتنا، بل يريدنا نحن أنفسنا، ولا أحد يبدأ رحلةَ الصلاة الطويلة وهو يعرفُ نفسَه. لا شيء مثل الصلاة يكشفُك أمام نفسك؛ لأنَّنا فقط في محضر الله نعرف ذواتنا الحقيقيَّة. أن تعيد صياغة شيء هو أن تحصلَ على جوهره وتصوغه بصورةٍ أخرى تجعلُه أقرب. تجعلُك الصلاة تعرفُ نفسَك أمام الله إذ تقدِّم إليه جوهرَك الحقيقيّ. تعني الصلاة أن تعرفَ نفسَك مثلما تعرفُ الله.

ليست الصلاة فقط سلامًا وهدوءًا وشركة، بل هي أيضًا "فرقة الرماة التي تحاصر برج الله الحصين". إنَّها عبارة مذهلة تعبِّر عمَّا كان يحدث في زمن هربرت من الجيوش التي كانت تحاصر المدن وتمطرها بوابل من السهام. يشتملُ الكتاب المقدَّس على مراثٍ وطلباتٍ وتضرُّعات؛ فالصلاة هي نوع من التمرُّد على الوضع الحاليِّ الشرِّير الذي يكتنف العالم، وهي لا تضيعُ هباءً، حيث إنَّها مثل "أجراس الكنائس التي تُسمع فيما وراء النجوم" وهي بالفعل "رعدٌ من الأرض إلى السماء". إنَّ الرعد هو أحد تعبيرات الكتاب المقدَّس عن قوَّة الله المهيبة، غير أنَّ الصلاة بشكلٍ ما تُحرِّك هذه القوَّة حيث تُسمع صلواتُنا في السماويَّات، لا كهمسات، بل كصدعٍ ودَوِيٍّ وهدير. الصلاة تغيِّر الأشياء.

لكنَّ هربرت أيضًا يقول إنَّ الصلاة هي "البرجُ الحصين للخاطئ". فلا يمكن أن تستخدم الروح المتكبِّرة المتصلِّفة قوَّة الصلاة مثل فرقة رماة تحاصر السماويَّات. وعبارة "برج للخاطئ" تعني اعتمادَ المُصلِّي الكامل على نعمة المسيح بوصفه ملجأنا الوحيد وبرجنا الحصين الذي نحتمي فيه من خطايانا. نحن لا نستطيع أن ندخل محضر الله إلَّا ونحن معتَمِدون على غفران السيِّد المسيح وبرِّه أمام الله، وليس على برِّنا نحن. إنَّ الصلاة بحقٍّ هي "الحربة التي تخترق جنب السيِّد المسيح". إنَّنا عندما نصلِّي من أجل الغفران على حساب ذبيحة المسيح من أجلنا، فإنَّ النعمة والرحمة تأتيان متدفِّقتَين مثلما تدفَّق الدم والماء من جنب يسوع المسيح بعد أن طعنوه بالحربة.

ورغم أنَّ الصلاة هي المدفعيَّة التي تدكُّ حصون الشرِّ في العالم، وتغيِّر أحواله، فهي بالقوَّة نفسه- وربَّما أكثر- تغيِّر فهمَنا وتوجُّهاتنا نحو الأحوال المحيطة بنا. الصلاة هي "النغمة" التي تغيِّر صوت "الأيَّام العاديَّة". ليست الصلاة فقط في سبت الراحة والعبادة؛ فساعة الصلاة في اليوم العاديِّ تغيِّر اليوم كلَّه. إنَّ الصلاة تأتي بالسماء إلى الأرض، وتهبط بالسمو إلى المعتاد، فنرى العالم بطريقةٍ مختلفة، ونرى معنًى وقيمةً حتَّى في أبسط الأشياء وأحقر الأنشطة. الصلاة تغيِّرنا.

كما كان الزيج يُغمَر في البحر ليقيسَ أعماقَ المياه حيث تطفو القوارب، فإنَّ الصلاة هي الزيج الذي "يغمر الأرض في عمق السماء". ويعني هذا أنَّ الصلاة يمكن أن تُدخِلَنا بقوَّة الروح القدس في "أعماق الله" (١كورنثوس ٢: ١٠). ويتضمَّن هذا الرحلة الطويلة التي يمكن أن تأخذنا فيها الصلاة إلى أبعاد محبَّة المسيح المخلِّصة (أفسس ٣: ١٨). الصلاة توحِّدنا بالله نفسه.

كيف يختم هربرت هذه السلسلة من الصُّور الكلاميَّة؟ يختمها، بطريقة عجيبة إذ يقول إنَّها "شيءٌ يُفهَم". ناقشَ كثيرٌ من الدارسين ما يبدو أنَّه طريقةٌ مفاجئة ومقتضبة لإنهاء القصيدة، وكأنَّه يهبط بها فجأةً من قمَّة شاهقة. ويبدو الأمر لي كأنَّه نوعٌ من "التخلِّي عن الصورة البلاغيَّة...غير أنَّها في الوقت نفسه تتويجٌ نهائيٌّ لها".[١٥]

بعد كلِّ هذه الصور الشامخة، يعود هربرت إلى أرض الواقع. بواسطة الصلاة "شيء ما" يُفهَم- وليس كلُّ شيء؛ ففتوحات الصلاة عادة ما تكون متواضعة. يقول بولس الرسول إنَّ المؤمنين في هذا العالم يرَون "بعض" الرؤية كما كانت الصورة في مرايا العصور القديمة، ملأَنةً بالتشوُّهات (١كورنثوس ١٣: ١٢)، غير أنَّ الصلاة تجعلُ رؤيتَنا تنجلي. عندما كان ناظمُ المزمور يهوي إلى أعماق سحيقةٍ من اليأس، دخل بالصلاة "مقادس الله" (مزمور ٧٣: ١٧) فانتبه.

الصلاة هي الرهبة والحميميَّة والصراع، لكنَّها الطريقُ إلى الحقيقة. ليس هناك ما هو أهمُّ أو أصعب أو أغنى أو أكثر قدرة على تغيير الحياة من الصلاة. ليس هناك ما هو أعظمُ من الصلاة.

الجزء الثاني

فهمُ الصلاة

الفصل ٣

ما معنى الصلاة؟

ما معنى الصلاة؟ هل كلُّ أشكال الصلاة التي في العالم، وهي لا تُعدُّ ولا تُحصى، هي في جوهرها شيءٌ واحد؟ وإنْ لم يكُنِ الأمر كذلك، كيف يمكننا أن نُعرِّف الصلاة الحقيقيَّة ونميِّزها عن سواها؟

ظاهرة عالميَّة

في الأديان التوحيديَّة الكبرى، اليهوديَّة المسيحيَّة والإسلام، تقع الصلاة في قلب تعريف الإيمان. المسلمون مدعوُّون إلى الصلاة خمس مرَّات يوميًّا، ويُصلِّي اليهود تقليديًّا ثلاث مرَّات في اليوم، وكلُّ فرع من فروع الكنيسة المسيحيَّة مُشَبَّعٌ بتقاليدَ وطقوسٍ متنوِّعة من الصلوات المشتركة والشخصيَّة والرعويَّة.

دون شكّ، ليست الصلاة حكرًا على هذه الأديان الإبراهيميَّة الثلاث، إذ يستخدم البوذيُّون ما يُسمَّى بعجلات الصلاة، والتي تهدف إلى إطلاق صلوات الرحمة في البيئة المحيطة حتَّى تربطَ هذه الصلوات ما هو روحيٌّ بما هو طبيعيّ، وتخفِّف من المعاناة، وتتيح العطف والشفقة بين الناس.[١] وبينما يصلِّي الهندوس أيضًا إلى عدد من الآلهة المتعدِّدة من أجل سلام العالم، فإنَّ الهدف الأسمى هو الاتِّحاد بالكائن الأعلى، براهمان، والهروب من دورات تناسخٍ*

* يؤمنُ الهندوس بتناسخ روح الإنسان الذي يموت في كِيانات حيَّة أرقى أو أدنى بحسب أعماله وتقواه في حياته السابقة (المترجم).

الأرواح.[٢] والناس في الثقافات الأخرى، مثل هنود البيڤر (Beaver Indians) في جنوب غرب كندا، وهنود الپاپاغو (Papago Indians) في جنوب غرب أميركا، يصلُّون باستخدام الأغاني، وتعدُّ أشعارهم وموسيقاهم صلوات يحاولون بها ربط العالم الروحيّ بالعالم المادّيّ.[٣] إنَّ الصلاة هي إحدى أكثر الظواهر شيوعًا في الحياة الإنسانيَّة.

حتَّى غير المتديِّنين، يصلُّون أحيانًا عن قصد. وتشير الدراسات إلى أنَّ الصلاة في بعض البلدان العلمانيَّة تستمرُّ بوصفها نشاطًا ليس فقط بين مَن ليس لهم انتماءٌ دينيٌّ محدَّد، بل حتَّى بين الذين لا يؤمنون بالله بتاتًا.[٤] وقد توصَّلت إحدى الدراسات التي أُجريت عام ٢٠٠٤م إلى أنَّ نحو ٣٠٪ من الملحدين اعترفوا أنَّهم صلَّوا "أحيانًا"[٥]، ووجدتْ دراسةٌ أخرى أنَّ ١٧٪ من غير المؤمنين بالله يُصلُّون بانتظام.[٦] ويزداد تواتر الصلاة كلَّما تقدَّم العمر، حتى بين الذين لا يرتادون الكنيسة، أو ينتمون إلى أيِّ إيمان دينيٍّ مؤسَّسيّ.[٧] ويلخِّص الدارس الإيطاليُّ جيوسيپي جيوردان (Giuseppe Giordan) هذه الحقيقة هكذا: "في كلِّ الدراسات الاجتماعيَّة التي تتناول السلوك الدينيّ، من الواضح أنَّ نسبةً عاليةً من الناس يعلنون أنَّهم يصلُّون يوميًّا، وكثيرون يقولون إنَّهم يصلُّون أكثر من مرَّة في اليوم".[٨]

هل يعني هذا أنَّ الجميع يصلُّون؟ لا. لا يعني هذا. كثيرٌ من الملحدين يشعرون بالضِّيق، ولهم الحقّ، من مقولة إنَّه ليس هناك ملحدون في ساحة المعركة (بمعنى أنَّه وقت الضيق الشديد، يصلِّي الجميعُ، بمَن فيهم الملحدون). هناك كثير من الناس لا يصلُّون حتَّى وقت الخطر الشديد. لكنَّ الصلاة، وإنْ لم تكُنْ ظاهرةً عامَّة، فهي ظاهرةٌ واسعة الانتشار، توجد في كلِّ الثقافات، وتنخرط فيها الغالبيَّة العظمى من سكَّان هذا الكوكب، على الأقلِّ في مرحلة ما من حياتهم.[٩] وقد باءت بالفشل محاولات الوصول إلى أيَّة ثقافة، مهما كانت نائية ومعزولة، لا تمارس أيَّ نوع من أنواع التديُّن والصلاة. فقد كانت هناك دائمًا أشكال من المحاولات

"للتواصل بين العالم البشريِّ والعالم الإلهيّ".[10] يبدو أنَّ الصلاة غريزة إنسانيَّة أصيلة يسمِّيها اللاهوتيُّ السويسريُّ كارل بارت (Karl Barth) مرض التعلُّق بالله غير القابل للشِّفاء.[11]

عندما نقول إنَّ الصلاة أمرٌ كونيّ، فهذا لا يعني بتاتًا أنَّ كلَّ أنواع الصلاة هي شيءٌ واحد. تشتمل الصلاة على تنويعات عديدة جدًّا، حتَّى إنَّها تصيب بالدُّوار كلَّ مَن يشاهدها ويحاول أن يستَوعبَها كلَّها. فقط انظر إلى حالات الغيبة التي تمارسها قبائل الشامان من السكَّان الأصليِّين لأميركا، والترانيم في أديرة الرهبان البنيدكتان، وممارسو اليوغا الملتزمون في مكاتب مانهاتن، والمتكلِّمون بالألسنة في الكنائس الخمسينيَّة، والمسلمون الساجدون بركبهم وجِباهم إلى الأرض نحو القِبلة، واليهود الحسيديم الذين يتمايلون بينما يصلُّون، والقسُّ الأسقفيُّ الذي يقرأ من كتاب الصلوات العامَّة.[12] هذا يقودنا إلى السؤال: كيف تكون هذه الصلوات متشابهة؟ وكيف تكون مختلفة؟

أنواع الصلاة

من أوائل المُنظِّرين للصلاة في العصر الحديث يُذكَر إدوارد بي. تايلور (Edward B. Taylor)، وعاش ما بين عامَي ١٨٣٢ و١٩١٧م؛ وجايمس فرايزر (James Frazer)، وعاش ما بين عامَي ١٨٥٤ و١٩٤١م، وهو مؤلِّف كتاب "**الغُصن الذهبيّ**" (*The Golden Bough*)؛ وسيغموند فرويد (Sigmund Freud)، وعاش ما بين عامَي ١٨٥٦ و١٩٣٩م. وقد استخدمَ كلٌّ منهم نموذجًا داروينيًّا ينظُر إلى الصلاة على أنَّها شكل من أشكال محاولات الإنسان للتأقلُم مع بيئته والحصول على قدرٍ من السيطرة على قوى الطبيعة. وبحسب هذه النظريَّة، تبدأ الصلاة بالذِّهن البشريِّ الجمعيِّ الذي "يشبه عقليَّة الطفل أو المريض بالعُصاب. والسمة المميَّزة لهذه العقليَّة هي التفكير السحريُّ الطفوليّ".[13]

وبمرور الوقت، صارت الصلاة أكثر تطوُّرًا وأكثر تأمُّليَّةً، ولم تَعُدْ محاولاتٍ للتَّواصل مع إلهٍ شخص، بل استهدفت التبصُّر الداخليَّ والسعيَ وراء تغيير الوعي والوصول إلى حالة من السلام الداخليّ. من هذا المنظور، فإنَّ الممارسات التأمُّليَّة للفلاسفة اليونانيِّين كانت نوعًا من التطوُّر الذي طرأ على الصلاة بعد أن كانت ذبائح وتضرُّعات تقدَّم إلى الإله زيوس لاستِدْرار المطر، والحصول من ثَمَّ على محاصيل وافرة. وفي النهاية، كان هؤلاء المنظِّرون يؤمنون بأنْ ليس للصلاة البشريَّة مستقبل. فحيث إنَّ الصلاة نشأت بوصفها إحدى المحاولات غير العلميَّة للسيطرة على العالم، فكلَّما تقدَّم العلم، سيتضاءلُ الاحتياج إليها، وستختفي بالتَّدريج.[١٤]

من المفكِّرين المهمِّين أيضًا الذين ينبغي أن ندرسَ رأيهم، عالم النفس كارل يونغ (Carl Jung)، والذي عاش في أوائل القرن العشرين، وقد رأى أنَّ الصلاةَ هي تواصل مع الداخل أكثر من التطلُّع إلى الخارج.[١٥] لقد كان يونغ يعتقد، مثل المفكِّرين الشرقيِّين، أنَّ جميع البشر هم جزءٌ من قوَّة الحياة الكونيَّة[١٦]، وأنَّنا نتوجَّه نحو الصحَّة والاكتمال كلَّما أدركنا انتماءَنا وتوحُّدنا بالكون وبكلِّ هذا العالم الذي يؤلِّف وحدةً وجوديَّة واحدة.[١٧] وأشار يونغ إلى التماثل ما بين هذه العمليَّة وخبرة من البوذيَّة الصينيَّة (Zen Buddhism)† المُسمَّاة الساتوري (Satori).[١٨] لذلك فإنَّ أتباع يونغ لم يشجِّعوا على محاولة التواصل مع إلهٍ شخصيٍّ يوجد خارج أنفسهم.[١٩] وبحسب وجهة نظرهم، فإنَّ من الأفضل تغيير الوعي، والحصول على وعي أنقى، والشعور بالتوحُّد بالوجود كلِّه بالتأمُّل الرُّوحانيّ.[٢٠]

† هي الخبرة التي ينال فيها المرء بصيرةً بطبيعته الحقيقيَّة، وهي إحدى الخبرات المهمَّة في الروحانيَّة البوذيَّة (المترجم).

الصلاة الصوفيّة في مقابل الصلاة "النبويّة"

من الجدير بالملاحظة أنَّه بحسب تقييم فرويد ويونغ، يُعدُّ التأمُّل نوعًا من الصلاة أسمى وأرقى من تقديم الطلبات لإلهٍ شخصيّ. أمّا الدارس الألمانيُّ فريدريك هيلر (Friedrich Heiler) فيقترح رؤية مختلفة، إذ يتكلّم عن الصلاة التي لها بؤرةٌ داخليّة "صوفيّة" والصلاة التي لها بؤرة خارجيّة "نبويّة". وعلى خلاف المنظِّرين السابقين، يرى أنَّ الثانية أسمى من الأولى. لقد كان هيلر يؤمن بأنَّ أكثر الصلوات صوفيّةً كانت توجد في الأديان الشرقيّة، إلّا أنّه هاجم أيضًا الأشكال الصوفيّة من الصلوات المسيحيّة.[٢١]

بحسب هيلر، تقلِّل الصوفيّة (أو السرِّيَّة) من حقيقة الاختلاف ما بين الله والإنسان المُصلِّي، وذلك في إطار هدفها أن "يذوب المصلِّي في الاتّحاد بالله".[٢٢] لذا فالتديُّن الصوفيُّ السرِّيّ يرى أنَّ التأمُّل الهادئ بلا أيِّ كلام هو أسمى أنواع الصلاة، وأنّنا عندما نحقّقه، لا نعود نتكلّم إلى الله، بل نصير جزءًا منه. ويضعُ هيلر هذا في مقابل "الصراخ الحارّ والتضرُّع أمام الله"، والحوار الذي يتصارع بالكلام مع الله في الصلاة النبويّة.[٢٣] وهو يقصد بهذا نوعَ الصلاة الذي نراه في الكتاب المقدّس في المزامير وكتابات الأنبياء، ثمَّ في حياة الرسل ويسوع المسيح نفسه.

وبحسب وجهة نظر هيلر، يختلفُ نوعا الصلاة أساسًا في مفهومهما عن الله.[٢٤] لقد كان يعتقد أنَّ الصلاة الصوفيّة، تؤكّد قرب الله أكثر من سموِّه. فهو فينا وفي كلِّ شيء من حولنا. وهكذا فإنَّ الطريقة الأساسيّة للتواصل معه هي بالغَوص في أنفسنا حيث نصل إلى ذلك الشعور بالاتّحاد بالله. مثلًا، يقول اللاهوتيُّ الأرثوذكسيُّ أنتوني بلوم (Anthony Bloom) في كتابه المشهور "**البدء في الصلاة**" *(Beginning to Pray)*: "تخبرُنا الأناجيل بأنَّ ملكوت الله هو أصلًا في داخلنا...فإنْ كنّا لا نستطيع أن نتقابلَ مع الله في الداخل، في أعماق نفوسنا، فإنَّ فرصَنا أن نلتقيَه خارج أنفسنا تكون محدودة جدًّا...لذا ينبغي أن نتوجّه إلى الداخل قبل أيِّ شيء".[٢٥]

أمَّا الصلاة النبويَّة، فهي على العكس من ذلك تؤكِّد أنَّ الله خارجنا ومتسامٍ عَنَّا، وهو قدُّوس ومجيد و"مختلف".[٢٦] اختلافُ آخر كبيرٌ بين هذين النوعَين من الصلاة، بحسب هيلر، هو في فهم النِّعمة. فإنَّ هيلر يعتقد أنَّ الصلاة الصوفيَّة يمكن أن تتحوَّل إلى "شيء...نحصل به على نوع من الشعور بالجدارة والاستحقاق، ومحاولة من البشر أن يُخلِّصوا أنفسهم بأنفسهم".[٢٧] فالصلاة الصوفيَّة تتضمَّن عمليَّة طويلة من "تنقية النفس"- "صعود تدريجيٌّ مُجهِدٌ إلى قمم البصيرة والتوحُّد بالله"[٢٨] الذي به يحقِّق العابد حالةً من المحبَّة النقيَّة، ويصير مؤهَّلًا ومستحقًّا لحضور الله.[٢٩]

أمَّا الصلاة التي كان يرفعُها الأنبياء وكتَّاب المزامير، فيرى هيلر أنَّها لم تكن محاولات لتنقية النفس أمام الله، بل كانت محاولات للاعتماد الكامل على "سخاء" نعمة الله. ليست الصلاة من مكتَشَفاتنا أو من إنجازاتنا، بل هي عمل الله في الإنسان.[٣٠] لذا فإنَّ الهدفَ من الصلاة النبويَّة ليس الذوبان في الله، بل الاقتراب منه، كما يقترب طفل من والدَيه، أو كما يقترب صديق من صديقه. وتصل الصلاة الصوفيَّة إلى قممها في الهدوء والسكينة دون كلام، أمَّا الصلاة النبويَّة فتصل إلى تعبيرها الأسمى في كلمات الحمد والتسبيح التي تحملُ مشاعر الحبِّ والافتتان بالله. وبينما تميل الصلاة الصوفيَّة إلى فقدان الحدود الفاصلة بيننا وبين الله، فإنَّ الصلاة النبويَّة تقودنا إلى مزيد من الشعور بالفروق التي بيننا وبين هذا الإله المجيد، وتزيد من شعورنا بخطيَّتنا أمام قداسته، إلَّا أنَّها أيضًا تحتفل وتفرح بحقيقة نعمته وقبوله لنا، نحن الخطاة. تلك النعمة التي تفتح لنا الباب أمام العلاقة الحميمة به. ويؤمن الصوفيُّون بأنَّ الصلاة تتكوَّن من مراحل متتالية: الطلبة، صعودًا إلى الاعتراف، ثمَّ إلى العبادة، فالتأمُّل دون كلام.[٣١] أمَّا الصلاة النبويَّة فهي ترفض أن ترى أيًّا من هذه الأشكال أسمى من الأشكال الأخرى؛ فهي تمزج ما بين التأمُّل والطلبة والشكر والاعتراف والعبادة في آنٍ معًا. في الواقع، تحفِّز هذه الأشكال بعضها بعضًا في الصلاة النبويَّة، وتُعمِّق بعضها بعضًا، كما أنَّها تؤدِّي إلى بعضِها بعضًا.[٣٢]

الصوفيُّ النبويّ

أيُّ وجهتَي النظر هي صحيحة؟ هل هؤلاء الذين يناصرون النظرة الصوفيَّة الداخليَّة إلى النفس، أم هؤلاء الذين يرفضونها حاسبين إيَّاها "شرقيَّة" أكثر من اللازم، وليست مؤسَّسةً تمامًا على الكتاب المقدَّس؟[٣٣] إحدى الإجابات عن هذا السؤال هي رفض الاثنين معًا. في كتاب "**تاريخ الصلاة**" *(Prayer: A History)*، انتقد فيليب وكارول زاليسكي النظريَّات "التطوريَّة" الأقدم، وكذلك نظريَّة هيلر. هما يقولان إنَّ هاتين المقاربتَين تتميَّزان أنَّهما شديدتا السلبيَّة، لذا فهما "تستبعدان نسبة كبيرة من تراث الصلاة العالميّ".[٣٤] ويتساءلان، كيف يمكن أن يلغي أيُّ إنسان معظم الصلوات الإنسانيَّة؟ ورغم أنَّهما يُقرَّان ببعض الاختلافات، فإنَّهما يرفضان أن يحسبا أيًّا من هذين النوعَين متفوِّقًا على الآخر.[٣٥]

مع أنَّ هذا التقييم الذي يقدِّمه فيليب وكارول زاليسكي يُمدُّنا بالكثير من المعلومات، فإنَّه يتجاهل الكثير من الفروق العميقة بين هذين النوعَين من الصلوات الإنسانيَّة. مثلًا، محاولتهما الجريئة عقدَ التشبيه ما بين غَيبة النشوان التي كان يختبرها الراهبُ الهندوسيُّ سري راماكريشنا (Sri Ramakrishna) والتكلُّم بالألسنة الذي يختبره بعض المسيحيِّين- هي محاولات غير مقنعة.[٣٦] يشترك الباهاڤا سامادي (Bhava Samadhi) أو "الوعي النشوان" الذي يختبره رهبان راماكريشنا مع التكلُّم بالألسنة في شكل الفرح الخارجيّ، غير أنَّ كلًّا منهما يستهدف شيئًا آخر تمامًا. يصفُ أحد الرهبان الهندوس هذه الخبرة الصوفيَّة بقوله إنَّه عندما يحصل عليها، فحينها "لا يكون هناك إله أتكلَّم معه سوى نفسي". ويستمرُّ هذا الراهب في قوله إنَّ اليهود الأرثوذكس، أو المسيحيِّين، أو المسلمين لا يمكنهم أن يسعوا إلى الحصول على مثل هذا الإحساس بالتوحُّد مع الكون، ومع ذلك يظلُّون أتقياء بحسب أديانهم؛ حيث إنَّ فقدان الإنسان لهويته وذوبانه في الكون يُعَدُّ هرطقة مميتة بحسب تعليم هذه الأديان.[٣٧] وحيث إنَّ الأهداف مختلفة والآلهة متباينة في أذهان هؤلاء المصلِّين،

فمن المُضلِّل جدًّا الإصرار أنَّ كلَّ أشكال الصلاة هي في النهاية شيء واحد.

أعتقد أنَّ هيلر أكثر حكمة من الزوجَين زاليسكي في تمييزه ما بين الاثنين، وأظنُّه مصيبًا أكثر في فرضيَّته الأساسيَّة. فهو يؤمن بأنَّ الصلاة التي تفترضُ شخصانيَّة الله أفضل من الصلاة التي لا تتضمَّن مفهومَ التواصل بين أشخاص.[٣٨] وهو يرى أنَّ الصلاة حوارٌ لفظيٌّ أكثر من كونه لقاءً صوفيًّا بلا كلام. إلَّا أنَّ بعضًا من الفروق التي يقدِّمها هيلر مبالَغٌ فيها بعض الشيء. هو يُقابِل ما بين الهدوء والسكينة التي ينشُدُها المصلِّي الصوفيُّ، بصرخات الصراع التي يُطلقها المُصلِّي النبويّ، بينما تتكلَّم بعض المزامير فعلًا عن التأمُّل الهادئ في جمال الرَّبّ (مزمور ٢٧: ٤) أو مجده ومحبَّته (مزمور٦٣: ١-٣). في المزمور ١٣١: ٢، يتكلَّم داود عن حالة من الرضى والشبع الروحيِّ في الربّ: "هدأت وسكنت نفسي، كفطيم نحو أمِّه، نفسي نحوي كفطيم". أمَّا جوناثان إدواردز الذي كان ميَّالًا إلى الصلاة "النبويَّة" البروتستانتيَّة أكثر من الصلاة الصوفيَّة الكاثوليكيَّة، فقد تكلَّم في الوقت نفسه عن الشعور بالانسكاب والفناء في أثناء الصلاة. في الروايات الشخصيَّة، وهي نوع من المذكِّرات التي كان إدوارد يعبِّر فيها عن خبراته الروحيَّة، كتب:

> "ذات مرَّة...سنة ١٧٣٧م في أثناء التأمُّل الروحيِّ والصلاة، رأيتُ مشهدًا فائقًا للمعتاد. رأيتُ مجدَ ابن الله، شفيعًا بين الله والإنسان، وشعرتُ بنعمته ووداعة تنازله، ومحبَّته العظيمة الكاملة النقيَّة والجذَّابة...ظهر شخصُ السيِّد المسيح بمجده الذي لا يوصف، والذي يُمكنه أن يبتلع فيَّ كلَّ فكرٍ أو فهم...واستمرَّ هذا مدَّة ساعة تقريبًا على ما أظنُّ، وكنتُ في أغلب ذلك الوقت في فيضان من الدموع، والبكاء بصوتٍ مسموع. شعرتُ بغمر من الحماسة الروحيَّة لم أدرِ كيف أعبِّر عنها؛ فقد شعرتُ بالخواء والفناء.

رقدتُ على التراب ممتلئًا فقط بالسيِّد المسيح- أحبُّه حبًّا مقدَّسًا ونقيًّا، وأثق به، وأحيا به، وأتبعه وأخدمه، وأنال منه القداسة والنقاء الإلهيَّين الكاملَين". [٣٩]

كلُّ مَن يعرف لاهوت إدواردز يُدرك أنَّه لا يتكلَّم عن الاتِّحاد بالله أو ذوبان الحدود بين الإنسان والكون كما يقول المؤمنون بوحدة الوجود. إنَّ هيلر محقٌّ في الإشارة إلى أنَّ المتصوِّفين كثيرًا ما حاولوا الوصول إلى نوع من الخلاص الشخصيِّ بواسطة التأمُّل، وهذا أبعد ما يمكن عن فهم إدواردز للفداء بالإيمان وبالنعمة وحدهما. غير أنَّ خبرة الشركة مع الله التي اجتاز فيها تُشابه الكثير من خبرات النشوة والمحبَّة العميقة التي تَردُ في روايات الكتَّاب الصوفيِّين.

لماذا إذًا يستطيع إدواردز أن يتكلَّم عن الصلاة إلى إله شخصيٍّ متَسام بهذه اللهجة الصوفيَّة؟ لأنَّه مع أنَّ إله الكتاب المقدَّس هو إلهُ قدُّوسٌ ومختلف عنَّا، فإنَّه في الوقت نفسه ليس ببعيد عنَّا. يؤمن المسيحيُّون بأنَّ "المسيح فيهم، رجاء المجد" (كولوسِّي ١: ٢٧)، وذلك بسُكنى الروح القدس وعمله. أيضًا أعطانا الله كلمته، الكتاب المقدَّس، الذي هو ليس مجرَّد مستَودعٍ للمعلومات، بل هو كلمة الله الحيَّة التي لها سُلطةٌ روحيَّة:

"لقد كان لي وقتها، وفي أوقات أخرى، السرور الأعظم في الكلمة المقدَّسة وفي كلِّ أسفارها. وفي أوقاتٍ كثيرة، كلَّما كنتُ أقرأ، كانت تبدو لي كلُّ كلمة كأنَّها تلمس قلبي. كنتُ أشعرُ بتناغمٍ يحدث ما بين شيءٍ ما في قلبي، وهذه الكلمات العذبة القويَّة. كثيرًا ما شعرتُ بأنَّ كلَّ جملةٍ تُشعُّ نورًا وغذاءً روحيًّا مُنعشًا، حتَّى إنِّي أتوقَّف عن القراءة، وأتأمَّل طويلًا في جملة واحدة، لأتفرَّس في ما تحمله. بدا الأمر كأنَّ كلَّ جملة تحمل عجائب". [٤٠]

هذا الكلام صوفيٌّ روحانيٌّ عميق، وهو نبويٌّ في الوقت نفسه. ولا يعني هذا أنَّ إداوردز كان يغوص في نفسه لكي يتلامسَ مع أصل الوجود غير الشخصانيّ، بل كان يتأمَّلُ في كلمة الله في الكتاب المقدَّس، والخبرة الناتجة ليست مجرَّد حالة من الصفاء والهدوء بلا كلمات. لم تكن هذه حالة من "الوعي الصافي" الذي يتجاوز التفكير والتحقُّق العقلانيّ. لقد غمرته في الواقع قوَّة الكلمات والحقائق التي تُشير إليها. أعتقد أنَّ هيلر على حقٍّ في هذا الصدد: أنَّ الصلاة في النهاية تجاوُبُ الإيمان مع كلمة الله السامية، ونعمته الفائقة، وليس غوصًا في الذات لاكتشاف حقيقة الاتِّحاد بالوجود وبالله. إنَّ تعريف هيلر للصلاة النبويَّة هو أقرب إلى المفهوم الكتابيِّ للصلاة منه إلى تعريفات المفكِّرين الآخرين ممَّن تطرَّقنا إلى دراستهم. ورغم أنَّ تحذيراته بشأن التصوُّف مهمَّة، فإنَّنا نحتاج لأن نُدركَ أنَّ الصلاةَ يُمكن أن تؤدِّي بصورة منتظمة إلى اللقاء الشخصيِّ مع الله، الذي يُمكن أن يكونَ بالفعل رائعًا وعجيبًا وغامضًا وملآنًا بمشاعر الرهبة والخشوع.[٤١]

غريزةٌ وعطيَّة

لقد رأينا أنَّ الصلاة ظاهرة عالميَّة، غير أنَّ هناك في الوقت نفسه فروقًا جوهريَّة لا يُمكن التقليل منها بين الأنواع المختلفة للصلاة. ويُعيدنا هذا ثانيةً إلى السؤال: ما جوهر الصلاة؟ كيف يمكننا أن نُعرِّفَها بطريقةٍ تتيحُ لنا أن نفهمَ سبب تغَلغُلِها في الحياة الإنسانيَّة، وفي الوقت نفسه ننمو في التطبيق الإيمانيِّ نحو الصلاة الحقيقيَّة؟

من وجهة نظر الكتاب المقدَّس، عندما تكاد تكون الصلاة ظاهرة كونيَّة فهذا أمرٌ لا يثير الدهشة؛ فكلُّ البشر مخلوقون "على صورة الله" (تكوين ١: ٢٦-٢٧). إنَّ حَمْلَ صورة الله يعني أنَّنا مُصمَّمون للتواصل مع الله. لذا كتب جون كالڤن، أحد اللاهوتيِّين المُصلحين من القرن السادس عشر، عمَّا يُسمى "ديڤيناتس سنسَم" (Divinatis Sensum)، أي الشعور الفطريُّ بالإله لدى كلِّ البشر. "هناك وعيٌ فطريٌّ

بالألوهة في العقل البشريّ" ، لذا "فإنَّ بذورَ الدِّين مغروسة في الجميع".[٤٢] ويرى لاهوتيُّون آخرون أيضًا أنَّ هذا الوعي بالله هو السبب في تغلغل ظاهرة الصلاة في الجنس البشريِّ كلِّه. ويقول بولس الرسول في رومية ١: ١٩-٢٠ إنَّنا عندما ننظر إلى العالم، نستنتج أنَّ قوَّةً عظمى خلقته، وهي تحفظُه أيضًا. ويمكن أن توقظَ فينا هذا الإدراكَ البدائيَّ بوجود إلهٍ قويٍّ وقادر خبراتُ الضعف والاحتياج، وتحوِّله إلى صرخات لطلب المساعدة.

كان اللاهوتيُّ الإنكليزيُّ جون أوين أيضًا يؤمن بأنَّ الشعورَ بالدافع الطبيعيِّ للصلاة موجودٌ لدى كلِّ الناس، وهو أمرٌ "أصيل في قانون الطبيعة"، ويُعدُّ أمرًا من "الاعتراف الطبيعيِّ والضروريِّ والأساسيِّ بالكيان الإلهيّ". وأضاف أنَّ الكثير من الأديان والثقافات غير المسيحيَّة تُخجِل المسيحيِّين بدأبها في الصلاة".[٤٣] ويضيف جوناثان إدواردز: "يُسرُّ الله أحيانًا أن يستجيبَ صلوات غير المؤمنين".[٤٤] ليس بسبب أيِّ إلزام، بل بدافع "الشفقة"؛ فلدى الله كامل "السيادة في الشفقة"، أي أنَّه يُشفِقُ على مَن يُشفق ويرحم مَن يرحم. ويوردُ إدواردز مثلًا من الكتاب المقدَّس لاستماع الله صرخة أهل نينوى (يونان ٣)، وأيضًا استجابة الله صلوات أخآب، الملك الشرِّير (١ملوك ٢١: ٢٧-٢٨).

بالنظر إلى كلِّ هذا، يُمكننا أن نُعرِّفَ الصلاةَ بأنَّها تواصلٌ شخصيٌّ بالتجاوُب مع معرفة الله. ولدى كلِّ البشر معرفة ما بالله متاحةٌ لهم. وفي مستوى ما من مستويات الوعي الإنسانيّ، يُدرك الناس أنَّهم يحتاجون إلى شيء أو شخص أعلى وأعظم منهم بصورةٍ لامتناهيَّة. الصلاة هي الرغبة في التجاوب والتواصل مع هذا الكِيان ومع تلك الحقيقة، حتَّى وإنْ لم يتعدَّ ذلك الصراخ في الهواء طلبًا للمعونة.

أعتقد أنَّ هذا هو القاسمُ المشتركُ بين كلِّ أشكال الصلاة وأنواعها. لكنْ لأنَّ تعريفَنا يفهمُ الصلاة على أنَّها تجاوُبٌ مع معرفة الله، فيعني هذا أنَّ الصلاة تتأثَّر تأثُّرًا عميقًا بقدرِ هذه المعرفة ومدى دقَّتها. ورغم أنَّ كالڤن يُدرك أنَّ لدى الجميع وعيًا بالله،

فقد لاحظَ أيضًا أنّنا نميل إلى إعادة تشكيل هذا الشعور بالألوهة ليُناسبَ اهتماماتِنا ورغباتِنا، إلّا إذا كنّا نُصَحِّح رؤيتنا لله وننقّيَها بعمل الروح القدس والكتاب المقدّس.[٤٥]

الصلاة إذًا هي التجاوُب مع معرفة الله، غير أنَّ هذا التجاوب يُفعَّل على مستوَيَين: في أحدهما، الصلاة هي غريزة إنسانيّة لطلب المعونة بناءً على وعي عامٍّ بالألوهة، فتكون عندئذٍ محاولة للتواصل، لكنَّها لن تكونَ حوارًا حقيقيًّا؛ لأنَّ هذه المعرفة لله غامضة وملتَبِسة. أمَّا على المستوى الآخر، فالصلاة هي هبة روحيَّة. يؤمن المسيحيُّون بأنَّ رؤيتنا لله تصير واضحةً وجليَّةً بالكتاب المقدَّس وقوَّة الروح القدس. وفي اللحظة التي نولَد فيها ثانيةً بالروح القدس بالإيمان بالمسيح (يوحنّا ١: ١٢-١٣، ٣: ٥)، فإنَّ الروح القدس يكشف لنا أنّنا لسنا مجرَّد رعايا الله، بل نحن أيضًا أولاده، ويمكننا أن نتحاورَ معه كأب (غلاطيَّة ٤: ٥-٦).[٤٦]

إنَّ معرفة الله التي تثير فينا الصلاة الفطريَّة الغريزيَّة هي معرفة تأتي إلينا بالحدس المباشر بواسطة الطبيعة (رومية ١: ٢٠). أمَّا ما يعرفه المسيحيُّون عن الله فيأتي إليهم بالكلام الواضح بواسطة الكتاب المقدَّس ورسالته الأساسيَّة- الإنجيل. يمكننا بالكتاب المقدَّس، كلمة الله الحيَّة، أن نستمعَ إلى الله يتكلَّم إلينا بينما نتجاوبُ بالصلاة، غير أنَّه لا يُمكن أن نُسمِّي ذلك ببساطة "تجاوُبًا". فبواسطة الكلمة والروح القدس، تصير الصلاة تجاوُبًا مع الله-حوارًا كاملًا.[٤٧]

حوارٌ ولقاء

لدينا الآن تعريفٌ للصلاة يؤكِّد شموليَّة الصلاة بوصفها نشاطًا بشريًّا، وهو يساعدنا في الوقت نفسه أن نُفرِّق تفريقًا مهمًّا ما بين الصلاة بوصفها نشاطًا إنسانيًّا عامًّا، والصلاة بوصفها حوارًا حقيقيًّا مع الله. كلُّ الصلاة هي تَجاوُبٌ إنسانيٌّ لحقيقة الله. في كلِّ الحالات الله هو المُبادر- "الاستماع" دائمًا ما يكون قبل الطلب. يأتي الله إلينا أوَّلًا، وإلّا فلا يمكننا أن نصلَ إليه.[٤٨] وفي الوقت نفسه، ليست كلُّ الصلوات

شيئًا واحدًا أو على الدرجة نفسها من الفاعليَّة في التواصل مع الله، فكلَّما كان فهمنا لله واضحًا، كانت صلواتنا أفضل. والصلاة الفطريَّة هي مثل إطلاق صاروخ الاستغاثة الذي تطلقه السفن التائهة في عُرض البحر طلبًا للنجاة، وهي ردُّ فعل لشعور عامٍّ بوُجود الله بوصفه قوَّة عُظمى. أمَّا الصلاة بوصفها عطيَّة روحيَّة، فهي حوارٌ شخصيٌّ في تفاعل مع إعلان الله الواضح عن نفسه. غير أنَّ الصلاة يمكن أن تكون أكثر من ذلك. الكثير من حواراتنا بعضنا مع بعض، أو ربَّما أغلبها، هي حواراتٌ سطحيَّة نسبيًّا. يمكننا أن نتبادلَ المعلومات دونما أدنى كشف للذَّات. لكنْ يمكن أن تكونَ بعضُ الحوارات أعمق، فنشعر بأنَّنا ليس فقط نتبادل المعلومات، بل نكشف أيضًا ذواتنا الحقيقيَّة. عندئذٍ تصير الحوارات لقاءات شخصيَّة، واتِّصالات إنسانيَّة حقيقيَّة.

تحكي رواية سي. أس. لِويس "**القوة البشعة**" *(The Hideous Strength)* التحوُّل الذي وقع لإحدى الشخصيَّات، وهي جاين ستَدوك (Jane Studdock) بعد حوار مهمّ. لقد كانت تتخيَّل "الدِّين" كأنَّه سحابة من البخور "تنبعث من بعض النفوس المُنعَم عليها نحو سماءٍ مُرحِّبة"، والتي تتجاوب بعد ذلك بالمكافآت والبركات المتنوِّعة. فجأة حضرتْها في ذهنها صورةٌ مختلفة تمامًا، ليست عن مجهودات بشريَّة تصعد إلى فوق، بل صورة "الله... يدان قويَّتان ماهرتان تندفعان نحو الأسفل لتصنعا وتُصلِحا". ثمَّ، بناءً على هذه المعلومات الجديدة، شعرت بأنَّها تدخل في "محضر شخص. صبور ومنتظر، ثابت لا يعتريه التغيير، يقابلها دون حاجز أو حجاب بينهما". الله يقابلها. ونتيجة لذلك، تغيَّر كلُّ شيء من حولها. حتَّى منظر الفِطر الذي ينمو تحت الشجيرات، والطحالب التي تغطِّي أحجار الممرّ، والحافَة الصغيرة المصنوعة من الطوب الأحمر- لم تعترِ أيًّا منها تغييراتٌ منظورة، إلَّا أنَّها لم تعد كما كانت. لقد كان هناك حاجزٌ جرى عبوره.[٤٩]

وعلَتْ في ذهنها مباشرةً أصوات عدَّة: كان الصوت الأوَّل هجومًا مباشرًا

يقول: "احذري. انسحبي. احتفظي بعقلك. لا تسلِّمي نفسك"، أمَّا الصوت الثاني فكان أكثر خبثًا، وكان يريدها أن تجعلَ من هذا الشعور خبرةً مثريةً للحياة تمكِّنها من الاستمتاع الأكبر بحياتها الحاضرة. كانت هذه الأصوات تقول: "لقد نلتِ خبرةً دينيَّة. هذا أمرٌ مثيرٌ للاهتمام. لا ينالُ الجميع مثل هذه الخبرة. ستفهمين الآن شعراء القرن السابع عشر."[٥٠] يضيفُ الراوي في رواية لِويس في الختام، "لكنْ كان قد استُولِيَ على كلِّ دفاعاتها، فباءتْ كلُّ تلك الهجمات المضادَّة بالفشل".[٥١]

أمَّا العنوان الذي وضعه لِويس لهذا الفصل فكان "الحياةُ الحقيقيَّة لقاءٌ".[٥٢] إنَّها كذلك بالفعل، وهذا صحيح لا سيَّما للحياة في المسيح. لقد تغيَّرت حياة جاين عندما قابلت الله. ويتكلَّم الكتاب المقدَّس عن علاقتنا بالله بأنَّها معرفتنا لله ومعرفة الله لنا (غلاطيَّة ٤: ٩؛ ١كورنثوس ١٣: ١٢). ليس الهدف مجرَّد مشاركة أفكارنا، بل مشاركة شخصيَّاتنا نفسها. ثمَّ إنَّ التواصلَ الحقيقيَّ يؤدِّي إلى كشفٍ متبادَلٍ للشخصيَّات، ولا يمكن إلَّا أن يكونَ هذا خبرةً حيَّةً وفعَّالة. يكتب جاي. آي. باكر (J. I. Packer) في كتابه المشهور "**معرفة الله**" *(Knowing God)* ما يلي:

> "إنَّ معرفة الله هي نوع من التفاعل الشخصيِّ الحميم...ومعرفة الله نفسه هي أكثر جدًّا من أن نعرف عنه؛ فهي التعامُل معه عندما ينفتحُ الله على الإنسان، ويتعامل معه...الأصدقاء...يفتحون قلوبَهم بعضهم لبعض بما يقولونه ويفعلونه...علينا ألَّا نفقد رؤيَّة حقيقة أنَّ معرفة الله علاقة وجدانيَّة، وهي أيضًا علاقة فكريَّة وإراديَّة، ولا يمكن أن تكون هناك علاقة عميقةٌ ما بين شخصَين إن لم تكن كذلك".[٥٣]

ما معنى الصلاة إذًا؟ الصلاة هي الحوار المستمرُّ مع الله الذي يبدأ بكلمته ونعمته، ويستمرُّ حتَّى يصير لقاءً متكاملًا معه.

الاستماع والاستجابة

في أغلب سفر أيُّوب- ذلك السفر العظيم- يصرخ أيُّوب إلى الله في صلواتٍ متألِّمة. ورغم كلِّ شكوى أيُّوب، فإنَّه لم يترك الله ولم يُنكِرْ وجوده. لقد كان يتعامل مع كلِّ ألمه ومعاناته بالصلاة. لكنَّه لم يستطع أن يقبلَ نوعَ الحياة التي يدعوه الله ليحياها. ثمَّ فجأةً تتجمَّع الغيوم في السماء، ويتكلَّم الله إلى أيُّوب "من وسط الزوبعة" (أيُّوب ٣٨: ١). في هذا اللقاء يصفُ الله خلقه ورعايته للكون وللعالم الطبيعيِّ بتفاصيل مشرقةٍ وواضحة. عندئذٍ يشعر أيُّوب بالدهشة وتدفعه هذه الرؤية العميقة إلى حالةٍ من التعبُّد والتواضع (أيُّوب ٤٠: ٣-٥)، بهذا تحدُثُ له اختراقةٌ روحيَّةٌ في إيمانه، ويرفع في النهاية صلاة التوبة والعبادة العظيمة التي نقرأها في الأصحاح ٤٢ (أيُّوب ٤٢: ١-٦).

يقدِّمُ السِّفر القضيَّةَ التي يثيرها بدايته. هل يمكن أن يحبَّ الإنسان الله لذاته؟ وهل يكفيه هذا الحبُّ ليكونَ راضيًا في حياته مهما كانت الأحوال التي يواجهها في الحياة؟ (أيُّوب ١: ٩)؟[٥٤] ونرى الإجابة في نهاية السفر. نعم، هذا ممكن، لكن فقط بالصلاة.

ماذا جرى؟ كلَّما كانت رؤية أيُّوب لله أوضح، جاءت صلواته أعمقَ وأغنى، فتحوَّلت من مجرَّد صرخات شكوى إلى اعترافات- إلى مناشدة وتسبيح وحمد. وفي النهاية حدث الاختراق الذي جعله متقبِّلًا لكلِّ ما يحدث في الحياة. هذه التنقية وذلك التمحيص الجديد الذي حدث لأيُّوب وهذا المستوى من الشخصيَّة الذي تحقَّق في حياته، جاء بفعلِ التفاعل والاستماع لكلمة الله المعلَنة والتجاوب معها بالصلاة. كلَّما صارت معرفة الله أصدقَ وأكثر واقعيَّة، صارت هذه الصلوات أكثر فاعليَّة وإثمارًا، وكان التغيير في حياته شاملًا وقويًّا.

لا تعتمدُ قوَّة صلواتنا إذًا على مجهوداتنا وأشواقنا، أو على أيَّة تقنيَّة من التقنيَّات، بل تنبعُ قوَّة الصلوات من المعرفة الحقيقيَّة لله. ربَّما يكون ردُّ فعلك على

ذلك الكلام هو شيء من قبيل: "لكنَّ الله تكلَّم إلى أيُّوب من العاصفة بصوتٍ مسموع. أتمنَّى لو يتكلَّم الله إليَّ كذلك". إجابتي عن هذا الكلام هي أنَّنا، نحن مؤمني العهد الجديد، نلنا ما هو أفضل من ذلك؛ إذ نلنا إعلان الله عن نفسه وعن شخصيَّته في أجلى إعلان ممكن. "الله، بعدَ ما كلَّمَ الآباء بالأنبياء قديمًا، بأنواعٍ وطُرُق كثيرة، كلَّمَنا في هذه الأيَّام الأخيرة في ابنه، الذي جَعَلَه وارثًا لِكلِّ شَيء، الذي به أيضًا عَملَ العالَمينَ، الذي، وهو بَهاءُ مَجده، ورَسْمُ جَوهَره، وحاملٌ كلَّ الأشياء بِكَلمة قُدرَتِه" (عبرانيِّين ١: ١-٣).

إنَّ يسوع المسيح هو الكلمة- كلمة الله (يوحنَّا ١: ١-١٤)؛ لأنْ ليس هناك تواصلٌ ما بين الله والناس أكمل ولا أشمل ولا أكثر شخصانيَّة وجمالًا من هذا التواصل. إنَّنا لا نستطيع أن ننظرَ مباشرةً إلى الشمس بعيوننا؛ فإنَّ عَظَمة ضوئها الباهر وبهائها يُمكن أن يدمِّرا أبصارنا في الحال. علينا أن ننظرَ إليها من خلال مرشِّحات. عندئذٍ نستطيع أن نرى أشعَّتها وجمال ألوانها. عندما ننظر إلى يسوع المسيح كما تصفُه لنا الكلمة المقدَّسة، فإنَّنا ننظرُ عندئذٍ إلى بهاء مجد الله من خلال مرشِّحٍ هو الطبيعة الإنسانيَّة للمسيح. هذا أحد الأسباب الكثيرة، كما سنرى، الذي يجعل المسيحيِّين يصلُّون "بِاسْم يسوع المسيح". فبالسيِّد المسيح، تصير الصلاة، كما يصفها المصلح الاسكتلنديُّ جون نوكس (John Knox) "حوارًا جادًّا وحميمًا مع الله". ويدعوها جون كالڤن "حوارًا شخصيًّا" للمؤمن مع الله، وفي مكان آخر "شركةَ البشر مع الله"- تفاعُلًا تواصليًّا متبادلًا.[٥٥] فبواسطة السيِّد المسيح يمكن أن يكون لنا...دخول بروح واحد إلى الآب (أفسس ٢: ١٨).

الفصل ٤

الحوارُ مع الله

تعلَّمنا أنَّ الصلاة غريزة إنسانيَّة، وفي الوقت نفسه هي عطيَّة روحيَّة. والصلاة بوصفها غريزةً هي تجاوُبٌ تلقائيٌّ لمعرفتنا الفطريَّة المجتزَأة عن الله. إنَّها مثل رسالة في زجاجة موجَّهة إلى "أيِّ إله يمكن أن يكون موجودًا". أمَّا الصلاة بوصفها عطيَّة من عطايا الروح القدس فهي استمرارٌ للحوار الذي بدأه الله. وإذا استمرَّ الحوار، كما هي الحال في الحوارات الطيِّبة، فإنَّ الصلاةَ تصير لقاءً مع الله- السماء على الأرض.

وحيث إنَّ الصلاة هي تجاوُبُنا مع الله، فعلينا الآن أن نستكشفَ كيف أنَّ الله هو الذي يتكلَّم إلينا في البداية، وكيف نتعلَّم عندئذٍ أن نجيبَه.

لقاء إله شخصيّ

إنْ لم يكُنِ الله شخصًا، كما هي الحال في الديانات الشرقيَّة، فالمحبَّة- التي تحدثُ بين الأشخاص- هي مجرَّد وهم. ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إنَّ شخصيَّة الله إذا كانت بسيطة وأحاديَّة، فالمحبَّة ما كانت لتظهَرَ في الوجود إلَّا بعد أن خلقَ الله مخلوقاتٍ عاقلةً أخرى. ويعني هذا أنَّ الله كان في البداية مجرَّد قوَّةٍ وليس شخصًا، ولَما كانت المحبَّة عندئذٍ في الأهمِّيَّة ذاتها للقوَّة.

تعلِّمُنا عقيدة الثالوث المسيحيَّة بدلًا من ذلك أنَّ الله واحد في ثلاث شخوص تعرفُ وتحبُّ بعضها بعضًا قبل فجر الزمن.[1] إذا كان الله مثلَّث الأقانيم، فسيُنظَرُ

إلى الكلمات واللغة عمومًا بصورةٍ مختلفة. في الأصحاحات ١٤-١٧ من إنجيل يوحنَّا يشيرُ السيِّد المسيح إلى حياة الثالوث قبل أن يأتي هو إلى العالم، فيتكلَّم عن "المجد الذي كان لي عندك [عند الآب] قبل تأسيس العالم" (يوحنَّا ١٧: ٥)، ويتحدَّثُ بشأن "الكلام" الذي أخذه من الآب (يوحنَّا ١٧: ٨). ففي الثالوث من الأزل، كان هناك حوارٌ وتواصلٌ بالكلام- الآب يتكلَّم إلى الابن، والابن يتكلَّم إلى الآب، والآب والابن يتكلَّمان إلى الروح القدس.[٢] وفي يوحنَّا ١٧، نلمح جانبًا من هذا الكلام في صلاة يسوع للآب. إنَّه حوارٌ إلهيّ.[٣]

وقد قال الكثير من الفلاسفة إنَّ الله روح خالصة، لذا فلَيس من المناسب أن نحسبَ أنَّ الله يتكلَّم.[٤] غير أنَّ يسوع يقول إنَّ "السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول" (متَّى ٢٤: ٣٥). وينكر الفيلسوف نيكولاس ولترستروف (Nicholas Wolterstroff) وغيره أنَّ الله لا يتكلَّم. ويطبِّق ولترستروف نظريَّة جاي. اَي. أوستن (J. I. Austin) الخاصَّة بالكلام والفعل، والتي تشير إلى أنَّ الكلمات هي أيضًا أفعال. الكلمات ليس فقط تقول أشياء، بل هي أيضًا تُنجز أشياء. إنْ كان الله موجودًا ولديه قدرة على العمل، فليس هناك سبب يمنعه من الكلام؛ لأنَّ الكلمات هي أيضًا أفعال. حيث إنَّ الله يحوي داخله مجتمعًا من الشخوص؛ ولأنَّ اللغة أمرٌ جوهريٌّ في العلاقات بين الأشخاص، فهناك كلُّ الأسباب التي تجعلنا نتوقَّع أنَّ الله يتواصل بالكلام.

لذا، فإنَّ الصلاة المسيحيَّة ليست هي القفز في هوَّة من المجهول، ولا هي حالة من الوعي الزائد والخالي من الكلام. وما ينتج هذه الحالة ليس الكلمات بحدِّ ذاتها، بل الأصوات. "إنَّ تقنيات الاستعداد للوصول إلى حالة التأمُّل المُصاحب بترديد كلمات وأصوات والتي تُسمَّى السامادي (Samadhi) تتميَّز بترديد أصوات وتنهُّدات أو أفعال. أمَّا التفكير التحليليُّ فيجري تجاهُلُه لمصلحة الوعي الحدسيّ، وهو حالة مسترخية تُعلَّق فيها الهويَّة الفرديَّة والذوبان في الوجود الكلِّيّ".[٥] أمَّا

الصلاة المسيحيَّة فهي شركة مع إلهٍ شخصيٍّ يصادقنا بواسطة الكلام. ويتضمَّن نمط الصلاة أيضًا بحسب الكتاب المقدَّس التأمُّلَ في كلمات الكتاب المقدَّس حتَّى يحدث التجاوُبُ الروحيُّ العميق مع الله في الكيان كلِّه، فيكتب ناظمُ المزمور: "وحِّد قلبي...حتَّى أحمَدَكَ يا ربُّ إلهي من كلِّ قَلبي" (مزمور ٨٦: ١١-١٢).

لقاء الله بواسطة كلمته

تقدِّم نظريَّة الكلام والعمل برهانًا مقنعًا أنَّ كلماتنا ليست فقط لنقل معلومات، بل هي أيضًا تجعل الأشياء تحدث. لكنَّ لكلمة الله قوَّةً تتجاوز قوَّة كلماتنا بما لا يقاس. ويحتجُّ تيموثي وورد (Timothy Ward) في كتابه "**كلمات الحياة**" (*Words of Life*) أنَّ كلمات الله وأفعاله متطابقة.[٦] وهو يقتبس تكوين ١: ٣: "ليكن نور، فكان نور". ويلاحظ وورد أنَّ هذه الفِقرة لا تقول إنَّ الله تكلَّم في البداية، ثمَّ بدأ يفعل ما تكلَّم به. لا! لقد خلقتْ كلمتُه نفسُها النورَ. وعندما يطلق الله اسمًا على شيء، فإنَّ كلمتَه نفسَها تشكِّل هذا الشخص. عندما سمَّى أبرام إبراهيم - "أبٌ لجمهور كثير"- فإنَّ تلك الكلمة نفسها جعلت ذلك الشيخَ وزوجتَه قادرَين بيولوجيًّا وروحيًّا أن ينجبا جنسًا كاملًا (تكوين ١٧: ٥). مزمور ٢٩ بأكمله هو أنشودة تمجِّد قوَّة صوت الله وكلامه. "صوتُ الربِّ يكسر الأرز، ويكسر الربُّ أرز لبنان. صوت الربِّ يزلزل البرِّيَّة، يزلزل الربُّ برِّيَّة قادش (مزمور ٢٩: ٥، ٨). إنَّنا نرى مرَّة أخرى أنَّ ما يفعله صوت الله، هو ما يفعله الله. إنَّ كلام الله وأعماله أمران متساويان. يضع إشعياء ٥٥: ١٠-١١ هذه الحقيقة الروحيَّة بكلِّ قوَّة.

> "لأنَّه كما ينزلُ المطرُ والثَّلجُ من السَّماء ولا يرجِعان إلى هناك، بل يُروِيان الأرض ويجعلانها تلدُ وتُنبتُ وتُعطي زرعًا للزَّارع وخُبزًا للآكل، هكذا تكونُ كلمتي التي تخرُجُ من فمي. لا ترجعُ إليَّ فارغةً، بل تعملُ ما سُررتُ به وتنجحُ في ما أرسلتُها له".

نقول نحن البشر: "ليكُنْ نور في هذه الغرفة"، لكنْ بعد ذلك يكونُ علينا أن نضغطَ زرَّ الإضاءة أو أن نضيءَ شمعة. تحتاجُ كلماتنا إلى أفعالٍ تسندُها، ويمكن أن تفشلَ كلماتُنا في ما أرسلت له. أمَّا كلمات الله فلا يمكن أن تفشل في قصدها؛ لأنَّ كلامَ الله وأعماله هما أمرٌ واحد. إله الكتاب المقدَّس هو إله يعمل بالتكلُّم.[٧] عندما يتكلَّم الكتاب المقدَّس عن كلمة الله، فهو يتكلَّم عندئذٍ عن "حضور الله الفاعل في العالم".[٨] وعندما نقول إنَّ كلمة الله تخرج لتفعلَ شيئًا ما، فهذا يعادل تمامًا أن نقول إنَّ الله خرج ليفعلَ هذا الشيء. لذا فعندما يتجاوزُ الإنسان وصايا الله أو كلماته، فهو يتجاوزُ علاقته بالله. "لذا يمكننا أن نقولَ إنَّ الله استثمر نفسَه في كلماته، أو أن نقول إنَّ الله توَحَّدَ بكلامه حتَّى إنَّ مَن يفعل شيئًا بكلام الله...يفعله بالله نفسه... إنَّ عملَ الله اللفظيَّ هو بصورةٍ ما امتدادٌ له".[٩]

إنَّ لهذا التعليم الكتابيِّ الأساسيِّ تداعياتٍ هائلةً، وأحد هذه التداعيات يتعلَّق مباشرةً بقضيَّة الصلاة. "أحيانًا يفترض الأشخاص من ذوي العقليَّة الصوفيَّة أنَّ الكلمات تعدُّ إعاقةً لهدف التواصل العميق مع الله، لكنَّ هذا غير حقيقيّ". إذا كانت كلمةُ الله هي حضورَه الشخصيَّ الفاعل، فعندما نضعُ ثقتَنا في كلام الله، نحن نضع ثقتنا في الله نفسه. "التواصل من جانب الله بواسطة كلمته هو شركة حقيقيَّة معه، وذلك عندما نضع ثقتنا فيه". ودون شكّ، يمكن أن تكونَ في الصلاة فترات من الصمت البسيط في محضر الله، لكن حتَّى على المستوى الإنسانيّ، "عندما يجلس رجل وامرأة في أحد المطاعم يتطلَّعان بصمت في وجه بعضهما بعضًا، فإنَّهما يكونان في علاقة عميقة وأصيلة إذا كانا يفعلان ذلك بعد نحو عشرين سنة من الزواج الحافل بالكلام والحوار، وليس عندما يكون ذلك هو أوَّل لقاء بينهما، ولم يسبق لهما أن تكلَّما معًا من قبل".[١٠]

كيف علينا إذًا أن نستقبل كلام الله؟ أوَّلًا يأتي إلينا كلام الله في الكلمة المقدَّسة. يقول الكتاب المقدَّس إن الله يضع كلماته في فم أنبيائه (تثنية ١٨: ١٥-٢٠؛ إرميا ١:

٩-١٠). بمجرَّد أن يستقبلَ نبيٌّ كلمات الله، فإنَّه يمكن أن تُكتَب وتُقرأ هذه الكلمات بعد ذلك بفاعليَّة بوصفها كلام الله، حتَّى لو لم يَعُدِ النبيُّ موجودًا، أو حتَّى بعد أن يموتَ ويرحل (إرميا ٣٦: ١-٣٢). الكتاب المقدس هو إذًا كلمة الله المكتوبة، ويظلُّ كلمة الله عندما نقرأه اليوم. النتيجة إذًا واضحة: يعمل الله بواسطة كلماته، والكلمة "حيَّة وفعَّالة" (عبرانيِّين ٤: ١٢)، لذا فإنَّ الطريقة التي بها نجعلُ الله فعَّالًا في حياتنا هي بالكتاب المقدَّس. أن نفهم الكلمة المقدَّسة يعني ليس فقط أنَّنا نحصل على معلومات عن الله، بل أيضًا يكون الكتاب المقدَّس بالفعل- إذا انتبَهنا إليه بثقة وإيمان- هو الطريقة التي بها نستمع إلى الله يكلِّمنا ونلتقيه شخصيًّا.

الصلاة بكلمة الله

نعرف مَن نصلِّي إليه فقط عندما نتعلَّم ذلك بالكتاب المقدَّس. ونعرف كيف ينبغي أن نصلِّي فقط بالكتاب المقدَّس الذي يمدُّنا بالحصيلة اللغويَّة التي تساعدنا على التواصل مع الله. وهذا لا ينبغي أن يثير استغرابنا؛ فنحن نرى هذه الديناميَّة الأساسيَّة تحدث في حياة كلِّ إنسان وهو صغير.

يذكِّرنا يوجين بيترسون (Eugene Peterson) بالقول: "لأنَّنا تعلَّمنا اللغة باكرًا جدًّا في حياتنا، فإنَّنا لا نتذكَّر كيف حدث ذلك". ونتصوَّر عندئذٍ أنَّنا نحن الذين أخذنا زمام المبادرة لنتعلَّم الكلام. لكنْ ليس هذا ما يحدث. "اللغة هي كلمات يتكلَّم بها إلينا مَن هم أكبر منَّا. إنَّنا نتعلَّم الكلام عندما يتكلَّم إلينا الآخرون. فعندما نولَد، نقفز في بحرٍ من اللغة...ثمَّ نكتسبُ القدرة على التجاوب مع الكلام ببطء، حرفًا بحرف ومقطعًا بمقطع: ماما، بابا، نعم، لا. لم تكن أيٌّ من كلماتنا ونحن أطفال كلمات أولى. لقد كانت دائمًا تجاوبًا مع مَن تكلَّم إلينا قبل أن نتكلَّم نحن".[١١] منذ أن كتب بيترسون هذا الكلام، كشفت الدراسات أنَّ قدرة الأطفال على الفهم والتواصل تتأثَّر بشدَّة بعدد الكلمات، واتِّساع الحصيلة اللغويَّة التي يتعرَّضون لها في طفولتهم الباكرة. إنَّنا نتكلَّم فقط بمقدار ما يُتكلَّم إلينا.

لذا فمن الضروريّ لممارسة الصلاة أن ندرك ما يسمّيه بيترسون "تفوُّق كلام الله إلينا، على كلامنا نحن إليه في الصلاة".[١٢] ولهذا المبدأ اللاهوتيّ نتائجُ عمليَّة؛ فهو يعني أنَّ صلواتنا ينبغي أن تنشأ من انغماسنا في كلمة الله، كما ينبغي أن نلقي بأنفسنا في غمر كلام الله ولغته، أي الكتاب المقدَّس. وينبغي أيضًا أن نستمع إلى الكلمة المقدَّسة، وندرسها، ونفكِّر ونتأمَّل فيها بعمق حتَّى تتفاعلَ في عقولنا وقلوبنا. ربَّما يكون ردُّ الفعل هذا شعورًا بالخزي أو بالفرح أو بالحَيرة أو بالتضرُّع والطلب، لكنَّ التجاوب مع كلمة الله يُعدُّ في كلِّ الأحوال صلاةً حقيقيَّة يجب أن تُرفَعَ إلى الله.

إذا كان هدف الصلاة هو إجراء اتِّصال حقيقيٍّ وشخصيٍّ بالله، فلن نتعلَّم الصلاة إلَّا أن نقفزَ في بحر لغة الكتاب المقدَّس. ربَّما ببطء كما يتعلَّم الطفل الكلام. ودون شكّ، لا يعني هذا أنَّه ينبغي لنا أن نقرأ الكتاب المقدَّس قبل كلِّ صلاة. تحتاج قطعة الإسفنج أن تشبَّع بالماء من وقتٍ إلى آخر لكي تنجزَ عملَها المستمرَّ في تنظيف الأسطح. يمكننا أن نستمرَّ في الكلام إلى الله في اليوم كلِّه، ما دمنا نُمضي أوقاتًا كافيةً أمام كلمته. يتأمَّل بيترسون في صلوات كتَّاب الكلمة المقدَّسة وشخصيَّاتها المحوريَّة، ويخلُص إلى القول عن صلواتهم:

> "لم تكن صلواتٍ يرفعُها أشخاصٌ يحاولون أن يفهموا أنفسَهم. ولم تكن سجلًّا لأناس يحاولون أن يجدوا معنًى للحياة، بل كانت صلواتٍ رفعَها أناسٌ كانوا يفهمون جيِّدًا أنَّ الله، وليس مشاعرهم، هو الأمر المحوريُّ في الصلاة...ربَّما أثارت الخبرات الإنسانيَّة هذه الصلوات ودفعتها، لكنَّها لم تكن صلواتٍ شكَّلتها الخبرة الإنسانيَّة...لم يكن فقط الإيمان بالله هو الذي شكَّلها، بل أيضًا عقيدة متكاملة عنه".[١٣]

نحن نكتشف في الكتاب المقدَّس إلهًا حقيقيًّا وغنيًّا في شخصه. إذا كانت لك علاقة شخصيَّة بأيِّ إنسان حقيقيّ، ستشعر بالحَيرة وأحيانًا بالغضب منه. لذا فإنَّ

الإله الذي تقابله على صفحات الكتاب المقدَّس، كثيرًا ما سيجعلك تشعر بالحَيرة والارتباك، وكذلك بالدَّهشة والإعجاب والهدوء والتعزية. يجب أن تكون صلواتك دائمًا متَّصلة ومتأصِّلة في قراءتك للكتاب المقدَّس. ويكوِّن هذا التزاوج ما بين الكتاب المقدَّس والصلاة مرساة للحياة تربطها بالإله الحقيقيّ.

الصلوات اللفظيَّة في تفاعلها مع شخص الله

في الفصل المُعَنون "الصلاة والتصوُّف"، يكتب اللاهوتيُّ دونالد بلويش عن كتابات المتصوِّف مايستر إكهارت (Meister Ekhart) وجون تاولر (John Tauler) اللذين عاشا في القرون الوسطى. وفي هذا الفصل، يسجِّل بلويش ملاحظات أنَّ "الخبرة الصوفيَّة في عمق أعماقها، تتجاوز العقل والكلام والأفكار".[١٤] وكما يكتب المؤلِّف الكاثوليكيُّ توماس ميرتون (Thomas Merton) "إنَّ المعرفة الصوفيَّة لله...تتسامى فوق المفاهيم. إنَّها معرفة تسجِّل نفسها في الروح دون أفكار".[١٥] يريد المتصوِّف أن يركِّز انتباهَه فقط على الله وليس على كلمات أو أفكار عن الله. العقلانيَّة هنا تبدو أشبه بعائق ما بين القلب والله.

لكنَّ بولس يدعو المؤمنين أن يحتفظوا بعقلانيَّتهم بينما يصلُّون. "أُصلِّي بالرُّوح، وأُصلِّي بالذِّهنِ أيضًا. أرتِّلُ بالرُّوح، وأرتِّلُ بالذِّهنِ أيضًا" (١كورنثوس ١٤: ١٥). نحن في النهاية، نصلِّي بالكلمات للآب بواسطة الابن، الذي هو الكلمة (يوحنَّا ١: ١). كان مارتن لوثر مصرًّا على أنَّنا يجب ألَّا أن "نتجاوز" كلمةَ الله في الكتاب المقدَّس، وإلَّا فلن نعرفَ مَن نتكلَّم معه. "ينبغي أوَّلًا أن نسمع الكلمة، وبعدها يعمل الروح القدس في قلوبنا. إنَّه يعمل في القلوب التي يشاء بالطريقة التي يشاء، لكن ليس دون الكلمة".[١٦]

ومن الكتَّاب المعاصرين الذين يقدِّمون احتجاجًا مشابهًا، جون جيفرسون دايڤز (John Jefferson Davis) في كتابه المفيد "**التأمُّل والتواصل مع الله**" *(Meditation and*

(Communion with God).[١٧] إذ يصل دايڤز إلى نتيجة مفادها أنَّ طرق الصلاة مثل "صلاة التمركُز" (Centering Prayer) أو "صلاة يسوع" (The Jesus Prayer)، مع كلِّ فوائدها، فإنَّها ليست مناسبة تمامًا لمن يفهَمون أنَّ الصلاةَ هي تجاوُبٌ لفظيٌّ مع إعلان الله اللفظيِّ في الكتاب المقدَّس، وأنَّها عطيَّة لهؤلاء الذين يشعرون بالأمان في نعمة الله. صلاة التمركز أو التمحور مبنيَّة على الكتاب المكتوب في القرن الرابع عشر "**سحابة الغموض**" *(The Cloud of Unknowing)*، وهو يدور حول فكرة أنَّ الله روح نقيٌّ فينا، وهو يتجاوز أيَّ أفكار أو مفاهيم أو صور.[١٨] والهدف منها هو الراحة في محضر الله دون أيِّ محتوى أو كلمات- إنَّها تتجاوز الاستطراد المنطقيَّ للأفكار، وتختبر انتباهًا خالصًا للروح القدس بالاستخدام الهادئ والمتكرِّر لكلمة واحدة مثل الله أو المحبَّة.[١٩] وينتقد دايڤز ذلك، وهو على صواب، بالإصرار على أنَّ استخدام اللغة ليس أمرًا عرضيًّا، بل هو جوهريٌّ في كيان الله الأبديِّ كوحدة بين ثلاث أقانيم، وأنَّ المؤمنين ينبغي أن يتقدَّسوا بكلمة الحقِّ التي يعطيها الآب ليسوع (يوحنَّا ١٧: ٨، ١٧) والتي ينقلها إليهم الروح القدس (١كورنثوس ٢: ١٣).[٢٠]

كما أنَّه يشير أيضًا إلى أنَّ حركة الصلاة المسيحيَّة في الكتاب المقدَّس ليست باطنيَّة نحو النفس (رغم أنَّ هناك مكانًا لفحص الذات والتوبة) بل هي علويَّة نحو الله، لكي ندرك مكانتَنا الحقيقيَّة في المسيح، وكي نعيدَ ضَبْطَ قلوبنا بناءً على هذه الحقيقة. "إنْ كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق...اهتمُّوا بما فوق لا بما على الأرض" (كولوسِّي ٣: ١-٢). ليس علينا أن نتوقَّفَ عن التفكير واستخدام اللغة، غير أنَّ علينا أن نوجِّه كلماتِنا وأفكارَنا نحو السماء.[٢١]

كان دايڤز أقلَّ انتقادًا لما يسمَّى "صلاة يسوع" ("أيُّها الربُّ يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ")، لكنَّه لا يزال ينصح بعدم الاعتماد عليها أكثر من اللازم. كانت هذه صلاة عتيقة تُستخدَم في الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشرقيَّة لتُقالَ بصورة متكرِّرة مدَّة طويلة، وتُردَّد مع التنفُّس دون صوت طَوال اليوم. ويقول

دايڤز إنَّه رغم أنَّ هذه جملة مكوَّنة من كلمات، فإنَّ التكرار يفقدها عنصرَ التفكير، حتَّى إنَّها يمكن أن تُستخدَم لحذف التفكير، والتواصل واللغة، والحوار، بطريقة صلاة التمركز وغيرها من التأمُّلات الشرقيَّة. ويمكن أن تُحدِثَ الأصوات المتكرِّرة مع التنفُّس المنتظم تأثيراتٍ نفسيَّة-جسديَّة شبيهة بصلوات التصوُّف الإسلاميّ.[٢٢]

كما يشير دايڤز إلى أنَّ صلاة يسوع لا تشتمل على الصلاة إلى الآب بواسطة السيِّد المسيح، مع أنَّ هذا هو جوهر الصلاة بحسب ما علَّمه يسوع نفسه (متَّى ٦: ٩). الآب غير مذكور في هذه الصلاة. وفي هذه الصلاة نحن نأتي إليه فقط بوصفنا "خطاة"، لا بوصفنا أولادًا يشعرون بالأمان في محبَّته، لذا لا تشيرُ الصلاة إلى المكانة التي أعطاها الله لنا، بوصفنا أبناء مقبولين وغفرت خطاياهم.[٢٣] يمكن أن تُستخدَم "صلاة يسوع" هذه بصورةٍ سحريَّةٍ أو طقسيَّة، أو بوصفها طريقة لجذب انتباه الله "بكثرة كلامنا" (متَّى ٦: ٧). لذا فإنَّ دايڤز يقترح تطوير طرقٍ للتأمُّل والصلاة مبنيَّة على فهمٍ أقوى لشخصيَّة الله المتكلِّم، ولإيماننا بأنَّنا مقبولون ومُبرَّرون لديه، وبأنَّنا أبناء متبنَّون.

وكما هي العادة، ينبغي أن نصل إلى حالة من التوازن، ويصل جاي. آي. پاكر إلى هذه الحالة فيقول إنَّه "ذلك الاعتقاد المميَّز النابع من الغنوسيَّة والأفلاطونيَّة الحديثة، أنَّه يمكنُ إدراك الله والتأمُّل فيه، بوصفه حضورًا غير شخصيٍّ أكثر من كونه صديقًا شخصيًّا". ثمَّ يستمرُّ فيقول إنَّ "الاقتراب غير المعرفيِّ من الله، والذي فيه يُخلى الذِّهن من أيِّ أفكار شخصيَّة عن الله، أو من أيِّ أفكار عمومًا، ما هو سوى تصوُّف شرقيٍّ في ثوبٍ غربيّ".[٢٤]

إلَّا أنَّ پاكر يذكِّرنا أنَّه "لا يزال هناك مكان للصَّمت في محضر الله...بعد أن نكونَ قد تكلَّمنا إليه، وذلك عندما تغزو النفسَ فرحةُ إدراك محبَّة الله". من المناسب في بعض المرَّات أن نعبدَ الله ونحمده في سكون. عندما يكون شخصان في حالة حبّ، تأتي أوقات يستطيعان فيها فقط أن ينظرا بعضهما إلى بعض بابتسام

وصمت، دون الحاجة إلى الكلام، فقط للاستمتاع بالتواصل الحميم".[٢٥] لكنْ حتَّى الذين هم في حالة عميقة من الحب، سيبحثون تلقائيًّا عن الكلمات وأساليب التعبير عن مشاعرهما. لذا فهو يختتم بقَوله: "الصلوات بلا كلام ليست قمَّة جبل الصلاة، ولكنَّها الوقفات والسكتات بين الصلوات المنطوقة".[٢٦]

الصلوات المختلفة في تفاعلها مع مجد الله

علينا أن نستخدم في الصلاة الكلام، لكنْ ما نوع الكلام الذي يجب استخدامه؟ كلُّ الأنواع. تكشف المزامير عن طيف واسع من أشكال الصلاة. فهناك تعبيرات الدهشة والتعجُّب، والطلبات والتضرُّع، وهناك الصراخ وطلب الله، وهناك أيضًا الاعترافات ولوم النفس. وتمثِّل هذه الصلوات ليس فقط أنواعًا شديدة الاختلاف من الخطاب، بل تعكس أيضًا توجُّهاتٍ قلبيَّةً متباينة ومشاعر مختلفة أيضًا. عندما نُترك لأنفسنا، ولثقافاتنا وطبائعنا الشخصيَّة، نجد أنواعًا عديدة من اللغة التي لا نميل بتاتًا إلى استخدامها. في المزامير نجد كلامًا يمثِّل ارتفاعاتٍ وهبَّات مزاجيَّة لا يمكن أن يستخدمها أصحابُ المزاج السوداويِّ من تلقاء أنفسهم. كما أنَّ هناك أيضًا أعماقًا من التبصُّرات القلبيَّة لا يمكن أن يكتشفَها مَن يميلون إلى الانفتاح والأنشطة الخارجيَّة. هناك أيضًا تساؤلات وشكاوى يطرحها ناظمو المزامير على الله، لا تستطيع أن تستوعبَها الشخصيَّات الانطوائيَّة.

إنَّنا لا نستطيع أن نصلِّي بكلِّ أشكال الصلاة الكتابيَّة إذا كنَّا نبادر بالصلاة حاسبين إيَّاها تفاعلًا مع احتياجاتنا الداخليَّة وحالتنا النفسيَّة. يمكن أن تصدرَ كلُّ هذه الصلوات منَّا إذا كنَّا نتجاوب بالصلاة بحسب ما يكشف لنا الله في الكلمة المقدَّسة. ويصوِّرُ الكتاب المقدَّس الله في صورةٍ مجيدةٍ ورقيقةٍ معًا- قدُّوس وغفور، مُحبٌّ وقريب، وفي الوقت نفسه غير قابل للاستقصاء. لذا لا يمكن أن تكونَ الصلاة مجرَّد اعترافات أليمة، أو هتافِ تسبيح، أو طلباتٍ وتضرُّعات. لا يمكن أن تشتمل

فقط على نوع واحد من الصلوات. من جهةٍ أخرى، تبدو بعض صلوات الكتاب المقدَّس مثل حوار هادئ مع صديق، وتشبه صلواتٌ أخرى توسُّلًا يُرفَع إلى ملك عظيم، وتشبه ثالثة مباراة في المصارعة. لماذا؟ في كلِّ حالة من هذه الحالات تتحدَّد طبيعة الصلاة بشخصيَّة الله، الذي هو دائمًا صديقنا وأبونا وحبيبنا وراعينا وملكنا. ولا ينبغي أن نقرِّرَ أن نصلِّي بناءً على أنواع الصلوات التي تنجح في توليد المشاعر التي نريدها. إنَّنا نصلي في تفاعلنا مع الله نفسه. وتشتملُ كلمة الله لنا على الكثير من أنواع الخطاب، وفقط إذا كنَّا نتجاوب مع كلمة الله، ستكون حياة الصلاة عندنا غنيَّة ومتنوِّعة.

مأساة الصلاة "الحرَّة"

يقول يوجين پيترسون إنَّه يجب أن تكونَ نقطةُ بداية الصلاة عندك الانغماس في كلمة الله. وهناك مقاربة أخرى نراها في كتاب آن لاموت (Anne Lamott) بعنوان "**النجدة، شكرًا، يا للعجب: الصلوات الأساسيَّة الثلاث**" *(Help, Thanks, Wow: The Three Essential Prayers)*. في هذا الكتاب تعلن آن لاموت في البداية أنَّ فهمك لله ليس مهمًّا للصلاة.

"فلنقُل إنَّ الصلاة هي ذلك الذي ما أسماه اليونانيُّون «الحقيقيُّ جدًّا»، أو إنَّها ما يوجد داخلنا في ما وراء الغلاف الذي تشكِّله قيمنا ومراكزنا وقَناعاتنا وجروحنا. أو لنقلْ إنَّها صرخة من الداخل للحياة أو الحبِّ- الحياة الحقيقيَّة والحبِّ الحقيقيّ. لا يهمُّ الاسم الذي نضعه لهذه القوَّة التي نتوجَّه إليها...ليتنا لا ننشغل ونتعطَّل بالتفكير في مَن نصلِّي له سواء كان شخصًا أم حتَّى شيئًا. لنُطلِق صلواتنا من قلوبنا للتواصل مع ذلك السرِّ الأعظم، أو الصلاح الكونيِّ الكامل...إلى طاقة الحبِّ التي تحرِّك الكون، والتي تكون لدينا الشجاعة أحيانًا لنؤمن بها- إلى ذلك الشيء الخارج عنَّا والأكبر من قدرتنا على التخيُّل...وللتَّسهيل فلنسمِّه...الله". [٢٧]

ربَّما يكون الأمر أنَّها تحاول ببساطة أن تدعو الناس غير المتيقِّنين بإيمانهم بالله أن يبدأوا في التوجُّه نحوه. وإذا فُهِمَ كتاب لاموت بهذه الطريقة، فهو يكون دعوة بسيطة للمتشكِّك لأن يصلِّي دون إثارة دفاعاته التقليديَّة ضدَّ الدين، غير أنَّ هذا ليس سوى خطوة أولى ومبدئيَّة؛ فأن تقول لشخص ما أن يصلِّي، ولا يهتمَّ بمن يكون الله الذي يصلِّي إليه، أو ما هو إيمانه بشأن هذا الإله، فهذا لا يمكن أن يكون مبدأً يساعد على استمرار الصلاة، لأنَّك لا تستطيع أن تنمو في علاقة بشخص دون أن أن تعرفَ مَن يكون.

وبطريقة فريدة تُسمِّي لاموت ثلاث فئات تقليديَّة من الصلاة: النجدة (الطَّلَب والتضرُّع)، شكرًا (الشكر)، ويا للعجب! (التسبيح والتمجيد). غير أنَّ اللافت للنظر أنَّ الكتاب يتجاهل أحد أهمِّ الأشكال الكلاسيكيَّة للصلاة، وهو صلاة التوبة والاعتراف.[٢٨] وإذا قارنَّا هذا الكتاب ببعض المقالات التي في الحجم نفسه عن الصلاة، والتي كتبها أغسطينوس ولوثر، وبالصلاة الربَّانيَّة ذاتها، يظهر جليًّا غياب التشديد على صلاة الاعتراف.[٢٩] ظنِّي أنَّ هذا لأنَّها تبدأ من نقطة ليست هي معرفة الله التي يعلِّمنا إيَّاها الكتاب المقدَّس. لقد قالت إنَّه يجب ألَّا "تعطِّلنا" محاولات معرفة مَن يكون الله. يجب فقط أن نصلِّي. والمشكلة هي أنَّه عندما لا يكون الله هو نقطة البداية، تصيرُ احتياجاتنا الوجدانيَّة هي القوَّة المحرِّكة والبؤرة الواضحة لصلاتنا.[٣٠] وهذا سيحدُّ على نحو لا يمكن تجنُّبه، من الصلاة ويحرمها طيفَها الواسع الموجود في الكتاب المقدَّس.

يكتب إدموند پي. كلاوني (Edmond P. Clowney) قائلًا: "لا يقدِّم إلينا الكتاب المقدَّس تعليمًا تقنيًّا عن الصلاة، بل يقدِّم إلينا إله الصلاة نفسه".[٣١] لذا لا ينبغي أن نقرِّر كيف نصلِّي بناءً على الاختبارات والمشاعر التي نرغب فيها، بل يجب أن نفعل كلَّ ما هو ممكن لننظر إلى إلهنا كما هو، وستنسابُ الصلاة عندئذٍ منَّا. كلَّما حصلنا على رؤية أوضح لمن هو الله، شكَّلت هذه الرؤية وحدَّدت صلاتنا.

ودون الانغماس في كلمة الله، ستكون صلاتنا ليس فقط محدودة وسطحيَّة، بل أيضًا منفصلة عن الواقع. ربَّما لا نكون عندئذٍ متجاوبين مع الإله الحقيقيِّ، لكنْ مع أمانينا الشخصيَّة عن الله والحياة. في الواقع، إذا ما تُركَتْ قلوبنا لنفسها، فستخلقُ لنفسها إلهًا غير موجود. سيُريد أبناء الثقافة الغربيَّة إلهًا محبًّا غفورًا، ولكن ليس قدُّوسًا ولا متساميًا. ومن هنا، تكشفُ الدراسات التي تناولت الحياة الروحيَّة للشباب في البلدان الغربيَّة أنَّ صلواتهم تخلو عمومًا من التوبة والشعور بالفرح عند الحصول على الغفران.[٣٢] فدون الصلاة التي تتجاوب مع إله الكتاب المقدَّس، سنخاطب أنفسنا. وقد وضع بيترسون هذه الحقيقة بصورة مباشرة كما يلي:

> "إذا تُرِكنا لأنفسنا، فسنصلِّي إلى إله يقول ما نريدُ أن نسمعَه، أو إلى الجانب من الله الذي نستطيع أن نفهمه. إلَّا أنَّ المهمَّ هو أن نتكلَّم إلى الإله نفسه الذي يتكلَّم إلينا، ونتجاوب مع كلِّ ما يقوله لنا... هناك فرق ما بين الصلاة إلى إله مجهول نرجو أن نكتشفَه ذات يومٍ، والصلاة إلى إله معلوم أعلن عن نفسه بالأمَّة العبريَّة وبالسيِّد المسيح، وقرَّر أن يكلِّمنا بلغتنا. في الصلاة الأولى نحن فقط نلبِّي شهيَّتنا الدينيَّة، أمَّا في الثانية فنحن نمارس الإيمان المطيع. الأولى أكثر إمتاعًا، أمَّا الثانية فأكثر أهمِّيَّة. إنَّ الضروريَّ في الصلاة ليس أن نتعلَّم التعبير عن أنفسنا، بل أن نتجاوب مع الله".[٣٣]

إذا استبعدنا الكتاب المقدَّس، تتحوَّل صلاتنا إلى استكشاف مشاعرنا وانطباعاتنا، وربَّما نتخيَّل أنَّ الله يقول لنا العديد من الأشياء، لكن كيف نتحقَّق بأنَّنا لا نخدع أنفسنا؟ كان جورج وايتفيلد (George Whitefield) أحدَ رؤوس الحربة للصحوة الكبرى (The Great Awakening) التي حدثت في القرن الثامن عشر في المجتمعات الغربيَّة. وكانت هذه النهضة حركة شاملة من تجديد الاهتمام بالإيمان المسيحيِّ واكبتها موجة مهمَّة من نموِّ الكنيسة في هذه البلدان. كان وايتفيلد خطيبًا

مفوَّهًا حتَّى إنَّه كان يُعدُّ أفضل واعظ في تاريخ الكنيسة. في أواخر سنة ١٧٤٣م رزق وايتفيلد وزوجته "أليصابات" (Elizabeth) طفلَهما الأوَّل. شعر وايتفيلد شعورًا قويًّا بأنَّ الله يقول له إنَّ ابنَه هذا سيكبر ويصير هو أيضًا "كارزًا بالإنجيل". وبناءً على هذا التأكيد الإلهيّ، سمَّى وايتفيلد ابنَه جون (يوحنَّا) تيمُّنًا بيوحنَّا المعمدان، الذي كانت أمُّه أيضًا "أليصابات". عندما وُلِدَ يوحنَّا، عمَّده أبوه أمام حشد كبير، وألقى عِظةً مهيبة عن الأمور العظيمة التي سيعملها الله بواسطة ابنه. كان يعلم أنَّ هناك بعض الساخرين المتهكِّمين على نبوَّاته هذه، غير أنَّه تجاهلهم.

ثمَّ بعد أربعة شهور، مات ابنه فجأة بعد نوبة تشنُّج. دون شكّ، ناح الزوجان كثيرًا على ابنهما، إلَّا أنَّ جورج تحديدًا شعر بتأنيب الضمير، بشأن الخطأ الذي وقع فيه إذ خلط ما بين كلمة الله وحدسه الشخصيّ واندفاعات أمانيه. لقد أدرك أنَّه قاد شعبه إلى الخطأ ذاته الذي خيَّب الآمال. لقد ترجمَ وايتفيلد مشاعره- مشاعر الفرح والفخر الوالديّ الطبيعيَّة والمفهومة، وكأنَّ الله يتكلَّم إلى قلبه. وبعد هذا بوقتٍ قصير، كتبَ إلى نفسه صلاة موجعة طلبَ فيها من الله أن "يجعل هذا الأب المخطئ أكثر حذرًا، وأكثر رزانة، وأكثر خبرة بألاعيب الشيطان، ومن ثَمَّ يصير أكثر نفعًا لعمل الله وكنيسته".[٣٤]

ليس الدرس هنا أنَّ الله لا يقودُ أفكارنا بتاتًا أو يحثُّنا على اختيار مسارات حكيمة لأفعالنا واختياراتنا، غير أنَّه لن نكون البتَّة متيقِّنين بكَونه يتكلَّم إلينا إلَّا إذا قرأنا ذلك في الكتاب المقدَّس.

العثور على القلب المصلِّي

عندما كان داود الملك في ذروة قوَّته، قرَّر أن يبني هيكلًا للرَّبّ. وحينها بعثَ الله إليه برسالة بواسطة ناثان النبيّ ألَّا يبني هذا الهيكل، غير أنَّ الله وعدَ داوُد بعد ذلك وعدًا: "أُقيمُ بعدَك نسلَك الذي يخرُجُ من أحشائك...هو يبني بيتًا لاسمي، وأنا

أُثبِّتُ كُرسيَّ مملكته إلى الأبد" (٢صموئيل ٧: ١١-١٣). أراد داود أن يبني بيتًا للرَّبّ، لكنَّ الربَّ قال: "لا، أنا الذي سأبني لك بيتًا". إنَّه نوع من أنواع المحسِّنات البديعيَّة في الكلام، لكنَّه قويّ. أراد داوُد أن يبنيَ للربِّ بيتًا يُظهر فيه مجده. فقال له الله إنَّ لديه عرضًا بديلًا: أن يثبِّتَ أسرة داوُد الملكيَّة التي ستعلن مجد الله على نحو أكثر استمرارًا، وأبعد أثرًا، وعلى مستوى كونيّ.

فقال داوُد في تفاعله مع هذا الوعد الكريم: "لأنَّكَ أنتَ يا ربَّ الجُنود إلَهَ إسرائيلَ قَد أعلَنتَ لِعَبدكَ قائلًا: إنِّي أَبني لك بَيتًا، لذلكَ وَجَدَ عَبدُكَ في قَلبه أن يُصلِّيَ لك هذه الصلاة" (٢صموئيل ٧: ٢٧). ويكشفُ هذا الديناميَّة الداخليَّة التي تعمل بها الصلاة. في الترجمة الدوليَّة الحديثة لهذا العدد، تُرجمَت كلمات دوُاد بمعنى أنَّه وافته "الشجاعة أن يصلِّي". ويقول النصُّ العبريُّ حرفيًّا إنَّ كلمة الله مكَّنت داود "أن يجد في قلبه أن يصلِّي لله هذه الصلاة". لقد خلقت كلمة الله في قلب داود الرغبة والدافع والقوَّة ليصلِّي. ويقول هذا المبدأ: الله يتكلَّم إلينا بكلمته، ونحن نتجاوب بالصلاة، فندخل في ذلك الحوار الإلهيِّ، والشركة مع الله.

إنَّ صلاة داود في ٢صموئيل ٧ هي صلاة عظيمة، غير أنَّ لدى المسيحيِّين ميزةً أكبر من أعظم قدِّيسي العهد القديم. دون شكّ، كان داود يتعجَّب كيف يمكن أن يتثبَّت هذا الكرسيُّ "إلى الأبد". هل هذه الكلمة فقط طريقة ملكيَّة قديمة لتفخيم الكلام؟ مثل عبارة: "ليحيَ الملك إلى الأبد"؟ لا. يخبرنا إشعياء النبيُّ عن ذلك الذي سيجلس على كرسيِّ داود...إلى الأبد". وأنَّ "لنموِّ رياسته، وللسلام لا نهاية" (إشعياء ٩: ٧). كيف يمكن أن يملكَ إنسانٌ إلى الأبد؟ كانت إجابة إشعياء هي أنَّ ذلك الطفل الذي سوف يولد سيكون "إلهًا قديرًا" (إشعياء ٩: ٦). إنَّه سوف "يولد"، لذا هو إنسان، إلَّا أنَّه إله أيضًا. واحدٌ من أبناء داود سيأخذ المُلك ولن يتركه أبدًا، وذلك بسبب قوَّة حياة إلهيَّة لا تزول (عبرانيِّين ٧: ١٦). يسوع، ابن داوُد الأبديُّ، سيفعل ذلك.

وهناك المزيد. فنحن المؤمنين به سنكون "بيت" الله- هيكل من حجارة حيَّة يسكننا الروح القدس (١بطرس ٢: ٤-٥؛ أفسس ٢: ٢٠-٢٢). والمجد الإلهيُّ ذاته الذي لم يقدر موسى أن يراه ويعيش (خروج ٣٣: ٢٠) يأتي الآن إلى قلوب هؤلاء الذين غفر لهم المسيح (يوحنَّا ١: ١٤؛ ٢بطرس ١: ٤). لا عجب إذًا أن يستطيع المسيح أن يقول، وسط دهشة سامعيه، إنَّه إن كان يوحنَّا المعمدان هو أعظم نبيٍّ قبل المسيح، فإنَّ الأصغر في تلاميذ المسيح كان أعظم منه (متَّى ١١: ١١). إنَّ كلمة قدرة الله "تسكن بغنى" في كلِّ المؤمنين، وهم مترنِّمون بمزامير وتسابيح وأغانيٍّ روحيَّة، ومصلِّين لله بفرح حقيقيٍّ لم يعرفه لا داود ولا يوحنَّا المعمدان (كولوسِّي ٣: ١٦).

وجد داود في قلبه أن يصلِّي عندما استقبل كلمة الوعد الإلهيّ: أنَّ الله سيثبِّت كرسيَّه، ويبني له بيتًا. أمَّا المسيحيُّون، فلهم وعد أعظم بكثير: ليس فقط سيبني الله لهم بيتًا، بل سيجعل منهم أيضًا بيته. سيملأهم بحضوره وجماله ومجده. في كلِّ وقت يتذكَّر المؤمنون بالمسيح مَن يكونون فيه، سيتردَّد صدى هذا الوعد في داخلهم، ومن ثَمَّ يجدون في قلوبهم أن يصلُّوا.

الفصل ٥

اللقاء مع اللّه

الصلاة هي حوار مع الله. لكنْ يمكن أن تظلَّ الحواراتُ مجرَّد تبادُلٍ للمعلومات دون أن تؤدِّي إلى اللقاء الشخصيِّ والعلاقة. إنَّنا نريد ليس فقط أن نعرفَ عن الله، بل أن نعرفَ الله نفسه- أن نطلبَ وجهه وحضوره. وقد شرح تيموثي وورد أنَّ كلامَ الله الذي يعطيه للأنبياء والرسل، والمكتوب في الكتاب المقدَّس هو الطريقة الأساسيَّة إلى لقاء الله. "إنَّ مقابلة كلام الكتاب المقدَّس هي مقابلة مع الله".[١] لذا لا ينبغي أن نستبدلَ بالحقائق اللاهوتيَّة اللقاء الوجودي، بل ينبغي أن نختبرَ الحقّ، وليس فقط أن نعرفَه. كيف يحدث هذا؟ في هذا الفصل سنفحص ما يقوله الكتاب المقدَّس عن اختبار الله. ولكي نفعل ذلك، علينا أن نستكشفَ ذلك الإله الذي نصلِّي إليه، ثمَّ ما تقوله الكلمة المقدَّسة عن كيفيَّة لقاء الله.

الذي نقابله: إله مُثلَّث الأقانيم

إنَّ الحقيقةَ اللاهوتيَّة الأوَّليَّة عن الصلاة هي أنَّنا نخاطبُ إلهًا مثلَّثًا، وصلواتُنا يمكن أن تُسمع فقط بالعمل المميَّز لكلِّ أقنوم من اللاهوت.

في العهد الجديد، تَظهَر الطبيعة الثالوثيَّة لله[٢]، لكنْ في بعض الأماكن القليلة المقتضبة مثل متَّى ٢٨: ١٩، حيث يرسل يسوع تلاميذه إلى العالم. ليُعمِّدوا "بِاسْم الآب والابن والروح القدس". لم يَقُلْ "بأسماء" بل قال إنَّ الآب والابن

والروح القدس هم اسم واحد. وتعبير "اسم" ربّما يكونُ عندنا مجرَّد عنوان أو علامة تجاريَّة يمكن التخلُّص منها أو تغييرها إذا شئنا. غير أنَّ "الاسم" في عصر الكتاب المقدَّس، كان يشير إلى جوهر الشخص وكِيانه.[٣] ويعني هذا أنَّ الآب والابن والروح القدس كلُّهم يشتركون في الطبيعة الإلهيَّة، وهم كِيان واحد. هناك إله واحد، لا ثلاثة. ومع أنَّ بولس الرسول يتكلَّم باستمرار عن ألوهيَّة السيِّد المسيح، قائلًا إنَّ فيه يحلُّ كلُّ ملء اللاهوت جسديًّا (كولوسِّي ٢: ٩)، فإنَّه يقول أيضًا إنَّه "ليس إله آخر إلَّا واحدًا" (١كورنثوس ٨: ٤)- لله طبيعةٌ واحدة، واسمٌ واحد، وكِيانٌ واحد.

إلَّا أنَّ الآب والابن والروح القدس جميعهم الله بصفة متساوية. ويكتب معلِّم الكتاب المقدَّس آر. تي. فرانس (R. T. France) "إنَّ لمن الرائع أن يأخذ «الابن» مكانتَه بوصفه الأقنوم الأوسط بين الآب والروح القدس في الثالوث، الذي هو موضوع ولاء التلاميذ وعبادتهم".[٤] لذا هناك ثلاثة أقانيم في جوهر الله الواحد، وكلٌّ منهم هو الله نفسه، وكلٌّ منهم يحبُّ الاثنَين الآخرَين، وهم جميعًا من الأزل إلى الأبد يعملون من أجل خلاص البشريَّة.[٥]

وتَداعِياتُ مفهوم الثالوث على الصلاة كثيرة؛ فهو يعني مبدئيًّا أنَّ الله منذ الأزل يعيش في حالةِ علاقةٍ تامَّةٍ وكاملة. الآب والابن والروح القدس يحبُّون بعضهم بعضًا محبَّةً كاملة، ويعطون بعضهم بعضًا كاملَ المحبَّة والإكرام، ويُسرُّون بعضهم ببعض. إنَّنا لا نعرف فرحًا أكثرَ من أن يُحِبَّ الإنسان ويُحَبَّ في المقابل، لكنَّ الإله الثالوث يختبرُ حبًّا وفرحًا بصورة لا يمكننا، نحن البشرَ، أن نتخيَّل أبعادهما اللَّانهائيَّة. لذا فإنَّ الله يختبر الفرح بصورةٍ لانهائيَّة وعميقة- وهذا لا يعني حالةً مجرَّدةً من الهدوء والسكينة، بل هو فرح غامرٌ ناتج من علاقة حبٍّ نابضة وفعَّالة. إنَّ معرفة مثل ذلك الإله لا تعني بتاتًا تجاوُزَ المشاعر، بل الامتلاء بحبٍّ وفرح مجيدَين.

إذا لم يكن الله بحاجة لأن يخلقَ كائناتٍ أخرى ليعرفَ الحبَّ والعلاقة،

فلماذا فعل ذلك؟ يقول جوناثان إدواردز في أطروحته "حول هدف الله من خلق العالم" (A Dissertation Concerning the End for Which God Created the World)، أنَّ السببَ الوحيدَ الذي جعل الله يخلقنا ليس لينالَ المحبَّة والعلاقة (لأنَّه كان يتمتَّع بهما على نحوٍ كاملٍ ولانهائيّ)، بل ليشاركنا إيَّاها.[6] ويكشف إدواردز كيف أنَّه متماشٍ مع الإله الثالوث، الذي هو في جوهر كِيانه "متَّجه نحو الآخر"، والذي يطلبُ المجدَ فقط ليمنحَه للآخرين- أن يشاركَ خلائقَه الفرحةَ والسرور الذي في كمالاته الإلهيَّة.

وكما كتب القدِّيس أغسطينوس في مقالته العظيمة عن الثالوث، أنَّ قدرتنا على محبَّة الآخرين ليست سوى صورةٍ من هذه المحبَّة الثالوثيَّة الداخليَّة التي خُلقنا أصلًا لنعكسَها.[7] إنَّنا نستطيع أن نرى لماذا يدعونا ذلك الإله الثالوث لأن نتحاوَرَ معه، ونعرفَه ونقيم علاقةً به. ذلك لأنَّه يريد أن يشاركَ معنا الفرح الذي يعيشه. إنَّ الصلاة هي طريقتنا للدخول في سعادة الله نفسه.

مَن الذي نقابلُه: أبانا السماويّ

دُعي الله أبًا في مرَّات قليلة متفرِّقة في العهد القديم. لكنْ عندما انكشفت حقيقة الله الثالوثيَّة في العهد الجديد، ظهرَتْ أيضًا أبوَّة الله واضحةً وبارزة. يرسلُ الآب الابنَ ليخلِّصَنا من الخطايا لنكونَ بالتبنِّي أبناء الله وبناته (أفسس ١: ٣-١٠). وعندما نولد من جديد بالإيمان بالسيِّد المسيح، فإنَّنا نقبلُ حقَّ أن نكونَ أولادَ الله وأن ندعوه أبًا (يوحنَّا ١: ١٢-١٣). ثمَّ يضعُ الروح القدس حياةَ الله الفعليَّة فينا- "الشبهَ الأُسَريّ"؛ فكما يشبه البنون والبنات آباءهم، نحن نشترك أيضًا في طبيعة الله. "أرسلَ الله ابنَه مَولودًا من امرأةٍ، مَولودًا تحتَ النَّاموس، ليفتديَ الذين تحت النَّاموس، لننالَ التبنِّي. ثمَّ بما أنَّكم أبناءٌ، أرسلَ الله روحَ ابنه إلى قلوبكم صارخًا: «يا أبا الآب»" (غلاطِيَّة ٤: ٤-٦).

ويطرحُ كثيرون السؤال: أليس كلُّ البشر هم أبناء الله؟ يتكلَّم الكتاب المقدَّس في بعض المرَّات عن أنَّ البشر كلَّهم "ذرِّيَّة" الله؛ فهو خالقهم جميعًا (أعمال ١٧: ٢٨)، والكلمة المستخدمة في أعمال ١٧ هي الكلمة اليونانيَّة "جينوس" (Genos) ومعناها "نسل". والحقيقة هي أنَّ الله أبٌ للجميع مثلما أنَّ هنري فورد هو أبٌ لكلِّ طرازات سيَّارات فورد. غير أنَّ كلمة "أب" تشير أيضًا إلى علاقة محبَّة ورعاية. هل استمعتَ من قبل (أو كنتَ أنت نفسك طرفًا) بحوار فيه يقولُ شابٌّ لرجلٍ أكبر منه: "لم تكن قطُّ أبًا حقيقيًّا لي!" ربَّما يجيب الرجل: "لكنَّك من لحمي ودمي". فيردُّ الشابّ: "يحتاجُ الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك ليكونَ المرء أبًا! أنت لم تكن بتاتًا حاضرًا في حياتي".

أن يكونَ أحدُهم الأبَ البيولوجيَّ لي، فهذا لا يعني أنَّه في علاقة أبوَّة حقيقيَّة بي. ويأخذ الكتاب المقدَّس المنظور ذاته عن الأبوَّة. لذا فهو يحتفظ بتعبير "أولاد الله" لأولئك الذين تبنَّاهم الله في أسرته بالنعمة بالإيمان. أن يحظى الإنسانُ بالتبنِّي هو إجراء قانونيّ، لكنَّه دون شكٍّ يعني أكثر من ذلك. أن تتبنَّاك أسرةٌ جديدةٌ يعني ثورةً في الطريقة التي ستعيش بها يوميًّا. في المسيح، يصير المؤمنون ليس فقط مُتبنِّين قانونيًّا، بل يصيرون أيضًا مؤسَّسين ومتأصِّلين في محبَّة الله الأبويَّة.[٨] في فِقرةٍ مهمَّة من فِقرات الإنجيل، يصلِّي يسوع إلى الآب من أجل أتباعه "أنا فِيهم وأنتَ فيَّ لِيَكونوا مُكمَّلينَ إلى واحد، ولِيَعلَمَ العالمُ أنَّك أرسَلْتَني، وأَحبَبتَهم كما أحبَبتَني" (يوحنَّا ١٧: ٢٣). أن نحظى بالتبنِّي يعني أن الله يحبُّنا كما لو كنَّا قد فعلنا كلَّ ما فعله يسوع. ويعني أيضًا أنَّ السيِّد المسيح، كما يقولُ أحَدُ اللاهوتيِّين: "دفعَ ثمن عقوبة" خطايانا، وفضلًا عن ذلك "اشترى لنا مكافأة الحياة الأبديَّة بطاعته الكاملة للناموس"، لذا يمكننا أن نُهرَع إلى أبينا السماويِّ بلا خوف.[٩] لقد صارت لدينا العلاقة الأكثر حميميَّةً وديمومةً بإله هذا الكون.

أن نكونَ أبناء لله يعني إمكانيَّةَ الوُصول إليه. نحن نعلم أنَّ الله يستمع إلينا بانتباه وينظر نحونا باهتمام. فكِّر مثلًا في ما تحتاج لأن تجتازه لتدخلَ وتقابل رئيس الولايات المتَّحدة مثلًا. فقط مَن يستحقُّون جزءًا من وقتِه واهتمامه، هم مَن سيُسمح لهم بالدُّخول. يجب أن تكونَ لديهم مؤهِّلات وإنجازات، وربَّما ينبغي أن يكون لديهم أيضًا قدرٌ من التأثير في المجتمع. أمَّا إذا كنتَ أحد أبناء هذا الرئيس، فالأمر مختلف. بالطريقة ذاتها، يهتمُّ إله هذا الكون بك لشخصك- لكَونك ابنَه (مزمور ٨: ٤).

الصلاة هي الطريقة التي بها نشعر ونمتلك هذا الدخول إلى هذه المحبَّة الأبويَّة، ونختبر تلك السَّكينة والقوَّة التي تنتج من الثقة بأنَّنا موضع اهتمامه.

كيف نتقابل: روحُ التبنِّي

في أفسس ٢: ١٨، يقول بولس الرسول إنَّ دخولنا إلى الآب يكون "بروح واحد". أمَّا جوناثان إدواردز فيقول إنَّ "الصلاة هي...فقط صوت الإيمان".[١٠] كلُّ مَن له إيمانٌ حقيقيٌّ سيرغبُ في الصلاة؛ لأنَّ الصلاة بواسطة الروح هي الإيمان المسموع. ويقدِّم إلينا بولس الرسول تفاصيل أكثر عن عمل الروح هذا إذ يكتب:

> "لأنَّ كلَّ الذينَ يَنقادونَ بِروح الله، فأولئكَ هُم أبناءُ الله. إذْ لَم تأخُذوا روحَ العُبوديَّة أيضًا للخَوف، بل أخَذتُمْ روحَ التبَنِّي الذي به نَصرُخُ: «يا أبا الآب». الرُّوحُ نفسُه أيضًا يَشهَدُ لأرواحِنا أنَّنا أولاد الله" (رومية ٨: ١٤-١٦).

يقول لنا بولس إنَّ روح الله يجعلُ الثقة في محبَّة الله تحلُّ محلَّ الخوف، كثقة الطفل الصغير في محبَّة أهله واهتمامهم. فيقودُنا الروح لأن "نصرخ". والكلمة اليونانيَّة هي "كرازدو" (Krazdo)*، وتعني صرخة عالية، وكثيرًا ما تُستخدَم في

* تأتي منها كلمة الكرازة (المترجم).

الكتاب المقدَّس لتشيرَ إلى الصلاة الحارَّة. ويشبِّه الرسول بولس هذه الصرخة بصرخة الطفل إلى أبيه: "يا أبا الآب". وكما يكتب المتخصِّص في دراسة الكتاب المقدَّس سي. إي. بي. كرانفيلد (C. E. B. Cranfield)، أنَّ هذه الصرخة "في أصلها صرخةٌ مفاجئةٌ تعبِّر عن دهشة الأطفال أو غضبهم أو ألمهم"، وهي كلمة يسهل نطقُها مثل "بابا" أو "ماما"[11]، ويشير إلى أنَّ مثل هذه العبارة كانت تعدُّ "حميمةً وأُسريَّة" جدًّا، بحيث لم يكن يليق أن تُستخدَم للإشارة إلى الله في الديانة اليهوديَّة، كما يقول إنَّ استخدامَ يسوع لها في صلاته الشخصيَّة (انظر مرقس ١٤: ٣٦ مثلًا) "يعبِّر عن وعيه بعلاقته الفريدة بالله، كما أنَّ تصريحه لتلاميذه أن يخاطبوا الله هكذا، يمكن فهمه على أنَّه يمكنهم مشاركته في نوع العلاقة نفسه بالله".[12]

هذه الصرخة مثل "قذيفة النجدة" التي تطلقُها السفينة التائهة في عُرض البحر، وهي محاولة يائسة قلقة لطلب المساعدة. يمنح الروح القدس المؤمنين ثقةً وجوديَّةً داخليَّةً أنَّ علاقتهم بالله الآن لا تعتمد على أدائهم مثلما هي الحال في علاقة الموظَّف بمديره أو مشرفه، بل هي، على العكس، تعتمد على محبَّة الله الأبويَّة. الروح القدس يأخذ حُكمًا لاهوتيًّا ويحوِّله إلى ثقة داخليَّة وفرح قلبيّ. وهذا يجعلك تعرف أنَّ الله يتجاوبُ مع صرختك مثلما يتجاوب الأهل مع صرخة ابنهم المجروح أو ابنتهم المتألِّمة؛ لأنَّك في المسيح، الابن الحقيقيّ. يمكنك أن تذهبَ إلى الله ممتلئًا بالثقة بأنَّك ستنالُ هذا النوع نفسه من المحبَّة والاهتمام. بكلمات أخرى، يمنحُنا الروح القدس إيمانًا ممزوجًا بالثقة حتَّى إنَّه يتحوَّل بطريقة طبيعيَّةٍ إلى صرخةِ صلاة.

وكانت هذا الثقة في مركَز حياة مارتن لوثر اللاهوتيَّة وممارسته للصَّلاة. فقد عُرفَ عنه أنَّه يصلِّي على الأقلِّ ساعتَين في اليوم، ويخرج من ذلك الوقت بشجاعةٍ عارمة. ونصح لوثر المؤمنين أن يبدأوا صلاتهم بهذا الكلام:

> "يا ربّ...مع أنَّه يمكنك، بل من حقِّك، أن تكونَ قاضيًا قاسيًا علينا نحن الخطاة...فإنِّي أسألُ برحمتك، أن تزرع في قلوبنا ثقةً بمحبَّتك

الأبويَّة. وأعطنا أن نختبر حلاوةَ الأمان أنَّنا كأطفال يمكن أن ندعوَك أبانا، وأن نعرفك ونحبَّك ونصرخ إليك في كلِّ ضيق". [١٣]

لكن بحسب بولس، صلاة "أبا" ليست هي النوع الوحيد من الصلاة الذي يعطينا إيَّاه الروح القدس؛ فبولس لا يتكلَّم فقط عن روح التبنِّي، بل أيضًا عن روح "التشفُّع":

"وكذلك الرُّوحُ أيضًا يُعينُ ضَعَفاتنا، لأنَّنا لسنا نعلمُ ما نُصلِّي لأجله كما ينبغي. ولكنَّ الرُّوحَ نفسَه يشفعُ فينا بأنَّاتٍ لا يُنطقُ بها. ولكنَّ الذي يفحصُ القُلوبَ يعلَمُ ما هو اهتمامُ الرُّوح، لأنَّه بحسب مشيئة الله يشفَعُ في القدِّيسين. ونحنُ نعلمُ أنَّ كلَّ الأشياء تعملُ معًا للخَير للَّذين يحبُّون الله، الذين هم مدعُوُّون حسبَ قصده" (رومية ٨: ٢٦-٢٨).

وقد اختلف المفسِّرون حول معنى "أنَّات الروح". [١٤] يعتقد بعض الناس أنَّها مساعدةُ الروح لنا ونحن نئنُّ يائسين، غير أنَّه من غير المحتمل أن تصفَ هذه الآية فقط أوقات الاكتئاب. فالأرجح أنَّ "الضعف" المشار إليه في الآية ٢٦ هو الضعف الموصوف في الأعداد التالية، والذي يشير فضلًا عن أوقات الحزن إلى وضعنا الإنسانيِّ العامِّ الذي يتميَّز بأشواق محبَطةٍ وينتظر الرجاء المستقبليّ (الأعداد ١٨-٢٥، ولا سيَّما الآية ٢٣). ونحن نعلم أنَّ الله يجعل كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير بحسب مشيئته (الآية ٢٨)، لكنَّنا نادرًا ما نستطيع تمييز ماهيَّة ذلك الخير. وبكلمات أخرى، عادة ما لا نعرف بالتحديد النتيجة النهائيَّة التي ينبغي أن نصلِّي من أجلها. [١٥] إلَّا أنَّ الروح يجعل من أنَّاتنا أنَّاتِه هو، واضعًا صلواته هو للآب داخل صلواتنا. وهو يفعل ذلك بأن يضعَ فينا أشواقًا عميقةً لا نستطيعُ التعبير عنها، أن نفعل مشيئة الله ونرى مجده. هذا الشوق وتلك الرغبة التي فينا أن نرضيه، والتي

نئنُّ بها في دواخلنا بما لا يُنطق به، تخرجُ في صلواتنا لله. وفي كلِّ طلبة خاصَّة، يسمعنا الله نصلِّي بما هو الأفضل لنا والمُسرُّ له، وهو يستجيب إلى تشفُّعات الروح القدس لأنَّه يفعل كلَّ شيء للخير".[16] وهكذا فإنَّ الروح يُمكِّننا أن نشتاق إلى مجد الله الآتي ومشيئته التي ستتحقَّق، حتَّى لو لم نعرفْ الأمر بالتَّحديد الذي ينبغي لنا أن نصلِّيَه هنا والآن.[17]

إنَّ الصلاة هي الطريقة التي بها نختبر الثقة القويَّة بأنَّ الله يتولَّى حياتَنا ويديرُها جيِّدًا، وأنَّ كلَّ أمورنا السيِّئة ستؤول إلى الخير، وأنَّ أمورنا الجيِّدة لن تُنزع منَّا، وأنَّ الأفضلَ لم يأتِ بعدُ.

كيف نتقابل: الشفيع

إنَّنا نأتي إلى الآب ليس فقط بالروح القدس، بل أيضًا بالابن. ونحن لا نستطيع أن نثقَ بأنَّ الله هو أبونا إلَّا إذا جئنا إليه بشفاعة السيِّد المسيح- بِاسْم يسوع.

أخبرني أستاذي إدموند پي. كلاوني أنَّه ذهب إلى أحد أساتذته، جون موراي (John Murray)، ليناقشَ معه أمرًا خاصًّا. عرض موراي أن يصلِّي من أجله، وعندما فعل، كانت قوَّة الصلاة مذهلة. حملَتْ عباراتُ موراي مزيجًا من الحميميَّة والصداقة، مع الشعور العميق بجلال الله. وفجأة كان حضور الله ملموسًا جدًّا. كان من الواضح أنَّ موراي يدرك حقيقة قرب الله وتساميه في الوقت نفسه.

كان مواري في ذلك الوقت هو "شفيع" إدموند، ولكنْ فقط بالمعنى الثانويّ؛ فقد أخذه إلى محضر الله وتكلَّم بالنيابة عنه. لقد كانت ثقة موراي بنعمة الله وجرأته في التقدُّم إليه هي ما مكَّن إدموند أن يطمئنَّ في محبَّة الله وسيادته. وكان هذا هو أكثر شيء يحتاج إليه في ذلك الوقت. دون شكّ، كان موراي اللاهوتيُّ يدرك أنَّهما دخلا معًا محضرَ الله بشفاعة المسيح. وفي تعليقه على رسالة رومية، يتناول العدد القائل: "المسيحُ...عن يَمينِ الله، الذي أيضًا يَشفَعُ فينا" (رومية ٨: ٣٤)- مجادلًا

أنَّه لا ينبغي أن يُنظر إلى "شفاعة" يسوع من أجلنا عن يمين الآب، والتي تؤمِّن لنا معونة الآب وقتَ الحاجة، على أنَّها "أسطوريَّة، مثلما لا ينبغي النظر إلى قيامة المسيح على أنَّها أسطوريَّة". ويتابع قائلًا:

> "لا شيء يعبِّر عن حميميَّة فادينا واستمراريَّة اهتمامه بأمان وراحة شعبه، ولا شيء يؤكِّد لنا حبَّه الثابت، أكثر من الرقَّة التي تمثِّلها وساطته السماويَّة، والتي يُعبَّر عنها بصورة خاصَّة عندما يتشفَّع فينا".[١٨]

قال إدموند لي: "لقد ساعدني جدًّا تشفُّع هذا الرجل التقيِّ أمام الله من أجلي". ثمَّ لاحظ أيضًا قائلًا: "إذا كنتُ أجد ذلك معزِّيًا جدًّا لي، فكم يكون قدرُ تعزِيَتي عندما أدركُ تشفُّع المسيح من أجلي؟".

كما كانت هذه الخبرة مشجِّعةً لإدموند، كانت أيضًا مصدرَ تبكيت له. فبمجرَّد أن أستمع إلى صلاة موراي (الحارَّة)، أدرك كم أنَّ صلاتَه هو باردةٌ وجافَّة، وكم كانت رسميَّة وآليَّة. لقد أدرك أنَّه يعرف القليل عن العِشرة والحوار الحميم في محضر الله، كما فهم أنَّه لم يكن يأخذ على محمل الجِدِّ حقيقة تشفُّع السيِّد المسيح من أجله ومعونته له في أثناء صلاته.

يسوعُ هو الوسيطُ بيننا وبين الله (١تيموثاوس ٢: ٥، انظر أيضًا عبرانيِّين ٨: ٦، ١٢: ٢٤). لقد كانت هناك هياكل لكلِّ البلاد والثقافات القديمة؛ لأنَّ البشر جميعًا أدركوا بالفطرة أنَّ هناك هوَّة بيننا وبين الإله. الله عظيم ونحن صغار؛ الله كامل ونحن مَعيبون. كانت الهياكل والمعابد أماكن أُقيمت في محاولة لجَسْر هذه الهوَّة. وكانت الذبائح والأضحيات تُقدَّم، والطقوس تمارس بواسطة "وسطاء" متخصِّصين (كهنة) كانت مهمَّتهم استحضار ما هو إلهيٌّ إلى الحيِّز الإنسانيّ. غير أنَّ كلَّ هذه المجهودات كانت ناقصةً ومُجتزأة. لم يدَّعِ أيُّ دينٍ أنَّ هذه الهوَّة جُسِرَتْ بالفعل. مثلًا، قال أرسطو إنَّه حتَّى لو كان ممكنًا تبجيل الآلهة

وإرضاؤها، فإنَّ الصداقة الحقيقيَّة الحميمة معهم كانت مستحيلة. لقد كان منطقُ هذا الفيلسوف هو أنَّه لتتحقَّق الصداقة ما بين اثنين، كان ينبغي أن يشتركا في الكثير بوصفهما نِدَّين على قدم المساواة. يجب أن يكونا متشابهَين، لكنْ لأنَّ الله أعظم من البشر بما لا يقاس، فإنَّ "إمكانيَّة الصداقة" تتوقَّف.[١٩] أمَّا الآن فلَدَينا الشفيعُ الأعظم والكاهن الذي يُغنينا عن كلِّ أولئك الكهنة (عبرانيِّين ٤: ١٤-١٥). إنَّه يجسر الهوَّة ما بيننا وبين الله، فيمكننا عندئذٍ أن نعرفَ الله كصديق (خروج ٣٣: ١١)؛ لأنَّ ابن الله "كانَ يَنبَغي أنْ يُشبهَ إخوَتَه في كلِّ شَيء، لِكَي يَكونَ رَحيمًا، ورَئيسَ كَهنةٍ أمينًا" (عبرانيِّين ٢: ١٧). ولأنَّه "ليس لنا رئيسُ كهنةٍ غيرُ قادرٍ أن يرثي لضَعَفاتنا، بل مُجرَّبٌ في كلِّ شيءٍ مثلُنا، بلا خطيَّة. فلنتقدَّمْ بثقةٍ إلى عرش النعمة" (عبرانيِّين ٤: ١٥-١٦). وهَهُنا ادِّعاء غالبًا ما يجده أرسطو- بل أيضًا كلُّ فلاسفة العالم وقادته الدينيِّين- ادِّعاءً مستحيلًا. كيف يمكن أن يكونَ الله صديقَنا الحميم؟ كيف يمكننا أن نقتربَ إليه بثقةٍ كاملة؟ هذا لأنَّ الله قد صار مثلنا، إنسانًا تحت الآلام وقابل الموتَ مثلنا. لقد فعل هذا حتَّى ننالَ نحن الغفرانَ والتبريرَ بالإيمان بغضِّ النظر عن المجهود والاستحقاق. لذا صار في وُسعنا أن نقترب.

لأنَّه في المسيح، صار الله إنسانًا، لم يَعُدِ الله هو ذلك الإله البعيد الذي تفصلُنا عنه هوَّة سحيقة، بل صار أيضًا الجسر الذي يعبرُ الهوَّة، والوسيطَ في علاقة جديدة بالله لا يمكن أن تفشلَ لأنَّها مبنيَّةٌ على أمانته هو، لا أمانتنا نحن (عبرانيِّين ٩: ١٤-١٦).

> "فإذْ لنا أيُّها الإخوةُ ثقةٌ بالدُّخُول إلى «الأقداس» بدَم يسوع، طريقًا كرَّسَه لنا حديثًا حيًّا، بالحجاب، أي جَسَده، وكاهنٌ عظيمٌ على بيت الله، لنتقدَّم بقلبٍ صادقٍ في يقين الإيمان" (عبرانيِّين ١٠: ١٩-٢٢).

الصلاةُ بِاسْمِ يسوع

يقودُنا هذا إلى وصيَّة مهمَّة من وصايا العهد الجديد بشأن الصلاة. لقد علَّمَ يسوعُ تلاميذه أنَّه ينبغي دائمًا أن يصلُّوا بِاسْمه (يوحنَّا ١٤: ١٣-١٤، ١٥: ١٦، ١٦: ٢٣-٢٤). "إنَّ الصلوات بِاسْم يسوع ...هي صلوات تعترفُ أنَّ طريقَ الوُصولِ الوحيد إلى الله هو يسوع نفسه".[٢٠]

ويتعلَّق هذا الأمر أصلًا بشروط الصلاة وطريقة الوصول إلى الله. أتذكَّر أنِّي لمَّا كنتُ طالبًا في الدراسات العليا، اقتربتُ بقلقٍ من أحد المتكلِّمين المشهورين بعد إحدى المحاضرات. بدا لي أنَّه مشتَّت الذهن بينما كان يحيِّي طلبةً آخرين ببعض المزاح والكلام السطحيّ. ثمَّ ذكرتُ أنِّي أعرفُ أحد أصدقائه. وما إن ذكرت الاسم حتَّى أعارَني انتباهَه فجأةً وبدأ يتكلَّم معي بدفء واهتمام. لقد نلتُ طريقَ الوصول العميق إليه ليس بِاسْمي، بل بِاسْم هذا الصديق المشترك بيننا. وهذه إشارةٌ باهتةٌ جدًّا لطريقة الوصول إلى الله الآب. لأنَّنا نعرفُ يسوع، ولأنَّنا "في المسيح" فإنَّ الله يركِّزُ انتباهَه ومحبَّته نحونا عندما نصلِّي.

ونجدُ النسخة البولسيَّة من هذه الوصيَّة في نموذجه الثالوثيّ للصلاة الموجود في أفسس ٢: ١٨: "لأنَّ بهِ لنا كِلَينا قُدومًا في روحٍ واحدٍ إلى الآب". كانت تُستخدَم كلمة "قدوم" كثيرًا في العصور القديمة عندما يمنح الملكُ شخصًا فرصةً أن يتكلَّم في محضره. لا يستطيع أيُّ إنسانٍ ببساطة أن يدخلَ حضرةَ ملكٍ قويٍّ ليتكلَّم، إلَّا إذا منحَه الملك "قدومًا" إليه. إذا دخلَ أحَدُهم دون أن يؤذَن له، فسيتعرَّضُ غالبًا للسجن أو ربَّما القتل (انظر أستير ٤: ٩-١٦). ويصفُ هذا الفرقَ في السلطة ما بين ملك شرقيٍّ قديم ومواطِنٍ عاديّ. أمَّا الهوَّة التي بين الله وإنسان خاطئ فهي أكبر وأعمق بما لا يقاس (١صموئيل ٦: ٢٠؛ مزمور ١٣٠: ٣؛ ناحوم ١: ٦). لا يقدر إنسانٌ أن ينظر إلى الله ويعيش (خروج ٣٣: ٢٠). لذا فإنَّ افتراضَ بولس أنَّ لدينا الآن قدومًا إلى محضر الله نفسه "بواسطته" لَهُوَ افتراض هائل. لقد صار لنا دائمًا

الدخول إلى محضر الله بسبب ما فعله يسوع المسيح. فموت يسوع المسيح على الصليب صالحَنا مع الآب (أفسس ٢: ١٦)، لذا صار الله أبونا نحن أيضًا.

معرفةُ مَن هو الله

تُخبرُنا رسالة غلاطِيَّة ٤: ٦-٧ أنَّ الروحَ يقودُنا لنصرخَ إلى الله بوصفه أبانا السماويّ. ويشيرُ بولس إلى هذه الخبرة حاسبًا إيَّاها "معرفة الله" (٤: ٨). وهذا هو الدافع الأساسيُّ للصلاة المنقادة بالروح القدس، وبشفاعة السيِّد المسيح- ببساطة أن نعرفَه ونستمتع بحضوره أكثر.

لنتأمَّل كيف يختلف هذا عن طريقتنا المعتادة في استخدام الصلاة. عادة ما نصلِّي إلى الله لنحصلَ على أشياءَ. ربَّما نؤمن بالله، لكنَّ آمالنا الأعمق وسعادتنا يكمنان في الأشياء، كأن نكون ناجحين، أو أن نحظى بعلاقاتٍ جيِّدة. لذا فإنَّنا عادة ما نصلِّي عندما تكونُ في حياتنا مشكلاتٌ مهنيَّة أو ماليَّة، أو عندما تتعرَّضُ علاقاتُنا أو مكانتُنا الاجتماعيَّة للخطر. عندما تسير الحياة بسلاسة، وتكون كنوزنا الغالية على قلوبنا في أمان، لا يخطر على بالنا أن نصلِّي. وعمومًا، تتكوَّن صلواتنا في أغلبها من طلبات، وأحيانًا بعض الاعترافات (إذا كنَّا قد فعلنا لتوِّنا شيئًا خاطئًا). ومن النادر، وربَّما لا يحدث بتاتًا، أن نُمضيَ وقتًا كافيًا وثابتًا في عبادة الربِّ وتسبيحه. ومعنى هذا باختصار أنَّنا نفتقر إلى رغبة داخليَّة إيجابيَّة في الصلاة. نحن نصلِّي فقط عندما تُرغِمنا أحوالُنا على ذلك. لماذا؟ إنَّنا نعلَمُ أنَّ الله موجود، لكنَّنا نميل لأن نحسبَه وسيلةً نحصل بها على ما يجعلُنا سعداء. والحال لدى أغلبنا هي أنَّ الله لم يصرْ بعدُ هو سعادتَنا وفرحَنا. لذا فإنَّنا نصلِّي لننالَ الأشياء، لا لنعرفَه أكثر.

ويتغيَّرُ كلُّ هذا عندما نكتشف أنَّنا أغرَقْنا كلَّ حياتنا في أشكال من محاولة تخليص أنفسنا بأنفسنا، ونتحوَّل إلى المسيح. وحينما ندرك تضحِيَته المُكلفة

والمُذهِلة من أجلنا؛ ونحوِّل ثقتَنا ورجاءنا من الأشياء إلى المسيح نفسه، ونطلب قبول الله ونعمته على حساب المسيح، عندئذٍ نبدأ ندركُ حجمَ البركة التي لنا في المسيح، فنريد أن نعرفَ الله ونحبَّه لشخصه الكريم. إنَّ محبَّته والعلاقة العميقة به تجعلان كلَّ شيء آخر في الحياة يبدو باهتًا وتافهًا. ويصير شبعنا الحقيقيُّ هو أن نفرح به ونُسرَّه.

"عندما نرى ناموسَ المسيح مُحقَّقًا
ونسمعَ صوتَه الغفورَ
يصير العبدُ لله ابنًا
وتصير الواجباتُ لنا سرورا".

-وليَم كاوپر، ترانيم أولني (William Cowper, Olney Hymns)

في الفصول الأولى التي شرحَ فيها جون كالڤن المسيحيَّة في كتاب "**أساسيَّات الإيمان المسيحيّ**" *(The Institutes of Christian Religion)* يقول إنَّه يمكنك أن تعرفَ الكثيرَ عن الله، لكنَّك لا تعرفه هو شخصيًّا إلَّا بعد أن تعرفَ ماذا فعلَ من أجلك في يسوع المسيح، وهذا يغيِّر قلبك تمامًا. "لا تكونُ كلمة الله قد استُقبِلَت بالإيمان إذا كانتْ لا تزال ترفرفُ فوق سطح العقل، بل عندما تتأصَّل في القلب...إنَّ عدمَ قدرة القلب على الثقة هو أثقلَ كثيرًا من عدم قدرة العقل على الرؤية. ومن الأصعب على القلب أن يمتلأ بالثقة [بمحبَّة الله] من أن يقتنع العقل بالفكر".[٢١]

عندما يتأصَّل الإنجيلُ في القلب، فإنَّ علامة ذلك هي أنَّ المؤمنين يؤسِّسون عندئذٍ سعادتَهم النهائيَّة فيه. "وإلى أن يختبرَ الناسُ ذلك، لن يستطيعوا أن يُعطوا أنفسَهم لله بصدقٍ وإخلاص".[٢٢] إنْ لم يكن شوقُ النفس الأعمقُ هو أن تعرفَه وتخدمَه، فأنت لم تصِلْ بعدُ إلى معرفة الله الحقيقيَّة المُخلِّصة. إنَّ مثل هذه النفس "تحفظ ذاتها من الخطيَّة، ليس فقط خوفًا من العقاب، بل لأنَّها تحبُّ الله وتوقِّره بوصفه

أبًا...حتّى لو لم يكن هناك جحيم، فإنَّ تلك النفس تخافُ أن تسيء إليه".[٢٣]

هذه طريقةٌ قويَّةٌ للقول إنَّ المؤمنَ بالمسيح الذي يفهم الإنجيل، بقوَّة الروح القدس، يطلبُ الله لا لينالَ مكافأة أو ليهربَ من عقاب (حيث إنَّ هذين الأمرَين يعطيهما المسيح بالفعل)، فالمؤمنون إذًا يطلبون الله من أجل أنفسهم. أمَّا من دون الإنجيل، فيُمكن أن يكونَ طلبُنا لله من أجل الأشياء، ودون الإنجيل يمكن أن نحسبَ الله القدُّوس مخيفًا ومهدِّدًا لنا، ويمكننا فقط أن نقتربَ منه لنطلبَ أشياء، وهذا فقط إنْ كنَّا في أفضل صورة. أو ربَّما نفهم أنَّ محبَّةَ الله تعني أنَّه يرى الجميع بصورةٍ إيجابيَّة مهما كانت حالهم. في الحالة الأولى، يكون الاقتراب من "الله" مخيفًا، وفي الثانية لا يعني الاقتراب منه شيئًا مهمًّا. لذا فدون الإنجيل، ليست هناك فرصةٌ للفرح والسعادة أن نعبدَ الله ونقترب منه.

يعتقد فيليپ وكارول زاليسكي أنَّ كلَّ الصلوات الإنسانيَّة هي في أصلها محاوَلاتٌ لممارسة السيطرة باستخدام شكل من أشكال الذبائح التي تدفعُ الله (أو الآلهة) على استجابة تلك الصلوات. غير أنَّ الصلاةَ بحسب الكتاب المقدَّس تُرفَع إلى الله على أساس نعمته المجَّانيَّة المُخلِّصة، ومحبَّته الأبويَّة الثابتة واللَّامحدودة. إذا كان الله هو أبوك السماويّ، فلا حاجة إذًا إلى سحر أو ذبائح.[٢٤]

تكلفةُ الصلاة

كيف يمكن أن يكونَ مثلُ هذا الدخول وهذه الحرِّيَّة ممكنَين؟ المرَّة الوحيدة في كلِّ الأناجيل التي صلَّى فيها السيِّد المسيح إلى الله ولم يَدْعُه أبًا، كانت على الصليب، عندما قال: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟". لقد فقدَ يسوع علاقته بالآب حتَّى نتمكَّن نحن من إقامة علاقةٍ بالله بوصفه أبًا. لقد تُرِكَ يسوع لكي نُذكَر نحن إلى الأبد- من الأزل إلى الأبد. لقد حمل يسوع العقاب الأبديَّ الذي تستحقُّه خطايانا. وهذه هي تكلفة الصلاة. لقد دفع يسوع الثمن ليصيرَ الله أبانا.

ربَّما تعترض على تشبيه الأب هذا لأنَّ أباك (أو أمَّك) أساء لك، إلَّا أنَّ هذا لا ينبغي أن يكونَ عائقًا للصلاة؛ ففي المسيح فقط يمكنك أن تنالَ الحبَّ الذي يمكن أن يعوِّضَك عن تاريخك الأُسريِّ غير السعيد. ليس من المفيد أن تقول: "لماذا لم يكونا الوالدَين اللذين كانا ينبغي أن يكوناه؟" فليس هناك والدان كما ينبغي أن يكونا. المزمور ٢٧: ١٠ يقول: "أبي وأمِّي قد تركاني، والربُّ يضمُّني".[٢٥] هذه العلاقة الجديدة بالله هي ما تحتاج إليه إذا كانت خلفيَّتك الأُسريَّة سيِّئة. إنَّها ما تحتاج إليه إذا كنتَ تشعرُ بأنَّك فاشلٌ أو وحيد، أو إذا كنتَ تغرق في بحر من اليأس؛ فنتيجة الثمن الذي دفعه بكرُنا، يسوع المسيح، والذي لا يستطيع أن يدفعَه أحد سواه، أمكنَ أن يكونَ الله أباك، وأن يرفعَك من الحال التي أنت فيها.

إنَّ الحوار مع الله يقودُ إلى لقائه. فالصلاة ليست فقط الطريقةَ التي نعرفُ بها ما فعله يسوع من أجلنا، بل هي أيضًا الطريقة التي "نستقبل بها البركة من الله يوميًّا".[٢٦] الصلاة تحوِّل اللاهوت إلى اختبار؛ فبالصلاة نشعرُ بحضوره ونستقبل فرحَه ومحبَّتَه وسلامَه والثقة التي يمنحها، فنتغيَّر في توجُّهاتنا وسلوكنا وشخصيَّاتنا.

الجزء الثالث

تعلُّم الصلاة

الفصل ٦

رسائلُ عن الصلاة

لقد تعلَّمنا أنَّ الصلاةَ هي مواصلةُ الحوار الذي بدأه الله معنا. لقد بدأه عندما زرع معرفتَه في كلِّ إنسان، ولمَّا تكلَّم بواسطة الأنبياء وبكلمته المكتوبة، ولا سيَّما عندما دعانا إلى نفسه بالروح القدس الذي أرسلَه إلى قلوبنا. واستكشَفْنا أيضًا ما يمكن أن نسمِّيَه لاهوت الصلاة، حيث إنَّ ما يحدِّد طبيعة الصلاة هو طبيعة الإله الذي نقترب منه بهذه الصلاة. إنَّ الإله الذي يرفعُ المسيحيُّون الصلاةَ إليه هو ثالوث. فنحن نستطيع أن نُصلِّيَ لأنَّ الله هو أبونا المحبّ، ولأنَّ المسيح هو شفيعُنا الذي لنا به قدومٌ إلى عرش الكون، ولأنَّ الروحَ نفسَهُ ساكنٌ فينا.

من الآن فصاعدًا، سنحاول أن نجيبَ عن الأسئلة العمليَّة. كيف يمكننا فعلًا أن نبنيَ على هذا الأساس؟ إنَّ لدينا في الله والأناجيل المواردَ الروحيَّةَ اللازمة لنصلِّي. لكن كيف نفعل ذلك؟ نذهب أوَّلًا إلى ثلاثة من أعظم المعلِّمين في تاريخ الكنيسة– القدِّيس أغسطينوس ومارتن لوثر وجون كالڤن. كلُّ واحدٍ من هؤلاء الثلاثة كتب بغزارةٍ عن الصلاة في أماكن عدَّة، كما أنَّ كلًّا منهم كتبَ عملًا كلاسيكيًّا واحدًا يتحدَّى الزمن. سنتناول إذًا ثلاثة "فصول دراسيَّة" مع أعظم المعلِّمين عن الصلاة. كتب كلٌّ من القدِّيس أغسطينوس ومارتن لوثر خطابًا شخصيًّا إلى أحد الأشخاص عن كيفيَّة الصلاة، بينما وضعَ كالڤن تناوُلًا رصينًا للصلاة في تلخيصه للعقيدة المسيحيَّة، في كتاب الأساسيَّات.[١] في هذا الفصل وفي الفصول اللاحقة، سنستمع إليه ونتعلَّم منهم.

أغسطينوس عن الصلاة

كانت أنيشيا فالتونيا بروبا (Anicia Faltonia Proba) امرأة رومانيَّة من أسرة نبيلة مؤمنة بالمسيح وتوفِّيتْ عام ٤٣٢م. وكان لهذه السيِّدة امتياز التعرُّف إلى أغسطينوس، الذي كان أعظمَ لاهوتيٍّ في الألفيَّة الأولى للإيمان المسيحيّ، وكذلك إلى القدِّيس يوحنَّا فم الذهب (John Chrysostom)، والذي كان أعظمَ واعظٍ في تلك الحقبة. لدينا رسالتان من أغسطينوس إلى بروبا، الأولى منهما (رسالة رقم ١٣٠) هي المخطوط الوحيد الذي كرَّسه تمامًا لموضوع الصلاة. كتبت بروبا إلى أغسطينوس لأنَّها كانت تشعر بالقلق من كونها لا تصلِّي كما ينبغي. فأجابها أغسطينوس في مقالةٍ قصيرة وعمليَّة.[٢]

أوَّل مبدأ قدَّمه أغسطينوس هو أنَّك قبل أن تعرفَ ما تصلِّي من أجله، وكيف تصلِّي، ينبغي بدايةً أن تكونَ إنسانًا من نوعٍ محدَّد. "يجب أن تحسبَ نفسَك غريبًا في هذا العالم مهما كان نصيبُك من الازدهار فيه". يجب أوَّلًا أن تكون قد سقطت القشور من عينَيك لترى أنَّه مهما كانت أحوالُك المادِّيَّةُ الأرضيَّةُ عظيمةً، فهي لن تحقِّقَ لكَ السلامَ الدائمَ والسعادةَ والتعزية التي يمكن أن تنالها في المسيح. إذا لم تكن هذه الصورة واضحة تمامًا أمامك، فإنَّ صلاتَك يمكن أن تضلَّ طريقَها.

هَهُنا من جديدٍ أحد أهمِّ المواضيع المتكرِّرة في لاهوت أغسطينوس، وهو يطبِّقه هنا على الصلاة. يجب أوَّلًا أن ندرك أنَّ هناك خطأً في ترتيب أولويَّات المحبَّة في قلوبنا. الأمور التي يجب أن يكونَ ترتيبُها الثالث أو الرابع، تحتلُّ المرتبة الأولى. الله، الذي ينبغي أن نحبَّه أوَّلًا وقبل كلِّ شيء، هو شخصٌ نعترف به، لكنَّنا لا نحسبُ نعمتَه وحضورَه أمورًا في الأهمِّيَّة الوجوديَّة ذاتها التي نوليها لتحقيق النجاح والازدهار والمكانة والحبِّ والمتعة. إنَّنا نحتاجُ على الأقلِّ لأن نكتشفَ هذا الخطأ في الترتيب، وندرك كيف أنَّ من شأنه أن يشوِّهَ حياتَنا. عندئذٍ ستكونُ صلواتُنا جزءًا من المشكلة، لا جزءًا من الحلِّ. مثلًا، عندما نحسبُ أنَّ الوفرةَ المادِّيَّة هي المصدرُ

الأساسيُّ في الحياة لشعورنا بالأمان والثقة، فعندما تصير ثروتنا في خطر، نصرخُ إلى الله طلبًا للمساعدة، غير أنَّ صلواتنا عندئذٍ لن تكون سوى "ممارسةٍ للقلق موجَّهةٍ نحو الله". وعندما ننتهي من الصلاة سنكونَ أكثر ضيقًا ممَّا كنَّا عليه عندما بدأنا نصلِّي. لن تقوِّينا الصلاة، ولن تشفيَ قلوبنا، إلَّا عندما تُعيدُ توجيهَ رؤيتنا، وحينما تساعدنا على رؤية الأمور في منظورها الصحيح، وتجعلنا نستريح في الله بوصفه أمانَنا الحقيقيّ.

ويتابع أغسطينوس أنَّنا إذا أرسَينا هذا المبدأ، أي أنَّنا إذا أدرَكْنا حقيقة قلوبنا وكيف أنَّها بائسة ومهجورة بعيدًا عن المسيح- يقول إنَّه يمكننا هنا أن نبدأ في الصلاة. أمَّا بخصوص ما يجب أن نصلِّي من أجله، فيجيب- وأظنُّ أنَّه أجاب بابتسامةٍ عريضة- أنَّنا يجب أن نصلِّي من أجل كلِّ ما يصلِّي الآخرون من أجله: "نصلِّي من أجل حياة سعيدة". لكنْ ما الذي يمكن أن يحقِّق لنا هذه "الحياة السعيدة"؟ إذا كنت قد استوعبت المبدأ الأوَّل في الصلاة بحسب أغسطينوس، فتكون عندئذٍ قد أدركت أنَّ الرخاء والسعادة والراحة واللَّذَّة في الحياة، كلَّها أمور تجلب إثارةً عابرة. وإذا كنتَ قد اعتَدْتَ أنَّ هذه الأشياء هي ما يُريحُ قلبك، فإنَّها لن تجلبَ إليك سعادة مستمرَّة. ثمَّ يذهب أغسطينوس إلى المزمور ٢٧: ٤ ويشير إلى تلك الصلاة العظيمة لناظم المزمور: "واحدةً سألتُ من الربِّ وإيَّاها ألتَمِسُ: أنْ أَسكُنَ في بَيتِ الربِّ كلَّ أيَّام حَياتي، لكي أنظُرَ إلى جَمالِ الرَّبّ".

هذه هي الصلاة الأساسيَّة لطلب السعادة من ذهنٍ نظَّفه الرُّوح من الأوهام. ويكتب أغسطينوس: "إنَّنا عندئذٍ نحبُّ الربَّ، لشخصه هو، ونحبُّ أنفسَنا وقريبَنا من أجل الله". غير أنَّه يضيفُ سريعًا بالقول إنَّ هذا لا يعني أنَّنا يجب ألَّا نصلِّي من أجل أيِّ شيء آخر سوى معرفة الربِّ ومحبَّته ورضاه. ومع أنَّ الصلاة الربَّانيَّة تعلِّمُنا أنَّنا نحتاج إلى أشياءَ كثيرة، فإنَّنا إذا جعَلْنا الربَّ حُبَّنا الأعظم؛ وإذا كانت معرفته ورضاه هي أكبر مصادر سعادتنا ولذَّتنا، فإنَّ ذلك سيُغيِّر تمامًا من مواضيع صلواتنا للحياة السعيدة وطريقتها.

ثمَّ يذكر أغطسينوس أيضًا أمثال ٣٠: ٧-٩ مثلًا. "لا تُعطِني فَقرًا ولا غِنًى. أَطعِمْني خُبزَ فَريضَتي، لِئَلَّا أَشبَعَ وأَكْفُرَ وأَقولَ: «مَن هو الرَّبّ؟» أو لئلَّا أَفتَقِرَ وأَسرِقَ وأَتَّخذَ اسمَ إلهي باطِلًا". هذا اختبارٌ ممتاز. تأمَّل مثلًا هذه الطلبة: "يا ربّ، أعطِني وظيفةً لكَيلا أصيرَ فقيرًا". من المناسب أن نطلبَ من الربِّ هذا الأمر. في الواقع، إنَّها الصلاةُ ذاتها التي تقول: "خبزنا كفافنا"، غير أنَّ هذه الفِقرة من أمثال ٣٠ تكشفُ لنا الدافع السليم لمثل هذه الصلاة. إذا قفزْتَ إلى الصلاة مباشرةً دون أن تلاحظَ الطبيعة المشوَّهة لأولويَّات القلب، فسيكون دافع صلاتك هكذا: "يا ربّ، اجعَلْني غنيًّا قدرَ ما تستطيع". أمَّا صلاة أمثال ٣٠ فمختلفة. إنَّها تقول: "يا ربّ، سدِّد احتياجاتي المادِّيَّة، وأعطِني الثروة، لكن فقط بقدر ما أستطيع أن أحتملَ بحيث لا أضعُ المال قبلك بتاتًا؛ لأنِّي في النهاية لا أحتاج إلى الراحة والمكانة، بل أحتاج إليك أنت يا ربّ. أنت راحتي ومكانتي ولذَّتي".

تخيَّل صبيًّا في الثامنة يلعب بلعبة على هيئة عربةِ نقلٍ، ثمَّ تنكسرُ اللعبة. دون شكّ، سينزعج ويصرخ لوالدَيه ليصلِحاها له. لكنْ تخيَّل أنَّه يبكي فيقول له أبوه "إنَّ أحد أقربائك البعيدين، والذي لم تقابله قَطُّ مات وترك لك مئة مليون دولار ميراثًا". ماذا سيكون ردُّ فعل الطفل؟ سيصرخ بصوت أعلى، ولن يتوقَّف حتَّى تُصلَح لعبته. لا يملك الطفل بعد القدرة العقليَّة على إدراك الوضع. وبالصورة نفسها يفتقد المسيحيُّون إلى القدرة الروحيَّة على إدراك كلِّ ما لهم في المسيح. لذا يصلِّي بولس أن يفتحَ الله أذهانَ المؤمنين ليدركوا ما هو الطول والعرض والعمق والعلو لخلاص المسيح (أفسس ٣: ١٦-١٩، ١: ١٧-١٨). على العموم، يُعدُّ افتقارنا إلى الفرح كما يكتب وليَم شيكسپير (William Shakespeare): "الخطأ أيُّها العزيز پروتس، هو فينا وليس في النجوم التي فوقنا". (يوليوس قيصر. الفصل الأوَّل، المشهد الثاني). إنَّنا مثل ذلك الصبيِّ في سنِّ الثامنة الذي يجدُ راحتَه وسعادته في "النجوم"- أي في أحواله- بدلَ أن يدركَ ما لديه من غنى في المسيح.

لذلك ففي الصلاة الربَّانيَّة لا يصل الربُّ إلى "خبزنا كفافنا" إلَّا بعد أن يكون قد أمضى وقتًا طويلًا في تذكُّر عظمة الله وإعادة إضرام أشواقنا من نحوه. إنَّه أبونا الذي في السموات، ليتقدَّس اسمه وليأتِ ملكوتُه كما في السماء كذلك على الأرض. عندئذٍ فقط يمكننا أن نصلِّيَ كما ينبغي من أجل احتياجاتنا وسعادتنا.

أمَّا وصيَّة أغسطينوس الثالثة فقد كانت شاملةً وعمليَّة في الوقت ذاته، وقد أشرنا إليها بالفعل. بمجرَّد أن تتعلَّم الصلاة بوعي كامل بمدى اضطراب قلبك، وبإدراك واقعيٍّ للمصدر الحقيقيِّ للفرح عندك، يمكنك بعد ذلك أن تتلقَّى الإرشاد في ما يتعلَّق بتفاصيل الصلاة بدراسة الصلاة الربَّانيَّة. انظر إلى كلِّ أنواع الصلاة التي فيها- التسبيح والطلبة والشكر والاعتراف. تأمَّل أيضًا ترتيبَ الطلبات وشكلها. فكِّر مليًّا في هذا النموذج العظيم للصلاة، وتحقَّقْ من توافق صلواتك مع هذا النموذج القياسيّ. يكتب أغسطينوس:

> "إن مَن يقول في الصلاة: «أعطني ثروة بقدر ما أعطيتَ فلانًا أو فلانًا»، أو «عظِّمْ يا ربُّ كرامتي، واجعلني معروفًا ومشهورًا وفي مركَز القوَّة والتأثير في هذا العالم». ومَن يطلب فقط من أجل رغبة في هذه الأشياء، لا ليفيدَ الآخرين بها بما يحقِّق مشيئة الله، فإنِّي لا أظنُّ أنَّ مثل ذلك الإنسان سيجدُ أيَّ جزء من الصلاة الربَّانيَّة يتلاءم مع هذه الرغبات. لذا ينبغي أن نشعرَ بالخجل إنْ كنَّا نطلب مثل هذه الطلبات".[٣]

أمَّا المبدأ الرابع عن الصلاة الذي يقدِّمه أغسطينوس، فهو عن الصلاة في الأوقات المظلمة. يعترف أغسطينوس أنَّه رغم اتِّباع المبادئ الثلاثة الأولى، "فإنَّنا سنظلُّ غير عارفين ما نصلِّي من أجله كما ينبغي، لا سيَّما في الضيقات". حتَّى أكثر المسيحيِّين تقوى لا يمكن أن يكونوا على يقينٍ بشأن ما يطلبونه عندما يكونون وسط الصعاب والآلام. "قد تكون... الضيقات مفيدة لنا... لكنْ لأنَّها صعبة ومؤلمة... فإنَّنا

نصلِّي...أن تفارقَنا". هل نصلِّي إذًا من أجل تغيير الأوضاع أم لنَنالَ قوَّة لتحمُّلها؟ يشير أغسطينوس إلى صلاة يسوع نفسه في جَثسَيماني، وهي الصلاة التي كانت متَّزنةً اتِّزانًا تامًّا بين التعبير الصادق عن الرغبة "أن تعبرَ عنه هذه الكأس" والخضوع لله "لكنْ لتكُنْ لا إرادتي، بل إرادتك". كما يشير أيضًا إلى رومية ٨: ٢٦، التي تَعِدُ بإرشاد الروح لقلوبنا وصلواتنا عندما نئنُّ حائرين، والله سيسمعُ هذه الصلوات حتَّى في حالتها المشوَّشة وغير الكاملة. لذا يختمُ أغسطينوس طالبًا أنِ اسكبْ رغبةَ قلبك كما هي، لكنْ بينما تفعلُ ذلك تذكَّر صلاحَ الربِّ وحكمتَه.

لقد ترمَّلت أنيشيا پروبا في بداية عقدها الرابع من العمر، وكانت موجودة عندما تعرَّضت روما للسَّلب والنهب في سنة ٤١٠م، فكان عليها أن تهربَ مع حفيدتها ديميترياس إلى أفريقيا لتنجوَ بحياتها، وهناك قابلت أغسطينوس، فانقلبت حياتها السابقة رأسًا على عقب. وممَّا نعرفُه عن حياتها من السجلَّات التاريخيَّة، لم تَعِشْ ثانيةً الحياة الآمنة نفسها التي كانت تعرفُها من قبل. غير أنَّ أغسطينوس يؤكِّد أنَّنا يمكن أن ننمو ليس فقط رغم هذه المصاعب، بل أيضًا بسببها. ويختمُ الرسالة بسؤال لصديقته: "الآن، ما الذي يجعلُ هذا العمل [الصلاة] مناسبًا بصورة خاصَّة للأرامل إلَّا تلك الحالة التي هم فيها في وَحدة وفقدان؟" ألا ينبغي للأرملة إذًا أن "تُسلِّم إلى الربِّ ترمُّلَها في صلواتٍ مستمرَّةٍ وحارَّة، ليكونَ ترمُّلها هذا هو حصنها وتُرسها؟" يا لها من عبارة! تصير آلامها ومعاناتها هي "الترس" الذي يحميها من أوهام الكفاية الشخصيَّة، وعَمى القوَّة البشريَّة الذي يقسِّي القلب. وتفتحُ هذه الآلام أيضًا الطريقَ أمامَها نحو حياةِ صلاةٍ حارَّة من شأنها أن تجلبَ إلى قلبها السلام في كلِّ الأحوال. إنَّه يدعوها أن تقبلَ وضعَها، وتتعلَّم فيه أن تصلِّي. وهناك أكثر من دليلٍ على أنَّ أنيشيا قبلت هذه الدعوة.[٤]

طريقةُ مارتن لوثر البسيطة للصلاة

كان من أشهَر ما كتب مارتن لوثر عن الصلاة أيضًا في صورةِ رسالةٍ إلى صديق. كان لوثر نفسُه رجلَ صلاةٍ استثنائيًّا. كتب ڤيت ديتريش (Veit Dietrich)، وهو أحد أصدقاء لوثر: "لا يوجد يومٌ لا يُكرِّس فيه لوثر ثلاثة ساعات على الأقلّ، من أفضل أوقات اليوم [الأكثر ملاءمةً للعمل] للصلاة. وذات مرّة أسعدَني الحظُّ أن أستمعَ إلى صلاته. يا إلهي! يا لَكَمِّ الإيمان الذي في صلاته! إنَّه يتكلَّم بالتوقير اللائق بمَن يتكلَّم إلى إلهه، وأيضًا بالثقة والرجاء اللذين يميِّزان الكلامَ ما بين الابن وأبيه، والصديق وصديقه".[٥]

كان پيتر بيسكندروف (Peter Beskendrof) هو حلّاق لوثر. وذات يوم طلبَ پيتر من لوثر أن يعلِّمَه طريقةً بسيطة للصلاة. ومع أنَّ پيتر كان رجلًا متديِّنًا، فقد كان يعاني مشكلاتٍ كثيرة. ففي إحدى المرَّات التي كان فيها مخمورًا في إحدى الولائم العائليَّة، طعنَ صِهرَه (زوجَ ابنته) وأرداه قتيلًا. وكان تدخُّلُ لوثر أحدَ الأسباب التي جعلَتْه يُنفى خارج البلاد بدلَ أن يُعدَم. ورغم أنَّ پيتر عانى كثيرًا في سنواته الأخيرة، فقد أخذ معه واحدًا من أعظَمِ النُّصوص عن مَوضوع الصلاة في التاريخ المسيحيِّ كلِّه. لقد أعطى لوثر صديقَه پيتر مجموعةً من الإرشادات الغنيَّة والعمليَّة عن الصلاة.

أوَّلًا، نصحَ لوثر صديقَه بأن يُنمِّيَ الصلاة بوصفها عادةً، وذلك بالممارسة المنضبطة. واقترحَ عليه أن يصلِّيَ مرَّتين يوميًّا. "إنَّ لمن الجيِّد أن تجعلَ الصلاةَ أوَّلَ شيء تبدأ به يومك صباحًا، وآخرَ ما تَختِمُ به يومَك ليلًا. احمِ نفسَك من تلك الأفكار الخاطئة المُضلِّلة التي تقول لك: «انتظر قليلًا. سأصلِّي بعد ساعة؛ يجب أوَّلًا أن أفعلَ هذا أو ذاك»".[٦] لم يكن لوثر رومانسيًّا، لذا فهو يختم: "إنَّ الأمرَ الذي يعطيه الله لنا أن نصلِّي ليس بأقلَّ حتميَّةً ولا أهمِّيَّةً من أمر ألَّا نقتل، أو نسرق... إلخ".[٧] ينبغي أن نُصلِّيَ سواء شعرنا بالرغبة في ذلك أم لم نشعر.

ثمَّ بعد ذلك، يقترح لوثر طرقًا لتركيز أفكارنا، وتدفئة مشاعرنا ودمج عواطفنا في الصلاة، وهذه عناصر تتَّزنُ من جهة مع التعامل مع الصلاة بوصفها واجبًا من جهةٍ أخرى. أجل! يجب أن نصلِّيَ بغضِّ النظر عن المشاعر، لكنَّنا في الوقت نفسه ينبغي أن نفعلَ كلَّ ما نستطيع لندمجَ قلوبَنا في الصلاة؛ لأنَّ الصلاة هي أن نرفعَ قلوبَنا نحو الله (مراثي إرميا ٣: ٤١).[٨] ويكتب لوثر أنَّ من الخطأ الظنَّ أنَّ المؤمنين يجب أن يكونوا "باردين وبلا فرح في الصلاة"، لذا يقترحُ لوثر إعدادًا للصلاة. إنَّه ينصحُنا بأن "نَتلُوَ على أنفسنا" بعض الفقراتِ من الكتاب المقدَّس مثل "الوصايا العشر" [أو] كلمات المسيح...وما شابَه".[٩]

هذه التلاوة هي نوع من تأمُّل الكتاب المقدَّس، وليست مجرَّد دراسة كتابيَّة. هي تعني أن نتوقَّفَ عند كلماتِ الكتاب المقدَّس ونتأمَّلها ونتفكَّر في معانيها بطريقةٍ تجعلُ أفكارَنا ومشاعرَنا تتحرَّك نحو الله. يقول لوثر إنَّه بهذه الممارسة، "أريد أن يُستثار ويَنقاد قلبُك...ويتحَمَّس بالحقِّ، ويُستمال نحو الصلاة". ويلعبُ هذا التأمُّل في الكلمة المقدَّسة دورَ الجسر الذي ينقلك من الدراسة المنهجيَّة للكتابَ المقدَّس إلى الصلاة.[١٠]

مهارة التأمُّل

بعد أن قدَّمَ لوثر نصيحةَ استخدام التأمُّل، يصفُ كيف يُمارَس هذا التأمُّل. وهو يستخدمُ في ذلك تشبيهَ "صُحبة الورد". "أنا أَقسِم كلَّ وصيَّةٍ [من الكتاب المقدَّس] أربعة أفرُع. أوَّلًا أنظر إلى كلِّ وصيَّةٍ بوصفها أمرًا إلهيًّا، وهي أصلًا كذلك. وهنا أدرس باهتمام ما يطلبُ الله منِّي أن أفعلَه. ثانيًا أجعلُ ذلك صلاةَ شُكر، وثالثًا، أعترف، ورابعًا أصلِّي".[١١] هذا يحوِّل كلَّ نصٍّ من الكتاب المقدَّس إلى "نصٍّ دراسيّ، وكتاب ترانيم، وكتاب صلواتٍ واعترافات". كيف يتمُّ ذلك؟ أوَّلًا، يجب أن نُميِّز جانب "الأمر" في النصّ. ويعني هذا أنَّه ينبغي أن نُحدِّد ماذا تريدنا الفِقرةُ

الكتابيَّة أن نؤمنَ به أو نفعلَه. وهذا هو عمل التفسير. ويرى لوثر أنَّ هذا هو الجزءُ الخاصُّ بالتَّعامُل مع النصِّ بوصفه "نصًّا دراسيًّا". دون شكٍّ، ربَّما لا يستغرق هذا أكثر من بضع ثوانٍ لو كنتَ قد درستَ هذا النصَّ من قبل. ثمَّ يمكنك ببساطة أن تُلخِّصَه وتستخدم هذا التلخيص لباقي أجزاء التأمُّل. إلَّا أنَّك إنْ لم تفهَمِ النصَّ، لن تتمكَّن من التأمُّل فيه. مثلًا، إذا كنتَ تتأمَّل في الوصايا العشر، ووصلتَ إلى الوصيَّة الثانية وأنت غير واثق بما يعنيه ذكر اسم الله باطلًا، فيجب أوَّلًا أن تدرسَ ذلك النصَّ وتفهَمَ معناه قبل أن تلخِّصَه وتتأمَّلَ فيه.

وبعد أن نستخلصَ "الأوامر"- أي أن نضعَ تعليمَ هذا النصِّ في صورةٍ بسيطةٍ ومكثَّفة- يمكن أن نسألَ أنفسنا: كيف يقودنا هذا التعليم لأن نشكرَ الله ونسبِّحه؟ وكيف يقودنا لأن نتوبَ ونعترفَ بخطايانا؟ وكيف يجعلنا نطلبُ من الله ونتضرَّع إليه؟ مثلًا، إذا كنَّا نتأمَّل مثلًا في الجزء الأوَّل من الصلاة الربَّانيَّة- "أبانا"- فيمكن أن يسير الأمر على النحو التالي: على مستوى التعليم، يعلِّمُنا هذا الجزء أنَّنا لا نستطيع أن نعرفَ الله بمفردنا، لكنَّنا يجب أن نفعلَ ذلك في أثناء شركتنا مع الآخرين. لم يُعلِّمنا يسوع أن نصلِّي "أبي" بل "أبانا". ثمَّ بعد ذلك، نستطيع أن نواصلَ ونسبِّح الله ونشكره على كلِّ الأصدقاء الذين ساعدونا في مسيرتنا الروحيَّة لمعرفة الله، ونشكر الله أيضًا لأنَّه خالق المجتمع ومُبدع روابط الحبِّ ما بين البشر. ثمَّ بعد ذلك، نعترف أنَّنا لا نصلِّي مع آخرين كما ينبغي، ولا نسمح لأصدقائنا بأن يُحاسِبونا ويُتابعوا معنا استمراريَّة مسيرتنا المسيحيَّة ومدى اتِّساقها. أخيرًا، يمكننا أن نطلبَ المزيد من الأصدقاء المقرَّبين الذين يمكن أن نشاركَهم حياتَنا الإيمانيَّة. وليست هذه سوى ثلاثةِ تطبيقات من بين التطبيقات والتأمُّلات الكثيرة التي يمكن أن نتناولَ بها هذا النصَّ البسيط.

لم يعلِّمْنا لوثر كيف نخلقُ طيفًا صغيرًا، بل طيفًا غنيًّا من الأفكار والتبصُّرات التي يمكننا أن نرفعَها إلى الله في الصلاة. ويعرفُ هؤلاء الذين مارَسوا هذا الانضباطَ

في الصلاة أنَّنا عندما نستمرُّ فيه، فهو يخلق بنفسه طاقتَه. إنَّه يرفعك بصورةٍ عبقريَّة من المستوى النظري لتكتشف ما يمكن أن تفعلَه فيك الحقائقُ الكتابيَّة التي تتأمَّلها، كيف يمكنها أن تقودَك إلى تسبيح الله والتوبة وتغيير القلب، وكيف تقودك لتسلك في هذا العالم. أحيانًا تكون التبصُّرات التي تنالها مؤثِّرة وفاعلة، وتجد نفسك تتحرَّك في الصلاة بصورة تلقائيَّة. وبمرور الوقت ستفرض هذه العادة التأمُّليَّة نفسها على ذهنك على مدى اليوم، وتجعل قلبك يتحوَّل نحو الله بصورة طبيعيَّة. ستجد أنَّ أشياء كثيرة تسمعها أو تراها أو تقرأها تدفعُك إلى التوبة والشكر والتضرُّع إلى الله. وتجعلك معتادًا أن تضعَ الله في كلِّ صورة، وبذلك تُصلحُ مشاعرَك وأفكارك باستمرار. إنَّها ترفع معنويَّاتك عندما تُحبط، وتجعلك متَّضعًا حينما تنجح. ويضربُ لوثر لنا أمثلةً مختصرةً، لكنَّها مكتملة للطريقة التي يتأمَّل بها في الوصايا العشر. وهَهُنا مثلٌ على التأمُّل في الوصيَّة الأولى:

> "«أنا هو الربُّ إلهك...لا تكن لك آلهة أخرى أمامي...» هنا أُدرِكُ بأمانة أنَّ قلبي لا ينبغي أن يبني أمانه واستقراره على أيِّ شيءٍ آخر، سواء كان ثروة مادِّيَّة أم مكانة اجتماعيَّة أم حكمة عقليَّة أم حتَّى تقوى دينيَّة أو أيِّ شيءٍ آخر. ثانيًا، أحمد الله على رحمته غير المحدودة التي جعلَتْه يتعاملُ معي بوصفه أبًا حنونًا، ويقدِّم امتياز أن يكونَ أبًا لي دون أن أطلبَ ذلك أو أعرِضه أو أستحقَّه، لكي يرعاني ويعزِّيني ويحرسني ويساعدني ويقوِّيني في كلِّ وقت أحتاج إليه فيه...ثالثًا، أعترف أنِّي قد أثرتُ غضبَه مرارًا كثيرة عندما اتَّخذتُ لنفسي آلهةً أُخرى. أتوب عن هذا وأطلب نعمتَه. رابعًا، أصلِّي...أن يحفظ قلبي حتَّى لا ينسى ذلك مرَّة أخرى، وحتَّى لا أطلب أيَّ إله آخرى غيره، أو أبحث عن تعزية أخرى على وجه الأرض من غيره، وإنَّما ألتصق به بصدق، وبه وحده فإنَّه إلهي الوحيد".[١٢]

لاحظْ كيف يتأمَّل لوثر في النصّ، وكيف يؤثِّر ذلك النصُّ في علاقته بالله وبنفسه وبالعالم. والتأمُّلات التي يسجِّلها هي مزيج من تفكيره المنطقيِّ التأمُّليِّ من جهة، وحواره مع نفسه من جهةٍ أخرى. وليست هذه دراسة كتابيَّة وفقَ مفهوم أنَّه مجرَّد تفكير في محضر الله- تأمُّل، بل هي طرق لاستمالة القلب وإعداده للصلاة وذلك باستخدام العقل بصورة كاملة وعميقة، وتناول الكلمة المقدَّسة بجدِّيَّة تامَّة- ويحدثُ كلُّ ذلك في الوقت نفسه.

تنويعاتٌ على لحن الصلاة الربَّانيَّة

بعد التأمُّل، هل ننطلقُ في الصلاة؟ أجل! يمكننا أن نفعلَ ذلك. لكنَّ لوثر يشاركنا بتدريب آخر يفعله قبل أن يصلِّي بشأن ما على قلبه. يقترح لوثر أنَّه بعد التأمُّل في الكلمة المقدَّسة، يجب أن تصلِّي كلَّ طلبةٍ في الصلاة الربَّانيَّة، معيدًا صياغة كلِّ منها بصورةٍ شخصيَّة مرتبطة باحتياجاتك وما يشغلك.

وهو يقدِّم نموذجًا للكيفيَّة التي يصلِّي بها هو هذه الطلبات. والصلوات التي يقدِّمها هي أشبه بتَنويعاتٍ ارتجاليَّة على لحنٍ معروف. يقول لوثر: "خُبزنا كفافنا"، ثمَّ يضيف مباشرةً: "أسَلِّمُ لك بيتي وممتلكاتي، وزوجتي وأولادي، وأصلِّي أن تمنَحني الحكمة لأتدبَّر أمورَهم جيِّدًا، وأعولهم وأُعلِّمَهم".[١٣] يُصرُّ لوثر ألَّا يكرِّرَ قارئو مقالته كلماته كما هي حرفيًّا حتَّى لا تصير "مجرَّد ثرثرة وترديد أجوف"؛ فهذا يقضي على هدف التدريب نفسه. ويقول لوثر إنَّه هو نفسه لا يعيد صياغة الصلاة الربَّانيَّة بالطريقة نفسها في اليوم التالي. "أنا لا أربط نفسي بحرفيَّة الكلمات والمقاطع، بل أتلو صلواتي بطريقةٍ ما اليوم وبطريقة أخرى في اليوم التالي، وذلك اعتمادًا على مزاجي ومشاعري".[١٤] وهو يصرُّ أيضًا أنَّ على مَن يصلِّي أن يعيدَ صياغة كلِّ جزء بصورةٍ شخصيَّة واضعًا في كلماته ما يشعر بأنَّه يحتاج إليه ويطلبه.

إنَّ لهذا التدريب قيمةً متعدِّدةَ الأوجه. وهو يتناول إحدى أكبر الصعوبات العمليَّة التي تصادفنا في أثناء الصلاة: تشتيت الذهن. فنحن مثلًا ننتهي من

التخطيط لحدث ما ونبدأ في الصلاة، فنجد أذهاننا لا تزال تفكِّر في ذلك الحدث. إنَّ الصلوات المعتادة، سواء كانت ارتجالية أم مبنيَّة على قائمة باحتياجات الصلاة، لا تستطيع أن تُخرِجَنا عن انشغال عقولنا بما كنَّا نفكِّر فيه قبل الصلاة. يحتاج تدريب التأمُّل في الصلاة الربَّانيَّة إلى التركيز، وبهذا نستجمع شتاتَ أذهاننا.

كما أنَّ استخدامنا لهذه الصلاة العظمى يدفعنا لأن نستعملَ كلَّ أشكال اللغة المُستخدمة في الصلاة. أمَّا إذا تُرِكنا لأنفسنا، فسنجدُ أنفسَنا نصلِّي فقط من أجل الأمور التي تقلقنا أكثر من غيرها. وعندما نطلب "ليتقدَّس اسمك" و"ليأت ملكوتك"، فإنَّنا نوجِّه انتباهنا إلى الصلاة من أجل تقدُّم الإنجيل في دوائرنا الاجتماعيَّة، وعلاقاتنا ومجتمعنا عمومًا. وعندما نصلِّي "لتكن مشيئتك"، فإنَّ هذا يدفعنا لأن نقبلَ بعضَ الأشياء التي تضايقنا، والتي سمح الله بوجودها في حياتنا. وعندما نصلِّي "اغفر لنا ذنوبنا"، فهذا يجعلنا نراجع قائمةَ أحداثِ خطايانا، وأشكال فشلنا الروحيِّ والأخلاقيّ، وبينما نصلِّي "كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا"، فإنَّنا نُرغم أنفسنا أن نفحص الضغائن والإساءات التي في حياتنا نحو الآخرين. وعندما نصلِّي الصلاة الربَّانيَّة فإنَّها تدفعنا لأن نبحث عن أشياء نشكر الله من أجلها في أوقاتنا الصعبة، كما تدفعنا لأن نتوبَ ونطلبَ الغفرانَ في أوقات النجاح والازدهار. إنَّها تضبطنا وتُربِّينا وتُخضعُ كلَّ شيءٍ فينا لله.

أخيرًا، عندما نتأمَّلُ في الصلاة الربَّانيَّة، فهذا أمرٌ يختلف عن تأمُّل أيَّة فِقرةٍ أخرى من الكتاب المقدَّس؛ فهي صلاة. إنَّها خطابٌ موجَّهٌ إلى الله، بِاسْم يسوعَ وسلطانِه، وبكلماته هو أيضًا. إنَّها تبعث على الشجاعة والتعزية، كما أنَّها تُطمئنُ القلبَ وتدفِّئه وتحرِّكه نحو الصلوات الحارَّة من أجل الأمور المُلِحَّة التي تشغلُنا حقًّا.

لا يستغرق هذا التدريب وقتًا طويلًا بحيث يصيرُ عبئًا علينا، وهو لا يستمرُّ عادةً أكثرَ من دقيقتَين أو ثلاث، غير أنَّه يُمكن أن يُشعِلَ صلواتٍ تستغرقُ وقتًا طويلًا، كما سنرى لاحقًا.[١٥]

وكي نُلخِّص هذه النقطة، يقول لوثر إنَّه ينبغي أن نبدأ صلواتنا بالتأمُّل في نصٍّ من الكتاب المقدَّس سبق أن درسناه، ثمَّ بعد الحمد والشكر والاعتراف بحسب هذا التأمُّل، نبدأ بالصلاة الربَّانيَّة بعد أن نعيدَ صياغتها. أخيرًا نصلِّي ما على قلوبنا. ويقترح لوثر أن نكرِّرَ هذا التدريب مرَّتين في اليوم.

وعظ الروح القدس

ثمَّ يقدِّم إلينا لوثر نصيحةً أخرى. إنَّها ليست "خطوةً" إضافيَّة أو ممارسةً أخرى تضاف إلى غيرها من الممارسات، بل هي أمرٌ علينا أن نراعيه بينما نتأمَّل أو نصلِّي. إنَّه يدعو المصلِّين المؤمنين لأن يكونوا في حالةِ توقُّع دائم للرُّوح القدس. إذا جاءتنا فجأةً دفقةٌ من الأفكار الصالحة بينما نتأمَّل أو نصلِّي، فعلينا أن نتركَ الطلبات الأخرى، ونكرِّسَ مكانًا في أذهاننا لهذه الأفكار التي يرسلُها الروح القدس، ونستمع إليها بصمتٍ دون أن نعيقَها بتاتًا. إنَّ الروح القدس هو الذي يعظُنا في تلك الأوقات، وكلمة واحدة من عظاته أفضلُ من ألف كلمة من صلواتنا نحن. وفي مرَّات عديدة تعلَّمتُ من صلاة واحدة أكثر ممَّا كان يمكن أن أتعلَّمه بالكثير من القراءة والتفكير والدراسة.[١٦]

هذا المبدأ مهمٌّ جدًّا، ويجب أن يتكرَّر دومًا. فمرَّة أخرى يكتب لوثر: "إذا حدث، وسط هذه الأفكار، أنْ بدأ الروح القدس يتكلَّم في قلبك باستخدام أفكار غنيَّة ومُنيرة، فعليك أن تكرمَ الروح بأن تتخلَّى عن برنامجك المكتوب...وتتذكَّر ما يقوله، وتحتفظ به جيِّدًا في قلبك، وسترى عجائبَ من شريعة الله" (مزمور ١١٩: ١٨).[١٧]

إنَّ الاتِّزان الموجود في تعليم لوثر عن الصلاة جديرٌ بالاهتمام، ونادرًا ما يوجد في الكثير من الأعمال المكتوبة عن الصلاة. ويتوقَّع لوثر أنَّنا سنستمع إلى الله أصلًا بواسطة كلمته. وهكذا لن يرتكبَ الخطأَ الذي ارتكبَه جورج وايتفيلد عندما افترض أنَّ انطباعاته الشخصيَّة إعلاناتٌ من الله. فالتواصل الأساسيُّ لله معنا هو بواسطة كلمته. ولا يعني هذا أنَّ التأمُّل هو فقط أحد أعمال العقل، إذ يُتوقَّع أيضًا أن يكلِّمنا

الروح ويملأ قلوبَنا بأفكار غنيَّة وجديدة وقويَّة بينما نتأمَّل في حقِّ الكتاب المقدَّس أمام الله، حتَّى وإنْ كنَّا نفكِّر في نصٍّ من الكتاب المقدَّس قرأناه وسمعناه مئات المرَّات من قبل. يتكلَّمُ لوثر عن إمكانيَّة أن تستنيرَ عيون أذهاننا (أفسس ١: ١٨)، حتى إنَّ الأمورَ التي كنَّا نعرفها فقط بعقولنا تصير مغروسة بقوَّة في قلب كياننا.

بالتأكيد، كان لوثر يؤمنُ بأنَّ كلَّ صلواتنا للآب، وهي صلوات يُعينُنا فيها روح التبنِّي بشفاعةِ يسوع، الابن الحقيقيّ. من ثَمَّ لا تُرفَع أيَّة صلاة حقيقيَّة دون شفاعة الروح القدس. غير أنَّ لوثر كان يرى أيضًا أنَّ الروح القدس يمكن بصورة خاصَّة أن ينيرَ أذهانَنا ويشجِّعَ قلوبنا بإعلان حقيقةِ الله لنا، كما يشير بولس الرسول في نصوص مثل رومية ٥: ٥ و٨: ١٥-١٦.

ولإعادة صياغة مقالة لوثر القصيرة عن الصلاة وتلخيصها، يمكن القَول إنَّه يوصينا أن نبنيَ صلواتنا على دراستنا للكتاب المقدَّس وذلك بالتأمُّل، فنعيد كلمات الربِّ إليه بالصلاة. وبينما نفعل ذلك، علينا دائمًا أن نكونَ واعين أنَّ الروح القدس يُمكن في أيِّ وقتٍ أن يبدأ في "وعظنا". عندما يحدث ذلك، فعلينا أن نتوقَّف عن أيِّ روتين بالصلاة، وننتبه إلى ما يقوله الروح.

الفصل ٧

قواعدُ الصلاة

نجدُ درسَنا الثالث عن الصلاة في كتاب جون كالڤن "**أساسيَّات الإيمان المسيحيّ**". وربَّما الجزء الأهمُّ في مقاربة كالڤن للصلاة هو ما يسمِّيه "قواعد الصلاة".

الخوفُ الفَرِح

القاعدة الأولى من قواعد الصلاة لدى كالڤن هي قاعدة الإجلال أو "مهابة الله". إنَّ أوَّل ما يدعو كالڤن المسيحيِّين إليه هو الشعور بجِدِّيَّة الصلاة وجلالها. إنَّها قدوم شخصيٌّ إلى محضَرِ الملك وحوارٌ فرديٌّ مع القدير ربِّ الكون. وليس هناك أسوأ من أن يكونَ الإنسانُ في تلك الحال وهو "خالٍ من الشعور بالرهبة والمهابة"[١]، بل ينبغي أن نأتي إلى الصلاة ونحن "متأثِّرون بجلال الله"، حيث إنَّنا في محضره "نتحرَّر من كلِّ الهموم البشريَّة والمشاعر الأرضيَّة". ويلمس كالڤن هنا أحد أهمِّ المبادئ وأكثر تعرُّضًا لسوء الفهم في الكتاب المقدَّس: "مخافة الله". من الواضح أنَّ مخافةَ الله تعني أن تكون خائفًا من شيءٍ ما، لكنَّ السؤال هو: مِمَّ تخاف؟ ولماذا؟

من الطبيعيِّ أن تفكِّر في أنَّ مخافة الله تعني الخوف من أن يعاقبنا. لكنَّ ١يوحنَّا ٤: ١٨ تخبرنا أنَّ "المحبَّة الكاملة تطرح الخوفَ إلى خارج"، وتضيف أنَّ ذلك الخوف الذي تطرحه إلى خارج هو "الخوف من العقاب". ونتعلَّم من رومية ٨: ١ أنْ لا دينونة على الذين هم في المسيح يسوع. ومن هذا نستنتج أنَّ الخوفَ

المسيحيَّ من الله لا يمكن أن يعنيَ أن نكون في حالة مستمرَّة من الخوف من الضياع الروحيِّ، إذا لم نَعِشْ حياةً سليمةً تمامًا. هناك نصوصٌ أخرى مثل مزمور ١٣٠ المثير للعَجب، والذي يقول إنَّ اختبار الغفران في واقع الأمر يزيد من مخافة الله.

مِمَّ يخافُ المؤمن بالمسيح إذًا في ما يتعلَّق بالله؟ فلنفكِّرْ في الأمر على هذا النحو. تخيَّل أنَّك تتعرَّف فجأةً إلى شخص كنتَ دائمًا تحترمُه احترامًا بالغًا. ربَّما شخص كان يلعب دورَ بطلك على مدى سنوات. ربَّما عندما تتقدَّم لكي تصافحه، تُدركُ مدهوشًا هَولَ الموقف، ولا تتمكَّن من تصديق أنَّك تقابل ذلك الشخص حقًّا. ثمَّ تكتشف أنَّك تتصبَّبُ عرقًا وترتجف على نحوٍ يصيبك بالحرج. وعندما تحاول الكلام، لا تتمكَّن من ذلك. ماذا يحدث؟ إنَّك لا تخافُ من الإيذاء ولا العقاب، بل أنت في الواقع تخاف أن ترتكبَ حماقةً أو أن تقولَ شيئًا غير مناسب لذلك الشخص الجليل أو أن تفعل شيئًا لا يليقُ بهذا الموقف عمومًا. إنَّ تقديرَك للشخص وفرحك أنَّك تقابله فعلًا يضيف إلى الموقف بُعدًا من المخافة والرهبة والرغبة في عدم إفساد الأمر.

إنَّنا نختبر مثل هذا الأمر حتَّى في حضور بشرٍ جديرين بالاحترام، فكم بالحريِّ يكون الأمر في محضر الله! ثمَّة فصل في كتاب كَنيث غراهام (Kenneth Grahame) الكلاسيكيِّ "**الرياح في أشجار الصفصاف**" *(The Wind in the Willows)*، ويحمل ذاك الفصل عنوان "عازف الأرغن على أبواب الفجر"، وفيه يكتب عن حيوان خلد وفأر يلتقيان إلهَ الحيوانات الإله "پان"* ويسمعانه وهو يعزف على الأرغن، فيشعران بالدهشة:

> "أخيرًا يتمالك الخلد أنفاسَه ويهمس وهو يرتجف: «هل أنت خائف، أيُّها الفأر؟»

* إلهٌ أسطوريٌّ للحيوانات والقطعان، وهو يصوَّر تقليديًّا في جسد إنسان مع أرجلِ ماعز وقرنَيه وأذنَيه. كان ظهوره الفجائيُّ يسبِّب رعبًا شديدًا لأي قطيع. والكلمة الإنكليزيَّة "Panic" (أي فَزَع) مشتقَّةٌ من اسمه (المترجم).

ويتمتم الفأر وعيناه تُشعَّان بحُبٍّ لا يُنطَقُ به قائلًا: «خائف؟» أخاف منه؟ لا، بتاتًا! لكنّي يا خلد، خائف!"[2]

يُعبِّر هذا المشهد عن مفهوم "مخافة الله" كما لا يُعبِّر أيُّ شيءٍ آخر أعرفُه عن الأمر. ونستطيع أن نقول إنَّ الخوفَ من العقاب هو خوف منحصرٌ في النفس، وهو يحدثُ لأشخاص منغَلِقين على أنفسهم. أمَّا مَن يؤمنون بالإنجيل - مَن يؤمنون بأنَّهم مستَقبِلون غير مستحقِّين لنعمة الله غير المتغيِّرة - فيَنمو لديهم شعورٌ متزايدٌ بالخوف الممزوج بالفرح والمحبَّة. وبسبب محبَّتنا وفرحنا اللذين لا يُنطَقُ بهما بالرَّبِّ، فإنَّنا نرتجفُ لمجرَّد الشعور بامتياز أنَّنا في محضره، وتنتابنا في محضره رغبةٌ عارمةٌ أن نقدِّم إليه التوقير والإجلال، ونخاف خوفًا عميقًا أن نُحزنَه أو نسبِّب له أيَّ ضيق.

من الطبيعيِّ أن تخاف عندما يضعُ أحدهم بين يديك إناءً فخَّاريًّا صينيًّا أثريًّا جميلًا لا يُقدَّر بثمن. أنت لا ترتعد خوفًا حينها من أن يؤذيَك الإناء، بل خوفًا من أن تؤذيه أنت. دون شكّ، نحن لا نستطيع أن نؤذيَ الله فعلًا، لكنَّ المؤمن بالمسيح الذي يدرك محبَّة الله الغامرة، يشعر بالخوف الشديد أن يفعلَ أيَّ شيء يُحزن هذا المحبَّ العظيم، أو ينال من مجده أو إكرامه.

يقول كالڤن إنَّ هذا الشعور بالرهبة هو جزءٌ أساسيٌّ في الصلاة. تتطلَّب الصلاة هذه المهابة والإجلال كما أنَّها تُنتِجهما. إنَّ حقيقة أنَّ لنا قدومًا إلى محضر الله في الصلاة يجب أن تجعل أفكارنا منحصرةً فيه، ومشاعرنا ملتهبة من نحوه.

عدم الكفاية الروحيَّة

القاعدة الثانية التي يقدِّمها كالڤن للصلاة هي "الإحساس بالاحتياج الذي يفوق كلَّ تظاهرٍ وخداع".[3] وهنا يشير كالڤن إلى ما يمكن أن نسمِّيه "التواضع الروحيّ"، وهو يتضمَّن شعورًا قويًّا باحتياجنا إلى الله واعتمادنا عليه، واستعدادنا لأن ندركَ خطايانا وآثامنا ونتوب عنها. لقد حذَّر كالڤن من ذلك المفهوم المنتمي إلى العصور

الوسطى (وإلى العصر الحديث أيضًا) أنَّ الصلاة هي نوع من "ارتداء أفضل ملابسنا" الروحيَّة أمام الله لكي نُبهر الله بتَقوانا. وهو يرفض بشدَّة فكرة أنَّه يمكننا بتقوانا أن "نستميل قلب الله" أو أنَّه يمكن أن يسمع صلواتنا "بسبب أدائنا الدينيّ أمامه".[٤]

في الواقع، إنَّ مَن يرفعون صلوات مثمرة، هم مَن يأتون إلى الله بتوجُّه معاكس تمامًا لهذا التوجُّه. علينا أن نكونَ أمناء جدًّا مع أنفسنا بشأن ضعفاتنا وأخطائنا. ونفعل كلَّ ما يمكن لنتجنَّب أيَّ "رياء" أو "تظاهر". علينا أن نأتي إلى الله ونحن مدركون أنَّ رجاءنا الوحيد هو في رحمته وغفرانه، ونكون أمناء تمامًا بشأن شكوكنا ومخاوفنا وفراغنا الداخليّ. يجب أن نأتي إلى الله "بتوجُّه السائل" طالب النعمة.

ومثل الدعوة إلى "مخافة الله"، يمكن أن تكون هذه القاعدة قاسية للأذن الحديثة، لكن لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك. يقول لنا كالڤن ببساطة أن نتخلَّى عن كلِّ تظاهر، ونترك كلَّ زيف. وها هو الكاتب فرنسيس سپوفورد (Francis Spufford) يدعونا إلى الأمر نفسه مستخدمًا تعبيرًا معاصرًا جدًّا عندما يصف مَيلنا إلى الخطيَّة، إذ يقول:

> "إنَّ ما نتحدَّث بشأنه هنا ليس فقط مَيلَنا إلى التعثُّر والسقوط والفشل غير المقصود بوصفنا كائناتٍ فانية، بل أيضًا بشأن ميلنا الفاعل إلى تجاوُز القوانين عمدًا بما في ذلك الحنث بالوعود، وإنهاء العلاقات المهمَّة في حياتنا، وإهمال مصلحتنا العُليا ومصالح الآخرين. «أنت» كائن برغباتٍ غير منطقيَّة وغير متَّسقة بعضها مع بعض، وهي في أعماقها متنافرة، حتَّى إنَّك تريد الأشياء بشدَّة، وفي الوقت نفسه لا تريدها. لذلك تدرك أنَّ حياتك إذا استمرَّت على هذه الحال فهي عندئذٍ أقرب إلى مَلْهاة عديمة المعنى (أو ربَّما المأساة) منه إلى النهاية السعيدة.. أنت بشر، وهذه هي حالُنا نحن البشر- هذه هي خبرتنا المعتادة".[٥]

وإلى أن ندركَ تلك الفوضى الداخليَّة التي يسمِّيها الكتاب المقدَّس الخطيَّة، فإنَّنا نعيش ما يُطلِقُ عليه كالڤن "الخداع". ويخبرنا المرشدون النفسيُّون أنَّ عيوب الشخصيَّة القادرة على تدميرك هي تلك العيوب التي لا تريد أن تعترف بها. ومن الأمور الضروريَّة للصلاة الحقيقيَّة هي الاعتراف والتوبة. مرَّة أخرى، تتطلَّب الصلاة تواضعًا، وهي أيضًا تؤدِّي إلى التواضع. تأتي الصلاة بك إلى محضر الله، حيث تنكشف أمامك تقصيراتك. ثمَّ يدفعك هذا الاكتشاف إلى طلب الله أكثر فأكثر ليغفرَ لك ويساعدك. يكتب كالڤن: "إنَّ هؤلاء الذين يطلبونه من كلِّ قلوبهم، هم الذين يجدونه (إرميا ٢٩: ١٣-١٤)...الصلاة الصحيحة إذًا تتطلَّب توبة".[٦] أمَّا إذا كنت متكبِّرًا تلقي بمسؤوليَّة مشكلاتك على الآخرين بدلَ تحمُّل مسؤوليَّة أخطائك، فإنَّك لا تَطلبُ عندئذٍ الربَّ من كلِّ قلبك. تتطلَّب الصلاة التخلِّي عن تسويغ الذات ولوم الآخرين والشفقة على الذات والكبرياء الروحيّ، وهي أيضًا تساعد على التخلِّي عن مثل هذه الأشياء.

وإلى الدرجة التي تستطيع فيها أن تتخلَّى عن ذلك الشعور المزيَّف بالكفاية الروحيَّة، يمكن أن تكونَ صلاتك أغنى وأعمق.

ثقةٌ مستَسلمةٌ ورجاءٌ واثق

يجب تناوُل القاعدتَين التاليتَين اللتَين يقدِّمهما كالڤن للصلاة. القاعدة الثالثة هي أن تكون لنا ثقةٌ خاضعةٌ مستَسلمة لله. "كلُّ مَن يقف أمام الله ليصلِّي...[يجب] أن يتخلَّى عن كلِّ أفكار مُتعلِّقة بأيِّ مجدٍ شخصيّ".[٧] علينا أن نثقَ به حتَّى وإن لم تَسِرِ الأمورُ كما كنَّا نتمنَّى. لقد كان هذا هو "قانونَ" يسوع نفسه في الصلاة؛ لأنَّ كلَّ مَن يُصلُّون يجب أن يقولوا: "لتكن مشيئتك". ومن أهداف الصلاة أن نجعلَ قلوبنا تثقَ بحكمة الله، لا بحكمتنا الشخصيَّة، ونترك كلَّ احتياجاتنا ورغباتنا في يديه بطريقةٍ لا تكون ممكنةً إلَّا بالصلاة. وتجعلنا هذه الصفقة التبادليَّة نشعر بثقة وطمأنينةٍ لا نشعر بهما بواسطة أيِّ شيءٍ آخر.

أمَّا القاعدة الرابعة فلا تقلُّ أهمِّيَّة، ويجب أن توضَع دائمًا جنبًا إلى جنب مع الثالثة. وتقول هذه القاعدة إنَّنا كما ينبغي أن نصلِّي لله بثقة خاضعة، يجب أن نصلِّي إليه بثقة متطلِّعة أيضًا. يجب أن نستسلمَ لكلِّ ما يفعله الله ونقبَلَه، وفي الوقت نفسه، يكون لدينا رجاء وتطلُّع في علاقتنا به. يكتب كالڤن: "[مع أنَّنا] ساجدون أمام الله في تواضع وخضوع تامَّين، فإنَّ علينا أيضًا أن نصلِّيَ ونطلبَ منه برجاءٍ واثق أنَّ صلاتَنا ستُستجاب".[٨] وسرعان ما يعترف كالڤن أنَّ هذين الأمرَين يبدوان كأنَّهما متعارضان، لكنَّهما ليسا كذلك في الجوهر.

إذا كانت مشيئة الله صحيحةً دائمًا، والخضوع لمشيئته أمرٌ ضروريّ، فلماذا نصلِّي من أجل أيِّ شيء بحماسٍ وثقة؟ يقدِّم كالڤن قائمةً بالأسباب. السبب الأوَّل هو أنَّ الله يدعونا للصلاة والطلب ويعد بأن يستجيب صلواتنا؛ لأنَّه إلهنا الصالح وأبونا السماويُّ المُحبّ.[٩] أيضًا عادةً ما ينتظر الله ليعطينا البَرَكة عندما نطلبها. لماذا؟ لأنَّه عندما تأتينا أمورٌ صالحة لم نطلبها، فيمكن أن نفسِّرها كأنَّها نِتاجُ حكمتنا واجتهادنا. عندما يعطينا الله عطايا ولا ندرك أنَّها عطاياه، فهذا أمرٌ مميتٌ للروح؛ لأنَّه يجعلنا نعيش في وهم الكفاية الشخصيَّة والثقة المبالغ فيها بأنفسنا، وهو يمهِّد الطريقَ لفشلنا الروحيّ.

وأخيرًا يضيف كالڤن أنَّ هاتين الحقيقتَين متَّسقتَان (دون تناقض)، وهما أيضًا متكاملتان معًا. فمن جهة نعرف أنَّنا "لا نمتلك لأنَّنا لا نطلب" (يعقوب ٤: ٢)، فهناك الكثير من الأمور التي لن يعطينا الله إيَّاها إلَّا عندما نُكرمه ونطلبها في الصلاة، وبذلك نحمي قلوبَنا من الكبرياء. ومن جهة أخرى، ماذا يمكن أن يطلبَ من الله أشخاصٌ عقلاءُ يعرفون حدودَ حكمتهم إذا كانوا يعتقدون أنَّ الله سيحقِّق لهم دائمًا كلَّ ما يتمنَّونه؟ هناك عددٌ هائلٌ من القصص عن مَرَدَةٍ ومصابيحَ وأمنيات وغيرها، وتعكس كلُّها تلك الحقيقة التقليديَّة التي تقول إنَّ أمانينا، نحن البشر، كثيرًا ما تكون "معكوسة الترتيب"، وغير حكيمة على نحو قاتل. غير أنَّنا يجب ألَّا نخاف؛ فالله لن

يعطينا أيَّ شيء ضدَّ مشيئته، ولن يمنحنا إلَّا ما هو في مصلحتنا على المدى البعيد (رومية ٨: ٢٨). لذا يسعُنا أن نصلِّيَ بثقةٍ لأنَّه لن يعطيَنا كلَّ ما نريده. "إنَّه يضبط مآل الأشياء والأحداث بحسب خُطَّته الحكيمة التي تتجاوزُ حدودَ فهمنا، بحيث لا تنسخُ صلوات القدِّيسين، التي يختلط فيها الصواب والخطأ، بعضها بعضًا".[١٠]

وإذا تمسَّكنا بالقاعدتَين الثالثة والرابعة لكالڤن، فإنَّهما تخلقان معًا دافعًا قويًّا جدًّا للصلاة. "اسألوا تُعطَوا..." (متَّى ٧: ٧-٨)- اسألوا بثقة ورجاء. ولا تخافوا من أن تطلبوا شيئًا خاطئًا، فحتمًا ستطلبون أشياءَ خاطئة! لكنَّ الله "سيضبط النتائج" بحكمته الفائقة. اسألوا، اطلبوا، اقرعوا- فستنالون إجاباتٍ كثيرة. أخيرًا، عندما لا تنالون استجابة؛ أو عندما تكون الاستجابة مخالفة لما تريدونه، فصلُّوا أيضًا لتطمئنَّ قلوبُكم وتستريحَ في مشيئته الصالحة.

القاعدة المناقضة للقواعد

بعد أن شرح كالڤن قواعده الأربع للصلاة، أضاف "خاتمةً" مُطوَّلة مهمَّة جدًّا، حتَّى إنَّ قرَّاءً كثيرين يحسبونها قاعدةً خامسة. وفي الواقع، هذه القاعدة الخامسة هي نوعٌ من الاستدراك الخاصّ بمفهوم القواعد نفسه. يقول كالڤن: "إنَّ كلَّ ما ذكرته في القواعد الأربع السابقة للصلاة السليمة لا تعني بالضَّرورة أنَّ الله سيرفضُ الصلوات التي لا تتضمَّن إيمانًا تامًّا، ولا التوبة الصادقة ولا الحماس والغيرة، أو التي فيها طلبات خاطئة".[١١] ورغم أنَّ هذا يبدو نوعًا من التراجع عن مفهوم القواعد نفسه، فإنَّه ليس كذلك في الواقع. "لم يُصلِّ أحدٌ قطُّ بالاستقامة الواجبة، غير أنَّ الله يستمع إلينا برحمته. ودون هذه الرحمة لما شعرنا بالحرِّيَّة والطمأنينة لنصلِّي".[١٢] إنَّ قاعدة كالڤن الخامسة للصلاة هي قاعدة النعمة. فهو يحثُّنا ألَّا نستنتج من القواعد التي قدَّمها أنَّ هناك قواعد للصلاة لن يستمع الله إلينا بتاتًا إنْ لم نتَّبعها. لا شيء نفعلُه أو نُشكِّله يضمن لنا قدومًا إلى الله إلَّا رحمتَه ونعمته على أساس عمل المسيح الخلاصيّ.

ما دور "القواعد" إذًا؟ ما أهمِّيَّة الطريقة التي نُصلِّي بها ما دام الأمر كلُّه بالنعمة؟ الإجابة هي أنَّ الصلاة يجب أن تتشكَّل بالنعمة وتتماشى معها. الخوف الفَرِح والاستسلام الواثق هما طريقتان للاقتراب إلى الله لا يمكن أن تكونَ ممكنة إذا كان دخولنا إلى الله أمرًا نناله باستحقاقنا. فلا يسعُنا باستحقاقنا الاقتراب من الله بأيَّة طريقة من الطُّرق. إنَّنا ندخل إليه فقط على أساس هبة مجَّانيَّة منه، ونحن نقبل هذه العطيَّة فقط عندما ندرك عجزَنا عن اتِّباع أيَّة قواعد مطلوبة، وعدم استحقاقنا أن نمثُلَ أمامه، واحتياجنا إلى رحمته لندخل محضره. عندئذٍ فقط يمكن أن نصلِّيَ ونتكلَّم عن قواعد الصلاة. لا توجد هناك قواعد تؤهِّلنا وتجعلنا مستحقِّين أن ندخلَ إلى الله، لكنَّها فقط محاولات لجَعْلِ صلواتنا تتَّفق مع شخصيَّة الله- إله النعمة المجَّانيَّة- ومن ثَمَّ نتَّحد به أكثر وأكثر.

إليكم تشبيهًا يمكن أن يساعدنا على التفكير في الأمر. عندما تضغط مفتاح الكهرباء، فإنَّ المصباح يضيء. هل المفتاح هو ما ولَّد الطاقةَ التي جعلت المصباح ينير؟ لا! إنَّها الطاقة الكهربائيَّة المارَّة بالأسلاك، والآتية من مولِّد الطاقة. بالطريقة نفسها، ليست هناك قيمةٌ في صلواتنا من ذاتها لتمنحَنا دخولًا إلى الآب. لقد أنجز المسيح هذه المهمَّة. لذا فإنَّ الصلوات التي تتماشى مع الفهم الصحيح لإله النعمة، هي التي توصلُنا به. أمَّا إذا صلَّينا بلا تواضع، وإذا قدَّمنا طلباتنا بصبر نافد- فهذا يفصلنا عنه. وعلى العكس، عندما نصلِّي دون ثقةٍ أو رجاء أنَّه يسمعنا، فهذا يعيق فينا أيَّ شعورٍ بحضوره. ويكوِّن هذان الخطأان الفشلَ في الصلاة بِاسْم يسوع، والمجيء إلى الله على أساس الرحمة غير المستحقَّة.

يقول كالفن هذا في فِقرة حدَّدت مسارَ فَهْمِ المؤمنين بالمسيح للصلاة عبر قرون:

> "بمجرَّد أن تتبادر إلى أذهاننا حقيقة جلال الله المهوب، فإنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نرتعد ونبتعد لإدراكنا عدم الاستحقاق، حتَّى يتقدَّم إلينا السيِّد المسيح ليكونَ شفيعًا بيننا وبين الله، فيصير عرشُ المجد

> الرهيب عرشَ النعمة...ويقول عندئذٍ: «إلى الآن لم تَطلُبوا شَيئًا بِاسمي. اطْلُبوا تأْخُذوا»" (يوحنَّا ١٦: ٢٤)...وكما يقول بولس الرسول: «أن مَهمَا كَانَت مَواعيدُ الله فهو فِيهِ النَّعَمْ وفيه الآَمِينُ» (٢كورنثوس ١: ٢٠). وعندها نتيقَّن أكثر أنَّ طلباتنا تتحقَّق".

ليست الصلاةُ بِاسْم يسوع إذًا صيغةً سحريَّة. لا ينبغي بتاتًا أن نعتقد أنَّها تعني مجرَّد إضافة عبارة "بِاسْم يسوع" لتُستَجابَ الصلوات. فكما رأينا، يمكن أن يسمعَ الله ويستجيب صلاة أيِّ إنسان حتَّى مَن يصلُّون دون إيمان بيسوع. كثيرًا ما يستمع الله إلى صرخات المساكين المضطهدين والمقهورين، حتَّى إنْ كانوا يصلُّون إلى إلهٍ مزيَّف. ويؤكِّد كالڤن هذه الحقيقة بالإشارة إلى فقرات في الكتاب المقدَّس تقدِّم هذا التعليم. هذا ببساطة لأنَّه إله رحيم.[١٣] لذا فإنَّ عبارة "بِاسْم يسوع" ليست تعويذةً سحريَّة لاستجابة الصلوات. إذ تعني الصلاة بِاسْم يسوع أنَّنا نأتي إلى الله بثقة واعية بالمسيح من جهة خلاصنا وقبولنا من الآب، وليس بناءً على استحقاقنا أو سجلَّاتنا. الصلاة باسم يسوع هي في جوهرها تأسيس مستمرٌّ لعلاقتنا بالله وصلاتنا إليه على أساس عمل المسيح الخلاصيّ. وهي تعني أيضًا أنَّنا ندرك مكانتَنا في المسيح بوصفنا أولادًا لله، مهما كانت حالُنا الداخليَّة. إنَّ الله أبانا السماويَّ ملتزمٌ أن يحقِّق خيرَ أولاده دائمًا بوصفه أبًا صالحًا.

مكانة يسوع عند الآب

لماذا يسمعنا الآب دائمًا من أجل يسوع؟ يتتبَّع اللاهوتيُّ الأستراليُّ جرايمي غولدزورذي (Graeme Goldsworthy) كيف أنَّ الله وعدَنا منذ طُرِدَ آدم من عائلة الله، أن يجعلَنا أبناءه من جديد. لقد أطلق الله على الشعب العبرانيِّ أنَّه "بِكْره" [أي ابنه الأكبر] (خروج ٤: ٢٢- ٢٣)، ومن مصر دعا ابنه بمعجزة الخروج (هوشع ١١: ١). وكان يُطلَق على ملوك الشعب القديم الممسوحين- داود وسليمان- لقب أبنائه، رغم

أنَّ تاريخ ملوك إسرائيل هو سلسلة من الفشل في الوثوق بالله وطاعته، والفشل أن يكونوا أبناءه الأمناء حقًّا. وعند معموديَّة يسوع، تكلَّم الله من السماء: "أنت هو ابني الحبيب، الذي به سُررت" (لوقا ٣: ٢٢). وكما يقول غولدزورذي: "لعلَّ المرء يستطيع أن يسمعَ تنهيدة الراحة من السماء"؛ لأنَّ أمامَنا أخيرًا ابنٌ حقيقيٌّ لله- ابنٌ يمكنه بالفعل أن يثقَ بالله ثقةً تامَّة، ويطيعه طاعةً كاملة. وبهذا يُسَرُّ الآب.[١٤]

لذلك فإنَّ له- وله وحده، من بين كلِّ البشر على وجه الأرض- امتيازَ الصلاة ودخولَ محضر الله باستحقاق. إنَّه الوحيد الذي يستطيع أن يقولَ لله بثقة: "أنا علمْتُ أنَّك في كلِّ حينٍ تَسمَعُ لي" (يوحنَّا ١١: ٤١). عندما نؤمن بيسوع المسيح، فإنَّنا نتَّحدُ به، ونصير "فيه" كما يقول بولس الرسول باستمرار. ويعني هذا أنَّ كلَّ ما نافذٌ عليه نافذٌ علينا أيضًا. ولأنَّ له وحده الدخول الآمن والكامل إلى الله بوصفه ابنًا حقيقيًّا مطيعًا للآب، فقد صار لنا فيه مثل هذا الدخول. "إذا كان الآب دائمًا ما يستمع إلى الابن، فهو يستمع دائمًا إلى مَن هم أيضًا أبناؤه في المسيح".[١٥] عندما نصلِّي بِاسْم يسوع، فإنَّنا نفعل ذلك بثقةٍ تامَّة، وفي الوقت نفسه، باعتماد متَّضع على هذه النعمة غير المستحقَّة.

يتكلَّم الواعظ الأميركي آر. إيه. توري (R. A. Torrey) عن رجل قابَلَه عندما كان توري يعظُ في مدينة ملبورن الأستراليَّة. ذات يوم كان فوق المنبر يستعدُّ لبدء الوعظ، وجاءَته رسالةٌ مكتوبةٌ بلا اسم. كان في هذه الورقة طلبٌ أن يتناولَ في عِظَتِه موضوعَ الصلاة غير المستجابة. كانت الرسالة هكذا:

> "عزيزي د. توري، أنا في حَيرة شديدة. إنِّي أصلِّي منذ وقتٍ طويل جدًّا من أجل شيء أثق بأنَّه متَّفق تمامًا مع مشيئة الله، لكنِّي لم أنله. لقد كنتُ عضوًا في الكنيسة المشيخيَّة على مدى ٣٠ سنة، وطوال هذا الوقت حاولتُ جاهدًا أن ألتزمَ الحضور. أشرَفْتُ على فصول التعليم مدَّة ٢٥ سنة، وكنت شيخًا في الكنيسة على مدى

> ٢٠ سنة. ومع كلِّ هذا لا يستجيبُ الله صلاتي، ولا أستطيع أن أفهم هذا الأمر. هل يمكن أن تشرح لي؟"

أدركَ توري مغزى الرسالة، وقرَّر أن يخوضَ في غِمار الأمر. تقدَّم إلى المنصة، وقرأ الرسالة، واستخدمها ليشرحَ أمرًا مهمًّا في ما يتعلَّق بالصلاة. قال توري إنَّ المشكلة واضحة. "يظنُّ هذا الرجل أنَّه لكَونه عضوًا منتظمًا في الكنيسة على مدى ٣٠ سنة، ومشرفًا ملتزمًا في فصول التعليم ٢٥ سنة، فإن الله ملزَمٌ أن يستجيب صلواته. إنَّه في الواقع يصلِّي ليس بِاسْم يسوع، بل بِاسْمه هو". لا شكَّ أنَّ كلَّ صلوات ذلك الرجل كانت تنتهي بعبارة "بِاسْم يسوع"، لكنْ كان كلُّ هذا جزءًا من مشروعه أن يشتريَ رضا الله بطاعته الكاملة للقواعد والقوانين. واستمرَّ توري قائلًا: "لا بدَّ أن نتخلَّى عن أيِّ إحساس بالاستحقاق أمام الله...أمَّا يسوع فهو الوحيد الذي له الاستحقاق العظيم أمام الله، وينبغي أن نذهبَ إلى الله ليس بناءً على صلاحنا، بل على أساس استحقاق المسيح". وبعد انتهاء الاجتماع، جاء كاتب الرسالة إلى توري وكشف عن نفسه، وقال له: "لقد أصبْتَ كبدَ الحقيقة".[١٦]

الفصل ٨

صلاةُ الصلوات

لم يبنِ أيٌّ من أساتذتنا الثلاثة في الصلاة، القدِّيس أغسطينوس ولوثر وكالڤن، تعليمَهم عن الصلاة على خبراتهم الخاصَّة. لقد كان ما يؤمنون به وما يمارسونه في ما يتعلَّق بالصلاة نابعًا من فهمهم للدَّرس الأهمِّ للصلاة من المُعلِّم الحقيقيّ- الصلاة الربَّانيَّة (متَّى ٦: ٩-١٣)، والتي وردت في قلب موعظة السيِّد المسيح على الجبل. كان الجزء الأكبر من الفصل العشرين من كتاب كالڤن "**أساسيَّات الإيمان المسيحيّ**" (فصل الصلاة) مُكرَّسًا لدراسة مفصَّلة لذلك النموذج الذي قدَّمه يسوع للصلاة. والأمر ذاته يُقال عن الجزء الأكبر من رسالة لوثر الكلاسيكيَّة عن الصلاة. فقد شرحَ كلٌّ من هؤلاء اللاهوتيِّين الثلاثة العِظام باستفاضة الصلاة الربَّانيَّة في أكثر من موضع، ليس فقط في تفاسير الكتاب المقدَّس، بل أيضًا في الكتابات اللاهوتيَّة والرعويَّة.[١]

سندرس في هذا الفصل الصلاة الربَّانيَّة بتبصُّرات معلِّمينا الثلاثة، ومن ثَمَّ نتعلَّم عن الصلاة من عمق حكمتهم، وكمال صلاة يسوع نفسها.

خطرُ الاعتياد

ربَّما تكون الصلاة الربَّانيَّة هي مجموعة الكلمات الأكثر ترديدًا في تاريخ العالم. لقد أعطانا الربُّ يسوع هذه الصلاة لتكونَ مفتاحًا للدُّخول إلى كنوز الصلاة. ومع

ذلك، يظلُّ هذا الكنز غير مستغلٍّ تمامًا ربَّما جرَّاء فرط الاعتياد.

تخيَّل أنَّك تزور شخصًا للمرَّة الأولى، وهو يسكن بجانب سكَّةِ حديد. وبينما تجلس وتتحدَّث إليه في بيته، يأتي فجأةً هدير قطار على بُعدِ أمتارٍ من المكان حيثما تجلسان، فتقفز مذعورًا صارخًا: "ما هذا؟" فيجيب صديقك الذي يسكن ذلك البيت: "ماذا تعني؟" فتجيبه أنت: "ذلك الصوت! لقد تخيَّلتُ أنَّ شيئًا سيخترق الجدار". فيقول صديقك: "آه، هذا الصوت؟ إنَّه مجرَّد قطار. يبدو أنَّنا اعتدناه، فلم نعُدْ نلحظه". فتجيبه وباندهاش بالغ، بعينَين متَّسعتَين: "لا أستطيع أن أفهمَ إمكانيَّةَ اعتيادِ مثل هذا الصوت". غير أنَّه ممكن.

ينطبق الأمر نفسه على الصلاة الربَّانيَّة. العالم كلُّه جائع جدًّا إلى الخبرة الروحيَّة، وها هو يسوع يفتحُ أمامنا الطريقَ إليها في كلماتٍ قليلة. كما لو كان يسوع يقول: "هل تحبُّ أن تتقابلَ وجهًا لوجه مع الآب السماويِّ، ملك الكون، كلَّ يوم، وتسكبَ قلبك لديه، وتشعرَ به يستمعُ إليك ويحبُّك؟" فنجيبه: "أجل! دون شكّ". فيجيبنا يسوع: "كلُّ ذلك متاحٌ في الصلاة الربَّانيَّة". عندئذٍ نقول: "في ماذا؟" إنَّ هذه الصلاة معتادةٌ حتَّى إنَّنا لم نَعُدْ نسمَعُها. لكنَّ كلَّ ما نحتاج إليه موجودٌ فيها. كيف إذًا نقاومُ هذا الاعتياد المميت؟ إحدى الطرق التي نقاوم بها هذا الاعتياد هو أن نستمعَ إلى هؤلاء المعلِّمين الثلاثة وهم يسبرون غور هذه الصلاة في تأمُّلاتهم وممارساتهم الروحيَّة. ما الذي رأوه في الصلاة الربَّانيَّة؟ وما الذي تقدِّمه إلينا؟

"أبانا الذي في السموات"

يُسمَّى هذا الاستهلال، وهو ليس طِلْبةً في الصلاة. ويشرح كالڤن أنَّنا عندما ندعو الله "أبانا" فإنَّنا نصلِّي عندئذٍ بِاسْم يسوع. "فمن يمكنه أن يدخلَ محضر الله مندفعًا هكذا ناسبًا إلى نفسه كرامةَ البنوَّة لله ومجدها، إلَّا مَن أدرك أنَّه نال التبنِّي بالنعمة بالإيمان بالسيِّد المسيح؟"[٢] كما كان لوثر أيضًا يؤمنُ بأنَّ هذا الاستهلال كان دعوة

من المسيح ألَّا ندخل مباشرةً في الصلاة قبل أن نعرفَ مكاننا، وندرك مكانتَنا في المسيح قبل أن نصلِّي. وعلينا أن نقولَ لله: "لقد علَّمْتَنا أن نحسبَكَ وندعُوَكَ أبًا لجميعنا...لكنَّك مع ذلك مستحقٌّ أن تكون قاضيًا عادلًا وقاسيًا علينا إن أردت". لذا ينبغي أن نبدأ بأن نطلبَ من الله أن "يزرع في قلوبنا تلك الثقة المطمئنة في محبَّته الأبويَّة".[٣] يوافق كالڤن أيضًا أنَّه "يحرِّرنا بعُذوبةِ اسمِه العظيم [الآب] من كلِّ خوف".[٤]

"ليتقدَّسِ اسمك"

تبدو فكرة القداسة غريبة على الأذن المعاصرة في المجتمع الذي صار عَلمانيًّا إلى حدٍّ بالغ، ولم يعُدْ معتادًا المفاهيم الروحيَّة. كما أنَّ هناك مشكلة منطقيَّة باديةً في هذه الطلبة يعبِّر عنها لوثر بالقَول: "ما الذي نصلِّي من أجله عندما نطلب أن يتقدَّس اسم الله؟ أليس اسمه بالطبيعة قدُّوسًا؟" ويجيب أنَّه كذلك بالتأكيد، لكنَّ اسمَه "في استخدامنا لا يظلُّ مقدَّسًا".[٥] ويشيرُ لوثر إلى حقيقةِ أنَّ اسم الله وُضِعَ على كلِّ المؤمنين بالمسيح ممَّن اعتَمَدوا. وبوصفهم حاملين اسم الله، فهم يُمثِّلون إلهًا صالحًا وقدُّوسًا، لذا فنحن نصلِّي أن يحميَنا الله من أن نجلبَ العارَ على هذا الاسم الذي دُعِي علينا، وأن يقوِّيَنا أن نكون صالحين ومقدَّسين. غير أنَّ لهذه الطلبة معنًى ثانيًا عند لوثر، وهو في ذلك يشترك مع أغسطينوس عندما يقول إنَّها صلاة أن "يتمجَّد الله بين كلِّ الأمم كما هو مُمجَّد بيننا".[٦] إنَّها طِلْبة أن يمتدَّ الإيمان بالله وينتشر في العالم كلِّه، وأن يكرمَ المؤمنون بالمسيح الله بقداستهم ومشابَهَتِهم للمسيح في حياتهم، وأن يكرمَ البشرُ الله أكثرَ فأكثر ويَدْعُون بِاسْمه.

ويوافق كالڤن لكنَّه يضيفُ فكرةً تدخلُ في مزيدٍ من العُمق: "هل هناك ما هو أسوأ من أن نحجبَ مجدَ الله بعَدم إبداء شُكرِنا وعرفاننا له؟" وبكلمات أخرى، فإنَّ نكران الجميل واللَّامبالاة نحو الله هما طريقتان نفشل فيهما ونمتنع عن تمجيده. يعني

أن "نقدِّس" اسم الله ليس فقط أن نحيا حياة بارَّة، بل أيضًا أن يكونَ لنا قلبٌ شاكرٌ تُجاهَ الله معترفٌ بفضله، وليس ذلك فقط بل أن تملأ قلوبنا الدهشة والإعجاب بجماله الباهر. إنَّنا لا نقدِّس اسم الله ولا نوقِّره بما يكفي حتَّى يستأسرَ شخصُه قلوبَنا بالكامل".[٧]

"ليأتِ ملكوتُك"

يقول أغسطينوس إنَّ الله يملك الآن، لكنْ كما أنَّ النورَ غائبٌ عند مَن يرفضون أن يفتحوا عيونَهم، يظلُّ في وُسع الناس أن يرفضوا مُلك الله.[٨] وهذا هو سبب كلِّ مشكلات البشر. فنحن مخلوقون لنتمتَّع بعبادة الله، فعندما نعبدُ أمورًا أخرى بدلًا منه، تبدأ جميعُ المشكلات الروحيَّة والنفسيَّة والثقافيَّة وحتَّى المادِّيَّة. لذا نحتاج لأن "يأتي" ملكوتُ الله. كان كالڤن يؤمن بأنَّ ملكوتَ الله يأتي بطريقتَين: بالروح الذي "يُقوِّم رغباتنا"، وبكلمة الله، التي "تُشكِّل أفكارَنا".[٩] هذه إذًا هي طلبة "الربوبيَّة": أن نطلبَ من الله أن يبسطَ قدرتَه الملكيَّة على كلِّ جزء من أجزاء حياتنا- المشاعر والرغبات والأفكار والالتزامات. وهي تذكِّرنا بإحدى الصلوات اليوميَّة التي كتبَها توماس كرينمر (Thomas Cranmer)، وهي بالتحديد الصلاة الخاصَّة باليوم الرابع عشر بعد عيد الثالوث: "أن تجعلَنا ننالُ كلَّ ما تَعِدُنا به، وأن نحبَّ كلَّ ما تأمرُنا به". إنَّنا نطلبُ من الله أن يملك علينا بالكامل حتَّى نريد أن نطيعَه من كلِّ قلوبنا بكلِّ فرح.

يضيفُ لوثر أيضًا بُعدًا خارجيًّا ومستقبليًّا: أنَّ مُلكَ الله الحاليَّ على الأرض هو مُلكٌ جزئيّ، لكنَّ ملء مُلكه المستقبليِّ على الأرض هو أمرٌ خارج نطاق التصوُّر. فبذلك الملك سيوضَع حدٌّ لكلِّ المعاناة والظلم والفقر والموت. وعندما نصلِّي أن "يأتي ملكوت الله" فنحن نعلن "شوقنا إلى هذه الحياة المستقبليَّة" من العدل والسلام، ونطلب من الله أن «يكون ملكُه المستقبليُّ هذا هو اكتمالَ ملكه الذي بدأه فينا".[١٠]

"لتَكُنْ مشيئتُك"

يُعدُّ لوثر الأكثر وضوحًا ومباشرة في ما يتعلَّق بمعنى الطلبة الثالثة. وهو يعيد صياغتها على النحو التالي: "امنحنا النعمة لنكون مستعدِّين لاحتمال كلِّ أشكال المرض والفقر والخزي والألم والمعاناة، وأن ندرك أنَّ إرادتك تصلِّب إرادتنا الإنسانيَّة بواسطة هذه الأمور".[١١] قد نتردَّد في تقديم مثل هذا التصريح الشجاع، لكنَّنا الآن نستطيع أن نميِّز أهمِّيَّة الاستهلال المبدئيِّ لهذه الصلاة. فإنْ لم نكن واثقين بأنَّ الله هو أبونا، لن نستطيعَ أن نقولَ له "لتَكُنْ مشيئتُك"؛ لأنَّنا عندئذٍ نكون متيقِّنين أنَّ مشيئتَه هي صالحة لنا على الدَّوام. عادة ما يكون الآباء غامضين لدى الأطفال. لا يستطيع طفل في الرابعة مثلًا أن يفهم مغزى أن يمنعَه أبوه من بعض الأشياء، لكنَّه يستطيع أن يثقَ بأبيه. فقط إذا كنَّا نثقُ بالله بوصفه أبًا، يمكنُنا عندئذٍ أن نتحمَّل المتاعب بصبر ونعمة.

حسنًا، يُمكن أن يسأل أحدهم، كيف يمكننا أن نتحقَّقَ أنَّ الله جديرٌ بالثِّقة؟ الإجابة هي أنَّ هذا الجزءَ من الصلاة الربَّانيَّة بالتَّحديد هو ما صلَّاه يسوع في بستان جَتسَيماني، تحت أحوالٍ ساحقةٍ أكثرَ من أيِّ شيء يمكن أن يقابلَنا في هذه الحياة. لقد خضعَ يسوعُ لمشيئة الآب بدلَ أن يتبعَ رغباته الشخصيَّة، وكان هذا الخضوع سببَ خلاصٍ لنا. لذا نستطيع نحن أيضًا أن نثقَ بالله. لا يطلب منَّا يسوع المسيح أن نفعلَ أيَّ شيء لم يفعَلْه هو قبلنا ومن أجلنا، وتحت أوضاع صعبة تفوقُ قدرتنا على الفهم.

يضيفُ لوثر، وهو في ذلك يتبع أغسطينوس، أنَّه دون هذه الثقة بالله، سنحاول أن نأخذَ مكانَ الله، ونطلبَ الانتقام ممَّن يؤذوننا.[١٢] سنكونُ محميِّين "من الرذائل الرهيبة مثل اغتيال الشخصيَّة والنميمة والافتراءات وتشويه السمعة وإدانة الآخرين، فقط إذا تعلَّمنا أن نستسلم لله".[١٣] إذا لم نستَطِعْ أن نقول: "لتَكُنْ مشيئتُك" من أعماق قلوبنا، فلن نعرفَ أيَّ سلام حقيقيّ. سنشعر بالرغبة في

السيطرة على الآخرين والسيطرة على أوضاعنا، وسنفعل كلَّ شيء بالطريقة التي نظنُّ أنَّها ينبغي أن تُفعَل بها، غير أنَّ الواقع يقول إنَّ السيطرة على الحياة بهذه الطريقة هو أمرٌ يتجاوزُ قدراتِنا البشريَّة، لذا فإنَّ هذا يعني أنَّنا سنضرب رؤوسنا في الصخر. لذلك يضيف كالفن أنَّنا بصلاة "لتَكُنْ مشيئتُك" نُخضِع إراداتَنا لله، كما نُخضِعُ مشاعرنا أيضًا، فلا نصير حزانى ومُرِّي النفس، وتتسبَّب الأشياء التي تحدث لنا في تقسية قلوبنا".[١٤]

لقد تأمَّلنا في الطلبات الثلاثة الأولى من الصلاة الربَّانيَّة. وفيها رأينا أنَّ معلِّمينا الثلاثة يعترفون بأهمِّيَّة وجودها في بداية الصلاة الربَّانيَّة. فبداية الصلاة تدور حول الله. ولا ينبغي أن ندَعَ احتياجاتِنا وأمورَنا تتسيَّد صلواتنا؛ بل على العكس، يجب أن نعطي المكانة الأولى لتمجيد الله وإكرامه، وأن نشتاق لأن نراه ممجَّدًا في كلِّ مكان، ونتطلَّع لأن نحبَّه ونطيعَه من كلِّ قلوبنا. لقد عبَّر جورج هربرت (George Herbert) عن ذلك كلِّه في هذه الفقرة الشعريَّة المختَصَرة:

"رغبة قلبي إليك
وإرادتي تطيعك".[١٥]

إنَّ العبادةَ والشكرَ- مركَزيَّة الله- تأتي أوَّلًا، لأنَّها تشفي القلب من الانحصار في الذات؛ فذلك الانحصار يحنينا نحو أنفسنا، ويمنعنا من رؤية الأمور على حالها. الآن وقد اقتربت الصلاة من منتصفها، ووُضعت رؤيتنا في نصابها الصحيح، واتَّضحَتْ معالمها بوَضْع مجد الله أوَّلًا، نستطيعُ الآن أن نلتفتَ إلى احتياجاتنا واحتياجات عالمنا.

"خبزنا كفافنا"

يذكِّرنا أغسطينوس أنَّ "خبزنا اليوميَّ" استعارة تشير إلى ضروريَّات الحياة، لا كماليَّاتها. فلأنَّنا أمضَينا الطلبات الثلاثة الأولى من الصلاة معترفين أنَّ الله هو

خبزنا الحقيقيّ، وثروتُنا العظيمة، وسعادتُنا الباقية، فإنَّ يسوع يطالبنا الآن بأن نأتيَ باحتياجاتنا في صورة "قائمة صلوات" تكون منسجمةً مع توجُّهنا القلبيِّ الذي شكَّلته الطلبات الأولى من الصلاة. وكما رأينا فإنَّ أغسطينوس يؤمن بأنَّ الطلبةَ الكاملةَ يجب أن تكون أمثال ٣٠: ٨ "لا تُعْطِني فَقرًا ولا غنًى. أَطعِمني خُبزَ فَريضَتي، لئلَّا أشبَعَ وأَكفُرَ وأقولَ: «مَن هو الرَّبّ؟» أو لِئلَّا أَفتَقرَ وأَسرِقَ وأتَّخِذَ اسمَ إلهي باطلًا".[١٦]

وهنا يتبعُ كالڤن منطقَ أغسطينوس عندما يقول إنَّنا عندما نتكلَّم عن خبزنا اليوميّ، "فإنَّنا لا...نتوقَّفُ عن الاهتمام بمجد الله...بل نحن نطلب فقط ما يلائم هذا المجد".[١٧] إنَّنا نأتي باحتياجاتنا متوقِّعين تجاوُبًا إيجابيًّا، لكنَّنا نفعل ذلك وقد تغيَّرت أولَويَّاتنا بفعل شبعنا وثقتنا به. لا نأتي في تصلُّفٍ وغرور ولا في قلق وخوف لنقول له ما يجب أن يحدث. وكثير من الأمور التي كنَّا من قبل نتألَّم لغيابها، نستطيع الآن أن نطلبَها دون ذلك التعلُّق.

ويرى لوثر في هذه الصلاة أيضًا، بُعدًا مجتمعيًّا. فإذا حصل الجميع على ما يكفيهم من الخبز، فسينتعشُ الاقتصاد عمومًا، ويرتفع معدَّل العمالة، ويصير المجتمع أكثر عدلًا. لذلك فعندما نصلِّي "أعطِ كلَّ الناس في بلادنا ما يكفيهم من الخبز"، فنحن نصلِّي عندئذٍ ضدَّ "الاستغلال الجائر" الذي يمكن أن يحدث في مجال الأعمال والتجارة وسوق العمل، ممَّا "يسحق الفقراء ويحرمهم ما يكفيهم من الخبز". وفي الوقت نفسه، يحذِّر مَن يمارسون ذلك الجور من قوَّة هذه الصلاة. "ليحذَرِ القساة الفاسدون من قوَّة تشفُّع الكنيسة، وليدركوا أنَّ هذه الصلاة البسيطة البريئة يمكن أن تنقلبَ ضدَّهم".[١٨] فالأمر عند لوثر هو أنَّنا عندما نصلِّي من أجل خبزنا اليوميّ، فإنَّنا نصلِّي من أجل الرخاء والعدالة الاجتماعيَّة.

"اغفِرْ لنا ذنوبَنا كما نغفرُ نحن أيضًا للمُذنبين إلينا"

أمَّا الطلبة الخامسة فتتعلَّق بعلاقاتنا بالله والآخرين. يقدِّم إلينا لوثر دعوةً واضحةً لنطلبَ غفرانَ الله كلَّ يوم في الصلاة، وهو الذي صارع سنواتٍ عدَّة صراعًا مريرًا مع قضايا الذنب والغفران:

> "إذا أصرَّ أحدٌ على صلاحه الشخصيِّ واحتقرَ الآخرين...فلينظُرْ إلى نفسه عندما تواجِهُه هذه الطلبة في الصلاة الربَّانيَّة. عندئذٍ سيجد أنَّه ليس أفضل من الآخرين، وأنَّ على كلِّ واحدٍ في محضر الله أن يحنيَ رأسَه ويدخلَ في فرح الغفران الإلهيِّ فقط بواسطة ذلك الباب المنخفض الذي يُدعى التواضع".[١٩]

يضيف لوثر أنَّ هذه الطلبة ليست فقط تحدِّيًا للكبرياء، بل هي أيضًا اختبارٌ للواقعيَّة الروحيَّة. إنَّنا إذا حَسبْنا أنَّ الاعترافَ والتوبةَ هما أمران مؤذيان على نحو لا يُحتمل، أو أنَّهما مهينان للإنسان، فذلك يعني "أنَّ القلب ليس مستقيمًا أمام الله، ولا يستطيع أن ينال...الثقة والطمأنينة بالإنجيل". إذا كان الاعتراف الدوريُّ والمستمرُّ لا يُنتج فينا ثقةً متزايدةً وفرحًا متناميًا، فنحن عندئذٍ لا نفهمُ معنى الخلاص بالنعمة، الذي هو جوهر الإيمان.

لقد ربطَ يسوع ربطًا وثيقًا ما بين علاقتنا بالله وعلاقتنا بالبشر، ويعملُ الأمرُ في الاتِّجاهَين معًا. إذا لم نستطع أن نرى خطايانا ونطلب من الله غفرانًا جذريًّا لها، فإنَّنا لن نستطيعَ أن نغفرَ ونطلب الخير لهؤلاء الذين أساءوا إلينا. لذا فإنَّ المرارةَ التي لم يجرِ التعامُل معها تكشفُ أنَّ قلوبَنا ليست سليمة أمام الله. كما أنَّها تعني أنَّنا إنْ كنَّا نحتفظ بضغائن في قلوبنا، فيجب أن نرى النِّفاقَ الكامنَ في طلبنا الغفران من الله دون أن نكونَ مستعدِّين لأنْ نغفرَ للآخرين. ويضعُ كالڤن هذه الحقيقة بوُضوح شديد:

"إذا احتفَظْنا بمشاعر كراهية في قلوبنا؛ وإذا كنَّا نخطِّط للانتقام ونتحيَّن الفرصة لنؤذيَ الآخرين، وحتَّى إنْ لم نحاول أن نطلب الأفضل لأعدائنا، ونحاول كلَّ ما نستطيع من فعلِ الخير لهم وتقديم أنفسنا إليهم- فنكون عندما نصلِّي ذلك الجزء من الصلاة الربَّانيَّة، كأنَّنا نطلبُ من الله ألَّا يغفرَ لنا خطايانا".[٢٠]

"لا تُدخِلْنا في تجرِبة"

في هذه الطلبة يفرِّقُ أغسطينوس ما بين أمرَين مهمَّين. يقول: "لا تعني هذه الصلاة أنَّه لا ينبغي أن نُجرَّب، بل تعني ألَّا نُقادَ إلى التجرِبة".[٢١] إنَّ التجرِبةَ، بمفهوم أن نخضعَ لامتحانات واختبارات ليست فقط أمرًا لا يُمكن تجنُّبه، بل هي أمرٌ ينبغي أن نريده. يتكلَّم الكتاب المقدَّس عن الألم والمعاناة بوصفهما البَوتَقة التي "تُحرَق" فيها الكثير من عيوب النفس ونقائصها، والحصول على المزيد من معرفة النفس والتواضع والاحتمال والإيمان والمحبَّة. لكنْ أن "ندخل في التجرِبة" كما أسماه يسوع في متَّى ٢٦: ٤١، فيعني أن نفكِّر ونتخيَّل احتمالات الاستسلام للخطيَّة. يقدِّم كالڤن قائمةً بفئتَين من التجارب من "اليمين" ومن "اليسار". ويُقصَد باليمين تجارب "الغنى والسلطة والكرامة" والتي تجرِّبنا لنسقطَ في خطيَّة الظنِّ أنَّنا لا نحتاج إلى الله، ومن اليسار حيث تأتي تجارب "الفقر والعار والازدراء والآلام" التي تجرِّبنا أن نيأس ونفقدَ الرجاء، ونشعر بالغضب والاغتراب عن الله.[٢٢] وهكذا فإنَّ الازدهار والافتقار، كلاهما اختباران صعبان، وكلٌّ منهما يأتي بتجاربه التي يمكن أن تبعدنا عن الثقة بالله، والتمركُز على أنفسنا ورغباتنا الجامحة في الأشياء".[٢٣]

"نجِّنا من الشرِّير"

جمع كالڤن ما بين هذه العبارة وعبارة "لا تُدخِلنا في تجربة"، وحسبَهما معًا الطلبة السادسة والأخيرة. أمَّا أغسطينوس ولوثر، فرأيا أنَّ "نجِّنا من الشرِّير" هي طلبة

سابعة منفصلة. والشرِّير هو الشيطان. ويكتبُ لوثر أنَّ هذه الطلبة "موجَّهة ضدَّ الشُّرور المحدَّدة التي تنبع من مملكة الشيطان...مثل الفقر، والهوان، والموت. باختصار...كلُّ ما يهدِّد خيرنا الجسديَّ والنفسيّ".[٢٤] ويشير أغسطينوس إلى أنَّ الطلبة السادسة تتعلَّق بالنَّجاة من الشرِّ الموجود في داخلنا، أمَّا الطلبة السابعة فتتعلَّق بالنجاة من الشرِّ الذي خارجنا- من القوى الخبيثة التي في العالم، ولا سيَّما أعدائنا الذين يودُّون إيذاءنا.[٢٥]

"لأنَّ لكَ الملكَ والقوَّةَ والمجد إلى الأبد"

أخيرًا، يأتي تمجيدُ الله الختاميُّ: "لأنَّ لك الملك والقوَّة والمجد، إلى الأبد. آمين". لا يذكر أغسطينوس هذا الجزء لأنَّه لم يكن موجودًا في النُّسخ الأقدم، أو في النسخة اللاتينيَّة (المعروفة بالڤولغاتا)، كما أنَّ لوثر أيضًا لا يتناول ذلك الجزء. أمَّا كالڤن، فبينما يشير إلى أنَّ هذا الجزء "غير موجود في النسخ اللاتينيَّة"، هو يؤمن بأنَّه "جزءٌ مناسبٌ لموضعه ويجب عدم إغفاله". بعد النزول إلى احتياجاتنا وضيقاتنا ومحدوديَّاتنا، نعود إلى حقيقة كمال الله. هنا تستطيع قلوبنا أن تهدأ وتسكنَ عندما تتذكَّر أنَّ أحدًا لن يستطيعَ أن يخطفَنا من ملكوت الله وقوَّته ومجده، ولا يستطيع أحد أن يفصلنا عن أبينا المُحبّ".[٢٦]

"أعطنا، اغفر لنا، نجِّنا"

لعلَّ التعليقاتِ الختاميَّةَ التي يقدِّمها جون كالڤن على الصلاة الربَّانيَّة عظيمةُ الفائدة؛ فمثلما كتب لوثر في مقالة "طريقة بسيطة للصلاة"، يصرُّ كالڤن على أنَّ الصلاة الربَّانيَّة لا تفرض علينا أن نردِّد الكلمات نفسها حرفيًّا، ولكنَّها تقدِّم إلينا محتوًى ونمطًا عامًّا يمكن أن نرفعَ صلواتنا الحرَّة مسترشدين به. في الواقع، حتَّى لوقا لا يذكر تعليمَ يسوع عن الصلاة بالكلمات نفسها. الصلاة الربَّانيَّة هي أشبَهُ بتلخيصٍ لكلِّ الصلوات الأخرى، وتقدِّم إرشادًا مهمًّا بشأن التنبيرات المختلفة،

والهدف العامّ والروح التي ينبغي بها أن نصلّي. لذا فنحن في صلواتنا، "نرفعُ كلماتٍ قد تكون مختلفة تمامًا، لكنَّ المعنى والروح لا ينبغي أن يختلفا".[٢٧] يجب أن تضعَ الصلاةُ الربَّانيَّة "ختمها" (ختم الجودة) على صلواتنا المختلفة، وتشكِّلَها جميعها. ربَّما لا تكون هناك طريقةٌ أفضل لتأكيد ذلك من التدريب الذي يقوم به لوثر، والمتمثِّل في إعادة صياغة هذه الصلاة، وشخصَنتِها بطريقتَين مختلفتَين يوميًّا، لتكونَ مقدِّمةً لتسبيحاته وطلباته الشخصيَّة الحرَّة.

من التبصُّرات الأخرى التي لا تقلُّ أهمِّيَّة هي التذكير أنَّ الصلاة الربَّانيَّة قُدِّمَت بصيغةِ الجمع. إنَّنا نطلب من الله أن يعطيَنا ما نحتاج إليه، بمعنى أنَّ "صلوات المؤمنين ينبغي أن تكونَ، قدر المستطاع، عامَّة وعلنيَّة...بغرض تأكيد الشركة المسيحيَّة".[٢٨] وقد أشار اللاهوتيُّ الأميركيُّ مايكل أس. هورتون (Michael S. Horton) إلى أنَّ كالڤن كان يؤمن بأنَّ "الخدمة العلنيَّة تُشكِّل الصلوات الشخصيَّة، وليس العكس".[٢٩] لقد كان كالڤن مهتمًّا على نحوٍ بالغ بتحديد الصلوات العلنيَّة والطقوس الدينيَّة (الليتورجيَّة)؛ لأنَّه كان يريد أن تشكِّلَ العبادةُ الجماعيَّة للكنيسة وتقنِّنَ الصلوات الفرديَّة لأفرادها.

ليسَتِ الصلاةُ إذًا أمرًا شخصيًّا بحتًا. فبقدر المستطاع، يجب أن نصلِّي مع الآخرين في تجمُّعاتِ العبادة الرسميَّة، وأيضًا في الاجتماعات غير الرسميَّة. لماذا؟ إذا كان محتوى الصلاة هو أن نستمرَّ في الحوار مع الله؛ وإن كان القصد منها أن نعرفَه أكثر، فهذا يحدث بأفضل صورة في إطار مجتمعيّ.

يفترض سي. أس. لِويس أنَّنا نحتاج إلى المجتمع لكي نعرف الفرد. وعندما كان لويس يتأمَّل في صداقاته الشخصيَّة، لاحظ أنَّ بعضَ النواحي في شخصيَّة أحد أصدقائه لم تظهَرْ إلَّا بالتَّفاعُل مع صديقٍ ثانٍ. فهذا يعني أنَّه إنْ فقدَ ذلك الصديقَ الثاني، فسيفقد معه ذلك الجانب من الصديق الأوَّل الذي لم يُظهِره إلَّا الصديق الثاني. "بمفردي لا أتمتَّع بالاتِّساع الكافي لأن أدعوَ أيَّ إنسانٍ

بجملته ليكونَ حاضرًا وفاعلًا. أريد أنوارًا أخرى تساعدُني أن أرى كلَّ جوانب الإنسان". [٣٠] فإذا كان الأمر يتطلَّبُ وجودَ مجتمع لنعرفَ إنسانًا عاديًّا، فكم بالحريِّ هي الحاجة إلى المجتمع لنعرفَ يسوع بمصاحبة الآخرين؟ عندما تصلِّي مع آخرين، تصير قادرًا أن تسمع وترى جوانبَ من حياة يسوع وشخصيَّته لم تستطع من قبل أن تقبَلَها بمفردك.

لذا يعتقد لِويس أنَّ الملائكة المذكورة في إشعياء ٦، والذين كانوا ينادون بعضهم بعضًا قائلين: "قدُّوس، قدُّوس، قدُّوس"، كانوا في الواقع ينقلون إلى الباقين ذلك الجزءَ من مجدِ الله الذي يراه كلٌّ منهم ولا يراه الآخرون. إنَّ معرفةَ الربِّ معرفةٌ مجتمعيَّة وتراكميَّة. يجب أن نصلِّيَ ونسبِّحَ معًا. وبهذه الطريقة "كلَّما شاركنا الخبز السماويَّ في ما بيننا، تكاثرَ ذلك الخبز". [٣١]

الفصل ٩

الصلاةُ على المحكّ

في هذا الجزء من الكتاب، تحرَّكنا من النظريَّة إلى التطبيق بالاستماع إلى تبصُّراتٍ عامَّة بشأن الصلاة قدَّمها إلينا بعضٌ من أعظَمِ المعلِّمين في تاريخ الكنيسة. هل نستطيع الآن تجميعَ كلِّ هذه القواعد والقوانين المتفرِّقة وتلخيصها في مجموعة واحدة من النقاط؟ الإجابة هي لا- وكذلك نعم.

إحدى أبرز المشكلات التي نواجهها بينما نحاول توحيد العناوين الرئيسيَّة هي أنَّ معلِّمينا الثلاثة عادة ما يقولون الأمور نفسها، لكن من مناظير مختلفة. كان توجُّه كالڤن في الكتابة أكثر لاهوتيَّة، حيث كان يستنبط في نظرته إلى الصلاة التطبيقات المختلفة لعقائد مثل شخصيَّة الله والسيِّد المسيح وطبيعة الخطيَّة والإنجيل. أمَّا تعليم لوثر عن الصلاة فتميَّز بالكثير من العمليَّة؛ لأنَّه كان يكتب رسالةً إلى شخصٍ بسيطٍ كان يطلبُ طريقةً واضحةً وملموسةً يصلِّي بها. أمَّا أغسطينوس، فقد قاربَ الصلاة من أكثر المناظير وجوديَّة، حيث ركَّز على دوافع القلب. ويعني هذا أنَّ المبادئ التي آمن بها كلٌّ من هؤلاء المفكِّرين الثلاثة تقاطعَتْ وتقابلتْ بعضها مع بعض. أيضًا يجب أن نتذكَّر قاعدة كالڤن التي تتحدَّى القواعد الجامدة. وأخشى أنَّ الكثير من الكتب المعاصرة عن الصلاة تحاول أن تقدِّم إلى القارئ "مفتاحًا" يجعله يشعر كأنَّه قد "وجد أخيرًا سرَّ الصلاة". غير أنَّ مثل هذا الشيء هو غير موجود ببساطة.

أمَّا التطرُّف المعاكس لذلك، فهو أن نقول إنَّه لا يمكن وضع مبادئَ للصلاة، وإنْ لا شيء يمكن أن يقال عنها إلَّا أن نحاولَ بكلِّ قوَّة، ونثابر لنستمرَّ في الصلاة. لكنْ لو كانت الصلاة أمرًا لا يمكن فهمُه تمامًا، لقالَ يسوع لهم: "لا أستطيع. الصلاة أمرٌ لا يُمكن تعريفه"، وذلك عندما طلب التلاميذ من يسوع أن يعلِّمَهم أن يصلُّوا (لوقا ١١: ١). لم يقُلْ يسوع إنَّ الصلاةَ هي مثل صوتِ يدٍ تصفِّق، بل على العكس، فقد قدَّم إلى تلاميذه كلمات يصلُّون بها: الصلاة الربَّانيَّة.

هل يمكننا إذًا أن "نقطِّر" ما تعلَّمناه من معلِّمينا العظماء؟ أعتقد أنَّنا نستطيع ذلك. وسأُطلق على ما سنحصل عليه "المحَكّ" الذي يحكمُ على الصلاة. المحكُّ هو حجرٌ صغيرٌ يحوي مادَّة السيليكا. وعندما نَحكُّ به قطعةَ ذهب أو فضة، فإنَّه يحدِّد نسبةَ نقائها وأصالتَها. وكما رأينا، فإنَّ في كلِّ الصلوات الإنسانيَّة درجةً من عدم النَّقاء. لا يمكن أن تكون صلواتُنا مقدَّمة بالدوافع القلبيَّة النقيَّة تمامًا، أو باللغة التي تناسبُ الشخص الذي نصلِّي إليه. إنَّ الله يتقبَّل صلواتِنا ويجيبها فقط بالنعمة. في الوقت نفسه، هناك إشاراتٌ كثيرةٌ في الكتاب المقدَّس تشيرُ إلى أنَّنا يجب دائمًا أن نجاهدَ لنصلِّي كما ينبغي. إنْ لم تكن صلواتُنا مقدَّمة بالاعتماد على يسوع (يوحنَّا ١٦: ٢٤-٢٦) أو بالإيمان (يعقوب ١: ٦)؛ وإنْ كانت تقدَّم بدوافع أنانيَّة (يعقوب ٤: ٣) أو إن كنَّا نصلِّي ونحن نعتزمُ عصيان الله في جانب من جوانب حياتنا (مزمور ٦٦: ١٨)- فعندئذٍ لا تكون صلواتنا "قويَّة وفعَّالة" (يعقوب ٥: ١٦).

ليس التالي هو مجموعةً من القواعد التي تُجبر الله على الاستماع لصلواتنا أو تجعلنا مستحقِّين أن يستجيبها بطريقةٍ سحريَّةٍ تلقائيَّة. إنَّها اثنا عشر حجرَ محكٍّ نحكم بها على صلواتنا من حيث قدرتُها أو عدمُ قدرتها على إعطاء الربِّ الإكرام الواجب، كما تمنحُنا الاتِّصال الحميم به. لقد جمَّعتُها في أربع مجموعات في كلٍّ منها ثلاثة مبادئ.

ماهيَّة الصلاة

العمل - الصلاةُ واجبٌ وانضباط

يجب أن نصلِّي بانتظام ومثابرة وحزم وعناد مع النفس يوميًّا على الأقلّ، سواء شعرنا بالرغبة في ذلك أم لم نشعر. "إن أسوأ الخطايا هي عدم الصلاة"، كما كتب بيتر تي. فورسيث (Peter T. Forsyth). "الخطيَّة الظاهرة...أو عدم الاتِّساق الواضح الذي يدهشنا في المؤمنين بالمسيح هي تأثيرات ذلك الأمر أو عقوباته...ألَّا تريد أن تصلِّي، هي الخطية القابعة وراء كلِّ الخطايا".[١] علينا أن نصلِّي حتَّى وإنْ كنَّا لا ننالُ شيئًا من الصلاة. تخيَّل أنَّك تسكنُ مع شخصٍ لا يلقي عليكَ تحيَّة الصباح، ولا يكلِّمكَ بتاتًا، بل كلُّ ما يفعله هو أنَّه يترك لك رسائلَ فقط. وعندما تفتحُ الموضوع، فإنَّه يقول: "حسنًا، أنا لا أحصل على شيء من الحديث معك. أجدُ الأمر مملًّا وذهني يسرح في كلِّ اتِّجاه، لذا فأنا لا أحاول". ماذا ستستنتج؟ سواءٌ كنتَ محاورًا متألِّقًا أم لا، فإنَّ من عدم اللياقة من جانبه ألَّا يتحدَّث إليك. إنَّ من واجبه تُجاهَ مَن يسكنُ معه في الشقَّة نفسها أن يخاطبه وجهًا لوجه. دون شكّ، كلمة عدم اللياقة هي كلمة مخفَّفة جدًّا عندما يتعلَّق الأمر بالكلام مع صانعنا وحافظنا وفادينا والذي نُدينُ له بكلِّ نَفَس يدخل صدورَنا ويخرج منها. ينبغي أن تكون الصلاة مُثابرةً. وقد كتب بولس الرسول إلى أهل رومية يحثُّهم على الصلاة قائلًا: "فأَطْلُبُ إِلَيكُم أيُّها الإخوَةُ، برَبِّنا يَسوع المسيح، وبِمحبَّةِ الرُّوح، أن تُجاهِدوا مَعي في الصَّلَوات من أجلي" (رومية ١٥: ٣٠). الصلاة جهادٌ، ويعني هذا الاستمرار في الصلاة مع الارتفاعات والانخفاضات في المشاعر. يكتب فورسيث: "لا تقل: «أنا لا أستطيع الصلاة؛ فأنا لستُ في الروح»، بل صلِّ إلى أن تصيرَ في الروح".[٢] ويعني هذا أنَّ هناك ميلًا أن يكون للصلاة تأثيرٌ تراكميّ. يكتب أوستن فيلبس عن مشاهدته لأشخاص في المعرض الملكيِّ للأعمال الفنِّيَّة في دريسدن (Dresden) يجلسون بالساعات محدِّقين في إحدى التحف الفنِّيَّة. "تمضي أسابيع سنويًّا في دراسة تلك اللوحة الفنِّيَّة لرفائيل (Raphael)، ولا يستطيع محبُّو الفنِّ أن يستمتعوا استمتاعًا

كاملًا بمثل هذه الأعمال، إلا بأنْ يمتلكوها في عقولهم وقلوبهم بالتواصل الطويل مع تفاصيلها". ويتكلَّم عن حواره مع أحد المعجبين باللوحات الزيتيَّة، والذي قال إنَّه أمضى سنواتٍ يحدِّق في هذه اللوحة، وما زال يجد أنَّه يمكن أن يُمضي المزيد "ليكتشف فيها جمالًا جديدًا وبهجةً أخرى". كم بالحريِّ يجب أن نصرفَ مثل هذا الاهتمام والولع بالصلاة؟ ويتساءل فيلپس عن اللوحة الزيتيَّة التي يمكن أن تشابه إلهنا العظيم. "ما الذي تحتاجُ الروح لأن تفهمَه بوُضوح لتعرفَ البركة الحقيقيَّة للصلاة".[٣]

الصلاة دائمًا هي عملٌ شاقّ، وكثيرًا ما تتضمَّن ألمًا. أحيانًا يكون علينا أن نصارعَ لنصلِّي. "عندما تأتي تلك الساعات من اليوم التي علينا فيها أن نمضي وقتًا في الصلاة إلى الله، يبدو الأمر كأنَّ كلَّ شيء في العالم يتآمر علينا لئلَّا نصلِّي". عادة ما نصارع في الصلاة لنستطيع التركيز. "وتبدأ أفكارك في التطاير هنا وهناك بين الله والكثير من الأشياء والواجبات والاهتمامات التي تضغط عليك من كلِّ جانب".[٤] ومع أنَّ الله يمكن أن يعطيَنا أوقاتًا من السلام والهدوء- وهو يفعل ذلك حقًّا- فليس هناك مؤمن واحد بالمسيح استطاعَ أن يتخلَّصَ من هذه الصراعات في الصلاة.

التجاوب مع العالم- الصلاة هي حوارٌ مع الله

في جنَّة عدن، تمشَّى الله معنا (تكوين ٣: ٨). في مفهوم الكتاب المقدَّس، أن "تمشي مع" شخصٍ فهذا إشارةٌ إلى الصداقة؛ لأنَّ الناس عادةً ما يتكلَّمون معًا بينما يمشون. الصلاة بِاسمِ يسوع وبقوَّة الروح القدس هي استردادُ تلك الصداقة التي هي أغلى شيء كان لنا مع الله منذ البدء: الحوارُ الحرُّ معه.

هناك طريقتان لفَهم الصلاة بوصفها حوارًا ما بين اثنين. الأولى هي أن نفهمَ أنَّ الصلاة هي تجاوبٌ مع صوت الله الذي نُميِّزه ذاتيًّا في القلب. بذلك المنظور نحن نجلس في هدوء وننتظر أن تأتينا الأفكار والانطباعات والمشاعر التي نميِّز أنَّها ليست

صادرة من نفوسنا، بل هي صوت الله فينا. الطريقة الأخرى لنفهمَ كلام الله معنا هي بالكتاب المقدَّس. كما رأينا في تعليم مارتن لوثر، فإنَّ الروح يواجهنا وينير في أذهاننا بينما نقرأ كلمة الله، وهكذا نستمع إليه بالكلمة. لقد حَسَمْنا القضيَّة سابقًا في هذا الكتاب أنَّه ينبغي أن نتبعَ الفهم الثاني.

لقد كان ذلك أحدَ الأمور الأساسيَّة في تاريخ التقوى والروحانيَّة المسيحيَّة. لقد كانت إحدى النقاط اللامعة في تاريخ الروحانيَّة المسيحيَّة هي ذلك الجدلَ الذي دار في القرن السابع عشر بين التطهُّريِّين أو البيوريتانيِّين (Puritans) والكويكرز (Quakers). فالأمر عند البيوريتانيِّين كان أنَّ الكتاب المقدَّس هو كلمة الروح، أي أنَّ الروح يتكلَّم إلينا بالكلمة. أمَّا الكويكرز والكثيرون الذين ساروا على خطاهم فكانوا يعتقدون أنَّه مع كَون الكتاب المقدَّس مُوحى به، فإنَّ هناك تيَّارًا جديدًا وإعلانًا داخليًّا بالروح ينبغي أن نطلبَه أيضًا.[٥] ومن شأن هذا أن يعنيَ أنَّنا لا نحتاج إلى الكتاب المقدَّس بصورةٍ خاصَّة لإحداث مثل ذلك الحوار، أي أنَّنا نستطيع أن نذهبَ جيئةً وذهابًا مع الله في قلوبنا. لقد استكشفنا من قبل في هذا الكتاب ضعفَ الاعتماد على مثل هذا التوجُّه. ويلاحظ جاي. آي. باكر أنَّه بمجرَّد أن نفهمَ الصلاة بوصفها حوارًا، يجب أن نربطَها بتأمُّلات واضحة ومفهومة من الكتاب المقدَّس. إنَّ التأمُّلَ الكتابيَّ هو الجسر ما بين التفسير الكتابيِّ من جهة، والصلاة الحرَّة من جهةٍ أخرى. لقد قال باكر عن ممارسته هو للصلاة والتأمُّل ما يلي: "أنا أقرأ الكتاب المقدَّس، وأفكِّر في ما تكشفُه لي قراءتي عن الله، وأحوِّل هذه الرؤية إلى عبادة وتسبيح قبل أن أدخل [في الصلاة]". ثمَّ يضيف مشيرًا إلى أنَّ هذه طريقةٌ حيويَّةٌ من أجل "معرفة الله".[٦]

الصلاة هي تفاعلٌ متَّزنٌ ما بين التسبيح والاعتراف والشكر والطلبة

تتحرَّكُ الصلاة الربَّانيَّة من العبادة والتسبيح ("أبانا الذي في السموات، ليتقدَّس اسمك. ليأتِ ملكوتك، لتَكُنْ مشيئتُك") إلى الطلبة من أجل احتياجاتنا ("خبزنا

كفافنا..نجِّنا من الشرِّير")، إلى الشكر على البركات ("لأنَّ لك المُلك والقوَّة والمجد")، ونشكره أيضًا على ما قد يصادفنا من صعاب ("لتكن مشيئتك"). إنَّ الصلاة الربَّانيَّة والمزامير، سفر الصلاة في الكتاب المقدَّس، يكشفان لنا أنَّ من الضروريِّ استخدامَ كلِّ هذه الأبعاد من الصلاة.

غير أنَّه لا ينبغي أن نُفضِّل أيًّا من هذه الأشكال في الصلاة على الأشكال الأخرى؛ إذ يجب ألَّا نحسبَ أنَّ أيًّا منها في مرتبةٍ أقلّ، أو أنَّها تُعدُّ الطريقَ من أجل مراحلَ أخرى أعلى. في الواقع، جميع هذه الأشكال في الصلاة ضروريٌّ للأشكال الأخرى، فهي تتفاعل معًا وتُنشِّط بعضها بعضًا. وعندما نفهمُ عظَمةَ الله، فإنَّ هذا يقودُنا إلى استيعابٍ أكبرَ لخطيَّتنا. ثمَّ إنَّ ذلك الإدراكَ الأعمقَ للخطيَّة والتوبة يقودانا إلى الانبهار بنعمة الله وشكره عليها. "مَن يُغفر له الكثير، يُحبُّ كثيرًا" (انظر لوقا ٧: ٤٧). وكلَّما رأينا قوَّة الله، أردنا أن نعتمد عليه في احتياجاتنا. لذا يجب أن تكونَ كلُّ هذه الطرق للصلاة موجودة معًا باتِّزان بينما نصلِّي.

ما تتطلَّبُه الصَّلاة

النعمة- يجب أن تكون الصلاة "باسم يسوع"، وتكون مبنيَّة على الإنجيل

لقد تكلَّمنا من قبل عن أهمِّيَّة "المحكّ". يجب أن تكونَ كلُّ صلواتنا مشفوعة بذلك الوعي المعترف بالجميل أنَّ إمكانيَّة قدومنا إلى الله بوصفه أبًا هي عطيَّة مجَّانيَّة نلناها على حساب يسوع، الابن الحقيقيّ، ثمَّ جرى تفعيل هذه العطيَّة داخلنا بالروح القدس، الذي يجعلنا نُدرك في أعماقنا أنَّنا أولاد الله. ولا يعني أن نصلِّي باسم يسوع أنَّنا نستخدم تعويذةً أو جملةً سحريَّة، كأنَّ نُطقَ الكلمات نفسها يُرغم الله تلقائيًّا أن يفتح لنا مخازن قوَّته الفائقة للطبيعة. إنَّ "اسم يسوع" هو تعبير مختصر عن شخصه وعمله الخلاصيّ. أن نأتي إلى الآب باسم يسوع، وليس بأسمائنا الشخصيَّة، يعني أنَّنا نأتي إليه مُدركين تمامًا أنَّه سيستمع إلينا بالنعمة الغالية التي نحن فيها مقيمون. هذا هو مبدأ الصلاة الذي يجعل الله يسمعنا، حتَّى

إن لم تَستَوفِ صلاتُنا الشروط و"القواعد" التي ينبغي استيفاؤها.

ثمَّ إنَّ فكرة الصلاة إلى الآب باسم يسوع تثير تساؤلًا: هل يجب فقط أن نصلِّي إلى الآب، وليس إلى الابن أو الروح القدس؟ لقد دعا يسوع تلاميذه ليصلُّوا له (يوحنَّا ١٤: ١٣-١٤؛ متَّى ١١: ٢٨). إلَّا أنَّ يسوع أيضًا علَّمَ تلاميذه أن يصلُّوا إلى الآب. وحيث إنَّه ليس علينا أن نتقيَّد حرفيًّا بكلمات الصلاة الربَّانيَّة نفسها، فعلينا أن نستخدمَ هذا النموذجَ التعليميَّ بالجدِّيَّة الكافية. فقط في ثلاث مواقف بعد صعود المسيح- في كلِّ العهد الجديد- كانت تُوجَّه الصلوات إلى يسوع، إنَّما في الغالبيَّة العظمى من المرَّات، رُفعَتِ الصلواتُ إلى الآب. ومع أنَّه ليس غريبًا توجيه الصلوات إلى الابن أو الروح القدس، فإنَّ الصلوات عادةً ما تُوجَّه إلى الآب بشكرٍ للابن والاعتماد على الروح القدس.[٧] يستخدم پاكر قاعدة ثابتة مثيرة للاهتمام. "أنا أصلِّي للآب بتأمُّلي في الابن، وبالتمكين الذي يتيحه الروح القدس. يمكنني أيضًا أن أتكلَّم إلى الابن أو الروح القدس كلَّما كان ذلك مناسبًا: أي كلَّما كان الأمر الذي أصلِّي من أجله مربوطًا كتابيًّا بالابن أو الروح القدس".[٨]

الخوف- الصلاة هي أن يُسبى القلبُ في هيبة الله

نحن نعرف أنَّ على قلوبَنا أن تكون "منخرطة" في الصلاة، ولا ينبغي أن تكونَ الصلاة مجرَّد ترديدِ كلمات. "هذا الشعب يكرمني بشفتَيه، أمَّا قلبه فمبتعدٌ عنِّي بعيدًا" (متَّى ١٥: ٨). وإحدى العلامات المهمَّة للقلب المُنخَرِط بالصلاة هو أن يُسبَى في الرهبة والمهابة أمام عَظَمةِ الله، وأمام نعمةِ إمكانيَّة الصلاة أصلًا. إنَّ قانونَ الإيمان الوستمنسريَّ (النسخة المطوَّلة) يقول إنَّه يجب أن تصاحبَ الصلاةَ المشاعرُ وتغلِّفَها المهابة الواجبة لقدرة الله وجلاله ونعمته.[٩]

لا يفكِّر أحدٌ اليوم في أنَّ الاقتراب من الله هو أمرٌ خَطِر، أو حتَّى مميتًا. لكنْ عندما طلب موسى أن يقتربَ من الله ويشاهدَ مجده، رفضَ الله وقال إنَّ ذلك قد

يكون مميتًا لموسى (خروج ٣٣: ١٨-٢٣). لقد سمحَ الله لموسى فقط أن يرى "ظهره" أو "تأثير مروره"، وقال إنَّه سوف يُخفي موسى بيدَيه ليحميَه من قداسته فلا يموت. لقد كان الله هو الذي حمى موسى من ذاته. هذا هو الإنجيل. لكنْ في يوحنَّا ١: ١٨، نعرف أنَّنا نعاين مجد الله في يسوع المسيح. كيف يكون ذلك ممكنًا؟ لأنَّ في المسيح تُستر خطايانا، ونختبئ في كفِّ السيِّد الربِّ، أي في يسوع (كولوسِّي ٣: ١-٣). ولا يعني هذا أن نستخفَّ بامتياز القدوم إلى "عرش الله"، حيث إنَّه امتياز عجيب نلناه بتكلفةٍ لا يمكن تصوُّرها. ذلك هو ما نفعله عندما نصلِّي بِاسْم يسوع، ونحتاج لأن نذكِّرَ أنفسَنا بما يحدث في كلِّ مرَّة نصلِّي بهذه الطريقة. علينا أن نستغلَّ كلَّ وقتٍ متاح للصلاة والتأمُّل في هذه الحقيقة حتَّى تحمِّسنا وتغيِّرنا من الداخل.

تعكس "رهبة المحبَّة" أنَّ علينا أن نقتربَ إلى الله لا بطريقة رومانسيَّة مبالغ فيها، ولا بطريقة فيها اعتياد أكثر من اللازم من جهة، ومن جهة أخرى، علينا ألَّا نقترب إليه بصورةٍ رسميَّةٍ روتينيَّة. تشيرُ كتبٌ كثيرةٌ عن الصلاة على مرِّ السنين أنَّ علينا أن نحملَ أنفسَنا قبل أن نصلِّي أو نتأمَّل، ونذكِّر أنفسَنا بحجم ما سيحدُث. اقترحَ أحَدُهم أن نتكلَّم إلى أنفسنا على هذا النحو مثلًا:

> "إنَّ الله حاضرٌ هَهُنا، بين هذه الجدران- أمامي وخلفي وعن يميني وعن يساري. لقد جاء إلينا هنا الله الذي يملأ اللَّامحدود. أنا على وشك أن أسجدَ عند قدمَيه وأتكلَّم معه...ربَّما أسكبُ أمامَه مطالبي ورغباتي، ولا يهربُ من أذنَيه أيُّ حرف نطق به فمي. يمكنني أن أتكلَّم إليه كما أتكلَّم مع أعزِّ صديق لي على الأرض".[١٠]

يمكن أن يجريَ هذا الإعداد لدخول محضر الله بالتَّفكير لبعض الوقت في بعض جوانب لاهوت الصلاة. أن نتذكَّر مثلًا أنَّنا الآن مُتبنَّون- أنَّنا أطفالٌ أحبَّاء ذاهبون إلى أبيهم السماويّ. أو نتذكَّر أنَّ لنا رئيسَ كهنة عظيمًا، وشفيعًا عن يمين

الله، لذا يمكننا أن نتقدَّم إلى عرش الله بثقة. ويمكن أيضًا أن نتذكَّر أنَّ الرُّوحَ القدس يسكنُ فينا، ويحثُّنا على الصلاة ويعينُنا عليها. هذا يُعِدُّ القلبَ للصلاة.

العجز – الصلاةُ هي قبولُ الضَّعف والاعتماد على الله

يبدأ الكاتبُ النرويجيُّ أولي هاليسبي (Ole Hallesby) كتابَه الصغير الصلاة بأن يقدِّم تعريفًا للصلاة حاسبًا إيَّاها في الأساس توجُّهًا للعقل والقلب يميِّزه عمومًا الشعور بالعجز. "بقدر ما أعرف، فإنَّ الصلاة أُعطيَت فقط للعاجزين. الصلاة والشعور بالعجز والاحتياج إلى الله هي أمور لا تنفصل". فقط مَن يشعرُ بعجزه هو مَن يستطيع أن يصلِّي".[11] مثل هذه الصلاة هي فقط تعبيرٌ عن الإيمان بالإنجيل؛ لأنَّ مَن يعترف بفَقره الروحيِّ التامِّ هو فقط الذي يستطيع أن يقبلَ خلاصَ السيِّد المسيح. قال أغسطينوس لأنيشيا إنَّها لا يمكن أن تصلِّي بصدقٍ إلَّا عندما "تحسب نفسَها بائسةً في العالم".

هذا المحكُّ متَّصلٌ اتِّصالًا وثيقًا بمفهوم الصلاة باِسْم يسوع، لكنَّه يستحقُّ عنوانًا مستقلًّا بوصفه مبدأً عمليًّا مهمًّا. يدخل الكثير من الناس في مواقف يشعرون فيها بالعجز والفقر، حتَّى إنَّهم لا يريدون أن يصلُّوا. غير أنَّ الصلاة هي لأجل أولئك الذين لا يحوزون أيَّ مواردَ أخرى، ولا أشياء يلجأون إليها. الصلاة بشكلٍ ما هي إجراءُ اتِّصال ما بين يسوع من جهة وعجزك وهشاشتك واعتماديَّتك من جهةٍ أخرى. يمكننا أن نجدَ دليلًا على ذلك في تعليم بولس أنَّ الروحَ القدس يُعينُنا عندما نشعرُ بالعجز حتَّى إنَّنا لا نعرف ما نصلِّي من أجله كما ينبغي "وكَذلِكَ الرُّوحُ أيضًا يُعينُ ضَعَفاتِنا، لأنَّنا لَسنا نَعلَمُ ما نُصلِّي لأجله كما يَنبَغي. ولكنَّ الرُّوحَ نَفسه يَشفَعُ فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَقُ بها" (رومية ٨: ٢٦). ويبدو أنَّ عجزَنا هو ما يدفعُ الروحَ أن يعينَنا. عندما نصلِّي فنحن نقبل أنَّنا معتمدون على الله في كلِّ شيء، وسنظلُّ كذلك.

في الواقع، فإنَّ عجزَنا يمكن أيضًا أن يكون مصدرًا للثقة. إنَّ رسالةَ يسوع المشهورة للكنيسة في لاودكيَّة- "هنَذا واقفٌ عَلى البابِ وأقرَعُ. إنْ سَمعَ أحَدٌ صَوتي وفتحَ البابَ، أدخُلُ إليه وأتَعشَّى معه وهو مَعي" (رؤيا ٣: ٢٠)- كثيرًا ما تُستخدم لدعوة غير المؤمنين ليؤمنوا بالسيِّد المسيح. غير أنَّ الدعوة للعشاء في العصور القديمة كانت دعوة للصَّداقة. ويسوع يدعو المؤمنين إلى شركة عميقة معه- للصلاة. الصلاة في هذه الصورة هي التجاوُب مع قَرعِ يسوع الباب. إنْ لم يكُنْ قد أتى إلينا، لما استطعنا أن نفتحَ له؛ إذ ليس هناك قَلبٌ بشريٌّ يطلبُ الله بصورةٍ طبيعيَّة (رومية ٣: ١١)، ولا يستطيع قلبٌ أن يأتيَ إلى الله إنْ لم يجتَذِبْه أوَّلًا (يوحنَّا ٦: ٤٤)، ولا يستطيع أحدٌ حتَّى أن يفكِّر في الصلاة، إلَّا إذا كان الروح القدس يحثُّه ويدفعه. باختصار، إذا كنتَ تريدُ أن تصلِّي، فأنت لا تحتاج لأن تقلقَ إنْ كان الله سيستمعُ أم لا. إنَّك حتَّى ما كنتَ لتشعرَ بالعجز والاحتياج إلى الله، إلَّا إذا كان هو بالفعل واقفًا عن يمينك ليجعلَكَ تشعرُ بهذا، ويقودك لأن تفكِّرَ في الصلاة. عندما نشعرُ بالعجز الكامل، علينا أن نكونَ أكثر شعورًا بالأمان أنَّ الله معنا، ويستمع إلى صلواتنا.

ما تقدِّمه الصلاة

المنظورُ السليم- تصحِّح الصلاة منظورَنا عن الله

تغيِّر الصلاةُ بكلِّ أشكالها- العبادة والاعتراف والشكر والطلبة- منظورك إلى كلِّ شيء. تأتي الصلاة بمنظورٍ جديدٍ لأنَّها تضعَ الله في الصورة مجدَّدًا. إنَّ مجرَّدَ الحديث إلى الله لفظيًّا بشأن احتياجاتنا ومخاوفنا وآمالنا وأسئلتنا وحَيرتنا وخطايانا وما يشغلنا- هو أمرٌ يرغمُنا على نحوٍ شبهِ فوريٍّ أن نفكِّر في هذه الأمور من منظور مختلف.

إحدى الصور التي يمكن أن تشرحَ مفهومَ تغيير المنظور في الصلاة هي صورة المسير في رحلة عبر المرتفعات. في هذه الرحلة، عندما تصل إلى مكانٍ مرتفع، يمكنك

أن ترى سلسلةَ الجبال كلَّها، وتُبدي ملاحظاتٍ من قبيل: "لقد قطعتُ مسافةً أكثر مِمَّا كنتُ أظنّ". أو ربَّما "لم أتقدَّم إلى الأمام كما كنتُ أتصوَّر". ربَّما نرى في الصلاة أنَّنا محبوبون وأنَّ هناك مَن يعتني بنا أكثر مِمَّا كنَّا نشعر، وهذا يقلِّل من مخاوفنا. أو ربَّما نرى فيها أنَّنا أكثر حماقةً وانحصارًا في النفس مِمَّا كنَّا نتصوَّر، ومن ثَمَّ تقضي صلاتُنا على غضبنا وشفقَتِنا على أنفسنا.

لعلَّ من الأمثلة العمليَّة لتَغيُّر التوجُّه هو ما نجده في مزمور ٧٣: ١٧-٢٠. وهنا نرى إنسانًا ملآنًا بالحسد والاستياء من أشخاص كثيرين في الحياة يسيئون للآخرين ويستغلُّونهم ولا يبدو أنَّهم يدفعون الثمن، بل يزدهرون بينما هو يقع في الكثير من المشكلات. ويتساءل ذلك الإنسان: ما فائدة أن يعبد الإنسان الله؟ "حقًّا قد زكَّيْتُ قَلْبي باطِلًا وغَسَلْتُ بالنَّقاوة يديَّ. وكُنتُ مُصابًا اليومَ كلَّه، وتَأدَّبتُ كلَّ صَباح" (أعداد ١٣، ١٤). ثمَّ يقول: "حتَّى دخلتُ مَقادِسَ الله"- وهي عبارة مرادِفة للصلاة "وانتبهْتُ إلى آخرتهم". ثمَّ يستمرُّ في وصف كيف أنَّه تذكَّرَ في محضر الله أنَّ الله مسيطرٌ على حياة كلِّ البشر وعلى مرِّ التاريخ. ليس فقط أنَّ عاقبةَ الخطيَّة مريرة في هذه الحياة، بل إنَّ هناك أيضًا دينونةً نهائيَّة. ثمَّ يضيفُ صورةً أخرى إلى عملية إعادة توجيه الذهن التي تحدُثُ في الصلاة- إنَّها مثل الاستيقاظ من حلمٍ والعودة إلى الواقع. "كحُلْم عندَ التيقُّظِ يا ربّ، عند التيقُّظِ تحتَقِرُ خيالَهم [تحتقرُهم كخيال]" (العدد ٢٠). في هذه الحال، تكون الصلاة مثل الاستيقاظ من كابوس إلى الواقع. عندئذٍ نضحكُ على ما كنَّا نأخذه بجِدِّيَّةٍ شديدةٍ بينما كنَّا نحلم. وندرك أنَّ كلَّ شيء بخير في الواقع. بالتأكيد، يمكن أن يكون للصلاة التأثير المضاد. يمكن للصلاة أن تخرق ما نعيش فيه من وهم وتكشف لنا أننا في خطر روحي لم نكن ندرك حقيقته. يمكن للصلاة أن تكون استيقاظ من كابوس، ويمكن أيضًا أن يكونَ استيقاظًا من حلم مُسِرٍّ لمواجهة واقع أصعب. وهكذا يمكنُ أن تقودَنا الصلاة لأن نستفيقَ ونقولَ عباراتٍ مثل: "لماذا كنتُ خائفًا هكذا؟ هذا لا يمكن أن يؤذيني

إنْ كان الله معي!" يمكن أيضًا أن تجعلَنا نقول: "كيف لم أنتبه؟ كيف سوَّغتُ لنفسي هذا السلوك؟" وهكذا فإنَّ الصلاة تصحِّح رؤيتنا ومنظورنا، وترينا الصورة الأكبر، وتُخرِجُنا من بين التيهان، وتَجعلُنا نرى مكانَ وقوفنا فعلًا.

القوَّة- الصلاةُ بوصفها اتِّحادًا روحيًّا مع الله

يكتب جاي. آي. پاكر أنَّ "الصلاة وسيلة للحصول على القوَّة. إنَّ الصَّحوَ الروحيَّ والحيوية والثقة هي نتائج معتادة للصلاة الجادَّة لأيِّ موضوع. لقد وصفَ التطهُّريُّون الصلاة بأنَّها نوعٌ من «تشحيم» عجلات النفس".[12] يكتب پي. تي. فورسيث:

> "تأتي الصلاة معها بإحساسٍ جديد بالقوَّة والصحَّة، تمامًا مثلما يفعل الطعام للجسد...فليست حياة أيِّ كائن حيٍّ سوى انتصارٍ مستمرٍّ لقوَّة عُليا، يجري إطعامها باستمرار ضدَّ قوى دُنيا وبدائيَّة. إنَّ الصلاة هي اكتسابُ قوَّةٍ روحيَّة من الله. لذا علينا أن نعملَ من أجل هذا النوع من الحياة. فحتَّى نُطعمَ الروح علينا أن نعملَ من أجل هذا النوع من الحياة...إنَّ الصلاةَ هي الامتلاك الفعَّال للقوَّة- قوَّة الله، فهي إذًا نوعٌ من الخلق".[13]

عندما نصير مؤمنين بالمسيح، يُقال عنَّا إنَّنا صرنا "متَّحدين بالمسيح"[14] ويعني هذا، من ضمن ما يعنيه، أنَّنا نكون أشبَهَ بأغصان طُعِّمَت في كرمة، حتَّى تَظهرَ حياة المسيح، الكرمة الحقيقيَّة أكثر فأكثر في حياتنا (يوحنَّا ١٥: ١). ومن الطرق التي يحدث بها ذلك هي الصلاة.

في نهاية رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، يوصيهم بأن يتقوَّوا "في الربِّ وفي شدَّة قوَّته" (أفسس ٦: ١٠). ولا يترك هذه الوصيَّة هكذا بوصفها فكرةً مجرَّدة، بل يوصي المؤمنين أن يلبَسوا "سلاح" الله الكامل- أن يتمَنطَقوا بالحقِّ، ويلبسوا درعَ البرّ، ويحذوا أرجلهم باستعداد إنجيل السلام، ويدافعوا عن أنفسهم

بترس الإيمان، ويرتدوا خوذةَ الخلاص. وقد شُرحَت هذه الصورة البلاغيَّة ومكوِّناتها الفرعيَّة ووُعِظ بها لآلاف من الكنائس عبر مئات السنين. والفكرة الأساسيَّة هي أنَّ كلَّ فوائد خلاص المسيح- الغفران والسلام ومحبَّة الله- التي أتيحَتْ لنا بعمل السيِّد المسيح، تنتظر كلَّ شخصٍ ليمتلكَها لنفسه في حياته اليوميَّة. وإنَّ تأكيدَ محبَّة الله، ووعدَ سكنى الروح وحضوره، والثقةَ بالغفران، والقدومَ إلى محضر الله، والقوَّةَ للتغلُّب على العادات الخاطئة- تظلُّ جميعها مفاهيمَ مجرَّدة إلى أن تُستقبَلَ داخليًّا وتستخدَم فعليًّا. ليس فقط يجب أن تمتلكَ قلوبُنا، بل أيضًا أن تُشكِّل حياتُنا بتفعيلها بروح الله.

كيف نُعِدُّ أنفسَنا إذًا لمعارك الحياة؟ كيف نتقوَّى في الرَّبِّ؟ كيف نصيرُ حسَّاسين روحيًّا حتَّى نصيرَ مميِّزين ما يحدث فعلًا في المواقف المعقَّدة؟ كيف ننالُ الثقة بحكمة الله ومحبَّته وقدرته حتَّى يمكننا أن نتَّجه إليه ونستريحَ فيه؟ في نهاية هذه الفقرة، يخرج بولس من التشبيه ويقول: "مُصلِّينَ بكلِّ صَلاةٍ وطِلبةٍ كلَّ وَقتٍ في الرُّوح، وساهِرينَ لهذا بِعَينِه بكلِّ مُواظَبةٍ وطِلْبةٍ، لأجل جَميع القدِّيسين" (أفسس ٦: ١٨). يحاول الكثير من المفسِّرين أن يضعوا الصلاة بوصفها أحدَ الأسلحة مع الحقِّ والبرِّ والسلام والإيمان والخلاص وكلمة الله. غير أنَّ هذا ليس ممكنًا؛ لأنَّ كلَّ هذه العناصر مربوطٌ بجزء من أجزاء سلاح الجنديّ، مثل الخوذة والسيف والدرع، لكنَّ الختام يقول: صلُّوا! صلُّوا في الروح؛ صلُّوا بسهرٍ وانتباه، صلُّوا كلَّ أشكال الصلوات، صلُّوا كلَّ حين. لا نستطيع أن نكونَ أوضَحَ من ذلك. الصلاة هي الطريق الذي فيه تتحقَّقُ كلُّ الأمور التي نؤمن بأنَّ السيِّد المسيح حقَّقها لنا وحازَها من أجلنا. الصلاة هي الطريق الذي به يعملُ الحقُّ في قلبك ليغرسَ فيه أمورًا جديدةً وميولًا وعاداتٍ وردودَ فعلٍ إلهيَّة.

الواقعُ الروحيّ- تؤدِّي الصلاة إلى شعورٍ قلبيٍّ بحضور الله

يكتبُ إدموند كلاوني: "إن الله يتكلّم...كما أنَّه حاضر. إن الصلاة هي الخوضُ في الوعي، وعادةً ما يكون وعيًا مملوءًا بالرهبة، بحضور الله".[١٥] بواسطة الصلاة تتحوَّل معرفتُنا المجرَّدة بالله إلى حقيقةٍ وجوديَّة. وعندئذٍ نكونُ ليس فقط مؤمنين بمجد الله، بل أيضًا نستَشعرُ عَظَمَتَه؛ ليس فقط مؤمنين بأنَّه يُحبُّنا، بل أيضًا نَدَعُ هذه المحبَّة تغمرُ قلوبَنا.

يقول قانون الإيمان الوستمنسريُّ (النسخة المطوَّلة) إنَّ أحد أدوار الروح القدس في حياتنا هو أن يساعدنا أن نصلي "بتفعيل قلوبنا وإيقاظ تلك المشاعر والإدراكات والنِّعم التي نحتاج إليها للقيام السليم بذلك الواجب (وهذا ليس في كلِّ الأشخاص، وليس طَوال الوقت، وليس بالمقدار نفسه)".[١٦] إنَّ هذا التصريح متَّزن بطريقةٍ مثيرةٍ للإعجاب. الصلاة واجب- يجب أن نقومَ بها مهما كان. لكنَّنا نحتاج لتأدية هذا الواجب لأن تنخرطَ مشاعرُنا في العملية؛ مشاعر الرهبة والمهابة والإعجاب والحبّ. كلُّ هذه المشاعر ضروريَّة لأداء الصلاة "بصورةٍ سليمة". إنَّ من المناسب إذًا ألَّا تكون الصلاة مشتَّتةً وباردة. ليسَتْ هذه أفضل طريقة لإكرام الله.

غير أنَّنا لا نمتلك قلوبَنا بالكامل. حتَّى الروح القدس لا يفعل ذلك بصورة كاملة في كلِّ إنسان، وفي كلِّ وقتٍ وبالدرجة ذاتها. تكلَّمَ الخادم المسيحيُّ وكاتب الترانيم الذي عاش في القرن الثامن عشر، جون نيوتن (John Newton) عن "الشعور بحضور الله" في قلوبنا- حاسبًا إيَّاه عطيَّة من الله لا يُمكن أن نمليَ عليه كيف يعطيها ومتى يفعل ذلك وبأي قدر. وقد كتب "أحيانًا، يسحب الربُّ تأثيره الملموس، عندئذٍ يمكن أن يشتِّتنا أزيز ذبابة، لكنْ في أوقاتٍ أخرى، يُرينا الله ما يمكن أن يفعلَه فينا ومن أجلنا".[١٧]

لكنَّ قانون الإيمان الوستمنسريَّ المشار إليه لا يخبرنا بأنْ نكونَ سلبيِّين في هذا الأمر. عندما كان يناقش الكيفيَّة التي ينبغي بها للمؤمنين بالمسيح أن يستَقبلوا عشاءَ الرَّبّ، يقول إنَّ عليهم أن "يتأمَّلوا وجدانيًا في آلامه وموته، وهكذا يُحرِّكون

أنفسهم نحو الممارسة النَّشِطة للنِّعم التي يحصلون عليها". [١٨] ويعني هذا أنَّه يجب أن نتأمَّل الحقائقَ لتتحرَّك مشاعرُ قلوبنا، ونجدَ أنفسنا راغبين في خدمة الله. كيف يبدو حضور الله وحقيقته في الصلاة؟ تذكَّر أنَّ الروح لا يساعدنا في ذلك كلَّ حين وبالطريقة نفسها؛ إلَّا أنَّنا نرى مثلًا واضحًا لما يمكن أن يفعلَه الروح، وذلك في العمل الكلاسيكيِّ من القرن السابع عشر بعنوان "الاهتمام العظيم للمؤمن بالمسيح (The Christian's Great Interest)، للمؤلِّف وليَم غوثري (William Guthrie):

> "إنَّه استعلانٌ إلهيٌّ مجيدٌ في النفس الإنسانيَّة يسكب في القلب محبَّة الله. ويُعدُّ الشعور بهذا الأمرِ أفضل من الكلام عنه. ليس هناك صوتٌ مسموع، لكنَّه شعاعُ مجدٍ يملأ النفس بالله، الذي هو الحياة والنور والحبُّ والحرِّيَّة مثلما فعل ذلك الصوت المسموع الذي سمعه دانيال قائلًا: «أنت محبوب» (دانيال ٩: ٢٣)...إنَّه ما خرج من السيِّد المسيح إلى مريمَ المجدليَّة عندما ذكر اسمها: "قالَ لها يَسوعُ: «يا مريَمُ»...وحالما نطقَ بِاسمِها، حدثَ إعلانٌ إلهيٌّ مجيدٌ في قلبها، ملأها بصورةٍ مُشبِعة على نحو لم يكن معه في قلبِها مكانٌ للجَدَل والشكِّ في هُوِيَّة المسيح". [١٩]

يقول غوثري إنَّه ليس صوتًا مسموعًا تسمعُه الأذنان، أو منظرًا مرئيًّا تشاهِده العينان، بل هو صوتٌ ورؤية- إحساس في القلب، لا في الأحاسيس الجسديَّة. في الصلاة يمكنك أن تدخلَ محضر الله.

أين تأخذنا الصلاة

معرفة النفس- تتطلَّبُ الصلاة منّا أمانةً ووعيًا بالنَّفس وتخلقُهما فينا

لقد ذكَرْنا من قبل أنَّه لا يمكن أن تبدأ الصلاة دون تواضع. غير أنَّ على الصلاة أن تأخذَنا إلى ما هو أبعَدُ من مجرَّد الإحساس بعَدمِ الكفاءة إلى الأمانة العميقة

مع أنفسنا. إنَّ الأمانة في الصلاة أمام إلهٍ كلِّيِّ المعرفة قد تبدو أمرًا منطقيًّا، غير أنَّنا كثيرًا ما نقدِّمُ في صلواتنا كلماتٍ مبتذلة دون أن ننفقَ الوقتَ أو المجهودَ لنكشفَ أمام الله وأمام أنفسنا أعمقَ مخاوفنا وجروحنا وعيوبنا وخطايانا. "لا تسمحُ الصلاةُ الحقيقيَّة لنا بخداع أنفسنا، بل تُريحنا من ضغوط تضخيم أنفسنا، وتمنحنا رؤية روحيَّة واضحة...إنَّها تهدمُ خداعَنا لأنفسنا وتَظاهُرَنا الدِّينيّ...لذا فإنَّنا نمتلكُ بالصلاة ذواتنا الحقيقيَّة".[٢٠]

وتتطلَّب الصلاة أن نعترفَ ليس فقط بخطايانا الظاهرة، بل علينا أيضًا أن نفضَحَ توجُّهاتِنا الداخليَّة، ورؤانا المشوَّهة ورغباتنا غير السليمة التي قد تقودُنا إلى ارتكاب الخطايا.[٢١] ومن الحقائق البسيطة والواضحة أنَّه كلَّما اقترَبْنا من الجمال الكامل والذكاء الفائق والنقاء التامِّ صرنا أكثر وعيًا بعجزنا عن الرؤية، وعن الفهم واحتياجنا إلى التنقية.

ومن الحقائق المشهورة أنَّ كالڤن يبدأ كتابه عن الأساسيَّات بالعبارة التالية: "تكاد تتكوَّن كلُّ الحكمة التي نمتلكها- وأعني بها الحكمة الحقيقيَّة والسليمة- من جزأين: معرفة الله ومعرفة أنفسنا".[٢٢] بكلمات أخرى، لا نستطيع حقيقةً أن نعرفَ الله أكثر دون أن نعرف ، في الوقت نفسه، أنفسنا أكثر، والعكس صحيح. عندما أكون في حالة إنكار بشأن ضعفي وخطيَّتي، سأعاني عندئذٍ من عدم القدرة على رؤية عَظَمة الله ومجده. ليس هناك مثالٌ أعظم من ذلك الموجود في إشعياء، الذي قال حالما رأى رؤية في الهيكل عن قداسة الله: "ويلٌ لي! إنِّي هَلَكتُ، لأنِّي إنسانٌ نَجِسُ الشَّفَتَين، وأنَا ساكِنٌ بينَ شعبٍ نَجِسِ الشَّفتَين، لأنَّ عَينَيَّ قد رأتا الملكَ ربَّ الجُنود" (إشعياء ٦: ٥). لأنَّه رأى الملك بطريقةٍ جديدة، فقد رأى أيضًا نفسَه بطريقةٍ جديدة. يجب أن يسيرَ الأمران معًا. إذا لم نكن مُنفَتِحين على إدراك حقيقة صغرنا وخطيَّتنا، فلن نستطيع استقبالَ عَظَمَته وقداسته.

لاحظَ إدموند كلاوني كيف أنَّ الصلاة تتضمَّن أمانةً لا تضاهيها أمانة في

العلاقات البشريَّة؛ لأنَّ كلَّ علاقةٍ إنسانيَّةٍ تتضمَّنُ فقط جزءًا من شخصيَّاتنا. إنَّنا نتعاملُ مع شركاء حياتنا بطريقةٍ تختلف عن الطريقة التي نتعامل بها مع شركائنا في العمل، وبطريقةٍ تختلفُ تمامًا عن الطريقة التي نتعامل بها مع العلاقات العابرة؛ وذلك لأنَّ كلَّ دَورٍ من أدوارنا الاجتماعيَّة يُعبِّر عن جانبٍ واحدٍ من جوانب شخصيَّاتنا. حتَّى شركاء الحياة يَرَون فقط جزءًا من شخصيَّاتنا وهُوِيَّاتنا، "فكلُّ شَيءٍ عُريانٌ ومَكشوفٌ لِعَينَي ذلك الذي معه أمرُنا" (عبرانيِّين ٤: ١٣). في الصلاة الحقيقيَّة، تسقطُ أقنعتُنا، وتفشلُ كلُّ محاوَلاتنا للتَّظاهُر؛ فهذه العلاقة ليست جزئيَّة، بل كاملة. فكل ما فينا يقف ظاهرًا أمام صانعنا وفادينا".[٢٣]

الثقة- تتطلَّبُ الصلاة ثقةً مطمئنةً ورجاءً واثقًا وتخلقُهما فينا

كما أن الصلاة يجب أن تتضمن كلا من الحميمية والرهبة معًا، فإنها أيضًا يجب أن تجمع بين الخضوع و«اللجاجة». الفكرة النهائية في كل صلاة يجب أن تكون طلب للمساعدة لكي نقبل بشكر من يد الله كل ما يرسله لنا في حكمته. حتى الأطفال الذين بشكل فطري يقاومون أي رفض لرغباتهم، فإنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنهم لا يعرفون العالم مثلما يعرفه والديهم. إن أبانا "وحده يعرف الأفضل، فربما يكون حصولنا على ما نطلب في مرات كثيرة سببًا في دمارنا".[٢٤]

على الجانب الآخر، نحن مدعوُّون لنجعلَ طلباتِنا معروفةً لله بصورةٍ متكرِّرة، وبثقةِ أنَّها ستُسمَع. يصف الكاتبُ النرويجيُّ أولي هاليسبي، في كتابه الكلاسيكيِّ عن الصلاة، أنَّها "عملٌ" وأنَّها "صراع".[٢٥]

ورغم أنَّ علينا دائمًا أن نختمَ صلواتِنا بعبارة "لكن لتكُنْ مشيئتُك"، فيجب أن تبدأ صلاتُنا أيضًا باللَّجاجة والسعي الحثيث وراء الله. لقد تميَّز لوثر بالجَسارة التي جعلَتْه يتكلَّم عن الصلاة بلَجاجةٍ أنَّها "التغلُّب على الله"[٢٦]، فليسَتِ الصلاةُ ممارسةً سلبيَّة هادئة.

إنَّ الاتِّزان ما بين هذين التوجُّهَين- الثقة الهادئة والرجاء الواثق- لهو أمرٌ غايةٌ في الحيويَّة في الصلاة. تحت عنوان "شروط الصلاة" يضعُ تشارلز هودج (Charles Hodge) في كتابه عن اللاهوت النظاميِّ "اللجاجة" و"الخضوع" بعضهما بجانب بعض. إذا شدَّدنا على الخضوع أكثر من اللازم، فسنصير سلبيِّين. لن نصلِّي بالقوَّة والمحاججة التي نراها في الصلاة التي يضغط إبراهيم فيها على الله ليُخلِّص سدوم وعمورة (تكوين ١٨: ١٦-٣٣)، أو عندما يتضرَّع موسى مع الله ليرحم إسرائيل (خروج ٣٣: ١٢-٢٢)، أو عندما يطرح حبقُّوق أو أيُّوب تساؤلاته عن دَورِ الله في التاريخ بكلِّ صدقٍ وأمانة. غير أنَّنا، على الجانب الآخر، عندما نشدِّدُ على نحوٍ مبالَغٍ فيه على "اللجاجة"؛ أو ننخرطُ في الطلبات دون أساسٍ من قبول حكمة الله وسيادته، فسنشعرُ بغضبٍ أكثر من اللازم عندما لا تُستَجابُ صلواتُنا. في كلا الحالتَين- سنتوقَّفُ عن الصلاة بصبرٍ ومثابرة ورزانة من أجل احتياجاتِنا والأمور التي تشغلُنا.

ويشبِّه هاليسبي الصلاة بالتنقيب عن المعادن، كما كان معروفًا في النرويج بدايات القرن العشرين. يكتب هاليسبي أنَّ عمليَّات التفجير التي تصنع نفقَ المنجم تتطلَّبُ نوعَين من الأعمال، ويستلزمُ الأوَّل وقتًا طويلًا إذا يتطلَّب "إحداث ثقوبٍ عميقةٍ في الصخور الصلبة". فحتَّى تُعمَلُ الثقوب بعُمقٍ كافٍ، وفي المناطق الاستراتيجيَّة لإزالة الجسم الرئيسيِّ للصخور، فإنَّ هذا عملٌ يتطلَّب الكثير من الصبر والثبات والمهارة. وبمجرَّد أن تُعمَل هذه الثقوب، توضَعُ "المتفجِّرات" وتوصَل بفَتيلِ التفجير، وتصير عمليَّة "إشعال الفتيل وتفجير الكبسولة أمرًا سهلًا لكنَّه غايةٌ في الإثارة...وفي لحظة نرى النتائج...تنفجر العبوة، وتتناثر أجزاء الصخرة في كلِّ اتِّجاه". ويستنتج هاليسبي أنَّه بينما يتطلَّب العمل الأوَّل المضني مهارةً وصبرًا وقوَّةَ شخصيَّة، فإنَّ "أيَّ شخصٍ يمكنه أن يشعلَ الفتيل ويفجِّر العبوة".[٢٧] يحذِّرُنا هذا التشبيهُ المفيدُ من أن تكون صلواتنا مجرد "إشعال فتيل"، أي أن تكون من النوع الذي نتخلَّى عنه سريعًا عندما لا نحصلُ على نتائج مباشرة. فإذا كنَّا نؤمن

بقوَّة الصلاة وحكمة الله كلَيهما، فستكون لنا حياةُ صلاةٍ تتَّسمُ بالصبر في أثناء إحداث "الثقوب". إنَّ المؤمنين الناضجين يعرفون أنَّ الصبرَ والتعامل مع الملل هما العنصر الذي يطلقُ الصلاةَ الفعَّالة.

علينا أن نتجنَّب التطرُّف نحو أيٍّ من الجانبَين- إمَّا ألَّا نطلبَ شيئًا من الله، وإمَّا أن نظنَّ أنَّنا نستطيع أن نلوي إرادةَ الله لتوافق إرادتنا. علينا أن نجمعَ ما بين اللجاجة و"المثابرة مع الله" والقبول المستَسلِمَ لحِكمَتِه مهما كانت.

التسليم- تتطلَّب الصلاة تسليمًا للحياة بجملتها لمحبَّة الله وتنشئه فينا

يقول مزمور ٦٦: ١٨ "إنْ رَاعَيتُ إثمًا في قلبي لا يَستَمعُ لي الرَّبّ". للوهلة الأولى، يبدو معنى هذا العدد أنِّي أستطيع أن أستحقَّ استجابةَ صلواتي بالمزيد من الاستقامة الأخلاقيَّة. دون شكّ، فإنَّ كلَّ ما رأيناه حتَّى الآن عن لاهوت الكتاب المقدَّس الخاصِّ بالصلاة إلى الآب بِاسْم يسوع يتناقَضُ مع هذه الفكرة. فماذا يعني إذًا هذا الكلامُ في المزمور؟ يتكلَّم يعقوب الرسول عن الصلوات غير المستجابة بالقول: "تَطلُبونَ ولَستُم تأخُذون، لأنَّكم تَطلُبونَ رَديًّا لكي تُنفقوا في لذَّاتِكُم" (يعقوب ٤: ٣).

الفكرة هي التالية. كما أنَّ الإيمان بيسوع لا يجعلنا نستحقُّ خلاصَنا لكنَّه ضروريٌّ لنقبلَ هذا الخلاص بالنعمة المجَّانيَّة، فكذلك الالتزام أن نضعَ الله أوَّلًا ونحبَّه ونتبعَه قبل أيِّ شيءٍ هو أمرٌ ضروريٌّ ليستجيبَ الله صلواتنا دون أن يتسبَّبَ ذلك في ضررٍ لنا. إذا كنَّا نحيا حياةً لا يحتلُّ فيها الله المرتبة الأولى، ويحوز الولاءَ الكامل، فسنستخدمُ عندئذٍ الصلاةَ بصورةٍ أنانيَّة، فقط لننالَ الأشياءَ التي قد تكون هي السبب في تَدميرِ حياتِنا بالفعل.

هذه الحقيقة هي الكامنة وراء ما يكتبه يعقوب الرسول ١: ٦-٨: أنَّنا يجب أن نصلِّي بإيمانٍ غيرَ مرتابٍ البتَّة، لأنَّ المرتابَ يُشبهُ مَوجًا من البحرِ تَخبطُه الرِّيحُ وتَدفَعُه.

فَلا يَظنَّ ذلكَ الإنسانُ أنَّه يَنالُ شَيئًا من عند الرَّبّ. رجلٌ ذو رَأيَين هو مُتَقلقلٌ في جَميع طُرقِه". ويدفعُ هذا بالكثير من القرَّاء إلى الشعور بالقلق العظيم؛ لأنَّ الأمرَ يبدو سطحيًّا كما لو كان يعقوب يقول إنَّه يجب أن نكونَ على يقين نفسيٍّ في أذهاننا بينما نطلبُ من الله. ليس هذا هو ما يتكلَّم عنه. إنَّه يُعرِّفُ الشكّ، في العدد ٨، في أن يكونَ الإنسان ذا رأيين. وهو يستخدم كلمة يونانيَّةً تعني حرفيًّا "عقلَين" أو "نفسَين". ويشرح جاي. آي. پاكر وكارولين نيستروم هذا التعبير بالإشارة إلى كتاب سورين كيركيغارد (Søren Kierkegaard) الكلاسيكيِّ بعنوان: "نقاء القلب هو أن تريد شيئًا واحدًا" (Purity of Heart Is to Will One Thing). ولا يعني هذا أن تكونَ كاملًا بلا عيب، أو نقيًّا بلا خطأ، أو خاليًا من أي عدم يقين، بل يعني ببساطة أنَّك اتَّخذتَ قرارًا بأن يكونَ الله هو إلهَك، وأنَّك ستتخلَّى عن أيِّ اهتمامٍ آخَرَ يتنافس مع الله حالما تكتشف هذا الاهتمام. أي أنَّك تتمسَّك بمزمور ٧٣: ٢٥ "مَن لي في السماء، ومعك لا أريد شيئًا على الأرض". ويضيف پاكر قائلًا: "ليس هناك أمرٌ لستُ مستعدًّا لأن أتخلَّى عنه إذا كان الالتصاق بالرب يتطلَّبه. إن الأمرَ يتعلَّق بالرغبة في الشركة مع الله، وتثمينها أغلى من أيِّ شيء في العالم.[٢٨]

للوهلة الأولى، ربَّما نقرأ الفِقرة الأخيرة ونتساءل، "مَن إذًا يستطيع أن يصلِّي؟" الإجابة السليمة عن هذا السؤال هي: "كلُّ مؤمنٍ مولودٍ ثانية، دون أيِّ استثناء".[٢٩] فرغم أنَّ المؤمنين الحقيقيِّين يدركون بعُمقٍ كيف أنَّهم غير كاملين؛ وأنَّهم يحبُّون الربَّ بصورةٍ غير كاملة، فإنَّهم يريدون أن يحبُّوه فوق كلِّ شيء. ربَّما يصرخون: "لستُ أفعل الخير الذي أريد"، ويقولون أيضًا: "بينما أنا أُسرُّ بناموس الله في الإنسان الباطن، فإنَّ هناك دوافعَ أخرى كثيرة في داخلي تجذبُني بعيدًا عن ذلك".[٣٠] ويشير الأصحاح ٧ من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية وغيره من الفِقرات أنَّه بينما سيظلُّ المسيحيُّون مُعرَّضين للسقطات العظيمة في الخطيَّة ويصارعون مع الشكوك، فقد حدث تغيير أساسيٌّ في موضوع ولائهم وانتمائهم. وهذا التغيير الأساسيُّ هو الشرط الوحيد لئلَّا تكون الصلاة سطحيَّة وأنانيَّة.

عند هذه النقطة، يجب أن نتذكَّر خطابَ أغسطينوس إلى أنيشيا. فهناك يقول لها باختصار: "إنَّ عليك ألَّا تصلِّي من أجل كلٍّ ما تريدينه قبل أن تدركي أنَّ في الله كلَّ شيء تريدينه". أي أنَّنا إلى أن نعرفَ أنَّ الله هو الشيءُ الوحيدُ الذي نحتاج إليه بالفعل، فإنَّ صلواتنا وتضرُّعاتنا قد تصير ببساطة أشكالًا من القلق والشهوة. يمكن أن نستخدم الصلاة لتكونَ مجرَّدَ وسيلةٍ أخرى للسَّعي وراء الأمور التي نريدها بشدَّة. ليس فقط أنَّ الله لن يستمعَ إلى مثل هذه الصلوات (لأنَّنا نطلبُ رديًّا لكي ننفق في شهواتنا [يعقوب ٤: ٢-٣])؛ لأنَّ الصلوات لن تصحِّح من منظورنا، ولن تمنحَنا الراحةَ من الحزن وألم الانحصار في النفس.

من أهمِّ ما قالَه جون كالڤن عن الصلاة هي أنَّها الطريقةُ الأساسيَّة التي بها نستقبل كلَّ شيء لنا في المسيح: "ويبقى لنا أن نطلبَه هو أوَّلًا، وفي الصلاة نطلب منه ما قد تعلَّمنا أن نكونَه فيه".[31] تأمَّل في الأمر. نحن لا نستطيع أن نقبلَ المسيح ونؤمن بِاسْمِه (يوحنَّا ١: ١٢-١٣) إلَّا بالصَّلاة. ويكتب مارتن لوثر أنَّ "كلَّ الحياة هي توبة"، وهذه هي الطريقة التي بها ننمو في النعمة. غير أنَّ التوبةَ ليست سِوى صلاةٍ أيضًا. إنَّ "هدفنا النهائيّ" كما يقول قانون الإيمان الوستمنسريُّ (في نسخته المختصرة) هو "أن نمجِّد الله ونستمتع به إلى الأبد". كلُّ هذه الأمور هي صلاة هي في جوهرها.

في نهاية الزمان، سيختتم التاريخ بمأدبة عظيمة (رؤيا ١٩: ٩)، لكن، كما قد رأينا، يمكننا أن نتعشَّى مع يسوع الآن. كيف؟ بالصلاة. وقد فَهِمَ المفسِّرون أنَّ دعوة يسوع لأنْ "نسمع صوته" و "نفتح الباب" لكي "يدخل إلينا ويتعشَّى معنا، ونحن معه" (رؤيا ٣: ٢٠) هي دعوة للشركة معه بالصلاة. ورغم أنَّه كثيرًا ما تكونُ الصلاة مستَنفِدةً للطاقة- وأحيانًا تكون مؤلمة- فإنَّها على المدى البعيد أعظم مصدرٍ للقوَّة.

الصلاة

ما معناها؟

عمل: الصلاة واجب وانضباط.

كلمة: الصلاة هي حوار مع الله.

اتّزان: الصلاة عبادة واعتراف وشكر وتضرُّع.

ماذا تتطلَّب؟

نعمة: الصلاة هي "بِاسْم يسوع"، ومبنيَّة على أساس الإنجيل.

خوف: الصلاة هي انخراطُ القلب بمحبَّة ورهبة.

عجز: الصلاة هي قبول عجزنا واعتمادنا على الله.

ماذا تقدِّم؟

منظورًا: تُعيدُ الصلاةُ توجيهَ نظرتنا نحو الله.

قوَّةً: الصلاة هي الاتِّحاد الروحيُّ بالله.

واقعًا روحيًّا: تسعى الصلاة إلى اختبارٍ قلبيٍّ لحضور الله.

إلى أين تأخذنا؟

معرفة النفس: تتطلَّب الصلاةُ الأمانةَ ومعرفةَ النفس وتُنشئهما فينا.

الثقة: تتطلَّبُ الصلاةُ ثقةً مطمئنَّةً ورجاءً واثقًا وتُنشئهما فينا.

التسليم: تتطلَّبُ الصلاةُ تسليمَ الحياة بالكامل لمحبَّة الله وتُنشئه فينا.

الجزء الرابع

تعميق الصلاة

الفصل ١٠

التأمُّل في كلمة اللّه بوصفه حوارًا

قلنا إنَّنا عندما نتجاوب بثقة مع كلمة الله، تصيرُ الصلاة عندئذٍ حوارًا مع الله. وقد كتب الكثيرون عن النشاط المبالغ فيه الذي يميِّز مجتمعنا المعاصر، ومرضُ نقص الانتباه الذي تعانيه ثقافتنا، الأمر الذي جعل التأمُّل الهادئ نوعًا من الفنون المنقرضة. لكنْ حتَّى تكونَ الصلاةُ حوارًا حقيقيًّا مع الله، فيجب أن يسبقَها بانتظامٍ نوعٌ من الاستماع إلى صوت الله بتأمُّل الكلمة المقدَّسة.

بوابة الصلاة

"طوبى للرَّجُل الذي لم يسلُك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخُطاة لم يقِفْ، وفي مجلس المستَهزئين لم يجلس. لكنْ في نامُوس الربِّ مسرَّتُه، وفي ناموسه يلهجُ نهارًا وليلًا. فيكونُ كشجرةٍ مغروسةٍ عند مجاري المياه، التي تُعطي ثمرَها في أوانه، وورقُها لا يذبُلُ. وكلُّ ما يصنعُه ينجحُ. ليس كذلك الأشرارُ، لكنَّهم كالعُصافة الّتي تُذرِّيها الرِّيح. لذلك لا تقومُ الأشرارُ في الدِّين، ولا الخُطاةُ في جماعة الأبرار. لأنَّ الربَّ يعلَمُ طريقَ الأبرار، أمَّا طريقُ الأشرار فتَهلِك" (مزمور ١: ١-٦).

كما قلنا مِرارًا سفرُ المزامير هو سفر الصلاة في الكتاب المقدَّس، لكنَّ من المثير للاهتمام أنَّ المزمور الأوَّل ليس في حدِّ ذاته صلاةً، بل هو تأمُّلٌ عن التأمُّل نفسه. إنَّ وَضْعَ هذا المزمور في مقدِّمة سفر المزامير ليس صدفة. ويشير يوجين بيترسون إلى أنَّ سفر المزامير تعرَّض لمجهودات تحريريَّة كبيرة، لذا فالمزمور الأوَّل هو مقدِّمة إلى باقي المزامير. "إنَّ النصَّ [نصَّ سفر المزامير] الذي يعلِّمنا أن نصلِّي لا يبدأ بالصلاة؛ فنحن لسنا مستعدِّين بعدُ. إنَّنا منحصرون في أنفسنا ومغلَّفون بأفكارنا ومشاعرنا، كما أنَّنا مهزومون من العالم". المزمور الأوَّل هو "مقدِّمة إلى الصلاة، تُعدِّنا للصلاة".[1] إنَّ هذا اكتشاف مهمّ، ولدى كثيرين منَّا حياة خلوة وصلاة ودراسة، فيها نقفز من الدراسة الأكاديميَّة في الكتاب المقدَّس مباشرةً إلى الصلاة. لكنَّ هناك "أرضًا متوسِّطة" ما بين الصلاة ودراسة الكتاب- نوعٌ من الجسر ما بين الاثنين. فبينما الخبرات العميقة لحضور الله وقوَّته يمكن أن تحدُثَ بطرقٍ لا حصرَ لها، فإنَّ الطريقة المعتادة للدُّخول إلى العمق روحيًّا في الصلاة هي بتأمُّل الكلمة المقدَّسة. "إذا كنَّا نصلِّي دون تأمُّل، فتصيرُ شركتُنا مع الله فقيرة وبعيدة" كما يكتب إدموند كلاوني.[2]

وبحسب المزمور الأوَّل، فإنَّ التأمُّل يَعِدُنا على الأقلِّ بثلاثة أمور: أوَّلًا الاستقرار. إنَّ الإنسانَ الخبيرَ بالتأمُّل هو كشجرة مغروسة في عمقٍ لا يسمح للرِّيح باقتلاعها. لاحِظْ أيضًا أنَّ هذه الشجرةَ مزروعةٌ بجانب مجاري المياه؛ فالأشجار المزروعة هناك تنمو جيِّدًا، حتَّى وإنْ كان المطر قليلًا. وهذه الصورة هي لإنسان يستطيع أن يستمرَّ في الأوقات الصعبة الجافَّة. نحتاجُ في هذه الأوقات لأن نمدَّ جذورَ قلوبنا ونفوسنا عميقًا في الرَّبّ، والتأمُّل هو الطريقة التي بها نفعلُ ذلك. تمثِّل مجاري المياه "ناموس الرب"، أي كلمة الله، وأن نمدَّ جذورًا تبحث عن المياه فهو كنايةٌ عن التأمُّل.[3]

التأمُّل إذًا هو ما يعطيك استقرارًا وثباتًا وسلامًا وشجاعةً في أوقات الصعوبات والمحن والاضطرابات الشديدة. وهو يساعدنا أن نظلَّ متأصِّلين في "المياه" الإلهيَّة

عندما تجفُّ كلُّ مصادر الرطوبة الأخرى-الفرح والرجاء والقوَّة. أمَّا العُصافة، أيِ القشرة الجافَّة التي تغلِّف البذور، فهي خفيفة جدًّا حتَّى إنَّ أيَّ نفخةٍ تُطيح بها. والطريقة التي بها نتجنَّب أن نكونَ كالعصافة ونصيرَ كالشجرة هي التأمُّل في كلمة الله.

هناك نغمة واقعيَّةٌ هنا. لاحظ أنَّ الشجرة تحمل أثمارًا فقط في موسمها، لكنَّها لا تفقد أوراقها. ويؤدِّي التأمُّل إلى الثَّبات والاستقرار والاستمرار- الشجرة الموصوفة هنا هي من الأشجار دائمة الخضرة! (ورقها لا يذبل)- لكنَّ التأمُّل لا يقدِّم مناعة تامَّة من المعاناة والجفاف، فعلينا ألَّا نتوقَّعَ دائمًا أن يؤدِّيَ التأمُّل إلى خبراتٍ متماثلةٍ ومنتظمةٍ من الفرح والمحبَّة. وهناك مواسمُ من الفرح الشديد (زهور الربيع) ومن الحكمة والنضج (ثمار الصيف). غير أنَّ هناك أيضًا الشتاء الروحيّ، عندما لا نشعر بقرب الله، لكنْ تظلُّ جذورُنا راسخةً بقوَّةٍ في الحقّ.

يحمل لنا التأمُّل أيضًا وعدًا بتغييرٍ حقيقيٍّ في الجوهر- في الشخصيَّة. لا تصنعُ قشورُ البذور شيئًا، لكنَّ الشجرةَ تصنعُ ثمرًا. والسبب الكامن وراء الفرق هو أنَّ الشجرةَ كائنٌ حيٌّ ينمو، أمَّا العصافة فليست كذلك. إنَّ الذين يتأمَّلون يصيرون أشخاصًا ذوي عمقٍ وجوهرٍ لأنَّهم فكَّروا في الأشياء، وذوي قناعات عميقة، ويستطيعون شرحَ مفاهيمَ صعبةٍ بلُغةٍ بسيطة، كما أنَّ عندَهم سببًا وجيهًا وراء كلِّ ما يفعلونه. كثيرون لا يتأمَّلون، بل يمرُّون سريعًا على الأشياء، وينتقون بدافع العَجَلة (ضرورة الاختيار في هذه اللحظة)، وليست لديهم أسبابٌ عميقة لسلوكيَّاتهم. إنَّهم يتبعون الأهواء والنزوات، ويعيشون حياة ضحلة. أمَّا الذين يتأمَّلون فيمكنهم مقاومة الضغوط، ومَن لا يتأمَّلون، فإنَّهم يسيرون مع الجماهير في أيِّ اتِّجاه، مثلما تأخذ الريحُ العصافةَ إلى أيِّ مكان.

التأمُّل يُثمر، والثمر الذي يعنيه الكتابُ المقدَّس هو السماتُ الإيجابيَّة للشخصيَّة مثل المحبَّة والفرح والسلام والصبر والتعفُّف (ضبط النفس) والتواضع (انظر غلاطِيَّة ٥: ٢٢). يجعلُنا التأمُّلُ الحقيقيُّ إذًا نشعر "بالقرب من الله"، كما

أنَّه يُغيِّر حياتنا. وكما يلاحظ دارس العهد القديم دَريك كيدنر (Derek Kidner) أنْ "ليست الشجرة مجرَّدَ قناةٍ تنقلُ الماء من مكانٍ إلى آخر دون أن تغيِّره، بل هي كائنٌ حيٌّ يمتصُّ الماء، الذي يتبعُ مساراتٍ خاصَّة ليصنع شيئًا جديدًا لذيذًا مُسرًّا وسليمًا في نوعه، ومناسبًا لموسمه".[٤]

أخيرًا، فإنَّ التأمُّل يصنعُ بركة، والبركة كلمةٌ غنيَّةٌ بالمعاني في الكتاب المقدَّس. وهي تعني السلامَ والسلامة في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة، وتعني نموَّ الشخصيَّة والاستقرار والسعادة (مزمور ١: ٢). والتأمُّل في ناموس الرَّبّ، الكتاب المقدَّس، يتحرَّك بنا من الإحساس بالواجب إلى الإحساس بالفرح. والوعود الكتابيَّة التي يحقِّقها التأمُّل في كلمة الله هي وعودٌ غنيَّة وعديدة.

التأمُّل والعقل

عندما يدعونا المزمور الأوَّل إلى التأمُّل، فهو يستخدم كلمة "اللهج"، وتعني حرفيًّا التَّمتَمة. وهي تشير إلى حقيقة أنَّ الكتبَ المقدَّسة، ولا سيَّما في هذه الأزمنة القديمة، كانت تُحفَظُ غيبًا. لا توجد طريقة للتأمُّل في عدد أو فقرة من الكتاب المقدَّس واستخلاص كلِّ نواحيها وغنى معانيها وتطبيقاتها، أفضل من حفظها عن ظهر قلب. وقد تُرجمَت كلماتٌ أخرى إلى التأمُّل وتعني التفكير والتساؤل والبحث (راجع مزمور ٧٧: ٣، ٦، ١٢). أن تتأمَّل يعني أن تطرحَ على نفسك أسئلةً عن الحقِّ مثل: "هل أعيش في ضَوء هذا الحقّ؟ أي فرق يجب أن يصنعَه في حياتي فهمي هذا الأمر؟ هل آخذ هذا الأمر على محمَل الجِدّ؟ إذا كنتُ أومنُ وأتمسَّك بهذا، فما الأمور التي ينبغي أن تتغيَّر نتيجةَ ذلك؟ وكيف تتغيَّر؟ إذا نسيتُ هذه الحقائق، فماذا يمكن أن يحدث لي ولعلاقاتي؟" في كلِّ الأحوال، يعني التأمُّل إعمال العقل بقوَّة.[٥]

إنَّ التأمُّل في نصٍّ من الكتاب المقدَّس يفترضُ أنَّه يسعُك بالدراسة والتفسير أن تعرفَ شيئًا ممَّا يعنيه هذا النصّ. فلا يمكنك أن تتأمَّل أو تستمتع بما لا تفهمه.

أن تفهم جزءًا من الكتاب المقدَّس يعني أن تستطيع الإجابة عن سؤالَين أساسيَّين بشأنه. الأوَّل، ما الذي أراد الكاتب الأصليُّ أن يقولَه لقارئي هذا النصّ؟ السؤال الثاني: ما الدور الذي يلعبُه هذا النصُّ في الكتاب المقدَّس كلِّه؟ وما مساهمة ذلك النصِّ في رسالة الإنجيل؟ وكيف يتماشى مع الرواية العامَّة للكتاب المقدس، التي تصل إلى ذروَتها في خلاص يسوع المسيح؟ هذان السؤالان بتفرُّعاتهما "تفسيريَّان". وتساعدنا الإجابة عنهما أن نفسِّر النصّ، ونستطيع أن نستمرَّ في تأمُّله وتطبيقه على حياتنا.

إذا لم تستطع أولًا الإجابة عن التساؤلات بشأن النصّ، فلن تكونَ تأمُّلاتك مبنيَّة على ما يريد الله فعلًا أن يقولَه من النصّ. ربما "يؤثِّر" فيك شيءٌ ما في أحدِ النصوص- لكنْ عندما يكون المعنى الذي أثَّر فيك ليس المعنى الذي قصده الكاتب، بوحي الروح القدس، فهذا لا يعني سوى أنَّك تستمع إلى قلبك أو إلى الروح المميَّزة لثقافتك، وليس إلى صوت الله في الكتاب المقدَّس. ينصحُنا عددٌ كبيرٌ من الكتب هذه الأيَّام بالقراءة الإلهيَّة للكتاب المقدَّس، ويعرِّفون هذا النشاط (بطريقة تفتقرُ إلى الدقَّة والعناية) بأنَّه "قراءة ليس للحصول على المعلومات، بل لسماع كلمة شخصيَّة من الله". وهذا تناقُض. دون شكّ، يعمل التأمُّل على شَخصَنة كلمة الله لنا، لكن قبل أن نتأمَّل في النصِّ بصورةٍ شخصيَّة في وقتنا الحاليّ، فعلينا أوَّلًا أن نفهم، بقدر المستطاع، المعنى الذي قصدَ الكاتب أن ينقلَه إلى قرَّائه الأوائل. كان مارتن لوثر يقول إنَّه كان يحاول أوَّلًا، قبل أن يحوِّل أيَّ نصٍّ من الكتاب إلى صلاة أو عبادة، أن يفهمَه بوصفه وصيَّةً أو "أمرًا"، أي بوصفه معلوماتٍ حقيقيَّة.[٦] باختصار، يجب أن يكونَ التأمُّل في الكتاب المقدَّس مؤسَّسًا على عمل تفسيريٍّ دراسيٍّ رصين.

التأمُّل في الكتاب المقدَّس لا يُخلي العقلَ من التفكير المنطقيّ. على العكس من ذلك هناك التأمُّل السحريُّ المعروف بِاسْم "تأمُّل المانترا" (Mantra Meditation)،

والذي يُعدُّ "التأمُّلُ المتسامي" (Transcendental Meditation) أحد نُسَخِه. في هذا النوع من التأمُّل يكرِّر الممارِس كلمةً أو جملة تعملُ بدَورها على إلغاء كلِّ الأفكار والكلمات الأخرى، ثمَّ تفقدُ حتَّى هذه الكلمة المتكرِّرة معناها. وتُعرِّفُ دراسةٌ حديثةٌ تأمُّل المانترا بكونه "تكرارَ جملةٍ بطريقة تتجاوز الجملة نفسها حتَّى يصلُ الإنسان إلى حالة يفقد فيها الانتباه والتركيز".[٧] والنتيجة هي أن يصيرَ الإنسان بلا وعي بأيِّ كلام أو أفكار أو صور أو مفاهيم- أي يصير واعيًا فقط بالوعي ذاته. وفي ما وراء ذلك، هناك أنواع أخرى من الوعي التي تؤدِّي بنا إلى التوحُّد بكلِّ ما هو موجود، بالله الذي هو كلُّ شيء. وكما لاحظ أحد اللاهوتيِّين المسيحيِّين، هذا هو العكس تمامًا من غرض التأمُّل المسيحيّ. "إن هذا النوع من التأمُّل ليس محاولة لمعرفة الله، بل هو ليكون الإنسان هو الله".[٨]

أمَّا التأمُّل المسيحيّ، فهو تأمُّل عقلانيّ، بل أيضًا جدليّ. يكتب داود في المزمور ٤٢ "لماذا أنت منحنية يا نفسي؟ ولماذا تئنِّين فيَّ؟" إنَّه حرفيًّا في حالة جدل ونقاش مع نفسه. يهدفُ تأمُّل المانترا إلى تخدير الجانب التحليليِّ في فكر الإنسان. أمَّا التأمُّل المسيحيّ، فهو على العكس من ذلك، يستثيرُ فكرَ الإنسان وينشِّطه، عندما يركِّز على مجد الله ونعمته.

التأمُّل والقلب

التأمُّل في الكتاب المقدَّس هو أكثر من مجرَّد التفكير. يحتوي الكتاب المقدس على معلومات، لكنَّه أكثر من ذلك. يصفُ الكتاب نفسه بأنَّه عنصرٌ حيٌّ وفاعل (عبرانيِّين ٤: ١٢). الإنجيل، وهو رسالة الكتاب المقدَّس، ليس مجرَّد كلام بل قوَّة (رومية ١: ١٦؛ ١ تسالونيكي ١: ٥). عندما يتكلَّم بولس عن سُكنى كلمة الله فينا "بغنى" (كولوسِّي ٣: ١٦)، فهو يتكلَّم بوضوح عن شيء أبعَدَ من مجرَّد المعلومات؛ إذ إنَّه يتكلَّم عن "تأمُّل عميق ومخترِق" تكون فيه لرسالة الكتاب المقدَّس قوَّة قادرة على التغيير.[٩]

وتنقل إلينا هذه الحقيقةَ التشبيهاتُ الموجودةُ في المزمور الأوَّل؛ ففيه ربطٌ ما بين التأمُّل وتشرُّب جذور النبات للماء. ويعني هذا ليس مجرَّد معرفة الحقّ، بل أيضًا استقباله في القلب وجعله جزءًا لا يتجزَّأ من كِيان الإنسان. التأمُّل هو "التذوُّق" الروحيُّ لكلمة الله والتلذُّذ بها، واختبار حلاوة التعليم، والشعور بالاقتناع الداخليِّ بما تكشفه لنا الكلمة عن أنفسنا، ثمَّ تشكر الله وتحمده على ما تعلنه لنا عنه. التأمُّل هو أيضًا "الهضم" الروحيُّ للكلمة المقدَّسة وتطبيقها والتفكير في طريقة تأثيرها فيك ووصفها لك، وإرشادك بأكثر طريقة عمليَّة ممكنة. إنَّها استمداد القوَّة والرجاء من الكلمة، وجعلها تذكِّرك أنَّك محبوب. التأمُّل هو أخذ الكلمة عميقًا إلى القلب حتَّى تضرم فيه النار، وتبدأ الكلمة في تشكيل ردود فعلنا نحو الله وأنفسنا والعالم من حولنا.

هناك مثلٌ عن التأمُّل في مزمور ١٠٣: ١-٢: "باركي يا نفسي الربّ، وكلُّ ما في باطني، ليبارك اسمَه القدُّوس. باركي يا نفسي الربَّ ولا تنسَي كلَّ حسناته". لاحظ أنَّ داوُد لا يتكلَّم مباشرةً إلى الربّ، رغم أنَّه يدرك حقيقة أنَّه في محضر الله. إنَّه يكلِّم نفسه ويخاطب كِيانه الداخليّ. إنَّه يأخذ الحقَّ إلى أعماقه أمام الله. هذا هو التأمُّل. "الحسنات" التي يتكلَّم عنها داوُد هي حسنات الخلاص- غفران الخطايا، وقبول النعمة، ومحبَّة الله غير المشروطة (مزمور ١٠٣: ٣، ٨-١٢). إنَّه يأخذ هذه الحقائق الكتابيَّة ويغرسُها في قلبه حتَّى تغيِّره وتفرِّح قلبه، وهو يوبِّخ قلبَه الذي يميل لأن "ينسى" خلاصَه. لا يعني هذا حرفيًّا أنَّ داوُد ينسى أنَّه مؤمن. بل يعني أنَّ قلبَه ينسى بمعنى أنَّ ردود فعلنا الغريزيَّة ودوافعنا الداخليَّة ومشاعرنا وتوجُّهاتنا تأبى أن ترتبط وتتشكَّل بالحقائق التي نعترف بها. يمكن أن يكون التأمُّل المسيحيُّ على غرار هذه السطور على النحو التالي:

> "عندما أنسى أنِّي مبرَّر بالإيمان فقط، فإنِّي أترك مساحةً للشعور بالذَّنب والندم على الماضي. ومن ثَمَّ أعيش أسيرًا لآلهة السُّلطة والمال وكلِّ الأمور التي أحاول بها أن أعالج شعوري بالذَّنب،

لأشعر بالرِّضى عن نفسي. عندما أنسى أنِّي مقدَّس بحضور الروح القدس، فإنِّي أيأس من نفسي، وأتوقَّف عن محاولة التغيير. عندما أنسى رجاء القيامة في المستقبل، فإنِّي أخاف من العجز والموت. عندما تغيب عنِّي حقيقة إنِّي متبنَّى في عائلة الله، فإنَّ المخاوف تملأني، ولا أصلِّي بجسارة، وأفقد ثقتي، وأحاول أن أخفي أخطائي من الله ومن نفسي".

انشغال العقل

مع أنَّ هناك طرقًا كثيرةً للتأمُّل في فقرات الكتاب المقدَّس، فيرى اللاهوتيُّ البريطانيُّ جون أوين (John Owen) أنَّ هناك ثلاث حركات أو مراحل في التأمُّل.[١٠] يبدأ أوين بالتفريق ما بين التأمُّل ودراسة الكتاب المقدَّس والصلاة. يكتب:

"يجب التفريق ما بين التأمُّل ودراسة كلمة الله، التي تهدفُ أساسًا إلى تعلُّم الحقّ، وإعلانه للآخرين. ويجب أيضًا التفريق ما بين التأمُّل والصلاة التي يكون الله نفسه فيها الهدف والموضوع. أمَّا التأمُّل... فهو التأثير في قلوبنا وعقولنا بالمحبَّة والسرور و[التواضع]".[١١]

ويمضي أوين في شرح المرحلة الأولى، وهي اختيار الحقِّ واستكشافه– "إصلاح الذهن" من الكتاب المقدَّس:

"بواسطة التأمُّل الجادّ، أقصد الوصول أوَّلًا إلى الأفكار الخاصَّة بموضوع روحيٍّ أو إلهيّ، ثمَّ أشكِّل أفكاري أنا بحسب هذه الأفكار...إنَّه التدريب الحقيقيُّ للذِّهن في أفكاره وتأمُّلاته ورغباته في الأمور الروحيَّة والسماويَّة...إنَّهم يفكِّرون فيها بتركيز أفكارهم وتأمُّلاتهم عليها".

هناك طرق تقليديَّة كثيرة للحصول على رؤية واضحة لأحد النصوص. وإحدى هذه الطرق هي قراءة نصِّ الكتاب المقدَّس بتأنٍّ، والإجابة عن أربعة أسئلة: ماذا يعلِّمني هذا النصُّ عن الله وعن شخصيَّته؟ ماذا يعلِّمني عن الطبيعة الإنسانيَّة والشخصيَّة الإنسانيَّة والسلوك الإنسانيّ؟ ماذا يعلِّمني عن يسوع المسيح وخلاصه؟ ماذا يعلِّمني عن الكنيسة والحياة وسط شعب الله؟ لذا يمكنُ مثلًا أن نقرأ يوحنَّا ٢: ١٣-٢٢ عن يسوع عندما طرد الصيارفة من الهيكل:

> "وكان فصحُ اليهود قريبًا، فصعدَ يسوعُ إلى أورُشليم، ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرًا وغنمًا وحمامًا، والصيارف جُلوسًا. فصنع سوطًا من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنمَ والبقرَ، وكبَّ دراهمَ الصيارف وقلَّب موائدهم. وقال لباعة الحمام: «ارفَعوا هذه من هَهُنا! لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة!». فتذكَّر تلاميذه أنَّه مكتوبٌ: «غَيرةُ بيتك أكلَتْني». فأجاب اليهودُ وقالوا له: «أيَّة آيةٍ تُرينا حتَّى تفعل هذا؟» أجاب يسوعُ وقال لهم: «انقُضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيَّام أُقيمُه». فقال اليهودُ: «في ستٍّ وأربعين سنةً بُني هذا الهيكلُ، أفأنت في ثلاثة أيَّام تُقيمُه؟» وأمَّا هو فكان يقولُ عن هيكل جسده. فلمَّا قام من الأموات، تذكَّر تلاميذه أنَّه قال هذا، فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع".

ما الذي نتعلَّمه عن الله من هذه الفقرة؟ ربَّما نرى أنه يجب ألَّا نستخفَّ بالله؛ فهو قدُّوس. ومن المهمِّ أن ندركَ كيف ينبغي أن نعيشَ في محضره، في "بيته". ما الذي نتعلَّمه عن أنفسنا وكيف ينبغي أن نعيش؟ ربَّما تواجِهُنا هذه الفقرة بمدى أهمِّيَّة التركيز على الربِّ في أثناء العبادة، ولا نمارس أحلام اليقظة حول أمور أخرى. ربَّما نتأمَّل أيضًا في معنى أن يكونَ التزامنا عاليًا وأن تكون لنا "غَيرة" لله في أمور أخرى في حياتنا. ما الذي نتعلَّمه عن يسوع المسيح وخلاصه؟ في هذه الفقرة

يتنبَّأ يسوع بقيامته، كما أنَّه يعلن أيضًا أنَّه هو الهيكل الحقيقيّ، وأنَّه مَن يجسرُ الهوَّة ما بين الله والإنسان. ما الذي نتعلَّمه عن كوننا شعب الله؟ نرى أهمِّيَّة تعلُّم الكلمة المقدَّسة، حتَّى إنْ تطلَّبَ تعلُّمها والاستمتاع بها وقتًا وصبرًا.

من المقاربات الأخرى المثمرة للتأمُّل أن نطرحَ أسئلةً تطبيقيَّةً. ابحث في الفقرة عن: أيِّ نموذج شخصيٍّ يمكن الاقتداء به أو تجنُّبه؛ أيِّ وصايا يجب أن تُطاع، أو وعود ينبغي التمسُّك بها، أو تحذيرات ينبغي الانتباه لها. ولنستخدمْ هذه الأسئلة في فِقرة أخرى من إنجيل يوحنَّا (١: ٢٩-٤٢):

> "وفي الغد نظر يوحنَّا يسوعَ مُقبلًا إليه، فقال: «هُوذا حملُ الله الذي يرفعُ خطيَّة العالم! هذا هو الذي قلتُ عنه: يأتي بعدي، رجلٌ صار قُدَّامي، لأنَّه كان قبلي. وأنا لم أكُن أعرفُه. لكنْ ليُظهَر لإسرائيل لذلك جئتُ أعمِّدُ بالماء». وشهد يوحنَّا قائلًا: «إنِّي قد رأيتُ الرُّوح نازلًا مثل حمامةٍ من السَّماء فاستقرَّ عليه. وأنا لم أكُن أعرفُه، لكنَّ الذي أرسلَني لأعمِّد بالماء، ذاك قال لي: الذي ترى الرُّوح نازلًا ومُستقرًّا عليه، فهذا هو الذي يعمِّدُ بالرُّوح القُدُس. وأنا قد رأيتُ وشهدتُ أنَّ هذا هو ابنُ الله». وفي الغد أيضًا كان يوحنَّا واقفًا هو واثنان من تلاميذه، فنظرَ إلى يسوع ماشيًا، فقال: «هوذا حملُ الله». فسمعَه التلميذان يتكلَّم، فتَبِعا يسوع. فالتفتَ يسوعُ ونظرَهما يتبعان، فقال لهما: «ماذا تطلُبان؟» فقالا: «ربِّي، الذي تفسيره: يا مُعلِّم، أين تمكُث؟» فقال لهُما: «تعاليا وانظُرا». فأتيا ونظرا أين كان يمكُثُ، ومَكَثا عنده ذلك اليوم. وكان نحو الساعة العاشرة. كان أندراوُس أخو سمعان بطرُس واحدًا من الاثنين اللذَين سَمِعا يوحنَّا وتبعاه. هذا وجدَ أوَّلًا أخاه سمعان، فقال له: «قد وجدنا مسيًّا» الذي تفسيره: المسيح. فجاء به إلى يسوع. فنظر إليه يسوعُ وقال:

«أنت سمعانُ بنُ يونا. أنت تُدعى صفا» الذي تفسيره: بطرس".

هنا نرى نموذجًا يجب أن نقتديَ به. كان يوحنَّا المعمدان معلِّمًا له تلاميذ مُخلِصون لكنَّه يعرفُ أنَّه يجب أن يكونَ الولاءُ الأعظمُ لأيِّ إنسان هو ليسوع، لذا فهو يرسلُ عن قصدٍ تلاميذه إلى يسوع، وهم يذهبون. نحن أيضًا يجب أن نراعي ألَّا تأتي أيَّة علاقة إنسانيَّة في حياتنا في مرتبة أعلى من ولائنا وإخلاصنا للسيِّد المسيح. ونرى أيضًا وصيَّة أن ننتبه إلى يسوع المسيح، ونؤمن به ونتَّحد معه بوصفه حمل الله. يجب أن نضعَ ثقتَنا في يسوع بوصفه حمل الله الذي يرفعُ خطايانا. لدينا أيضًا وعد هنا "تعاليا وانظرا": أنَّ اتِّباع يسوع المسيح هو مسيرة. إنَّه لا يعطينا كلَّ ما نريده دفعه واحدة، بل يدعونا يسوع أن نأتي إليه ونرتبط به وبمرور الوقت سوف "نرى" أمورًا عظيمةً ونتعلَّم عنها. كما أنَّ هناك تحذيرًا ضمنيًّا خفيفًا هنا. إذا أتينا والتزمنا، فسوف "نرى"، لكنَّ هذه الرؤية ستُحدث إرباكًا في حياتنا المعتادة وستغيِّرها، فيسوع يقول لسمعان إنَّ اسمَه سيتغيَّر. لن نظلَّ كما نحن.

هناك أسلوبٌ ثالثٌ للتأمُّل في الكتاب المقدَّس، ولا سيَّما مع الفِقرات القصيرة: أن نأخذَ عددًا واحدًا مهمًّا ونفكِّر فيه ونتوقَّف عند كلِّ كلمة، ونتساءل كيف تساهم كلُّ كلمةٍ في معنى النصّ، أو نتساءلُ عن المعنى الذي سنفقده إذا لم تكُنْ هذه الكلمة مكتوبةً. خُذ مثلًا مرقس ١: ١٧ وتأمَّل فيها مشدِّدًا على كلِّ كلمة. "هلمَّ وَرائي فأجعلُكما تصيران صيَّادَيِ الناس" ويعني هذا أنَّ علينا ألَّا نكونَ مجرَّدَ تلاميذ نتشرَّبُ المعاني والمعلومات، بل تلاميذ نجعل حياتنا كلَّها تتشكَّل بفعل تبعيَّة المسيح. "هلمَّ وَرائي فأجعلكما تصيران صيَّادَيِ الناس". ما يقوله يسوع ليس فقط "أطع هذا الأمر"، بل أيضًا "أطِعْني واتبَعْني". صحيح أنَّه ينبغي لنا أن نطيعَ كلمات يسوع، لكنَّ المسيحيَّة هي علاقة شخصيَّة حميمة بشخصه، وليست فقط خضوعًا سلوكيًّا أو أخلاقيًّا. "هلمَّ وَرائي فأجعلُكما تصيران صيَّادَيِ الناس" إنَّه أيضًا وعد. إنَّه يَعِدُنا أنَّنا إنْ اتَّبعناه فسيغيِّرنا. "هلمَّ

وَرائي فأجعلُكما تصيران صيَّادَيِ الناس". ستكونُ مسيرةً طويلة، فيجب أن نكون صبورين. وهكذا نرى كيف أنَّ كلَّ كلمةٍ تكشفُ بُعدًا من أبعاد الدعوة يمكن أن نفقده إذا لم نتأمَّل في ذلك التعبير بالتَّحديد.

طريقة أخرى من طرق تركيز العقل على الحقائق الموجودة في فِقرة ما من الكتاب المقدَّس هي أن تعيدَ صياغة العدد بكلماتك أنت. أقرأ العددَ وأتأمَّل كلَّ كلمةٍ على حِدة. أقرأ العدد (الأعداد) ثمَّ ضع الكتاب المقدَّس جانبًا وحاول أن تتذكَّر المقطع من الذاكرة، ثمَّ انظر إلى الفِقرة ثانيةً وانظر إلى ما فقدته. كرِّر هذا حتَّى تشعر بالرِّضى عن صياغتك. يجبرُك هذا النوع من التأمُّل أن تتعمَّق في معنى النصِّ أكثر من أيَّة طريقةٍ أخرى. إذا أدركتَ أنَّك لا تعرفُ بالضبط معنى كلمة أو مفهوم ما جاء في الفقرة، فاصرفِ الوقت في دراسته ومحاولة اكتشاف معناه. كما أنَّ وضعك للأفكار بكلماتك أنت- لغة قلبك- سيجعل الفِقرةَ تغوصُ بعُمقٍ في كِيانك الداخليّ.

وكما لاحظنا من قبل فإنَّ الطريقة الأخيرة للتأمُّل في نصوص الكتاب المقدَّس هي بحفظها. لقد كانت هذه الطريقة للتعلُّم في الماضي هي الطريقة الأكثر إكرامًا للنَّصّ، وكانت تُستخدَم كثيرًا، لكنَّها لم تَعُدْ كذلك، وهذا خسارة. يمكن أن يكون الحفظُ مثمرًا؛ فهو بطريقة ما يتضمَّن بعضًا من الطرق الأخرى في الوقت نفسه. فعندما تعمل على محاولة تذكُّر الكلمات بالتحديد، فإنَّ المعنى سيواجهك أكثر من مرَّة بحيث يترسَّخ لديك ممَّا يصعِّبُ فقدانه، وسيتدفَّق كثير من التبصُّرات والمعاني بينما تحاول حفظ الفِقرة. كما أنَّ الفِقرات المحفوظة ستَحضرُ في ذهنك تلقائيًّا في أثناء اليوم عندما تدرك كيف أنَّ هذه الفقرات تخاطبُ المواقف اليوميَّة المختلفة. لعلَّ ليس هباءً أن يطلقَ على هذه الطريقة في التعلُّم الحفظ عن "ظهر قلب". إنَّها كذلك بالفعل، وهذا يقودنا إلى الحركة الثانية في أثناء التأمُّل.

استمالة القلب

بعد انشغال العقل، يقول جون أوين إنَّ الجزء الثاني من التأمُّل هو استمالة القلب. بعد انشغال العقل لنرى بوُضوح ما الذي نتعلَّمه عن الله ويسوع المسيح والخلاص والأبديَّة، ثمَّ نرى حالتنا بعد ذلك، يجب أن نتطلَّع إلى استمالة القلب حتَّى يصير رجاؤه وفرحه هو أن يستريحَ على نحوٍ كاملٍ في هذه الأمور.

يصف أوين ذلك بأنَّه "ميلٌ واتِّجاه وإطار لكلِّ المشاعر"، حتَّى إنَّ القلبَ يلتصقُ بالأمور الروحيَّة...من الحبِّ والابتهاج...بها والانخراط فيها.[١٢] وهذا ما يسمِّيه ريتشارد باكستر (Richard Baxter) المعاصر لأوين، "مناجاة النفس"، وهو يعني رؤية الكيفيَّة التي يجب أن يؤثِّر بها الحقُّ الإلهيُّ في حياتك، وعلاقاتك، ثمَّ مخاطبة قلبك ووعظه حتَّى يتَّصلَ القلب بهذا الحقّ، ويبدأ في التحوُّل بعيدًا عن كلِّ مصادر رجائه المزيَّفة، ومن ثَمَّ يغيِّر توجُّهاته ومشاعره والتزاماته. ويتكلَّم باكستر عن وعظ النفس، ويعني بذلك "أن تحوِّلَ نفسَك من البرودة إلى السخونة- من خاطئ ينسى الله ويحبُّ العالم، إلى شخصٍ شديدِ الحبِّ لله، ومن جبان رعديد، إلى مؤمن جريء بالمسيح، من حزين عديم الإثمار، إلى شخص بحياة مثمرة فرحانة؛ وفي كلمة واحدة، أن تحول نفسك من الأرض إلى السماء".[١٣]

كيف تفعل ذلك عمليًّا؟ لعلَّ إحدى الطرق هي طريقة مارتن لوثر. بعد أن تشغلَ الفكر وتركِّزه على الكلمة المقدَّسة بوصفها أمرًا وتعليمًا، يبحث لوثر عمَّا تعلِّمه الكلمة عن الله ليبدأ في تمجيده وتسبيحه، وعن نفسك لكي تستطيع أن تتوب، وعن شيء تحتاج إليه لتبدأ في طلبه، لنفسك وللعالم. يحوِّل لوثر حقَّ الكتاب المقدَّس من حقٍّ مجرَّدٍ إلى حقائق ملموسة مختَبَرة. بذلك يرفض لوثر النظر إلى الكتاب المقدَّس بوصفه حقائق فكريَّة منفصلة عن حياتنا، بل يخوض بكلِّ كِيانه في هذا الحقّ، ويدخل به إلى أعماقه ليرى كيف يمكن أن يغيِّرَه هذا الحقُّ تغييرًا حقيقيًّا وعميقًا. هناك مقولةٌ قديمة عن الفرق ما بين المعرفة المجرَّدة والحكمة

الحقيقيَّة: أنَّ الحكمة هي "المعرفة التي تحوي العارفَ داخلها". إنَّها تضمين الحقِّ في كلِّ علاقاتنا. إنَّها أن نسأل: "ماذا يعني هذا لعلاقتي بالله؟ وبنفسي؟ وبهذا الشخص أو هذه الجماعة؟ وبهذا السلوك أو تلك العادات؟ وبعلاقاتي؟ وبثقافتي؟"

من الطرق الأخرى التي تميِّز بها كيف يمكن أن تغيِّرَك الحقائق هي أن تنظر بمزيد من العمق إلى نفسك. اسأل نفسك عن الأفكار الخاطئة التي تنتج في نفسك عندما تنسى هذه الحقائق، ثمَّ تأمَّل المشاعر المنفَلِتة التي تنتج عندما لا تؤمن بهذه الحقائق وتعتنقها. تساءل كيف أنَّك عندما تفقد توجُّهك نحو هذه الحقائق، ستصيرُ معرَّضًا لأن تضعَ رجاءَك في أمورٍ أخرى لتمنحَك ما يمكن أن يعطيَه فقط الله. تخيَّل الخطايا التي يمكن أن تنجمَ نتيجةَ الفشل في استيعاب هذه الحقائق وتقديرها. كن مُحدَّدًا! هل هناك شيء يجب أن تتوقَّف عن فعله بسبب إدراكك هذه الحقائق؟ وهل هناك شيء تحتاج لأن تبدأ في فعله؟

طريقة أخيرة يمكن بها أن تميِّز كيف يمكن أن تغيِّرك حقيقة من الكتاب المقدَّس هي أن تفكِّر في التوقيت الذي تبصَّرت فيه بهذه الحقيقة. لماذا يكشف الله لك اليوم هذه الحقيقة؟ ما الذي يحدث الآن في حياتك ويوافق هذه الحقيقة؟

إنَّ هذه الأسئلة هي أسئلةٌ فاحصة، لذا كثيرًا ما يكونُ العمل على الإجابة عنها مؤثِّرًا لكن ليس بالضرورة مُسِرًّا. عندما تستوعب الحقائق على نحوٍ عميق، قد تشعر بتأنيب الضمير، أو بالصغر والاتِّضاع، أو ربَّما بالاضطراب، أو الهدوء والاطمئنان. كما قد تشعر أحيانًا بالإثارة والفرح. إنَّ التأمُّل هنا يستهدف القلب. يكتب أوين بقوَّة:

> "إذا كنَّا نكتفي بمجرَّد الاستنتاجات العقليَّة والمعارف الذهنيَّة بشأن عقيدة السيِّد المسيح، فلن نجد قوَّة مغيِّرة، أو تأثيرًا منقولاً إلينا. لكنْ إنْ كانت مشاعرنا، تحت تأثير النور الروحيّ، مرتبطةً به

بتصميم قلبيٍّ عميقٍ وثابت، فإنَّ عقولنا تمتلئ بالأفكار، ومشاعرنا تفيض بالتلذُّذ به، ثمَّ منه تنبع القوَّة (التغيير في الشخصيَّة) لكي تنقينا، وتزيد من قداستنا، وتقوِّي فضائلنا، وتملأنا أحيانًا، بفرح لا ينطق به ومجيد".[١٤]

يقول أوين إنَّه ليس من السليم الاكتفاء بمجرَّد الاعتراف العقليِّ بالعقائد الخاصَّة بيسوع؛ لأنَّ هذا لا يكرمُه في الحقيقة. يجب أن يكونَ هناك إيمانٌ ومحبَّة وبهجة وفرح به (١بطرس ١: ٨).[١٥] الطريقة الوحيدة للحصول على ذلك هي بدراسة الكلمة وتأمُّلها إلى الحدِّ الذي تتحوَّل فيه الكلمة إلى بهجة لقلوبنا (مزمور ١: ٢). ثمَّ نختبر محبَّة داخليَّة وفرحًا وتغييرًا. ويسمِّي أوين هذا الطريق للوصول إلى "درجة الحرارة المناسبة لحالة الصحَّة الروحيَّة". ويحدثُ ذلك عندما تتجاوب مشاعرُ قلوبنا مع كم "معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح".[١٦] أي أنَّ كلَّ ما نعرفه لاهوتيًّا يجد طريقه إلى قلوبنا بكلِّ الفرح والسلام والتعفُّف والمحبَّة والتحمُّل والصبر والفضيلة التي يمكن أن يصنعَها في الإنسان.

الاستمتاع بالله أو الصراخ إليه

ثمَّ يضيف جون أوين بسرعة أنَّه بمجرد أن نمارسَ التأمُّل بصورةٍ كاملة- تعرُّف الحقِّ وتبنِّيه في قلوبنا- فإنَّ النتائجَ المباشرة يمكن أن تختلف. وستكون الخبرة القلبيَّة للحقِّ "بدرجات مختلفة- فسينال بعض الأشخاص الكثير وبعضهم الآخر القليل". فما المرحلة الثالثة من التأمُّل؟ إنَّها تعتمد على مكاننا ما بين القطبَين. ربَّما يشعر القلب بحضور الله وحقائقِ خلاصِه بطريقةٍ مؤثِّرة. لذا يدعونا أوين لأنْ نتوقَّف ونتذوَّقه. وهو يستخدم كلمة إنكليزيَّة قديمة وتعني "فورة الاستمتاع" ليتكلَّم عن اختبار حلاوة المشاعر الروحيَّة.

"في هذه الفورة من الاستمتاع والتلذُّذ تقع حلاوة الحياة الروحيَّة وشبعها. عندما تكون القناعات الفكريَّة الروحيَّة بمفردها، فهي تظلُّ جافَّةً وباردةً ومُقفِرة. ونحن نذوقُ في هذه الفورة صلاح الربِّ وننظر هذا الصلاح، وننظر أيضًا أنَّ محبَّة يسوع المسيح أطيب من أيِّ شيء يمكن أن يعطينا لذَّة حسِّيَّة. إنَّ ذلك أساس سليم «لفرح لا يُنطق به ومجيد»".[١٧]

هذا ما كان داوُد يتكلَّم عنه عندما قال: "واحدةً سألتُ من الربِّ وإيَّاها ألتَمسُ: أن أسكُنَ في بيت الربِّ كلَّ أيَّام حَياتي، لِكي أنظرَ إلى جَمال الرَّبّ" (مزمور ٢٧: ٤). وعندما قال: "يا الله، إلهي أنت. إليك أُبكِّر. عطشَتْ إليك نفسي، يشتاقُ إليك جَسَدي في أرضٍ ناشفةٍ ويابسةٍ بلا ماء، لكي أُبصرَ قوَّتك ومجدَك. كما قد رأيتُك في قُدسك. لأنَّ رحمتَك أفضلُ من الحياة. شفتاي تُسبِّحانك. هكذا أباركُك في حياتي. بِاسْمِك أرفعُ يديّ. كما من شحمٍ ودسمٍ تشبعُ نفسي، وبشفتي الابتهاج يُسبِّحُك فمي" (مزمور ٦٣: ١-٥).

مثل مارتن لوثر- الذي أدرك أنَّ الروح القدس يبدأ أحيانًا مباشرة أن "يعظك" - وأحيانًا لا يفعل ذلك- يتميَّز أوين بالواقعيَّة الشديدة، وهو يعترف أنَّنا لا نستطيع أحيانًا، مهما فعلنا، أن نركِّز ونجد أفكارنا لا تنمو ولا تؤثِّر، بل نشعر بالملل والتشتُّت. ثمَّ يقول أوين إنَّ هذه الأوقات هي تحوُّل إلى الله بشدَّة، وبكلمات مختصرة طلبًا للمساعدة. أحيانًا يكون هذا كلُّ ما تستطيع أن تفعلَه في ما تبقَّى من الوقت الذي خصَّصته للصلاة، وأحيانًا تكون هذه الصرخات فعَّالة بحيث تعيد إليك تركيزك وترقُّق قلبك مرَّة ثانية. يكتب أوين: "بعد هذا الإعداد، إذا وجدت أنَّك لا تزال مضطربًا ومرتبكًا، ولا تستطيع مواصلة أفكارك الروحيَّة بسهولة لتصلَ إلى الانتعاش الروحيّ...فاصرخ وتنهَّد إلى الله طالبًا المساعدة والاطمئنان".[١٨] حتَّى وإنْ لم يعطك تأمُّلك إلَّا "شعورًا متجدِّدًا بضعفك وفقرك". فالأمر ليس مضيعة للوقت، بل هو

يجعلُك تتلامس على نحو أقرب مع الواقع الروحيّ. ثمَّ يضيف، إنَّ تعبيرنا عن الحزن والنوح على فقدان الإحساس بحضور الله هو نفسه نوعٌ من إظهار محبَّتنا لله، كما أنَّه أمر يقدِّره الله كثيرًا.[١٩]

وهو ينصحنا أن ننهيَ هذا الوقت، ونعودَ إليه في اليوم التالي. "سيُعطينا الثَّبات والمثابرة في [هذا] الواجب مزيدًا من القدرة واللياقة. فالذين يداومون بوعي على التأمُّل مهما كانت الحال، هم مَن يزدادون نورًا وحكمة وخبرة حتَّى يستطيعوا أن يمارسوه بنجاح عظيم."[٢٠] ربَّما المزمور الأوَّل هو أفضل ما يعينُنا في هذا الأمر. إنَّ مَن يتأمَّل هو مثل الشجرة يعرفُ أنَّ الشجرَ لا ينمو بين ليلة وضحاها؛ فالتأمُّل مسيرة مستمرَّةٌ مثلما تمدُّ الشجرة جذورَها نحو الأسفل لتصلَ إلى مصادر المياه، وتأثيرات هذه المسيرة تراكميَّة. يجب أن تستمرَّ وتثابر. يجب أن تستمرَّ في التأمُّل "نهارًا وليلًا" بمواظبة وثبات.

وبحسب أوين، يعني التأمُّل تحليلَ الحقِّ بالعقل، ثمَّ إشراك المشاعر، ثمَّ توجُّهات القلب وقرارات الإرادة، وبعد ذلك التجاوُب بالقدر الذي به يُعطي الروح القدس استنارةً وتلامُسًا مع الواقع الروحيّ. نستطيع أن نقولَ إنَّ التأمُّلات قبل الصلاة تتكوَّن من التفكير، ثمَّ الميل العاطفيّ، ثمَّ ينتهي إمَّا بالاستمتاع بحضور الله وإمَّا بالاعتراف بعدم الشعور بحضوره والصراخ إليه طلبًا للرحمة والمعونة. التأمُّل هو التفكير في الحقِّ ثمَّ الغوص به في الأعماق حتَّى تصير الأفكار التي يمثِّلها هذا الحق "كبيرة" و"مُسِرَّة" ومؤثِّرة، حتَّى يشعر القلب تمامًا بهذا الحقِّ ويعتنقه بكلِّ جوارحه.[٢١]

التأمُّل في الكلمة المتجسِّد

يخبرنا المزمور الأوَّل بأنَّ الإنسان الذي ينتمي إلى الله هو الذي يتأمَّل ويلهج في ناموس الرَّبّ. وتشير هذه العبارة إلى الكتاب المقدَّس كلِّه، لكن بالنظر إليه بوصفه القياس المعياريَّ للحياة، أي بوصفه "دستور الإيمان والأعمال". إنَّه الذي يكشف

لنا عن مشيئة الله، وهذا يثير قضيَّة عمليَّة مهمَّة. كيف يمكن أن يستمتع بالكلمة المقدَّسة مَن يتأمَّل بحقٍّ في مشيئة الله فيها؟ انظر إلى تأمُّلات يسوع في الوصايا العشر في موعظته على الجبل. إنَّه يتفكَّر في معنى الوصيَّة: "لا تزنِ" ويستنتج أنَّ مجرَّد اشتهاء امرأة غير زوجتك هو خطيَّة (متَّى ٥: ٢٧-٣٠). ويتأمَّل في وصيَّة: "لاتقتل" ويستخلص منها أنَّنا لا ينبغي أن نسمحَ لمشاعر الاستياء والكراهية بأن تستَوليَ على قلوبنا تُجاه مَن حولنا (متَّى ٥: ٢١-٢٢). كيف يمكن أن يتأمَّل أيُّ إنسان بشدَّة في ناموس الربِّ ولا يسقط في الشعور باليأس؟

الإجابة هي أن ننظر إلى الشخص المحوريِّ في كلِّ الكلمة المكتوبة، والذي يسمِّيه إنجيل يوحنَّا "الكلمة الذي صار جسدًا" (يوحنَّا ١: ١٤)- يسوع المسيح، التعبير النهائيُّ والتواصل الأمثل ما بين الله والناس. وسيقودنا هذا لأن نتأمَّل كيف تعامَلَ الكلمة المتجسِّد مع الكلمة المكتوبة.

كان يسوع هو المتأمِّل الأعظم. إنَّه الذي يُسَرُّ بعمل مشيئة الله. ويقتبس عبرانيِّين ١٠: ٧ المزمور ٤٠: ٨ ويضعه على فم يسوع: "أن أفعلَ مشيئتك...يا إلهي سررتُ، وشريعتك في وسط أحشائي". إنَّه هو الذي يصلِّي نهارًا وليلًا (لوقا ٥: ١٦ "وأمَّا هو فكانَ يَعتَزلُ في البَراري ويُصلِّي"، ٦: ١٢ "وفي تلك الأيَّام خرجَ إلى الجَبل ليُصلِّيَ. وقضى اللَّيل كلَّه في الصَّلاة لله"، ٩: ١٨، ٢٨، ١١: ١، ٢٢: ٣٩-٤٠ "كعادته"). إنَّه الشخص الذي يختبر السرور عندما ينظر إلى الله (لوقا ٣: ٢١-٢٢، "إذ كانَ يُصلِّي انفَتحَتِ السَّماء، ونزلَ عليه الرُّوحُ القُدُسُ بهيئةٍ جِسميَّةٍ مثل حَمامةٍ. وكانَ صَوتٌ من السَّماء قائلًا: «أنتَ ابني الحبيبُ، بك سُرِرْتُ»"). وهو الشخص الذي كان يصلِّي ويتأمَّل في الكتاب بعمق حتَّى إنَّه كان "يرشحُ" بآياتٍ من الكتاب المقدَّس يقتبسها تلقائيًّا في أقسى لحظات حياته. ويقاوم هجمات الشيطان بقوله "مكتوب" (متَّى ٤: ١-١١). وفي موته اقتبس المزمور الثاني والعشرين: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (متَّى ٢٧: ٤٦). هكذا وقف يسوع بثَباتٍ

وقوَّة. هكذا كان هو بحقٍّ الشجرة التي "ورقها لا يذبل"، يستخدم كلمة الله حتَّى وهو يحتمِلُ آلام الصليب التي لا تحتمل. هل تريد أن تحتملَ حتَّى أشدَّ الآلام؟ ضَعْ جذورَك في الكتاب المقدَّس كما فعل هو.

وليس يسوع فقط مجرَّد مثالٍ جيِّد. إذا كان ذلك هو كلُّ شيء يمثِّله المسيح لنا، فيمكن أن تسحقَنا حياتنا بالذَّنْب، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يتأمَّل في الكتاب مثلما كان يفعل هو. بل يسوع المسيح أكثر من ذلك بما لا يقاس. ليس هو فقط مثالاً في الكتاب المقدَّس، بل هو الشخص الذي تشير الأسفار المقدَّسة كلُّها إليه؛ لأنَّ الرسالة الأساسيَّة في الكتاب المقدَّس هي رسالة الخلاص بالإيمان بيسوع (لوقا ٢٤: ٢٧، ٤٤). إنَّ الكتاب المقدَّس كلَّه يدور حوله، فموسى كتب عنه، وإبراهيم تهلَّل بأن يرى يومه (يوحنَّا ٥: ٤٦، ٨: ٥٦). لن تكونَ الكلمة المكتوبة والناموس الذي تحويه مسرَّةً لقلوبنا إلَّا لأنَّ الكلمة المتجسِّد جاء ومات من أجلنا، ليقدِّم غفرانًا لخطايانا وتقصيراتنا بحقِّ ناموس الله. لا يمكنك أن تُسَرَّ بناموس الربِّ دون أن تفهمَ إرساليَّة يسوع بجملتها. من دون يسوع المسيح، لا يعدو الناموس شيئًا سوى لعنةٍ وإدانةٍ وشهادةٍ ضدَّنا (غلاطِيَّة ٣: ١٠-١١). لقد أطاع الناموسَ بالكامل من أجلنا (٢كورنثوس ٥: ٢١)، حتَّى يصير ذلك الناموس لنا سرورًا، وليس يأسًا دائمًا.

إنَّ يسوع هو الشخص الذي نتأمَّل فيه على نحوٍ فائق؛ لأنَّه هو نفسُه صورة الله. إنَّه حقُّ الله "متجسِّد" ومُطبَّق، وهو الشخص الذي يمكننا أن نقفَ فيه يومَ الدينونة، كما أنَّه الشخص الذي يعطينا ثمرَ الروح (غلاطِيَّة ٥: ٢٢). يجب أن نتأمَّل معه وفيه في الوقت نفسه، عندئذٍ ستدبُّ الحياة في المزمور الأوَّل بطرق جديدة، وكذلك ستتغيَّر حياتُنا كلُّها ونتحوَّل إلى أشجار لا تزعزع، كما كان هو. يكتب ريتشارد لافلاس (Richard Lovelace):

> "إنَّ مسألة كوننا أولادَ الله هي موضوعُ إيمان. فهناك الكثير من الخبرات التي تعارض ذلك. إنَّ الإيمانَ القادرَ على تجاوُزِ هذه

> الخبرات والقادر أن يدفِّئ نفسَه أمام نار محبَّة الله، بدلَ أن يُضطرَّ لأن يسرقَ المحبَّة وقبول الذات من مصادر أخرى، هو في الواقع أصلُ القداسة...لسنا مخلَّصين بالمحبَّة التي نمارسها، بل بالمحبَّة التي نثقُ بها".[٢٢]

عندما يتكلَّم لاقلاس عن الإيمان الذي يدفِّئ نفسَه "أمام نار المحبَّة الإلهية"، فهو يَصِفُ معنى التأمُّل في البرِّ الذي لنا في المسيح بموته الكفَّاريّ. إذا لم نتأمَّل في ذلك حتَّى تشعرُ قلوبُنا بدفء الثقة، فسوف "نسرق المحبَّة وقبول النفس" من الإنجازات العالميَّة والجمال والمكانة.

تأمَّل في يسوع المسيح، الذي هو قمَّة التأمُّل في الله. انظر إليه وهو يحبُّك. انظر إليه وهو يموتُ من أجلك. انظر إليه وهو يفرحُ بك. انظر إليه وهو يغنِّي فَرَحًا بك (صفنيا ٣: ١٧). انظر إلى كلِّ ذلك، وسيصيرُ يسوعُ سرورَك، وناموسُ الله لذَّتَك، فتكون كشجرةٍ مغروسةٍ عند مجاري المياه تعطي ثمرها في حينه [في الموسم]، وورقها لا يذبل مهما حدث.

الفصل ١١

لقاء: طلبُ وجهه

الصلاة حوار يؤدِّي إلى لقاء الله. وكما رأينا، يعترف قانون الإيمان الوستمنسريّ (النسخة المطوَّلة) أنَّ "العمل والإيقاظ في قلوبنا" لا يحدث "في كلِّ الأشخاص، ولا في كلِّ الأوقات، ولا بالمقدار نفسه".[1] إلَّا أنَّ ذلك هو هدفنا. في تناوُل جون أوين للتأمُّل، نجد أنَّ المرحلة الثالثة تتوقَّع خبرةً وحضورًا إلهيًّا يشكِّل الشخصيَّة.

يقول جون كالڤن إنَّه لا يختبر إلَّا قليلون عطايا يسوع لشعبه. ويضيف كالڤن قائلًا إنَّ مثل ذلك الاستمتاع يمكن أن يحدث فقط "بالشركة مع المسيح" و"القوَّة السرِّيَّة للرُّوح القدس، التي بها نستمتع بكلِّ منافعه".[2] ثمَّ يضيفُ أيضًا: "لأنَّ كلمة الله لا تُستقبَل بالإيمان عندما تكون طافية على سطح المخّ، بل تُستقبَل عندما تتعمَّق وتتأصَّل في أعماق القلب".[3] علينا ألَّا نرضى فقط بعقل استقبلَ المعلومات دون أن يكونَ لدينا قلبٌ قد أُشغِلَ. ويؤدِّي كلُّ هذا بنا لأن نسأل: ما نوع الخبرة التي علينا أن نتوقَّعها؟ وكيف نطلب مثل هذه الخبرة؟

أن نكون أغنياء ونحيا كفقراء

تعبِّرُ عن فكرة كالڤن أيضًا- أنَّ لنا بركات في المسيح لا نختبرها- هذه الصلاة العظيمة التي يصلِّيها بولس الرسول في رسالة أفسس الأصحاح ٣:

"بسبب هذا أحني رُكبتيَّ لدى أبي ربِّنا يسوع المسيح...لكي

> يُعطيَكُم بحسب غنى مَجده، أن تتأيَّدوا بالقوَّة بروحه في الإنسان الباطن، ليحلَّ المسيحُ بالإيمان في قُلوبكُم، وأنتُم مُتأصِّلون ومتأسِّسون في المحبَّة، حتَّى تَستَطيعوا أن تُدركوا مع جميع القدِّيسين، ما هو العرضُ والطولُ والعُمقُ والعُلوُ، وتعرفوا محبَّة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كلِّ ملء الله".

يصلِّي بولس لقارئيه "أن يحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبهم" (عدد ١٧) وأن "يعرفوا محبَّة" المسيح (أعداد ١٨، ١٩). وأخيرًا، يصلِّي أن "يمتلئوا إلى كلِّ ملء الله" (عدد ١٩). هذه هي طلبات بولس الثلاث الرئيسيَّة.[٤]

لقد كان كلُّ القرَّاء الأفسسيِّين مؤمنين بالسيِّد المسيح، ويعلِّم بولس الرسول في مكانٍ آخر أنَّه إذا لم يكن لديك الروح القدس ساكنًا في حياتك، فأنت لست مؤمنًا حقيقيًّا بالمسيح. وفي أفسس ٢، يُسهبُ بولس في وصف كيف أنَّ قارئيه اتَّحدوا بالمسيح يسوع وبغيرهم من الذين يسكن فيهم المسيح. وفي أفسس ١، يعلِّم أنَّه بالاتِّحاد بالمسيح، لديهم حقًّا كلُّ ملءِ الله فيهم (أفسس ١: ٢٢-٢٣). ويؤدِّي كلُّ هذا بنا إلى السؤال: ألا يحيا المسيح بالفعل في المؤمنين؟ كيف يمكن أن يكونَ أيُّ إنسانٍ مؤمنًا بالمسيح دون ذلك؟ لماذا يطلبُ من الله أن يعطيَ المسيحيِّين أمورًا هي لديهم بالفعل؟

يمكن أن تكون هناك إجابة واحدة. على مستوى ما، يملك المؤمنون بالمسيح هذه الأمور. لكنْ على مستوًى آخر، لم يختبروها فعلًا.[٥] أن تعرفَ عن محبَّة المسيح وتقول: "أنا أعلم أنَّه فعلَ كلَّ ذلك" فهذا شيء، أمَّا أن تستطيع أن تدركَ أبعادَ محبَّة المسيح، من طول وعرض وعمق وعلو، فذلك شيءٌ آخر. ما يتكلَّم عنه بولس الرسول هو الفرق ما بين أن يكون لديك امتلاك شرعيٌّ لشيء وأن تمتلكه فعليًّا، وأن تستخدمَه وتعيشَ فيه، في "كيانك الداخليّ" (أفسس ٣: ١٦) أو في "قلبك" (عدد ١٧).

يمكن أن يعيشَ المؤمنون حياتَهم بدرجةٍ عاليةٍ من التَّظاهُر الأجوَف وعدم

الصِّدق. والسبب هو أنَّهم فشلوا أن يأخذوا هذه الحقائق إلى أعماق قلوبهم، لذا فإنَّها لم تغيِّرْهم ولم تغيِّر طريقةَ حياتهم.

كان بلايز پاسكال (Blaise Pascal) مؤمنًا بالمسيح وفيلسوفًا، وأحدَ أعظم العقول في التاريخ. عندما مات اكتُشِفَ أنَّه خاطَ في البطانة الداخلية لمعطفه وصفًا لخبرةٍ مرَّ بها ذات ليلة. وكان المكتوب: "في عام ١٦٥٤م، يوم الاثنين، الثالث والعشرين من تشرين الثاني /نوڤمبر، بعد العاشرة والنصف مساءً بقليل...نار...إله إبراهيم، وإله إسحاق وإله يعقوب، وليس إلهَ الفلاسفة. بالتأكيد. بالتأكيد. أشعرُ بالفرح والسلام". لم يكن پاسكال يتكلَّم عن رؤية ألسنةِ لهبٍ مادِّيَّة، بل عن اختبار حضور الله، وهو ما يُعبَّر عنه عادةً بالنَّار في الكتاب المقدَّس. لقد كان يؤمن بالله، لكنَّه عندما قال إنَّه قابلَ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب- لا "إله الفلاسفة"- فقد كان يقصد أنَّه الآن عرف في قلبه ما كان يعرفه في عقله بصورة مجرَّدة".[٦] هناك مثلٌ آخر أقلُّ شهرةً هو دوايت أل. مودي (Dwight L. Moody)، وهو خادمٌ بارزٌ من شيكاغو في أواخر القرن التاسع عشر. كتب مودي: "ذات يوم في مدينة نيويورك- يا له من يوم!- لا أستطيع أن أصفَه، ونادرًا ما أشير إليه؛ إذ ربَّما تكون تلك الخبرة شديدة القداسة حتَّى إنِّي لا أستطيع أن أُطلِقَ عليها اسمًا...فقط أستطيع أن أقول إنَّ الله أعلنَ نفسه لي، ونلتُ اختبار محبَّته حتَّى إنَّه كان عليَّ أن أطلبَ منه أن يُبقيَ يده عليَّ".[٧] ليس الأمر أنَّ مودي لم يكن مؤمنًا بالمسيح أو أنَّه لم يختبر من قبل حضورَ المسيح ومحبَّته. ربَّما يمكننا أن نقولَ إنَّ الواقع الموضوعيَّ لمكانته في المسيح، والخبرة الذاتيَّة الداخليَّة لتلك المحبَّة والمكانة قد التقيا. وهكذا فقد عاش للحظاتٍ حياتَه الحقيقيَّةَ في السيِّد المسيح.

هاتان حالتان معروفتان من اللقاء الروحيِّ شديد القوَّة. لا يُفترَضُ أن يُستبعدا بسرعة حاسبين إيَّاهما اختبارَين استثنائيَّين. إنَّ بولس الرسول لا يصلِّي من أجل قرَّائه الأفسسيِّين لينالوا خبرةً نادرة. في الأصحاح الثالث من رسالة أفسس، يصلِّي أن يربطَ الروح القدس ما بين قلوبنا ومشاعرنا من جهة، والإيمان الذي نحتفظ به

في عقولنا من جهة أخرى. ويمكن أن يأتي هذا الشعور القلبيُّ بدرجاتٍ مختلفة، من استدفاء لطيف وخفيف للقلب، إلى ظهورٍ إلهيٍّ ناريّ. ولا ينبغي أن تكونَ خبرةً نكتبُها ونتذكَّرها لبقيَّة أيَّام حياتنا، مع أنَّنا نرحِّب بمثل هذه العطايا دون شكّ. أمَّا ما تشترك فيه هذه اللحظات عمومًا هو أنَّك تستشعرُ القوَّة التي أُعطِيَت لك في السيِّد المسيح بطريقة تغيِّر توجُّهَك ومشاعرك وسلوكَك في الحياة. تخيَّل أنْ تستقبلَ مثلًا رسالةً تقول إنَّ أحدهم ترك لك مبلغًا من المال، لكنْ لأسباب عدَّة، تفترض أنَّه مبلغ متواضع، فتنشغل ويمضي وقت طويل لا تقوم فيه حتَّى بالكشف عن هذا المبلغ. غير أنَّك تفعل ذلك في النهاية، وتُصابُ بدهشةٍ مدوِّية إذ تعلمُ أنَّها ثروةٌ طائلة، وأنَّك ظللْتَ وقتًا طويلًا تملك هذه الأموال دون أن تدريَ ودون أن تستفيدَ بها. لقد كنتَ غنيًّا بالفعل لكنَّك عشتَ فقيرًا. هذا ما يريدُ بولس أن يجعل أصدقاءه المؤمنين يتجنَّبونه، ولا يمكنهم أن يتجنَّبوه إلَّا بلِقاء الله في الصلاة.

ربَّما تكون هذه هي حالك. أنت فيه، وأنت ابنٌ في عائلة الله، ولك حياة الله فيك، بالرُّوح القدس، أنت محبوبٌ ومقبولٌ في السيِّد المسيح، وتعرفُ هذه الأمور، لكنَّك على صعيد آخر لا تعرفها ولا تختبرها. ما زلتَ تصارع مع عاداتك السيِّئة، وعادة ما تشعرُ بالقلق أو الملل أو الإحباط أو الغضب. ربَّما يكون لديك الكثير من المشكلات والأمور التي تحتاج لأن تواجِهَها وتتعامَلَ معها بالكثير من الطرق الواضحة المحدَّدة. غير أنَّ المشكلة الجذريَّة التي تنبع منها أمورٌ كثيرة هي أنَّك غنيٌّ بالمسيح، إلَّا أنَّك تعيش فقيرًا.

تبدأ الحقيقة في السطوع

ما معنى الكلام عن خبرة روحيَّة في الإنسان الباطن؟ ما المقصود بمصطلح "الإنسان الباطن"؟ إنَّه القلب نفسه، مركَزُ وَعينا الشخصيِّ والتزامِنا الإيمانيِّ الأساسيّ.[٨] هذا هو المكان الذي كثيرًا ما تفشلُ الحقائق التي نعرفها عن يسوع في الوصول إليه. ربَّما نعترفُ عقليًّا بفكرة يسوع، ومحبَّته التي يحبُّنا بها، إلَّا أنَّ قلوبَنا لا تزال ملتزمة أن تبحثَ عن الحبِّ لدى الناس. في هذه الحالة، لا يكونُ القلبُ قد تأثَّر بعد بما يعرفه

العقل ويؤمن به. يجب أن تُعِدَّ الروحُ القلبَ لاستقبال الحقِّ والاستعداد للتشكُّل بحسبه. كيف يحدث ذلك؟

يخلق الروح القدس الحسَّاسيَّة الروحيَّة الداخليَّة لحقِّ الإنجيل. يقول بولس: "أصلِّي أن يعطيَكم الله بحسب غنى مجده أن تتأيَّدوا بالقوَّة بروحه في الإنسان الباطن، حتَّى...تدركوا الطول والعرض والعمق والعلو وتعرفوا محبَّة المسيح". كلمة "تدركوا" مهمَّة، وهي أكثر من مجرَّد "تؤمنوا"، فهي تشير إلى الحصول الكامل على الشيء بحيث لا يمكن أن ينزعَه أحدٌ منَّا.

كان التصوير في الماضي يتطلَّب وجود "فيلم" يصيرُ حسَّاسًا للضَّوء باستخدام بعض الكيماويَّات. وكانت الكاميرا تفتح بسرعة بوَّابة ليدخل الضوء نحو الفيلم بعد أن يكون قد انعكس على الشيء المراد تصويره (شجرةٌ مثلًا). عندئذٍ يلتقط الفيلم و"يدرك" صورة الشجرة، وتظلُّ الصورة على هذا الفيلم، ويحتفظُ بها دائمًا. أي أنَّ صورة الشجرة تنطبع عليه وتغيِّره إلى الأبد. تخيَّل، لو حدث العكس، أي أنَّ الفيلم لم يعالَج بالمادَّة الكيمياويَّة بصورة سليمة. في هذه الحال، تنفتح بوَّابة الكاميرا ويدخل الضوء، لكنَّ الفيلم ليس على درجة الحسَّاسيَّة اللازمة ليستقبلَ صورةً واضحة، أو يستقبلَ أيَّة صورة أصلًا. في هذه الحال، لا يؤثِّر الضَّوء في الفيلم بتاتًا.

تشير صلاة بولس إلى أنَّ المؤمنين يحتاجون من الروح القدس أن يعالج قلوبَهم "معالجة كيمياويَّة" لجَعْلها حسَّاسة روحيًّا، وإلَّا فلن تُحدِثَ الحقائق التي ننطق ونعترف بها أيَّ تأثيرٍ في الطريقة التي نعيش بها. إذا تعرَّضتَ مثلًا إلى "نور" الحقِّ المسيحيِّ الخاصِّ بقداسة الله؛ وإذا كان الروح القدس قد جَعَلَ قلبَك حسَّاسًا، فإنَّك ليس فقط ستتجاوب مع هذا الحقِّ على مستوى المشاعر- دموع وارتعاد وفرح- بل ستتغيَّر أيضًا تغيُّرًا دائمًا، وستتغيَّر كذلك الطريقة التي تعيش بها. في هذه الحال تكون، بدرجةٍ ما، قد أدركتَ حقيقةً ما عن الله. لقد أتى الضَّوء وترك انطباعًا دائمًا في قلبك.

لم يعبِّر عن ذلك أفضل من جوناثان إدواردز في عظته العظيمة "نور إلهيٌّ فائقٌ للطبيعة" (A Divine and Supernatural Light). نقرأ هناك في قلب العِظة تشبيهَ العسل الشهير. يقول إدواردز إنَّ هناك طريقتَين تعرفُ بهما إن كان العسل حلوًا: أن تعرف ذلك بالعقل والمنطق، وأن تعرفَه أيضًا بتذوُّق اللسان. يمكنك أن تعرف أنَّ العسلَ حلوٌ لأنَّ الناس يقولون لك ذلك وأنت تصدِّقهم، لكنْ عندما تتذوَّق حلاوةَ العسل بنفسك، فإنَّك تعرفُ ذلك عندئذٍ معرفةً كاملة- عقليًّا واختباريًّا.

عندما تتحرَّك من مجرَّد المعرفة العقليَّة عن حلاوة العسل إلى تذوُّقه تذوُّقًا مباشرًا، فقد تقول شيئًا مثل: "لقد كنت أعرف أنَّه حلو، لكنِّي لم أكن أدرك معنى ذلك. كنتُ أعرفُ لكنِّي لم أكن أدرك". ويستنتج إدواردز أنَّ هناك بالطريقة ذاتها فرقًا "بين أن يكون لك رأيٌ أنَّ الله قدُّوس ومُنعِم، وأن تختبرَ حقًّا حلاوةَ الله وجمالَه وقداستَه ونعمته في قلبك".

ربَّما تقول: "أنا أومنُ بالله فعلًا، وأومن بأنَّ يسوع المسيح ماتَ على الصليب. ليست لديَّ شكوكٌ في هذا الشأن". ويجيب إدوارد قائلًا إنَّه قد لا تكونُ لديك شكوكٌ عن كَونِ العسل حلوًا. وربَّما تكون قد تكلَّمت مع مئة شخصٍ وأخبروك بهذه الحقيقة. ربَّما تكون قد قرأتَ تقاريرَ علميَّة تثبت أنَّ طعمَ العسلِ حلو. وربَّما تكون واثقًا بذلك تمامًا دون أن تذوقَه.

العسل شيء، والكلام عن الله شيءٌ آخر بالتأكيد. معرفة الله ليست اختياريَّة، وهذا ما يصلِّيه بولس لك. إنَّه يطلب أن يجعلَ الروحُ القدس قلبك أكثر حسَّاسيَّة تُجاهَ هذه الأمور، أو كما يقول في أفسس ١: ١٨، عندما يصلِّي أن "تستنيرَ عيون أذهانهم"- لكي يستطيعوا أن يُبصروا روحيًّا. وعندما يُنجزُ الروح القدس مهمَّته، فإنَّ حقائق كلمة الله والإنجيل ترفعُنا وتحرِّكنا وتصدمنا، وقد تُذيبُنا وتجعلنا نشعرُ بإلحاح الأمر علينا. وهذا ما يحدث لنا بدلَ أن نقول ببساطة: "حسنًا، إنِّي أعرف ذلك الأمر". هناك ترنيمةٌ قديمةٌ تستخدم هذا النوع من اللغة الحسِّيَّة:

"عندما في مرَّةٍ قلبي تزور
يبدأ الحقُّ جليًّا في الظهور
تبرحني اللذَّات الأرضيَّة
وتُضرم فيَّ المحبَّة الإلهيَّة".[٩]

معرفةُ الآب

هناك عبارةٌ أخرى في صلاة بولس تساعدنا على فَهْم طبيعة الخبرة الروحيَّة. يبدأ بولس بقَول: "أَحْنِي رُكبَتَيَّ لدى أبي..." (أفسس ٣: ١٤). أن يسجد الإنسان هو ليس وضعًا طبيعيًّا للصلاة عند اليهود والمسيحيِّين، لذا فإنَّ "انحناء الركبتَين" كان عملًا من أعمال التوقير الخاصّ.[١٠] ربَّما يلاحظ بولس هناك أنَّ الله هو حقًّا أبونا. في رومية ٨، يُسمِّي بولس الروح الذي يساعدنا على الصلاة "روح التبنِّي"، الذي يجعلُنا نستطيع أن ندعوَ الله "أبا، الآب" (عدد ١٥). ويستمرُّ ليقولَ إنَّ قلبَ خدمةِ الروح لنا هو أن "يشهد لأرواحنا"- ويؤكِّد لنا داخليًا- "أنَّنا أبناء الله" (رومية ٨: ١٦). لذا فإنَّ جانبًا آخرَ من الشركة مع الله هو الفهمُ العميقُ والامتلاكُ الحقيقيُّ لعلاقتنا الأُسريَّة بالله.

عندما حلَّ الروح القدس على يسوع في المعموديَّة، سمع صوتًا يقول: "هذا هو ابني، الذي به سررت. أنت هو ابني الذي به سررت". وبالطريقة نفسها نقرأ في رومية ٨: ١٦ أنَّ الروحَ يشهدُ لقلوبنا أنَّنا أبناء الله. من بين أجزاء إرساليَّة الروح القدس أن يقولَ لك إنَّك ابنٌ له. ربَّما تعرفُ هذه الأمور في عقلك، لكنَّ الروح القدس يجعَلُها حقيقة ناريَّة في حياتك.

كتب توماس غودوِن (Thomas Goodwen)، وهو قسٌّ من طائفة البيوريتانيِّين في القرن السابع عشر، أنَّه رأى في أحد الأيَّام أبًا يسير مع ابنه في الشارع. وفجأة خطفَ الأب ابنَه بسرعة، واحتضنَه ما بين ذراعَيه وقبَّله وقال له إنَّه يحبُّه. وبعد دقيقة أعادَ الطفلَ ليمشي بجانبه. هل كان الولد الصغير ابنًا لأبيه أكثر عندما كان بين ذراعَيه

عمَّا كان وهو يمشي على الأرض؟ شرعيًّا وموضوعيًّا، ليس هناك اختلاف، لكنْ ذاتيًّا واختباريًّا، فالاختلاف كبير. بين أحضان الأب، كان الولد يختبرُ البنوَّة اختبارًا عميقًا.

عندما يحلُّ الروح القدس عليك بملء، فأنت تستشعر أحضانَ الآب تضمُّك. إنَّه تأكيد لمكانتك الحقيقيَّة. فيمكِّنُك الروح أن تقول لنفسك: "إذا كان شخصٌ كلِّيُّ القدرة مثل الله، يحبُّني هكذا ويُسَرُّ بي، وذهب إلى أبعاد أبديَّة ليخلِّصَني، ويقول إنَّه لن يتركني، وسيمجِّدني ويجعلني كاملًا وينزع من حياتي كلَّ عيب- إنْ كان كلُّ هذا حقيقيًّا- فكيف لي أن أقلقَ بشأن أيِّ شيء؟" على أقلِّ تقدير، يعني هذا الفرحَ وغيابَ الخوف والوعيَ الكبيرَ بالذَّات.

في أفسس ٥: ١٨ يقول بولس الرسول: "ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح". تذكَّر يوم الخمسين. لقد تكلَّم التلاميذ بخبر الإنجيل بكلِّ مجاهرة وبغياب رائع للوعي الزائد بالذات حتَّى إنَّ بعض المشاهدين ظنُّوا أنَّهم سكارى (أعمال ٢: ١٣). غير أنَّ جسارتهم لم تكن كجسارة شاربي الخمر في أمر غاية في الأهمِّيَّة. الكحول مادة مُثبِّطة، وهي تخدِّر أجزاءً من المخِّ العقلانيِّ المنطقيّ. السعادة التي قد تشعر بها عندما تكون مخمورًا تأتي من غياب الوعي بالواقع. أمَّا الروح، فيعطيك فرحًا وجرأةً بأن يجعلك أكثر وعيًا بالواقع. إنَّه يؤكِّد لك أنَّك ابنٌ للشخص الذي يصنع كلَّ الفارق في الكون برأيه وقوَّته. فهو يحبُّك إلى أقصى مدى، ولن يتركك بتاتًا. هذا هو الواقع الآخر الذي هو مصدرُ فَرَحِ الروح.

إدراكُ المحبَّة

يطلب بولس من الروح القدس أن يَهَبَ "قوَّة الإدراك". وتعني كلمة "يدرك" يصارع، أو ربَّما تعني "يستولي على"، كما يستولي جيش على مدينة مثلًا. وتعني الكلمة أيضًا القفز على شخصٍ آخر والتغلُّب عليه والتحكُّم فيه، وإسقاطه أرضًا. للوهلة الأولى تبدو هذه الكلمة غريبةً في سياق الكلام عن محبَّة الله، لكنَّ بولس يتكلَّم عن التأمُّل والتفكُّر في شيء حتَّى يحدث الاختراق. حتَّى إنَّ ما تقرأه "يصل" إليك حقًّا. ودون

شكّ، لن يحدُثَ هذا الاختراق إلّا عندما تنالُ قوّةً وتمكينًا من الروح القدس.

كيف يحدث ذلك؟ يحدث عندما يبارك الروح القدس تأمُّلاتك في عمل المسيح الخلاصيّ. وأنا أومنُ بأنَّ العهد الجديد يعطينا في أفسس دراسة حالة لذلك. لماذا ينطق بولس بهذه الكلمات، ويدعونا لأن نفكّر في الطول والعرض والعمق والعلو لمحبَّة المسيح؟ إنَّه يقدِّم إلينا طريقًا للتأمُّل، ويدعونا لأن نسلكَ فيه. فلنقبَلِ الدَّعوة.

ما عرضُ محبَّة الله؟ تأمَّل إشعياء ١: ١٨ "هلُمَّ نتَحاجَج، يقولُ الرَّبّ. إنْ كانت خطاياكُم كالقرمز تبيضُّ كالثَّلج. إنْ كانت حمراء كالدُّوديِّ تصيرُ كالصُّوف". القرمز هو لون الدم. وهذه هي طريقة الله أن يقول بواسطة إشعياء: "حتَّى إذا كنتَ قد قتلتَ شخصًا، أو كنتَ مُذنِبًا في دم، والدم يلوِّث يدَيك، فإنَّ محبَّتي تَسَعُك ويمكنها أن تحتَويك وتحتضنك. مهما كان ما فعلتَه، إذا كان يسوع المسيح قد مات على الصليب لكي يخلِّصَك بالنعمة فقط، فمحبَّتي واسعةٌ وعريضةٌ عرض الأبد يقول الرَّبّ. إنَّها تستطيع أن تحتويَك".

ما طولُ محبَّة الله؟ يقول يسوع في يوحنَّا ١٠: "خِرافي تَسمَعُ صَوتي، وأنا أَعرفُها فَتتبَعُني. وأنا أُعطيها حَياةً أبَديَّة...ولا يَخطفُها أحدٌ من يَدي". وفي فيلبِّي ١: ٦، يقول بولس الرسول للمؤمنين ولكلِّ مَن يكتب إليهم في هذه المدينة: "واثقًا بِهذا عَينِه أنَّ الَّذي ابتدأ فيكُم عَمَلًا صالحًا سوف يُكمِّلُ إلى يَوم يَسوعَ المسيح". ليس "ربَّما يكمِّل" بل "سوف يكمِّل". إنَّ طول محبَّة الله غير متناهٍ. ومتى بدأت هذه المحبَّة؟ يقول لنا سفر الرؤيا إنَّ حمل الله ذُبح قبل تأسيس العالم. لقد وضع الله محبَّته عليك في أعماق الأزل، ولن ينزعَها عنك. لماذا؟ لأنَّ الخلاص هو بالنعمة. وليس بالأعمال. إنَّه لم يُعطَ لك بسبب ما فعلته أو تفعله، بل بدأ منذ الأزل، وسيستمرُّ إلى الأبد. إنَّ طولَه سرمديّ.

والسبب وراء أنَّ محبَّة الله عريضة على نحو لا نهائيٍّ وطويل على نحو أزليّ، هو أنَّها عميقة عمقًا لا قاع له. فما عمق محبَّة الله؟ دون يسوع المسيح يصير الكلام عن

عُمْقِ محبَّة الله مجرَّد كلام نظريّ. ودون يسوع المسيح، كان يمكن أن يُرسلَ الله لك ستِّين مجلَّدًا كُتِبَ فيها "أحبُّك بعمق، أحبُّك بعمق، أحبُّك بعمق". غير أنَّه سيظلُّ كلامًا، أو مفهومًا مجرَّدًا، وليس حقيقةً مغيِّرةً للحياة. ولتَفهَمَ بصورةٍ حقيقيَّة وأصيلة عُمقَ محبَّة الله، يجب أن تفهمَ الأعماق التي ذهبَ إليها يسوع المسيح ليُحبَّك أنت. فإلى أيِّ عمقٍ ذهب؟ عندما قال يسوع: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" فهذا هو الجحيم. لقد أُلقِي يسوع إلى الأسفل- إلى أعماق الجحيم. وبسبب الإنجيل، يمكن أن تعرفَ أنَّ محبَّة الله واسعة إلى ما لا نهاية؛ لأنَّها عميقةٌ إلى ما لا نهاية.

إنَّ محبَّة الله أيضًا عالية علوًا لا نهاية له. فما علو محبَّة الله؟ في يوحنَّا ١٧، يقول يسوع: "أيُّها الآبُ أريدُ أنَّ هؤلاء الذينَ أَعطَيتَني يَكونونَ معي حيثُ أكونُ أنا، ليَنظُروا مَجدي الذي أَعطَيتَني، لأنَّك أَحبَبْتَني قبل إنشاء العالَم". وفي ١يوحنَّا ٣: ٢، يقول: "أيُّها الأحبَّاءُ، الآن نحنُ أَولادُ الله، ولم يُظهَرْ بَعدُ ماذا سَنكونُ. ولكنْ نَعلَمُ أنَّه إذا أُظهِرَ نَكونُ مثلَه، لأنَّنا سَنراه كما هو". هذا هو ارتفاع محبَّة الله. سيعطينا ما سيملأ قلبه بفرحٍ كامل منذ الأزل، وسيُرينا مجده، ويعطينا إيَّاه. هل يمكن أن تفكِّر في شيءٍ ما أعلى من ذلك؟ إلى هذا الارتفاع تأخذنا محبَّة يسوع المسيح.

ماذا فعلنا لتوِّنا؟ لقد أجرينا تأمُّلًا مختصرًا. تأمَّلنا في أبعاد محبَّة المسيح. إذا كان الروح القدس قد منحنا، بينما نفعل ذلك، القدرة أن ندركه، فسنتقابَلُ مع الله. وسيغيِّرُ هذا من الطريقة التي ننظر بها إلى الحياة كلِّها والطريقة التي نتصرَّف بها في هذا العالم. فالخبرة الروحيَّة تتكوَّن من الحقيقة اللامعة والتيقُّن العميق بمحبَّة الله الأبويَّة.

لكن لا تزال هناك طريقة أخرى للكلام عن هذه المحبَّة.

وجه يسوع المسيح

يقول داوُد: "وجهَك يا ربُّ أطلب" (مزمور ٢٧: ٨). الله كلِّيُّ الحضور؛ فهو في كلِّ مكان (مزمور ١٣٩: ٧-١٢). فماذا يعني أن نطلبَ وجهَ الربِّ إذًا، وأن نقترب

إليه، إن كان هو في كلِّ مكان بالفعل؟ عندما نتكلّم إلى شخصٍ ما، فإنّنا لا ننظر ولا نخاطب ركبتَيه أو قدمَيه أو ظهرَه أو بطنَه، بل نخاطب الإنسان في وجهه. إنَّ الوجه هو "بوّابة العلاقات" لعقل الإنسان وقلبه. أن نطلب وجه الربِّ لا يعني أن نبحث عن مكانٍ في الفضاء يقعُ فيه الله، بل يعني أن نجعلَ قلوبَنا بمعونة الروح القدس قادرةً أن تستَشعرَ حقيقتَه وحضوره. "وَجهًا لِوَجهٍ تَكَلَّمَ الربُّ مَعَنا في الجَبَل من وَسَط النَّار" (تثنية ٥: ٨، انظر أيضًا تكوين ٣٢: ٣٠، عدد ٦: ٢٥-٢٦). والله يدعو الناس لأن "يصلُّوا ويطلبوا وجهَه" (٢أخبار ٧: ١٤). أن يفقدَ الإنسانُ الإحساسَ بحضور الله فهو أن يفقدَ رؤيةَ وجه الرَّبّ (مزمور ١٣: ١)، وأن يطلبَ الإنسانُ وجهَ الرَّبّ، فيعني أن يطلبَ التواصل والشركة والتفاعلَ الحقيقيَّ مع الله للمشاركة بالمحبَّة والأفكار.

إلَّا أنَّ العهد القديم يخبرنا بأنَّ الإنسان لا يرى وجهَ الربِّ ويعيش (خروج ٣٣: ٢٠). لكنْ يخبرنا إنجيل يوحنَّا في بدايته أنَّ يسوع، كلمة الله، صارَ جسدًا وحلَّ بيننا و"رأينا مجده" (يوحنَّا ١: ١٤). وبسبب دمه المسفوك وغفرانه، يمكننا أن نحظى بقُربٍ من الله لم يكن متاحًا من قبل. إنَّ شخصَ يسوع المسيح وعمله هما سبيلُ كلِّ إنسانٍ للاقتراب من الربِّ وطلب وجهه.

يولي جون أوين اهتمامًا بالغًا بالفقرة الواردة في ٢كورنثوس ٣: ١٨- "ونحن جميعًا ناظرين مجدَ الربِّ بوَجهٍ مكشوف، نتغيَّر إلى تلك الصورة عَينها من مجدٍ إلى مجدٍ كما من الربِّ الروح". بالارتباط أيضًا بالفقرة ٢كورنثوس ٤: ٦، حيث يقول بولس إنَّ الله "الذي قال: «أن يُشرِقَ نُورٌ من ظُلمة»، هو الَّذي أَشرَقَ في قُلوبنا، لإنارة مَعرِفَة مَجدِ الله في وجه يَسوعَ المسيح". وضمنَ كلِّ كتابات أوين، يعود باستمرار إلى موضوع رؤية مجد الله مباشرةً- تلك الرؤية التي سيحصل المفديُّون عليها تمامًا في السماء، وسينالونها الآن جزئيًّا وبالإيمان لا بالعِيان. وبينما يجعل اللاهوتيُّ الكاثوليكيُّ توما الأكوينيّ (Thomas Aquinas) هذا الأمر محوريًّا في فكره، فإنَّ قليلًا جدًّا من اللاهوتيِّين البروتستانت لمسوه. غير أنَّ أوين يصرُّ على أنَّ التأمُّل في وجه الربِّ وطلب

رؤيته هما ممارسة يجب أن ينمّيَها كلُّ المؤمنين بالمسيح في روحانيَّتهم؛ لأنَّ "حياتنا المسيحيَّة وفكرنا المسيحيَّ يجب أن يتوجَّها نحو رجاء هذه الرؤية في الأبديَّة، وأنَّ عربون هذه الرؤية الذي يمكن أن نتذوَّق بعضًا منه الآن هو ما يشكِّل شخصيَّاتنا".[١١]

لم يحسبْ أوين أنَّ "رؤية مجد الله في وجه يسوع المسيح" هو أمرٌ خاصٌّ يناله نفرٌ قليلٌ من ذوي الروحانيَّة العالية، بل كان يؤكِّد بكلِّ قوَّة أنَّه "لن يشاهد مجد المسيح بالعِيان هناك، مَن لم يشاهِده بقدرٍ ما بالإيمان هنا في هذا العالم".[١٢] ويرفعُ هذا الأمر من شأن الصلاة والتأمُّل إلى مراتِبَ عُليا. كان أوين يتمسَّك بحقيقة أنَّك إنْ لم تتعلَّم أن تشاهدَ مجدَ المسيح، فأنت لا تحيا حياةً مسيحيَّةً حقيقيَّةً في هذا العالم.

ماذا تعني "رؤية مجد المسيح" لأوين؟ من المهمّ "ألَّا نحسبَ أنَّ مجدَ المسيح هذا مجرَّدُ مسألةٍ عقائديَّة". لقد لاحظَ أوين بوضوح أنَّ بولس عندما تكلَّم عن رؤية مجد المسيح، لم يكن يتكلَّم عن مجرَّد إيمان أو عقيدة تَنسِبُ المجد إلى السيِّد المسيح، بل كان يتكلَّم عن قوَّة ذلك المجد وتأثيره في قلوبنا، كما تكلَّم عن أنَّ هذا التأثير هو ما ينبغي أن نَنشُده. هل تشبعنا هذه الرؤية وتملأنا بالفرح، والراحة والسعادة والرضى الكامل؟ إنَّ رؤيتَنا الحالية لمجد المسيح هي التي تُعِدُّنا بالفرح والإثارة، للحصول على اختبار قوَّتها المغيِّرة في نفوسنا".[١٣]

أن ننظر مجد يسوع المسيح يعني البدء في رؤية يسوع جميلًا في ذاته. ويعني هذا نوعًا من الصلاة التي فيها ليس فقط نأتي إليه لننالَ الغفران، والعون وقت الاحتياج، أو الرضى والبركة، بل أيضًا لأنَّ شخصيَّتَه وكلامَه وعملَه فينا ومن أجلنا تصير أمورًا مُشبِعةً ومُسِرَّةً ومُريحةً وباعثة على القوَّة في حدِّ ذاتها.[١٤] يُصِرُّ أوين أنَّ من الضروريِّ أن يتمكَّنَ المؤمنون من فعلِ ذلك. ويسوِّغ ذلك قائلًا إنَّه إن لم يتمكَّن جمال يسوع المسيح ومجده من خيالنا؛ وإذا لم يسيطرا على تفكيرنا الواعي، ويملأا قلوبنا بالشوق والرغبة، فستملأ قلوبَنا وتسيطر على أفكارنا وخيالنا أمورٌ أخرى. سنكون في حالة "اجترار فكريٍّ دائم" لأمورٍ أخرى. ومهما كانت هذه

الأمور الأخرى، فإنَّها سوف "تشكِّل نفوسنا" و"تجعلنا مثلها". إذا لم ننظر مجدَ الله في وجه يسوع المسيح، فستُسيطرُ على حياتنا أمورٌ أخرى، ونصير من ثَمَّ عبيدًا لها.[١٥]

منذ عدَّة سنوات كنتُ أتكلَّم مع شخص كان يذهب إلى الكنيسة طَوال عمره، لكنَّه مع ذلك كان إنسانًا ميَّالًا إلى القلق والمخاوف. وبسبب تأثير وعظ واضح عن الإنجيل، استطاع أن يرى أنَّه كان طَوال حياته شخصًا أخلاقيًّا يفترض أنَّ الله سيستمع إلى صلواته ويخلِّصه بسبب حياته الأخلاقيَّة المهذَّبة وإخلاصه القلبيّ. وفي ضوء هذه النظرة، كان الله شخصًا يمكنه أن يتفاوَضَ معه لينالَ نوعَ الحياة التي يريدها. غير أنَّه أدركَ بواسطة رسالة الإنجيل خطيَّتَه ومدى انحصاره في نفسه وكبريائه الروحيَّة. لقد تبصَّر أنْ ليس ممكنًا أن يتغلَّبَ على هذه الحالة بسجلٍّ من الأعمال الصالحة، كما أدركَ أيضًا مقدارَ محبَّة الله غير المستحقَّة له، وكم كلَّفتْ هذه النعمة يسوع على الصليب. وللمرَّة الأولى في حياته، بدأ ينجذب إلى الله بصورته الحقيقيَّة. وبدأ يجدُ فرحًا في الرَّبّ. ولم تَعُدِ الصلاة عنده مجرَّد وقت يردِّد فيه قائمة من الطلبات، بل باتَتْ كذلك وقتًا للعبادة والتسبيح، والاعتراف، فضلًا عن كونها ببساطة تمتُّعًا بالله.

ومع الوقت بدأ الله يصير له فرحَه القلبيّ، وبدأ يجدُ نفسَه أقلَّ قلقًا، وأكثر جسارة. "في الماضي كانت عبارة «الربُّ كنزي» عبارةً مزيَّفةً خاليةً من صدق المشاعر، أمَّا الآن فهذا ما أشعر به نحو الله- ببساطة لا أستطيع أن أقلقَ بشأن المال كما كنتُ من قبل".

الخِيارُ لنا. إذا كنَّا نريد أن نتحقَّقَ من اختبار هذه الرؤية بالعِيان في ما بعد، فعلينا أن نختبرها بالإيمان الآن. إذا كنَّا نريد حرِّيَّة من سيطرة الخوف والطموح والطمع والشهوة والإدمانات والخواء الداخليّ، فعلينا تعلُّم أن نتأمَّل في السيِّد المسيح حتَّى تحلَّ رؤية مجده في قلوبنا.

جَمْعُ الحقِّ مع الاختبار

مُدهشٌ هذا الاتِّزان الذي يقدِّمه جون أوين.[١٦] فهو لا يخجل من أن يكونَ اختباريًّا

تمامًا. والتعبير الذي يستخدمُه لذلك هو أن يكونَ للمرء "ذهنٌ روحيٌّ" فيكتب: "لا نخدعَنَّ أنفسنا. فأن يكون للإنسان ذهنٌ روحيٌّ لا يعني امتلاكَ الفهم والمعرفة بالأمور الروحيَّة في الذهن، ولا يعني أن يكونَ الإنسان مستمرًّا بكثرة في القيام بالواجبات؛ فكلاهما يمكن أن يوجَدا بينما لا توجد نعمةٌ في القلب بتاتًا". أي يمكن أن تكونَ لك كلُّ العقائد السليمة، وبكلِّ الحسَّاسيَّة تقوم بكلِّ واجباتك الأخلاقيَّة والدينيَّة بحسب مبادئ الكتاب المقدَّس وأيضًا "لا تكون في قلبك نعمةٌ بتاتًا". فما جوهر المسيحيَّة الحقيقيَّة إذًا؟ ويضيف مباشرة: "هو أن تكونَ أذهانُنا مدرَّبةً بالفعل على الفرح بالأمور السماويَّة، ولا سيَّما السيِّدِ المسيح نفسِه الجالس عن يمين الله".[١٧] يشجِّعُ أوين هنا ما يمكن أن نسمِّيَه تصوُّفًا كتابيًّا. ويأتي هذا بالتأمُّل في الكلمة المقدَّسة، والحقائق اللاهوتيَّة، والإنجيل- غير أنَّ كلَّ هذه الأمور يجب أن تُحدِثَ اختراقًا نحو اختبار حقيقيٍّ لله.

وبسبب اهتمام أوين الدائم أن تكون الخبرة الروحيَّة مرتبطةً بالكلمة المقدَّسة، كان قلقًا بشأن التقليد الصوفيِّ التأمُّليِّ الذي كان منتشرًا في كنيسة العصور الوسطى. وفي كتاب أوين الوحيد عن الصلاة، يكرِّس فيه فصلًا كاملًا لتقييم التقليد التأمُّليِّ الكاثوليكيِّ. ويبدأ بعبارة مذهلة عن أهمِّيَّة لقاء الله:

> "إنَّ التركيزَ الروحيَّ الشديد للعقل هو بتأمُّل الله في السيِّد المسيح، إلى أنْ تُستحوَذَ النفس تمامًا في الإعجاب والسرور، وتُفقد بالكامل في التعبُّد والتفرُّس في كمالات الله اللانهائيَّة- كلُّ هذه هي أمورٌ ينبغي استهدافها في الصلاة. ويمكنُنا أن نختبرها مِرارًا بواسطة غنى التَّنازُل الإلهيِّ".[١٨]

هَهُنا كاتبٌ لا يخشى الخبرة الروحيَّة. وبالفعل، كما رأينا، فإنَّه يعلم أنَّ الاستمتاعَ المنتظَمَ بالله، واختبار حلاوة محبَّته هما الطريقان الوحيدان اللذان نتجنَّب بهما أن تسودَنا عمليًّا الآلهة المزيَّفة والمشاعر والرغبات المُسيطرة. غير أنَّه

ينتقد في الوقت نفسه التقليد الكاثوليكيّ الذي لا يجري فيه التشديد بما يكفي على الكتاب المقدَّس بوصفه المادَّة الأساسيَّة للتأمُّل الروحيّ.

من ناحية نجد أنَّ أوين يضعُ أساسًا عن العلاقة بين الحقِّ والاختبار؛ فهو يكتب: "عندما يتخلَّى النور عن المشاعر، فهذا يؤدِّي إلى الشكليَّة، وربَّما الإلحاد أيضًا، وكذلك عندما تتغلَّبُ المشاعر على الحقائق، فإنَّنا نغرق في غِمار الخرافة، وربَّما تقديس الصور والتماثيل وغيرها".[١٩]

ويقصد أوين بتعبير "النور" أن يشيرَ إلى معرفة التعليم الحقيقيِّ أو العقيدة السليمة. ولا يمكن أن "تتخلَّى" معرفتنا الكتابيَّة أو العقائديَّة عن المشاعر. وإذا كنَّا نؤمن بعقولنا بأنَّ الله قدُّوس، فيجب أيضًا أن نجد أنَّ قداسته أمرٌ ممتعٌ وعبادتَه أمرٌ مُشبع. وإذا كنَّا نؤمن بأنَّ خالق هذا الكون يحبُّنا، فينبغي أن يجعلنا هذا ثابتين غير متَزَعْزِين وجدانيًّا في وجه الانتقادات والصعوبات وكلِّ أشكال المعاناة، بل في وجه الموت نفسه أيضًا. باختصار يجب أن نكونَ قادرين أن نتلامس وجوديًّا مع قناعاتنا العقليَّة والعقائديَّة. إذا لم تصاحَب القناعات العقائديَّة بالخبرة القلبيَّة، فسيكونُ الناتج مسيحيَّةً اسميَّةً شكليَّة، ومن ثَمَّ فقدانًا للإيمان. والمثير للدَّهشة والحزن أنَّ كثيرًا من المسيحيِّين المحافظين، يكرِّسون أغلب اهتمامهم على الحفاظ على العقيدة السليمة، ويتجاهلون أهمِّيَّة الصلاة، ولا يبذلون ما يكفي من جَهدٍ لاختبار الله، وهذا يؤدِّي بدوره إلى فقدان العقيدة السليمة. يؤمن أوين بأنَّ المسيحيَّة ستصير في نهاية المطاف لامسيحيَّة إنْ كانَ الله لا يُختبَر حقًّا فيها.

ومن ناحيةٍ أخرى، هناك أيضًا خطرٌ كامن. "عندما تسبق الخبرة العاطفيَّة النور"، فلا يكونُ الناتج عدم الإيمان، بل "الغرق في غمار الخرافة، وتقديس الصور والتماثيل وغيرها". وهنا ربَّما يفكِّر أوين في بعض الممارسات والتقاليد التنسُّكيَّة التي تميَّزت بها كنيسة العصور الوسطى. يمكن استخدام تقنيات التأمُّل والتخيُّل لإحداث تغييرات في الوعي لا علاقة لها بحقيقة الله. مثلًا، قد تكون خبرةً شديدةَ القوَّة تخيُّلُ يسوعَ

يدخل الغرفة ويقول لك كلماتِ التشجيع والتعزية. أو أن تتخيَّله يتدخَّل في مشهدٍ أو حدثٍ وقع في الماضي ليدافعَ عنك أو يساندَك فيه. في مثل هذه الخبرات يمكن أن توضَع كلماتٌ على لسان يسوع ربَّما تتناقض مع تعليمه في الكتاب المقدَّس. أو كما رأينا، يمكن أن يُحدِثَ ترديد الكلمات أو العبارات تغييرًا في الوعي أو ربَّما تخديرًا له.

في الفصل الذي خصَّصه أوين للصلاة التأمُّليَّة الكاثوليكيَّة، يقدِّمُ عددًا من الانتقادات. مثلًا، يقولُ إنَّ اختبار الهدوء التامِّ والسلام الكامل الذي لا تزعجه أيُّ مشاعر، سواء الغضب أم الخوف أم الحماس، يأتي من الفلاسفة المنتمين إلى الأفلاطونيَّة الجديدة (Neoplatonic) مثل أفلوطين (Plotinus). أمَّا يسوع المسيح فكان يصلِّي بصُراخ شديد (عبرانيِّين ٥: ٧). إنَّ محبَّة الله لا تقضي على الرغبات، بل تحقِّقُها. ويحتجُّ أوين قائلًا إنَّ الصلوات التي بلا كلمات، وإنْ كانت تَحدُثُ أحيانًا، فإنَّها لا توصف ولا تعدُّ الشكل الأمثل للصلاة. في لوقا ١١، طلب يسوع من تلاميذه أن يستخدموا كلمات في الصلاة، وفي ١كورنثوس ١٤، يحثُّ بولس المؤمنين أن يصلُّوا بالذِّهن.

ثمَّة مشكلة أخرى يذكرُها أوين: أنَّ التركيز على التقنيات التنسُّكيَّة في الصلاة، والتي تتراوح ما بين الدرجات الأبسط منها مثل الطلبة والتضرُّع والاعتراف، إلى الدرجات الأعلى، يمكنها أن تُشوِّش حقيقة النعمة الإلهيَّة. عندئذٍ تصير الصلاة نظامًا يُعِدُّ الإنسانُ به نفسَه ليكونَ مستحقًّا أن يختبرَ رؤيا من الله. كما أنَّها تصير أيضًا نخبويَّة، بحيث لا يقدر عليها مثلًا إلَّا الرهبان؛ لأنَّها تستغرقُ ساعاتٍ طويلةً في اليوم وتتطلَّب تقنيات معقَّدة. أخيرًا، يحتجُّ أوين قائلًا إنَّ في الكثير من الصلوات التصوُّفيَّة التنسُّكيَّة، يغيب الإدراك عن مركَزيَّة شفاعة السيِّد المسيح ووساطته بيننا وبين الآب. كثيرٌ من اللغة المستخدَمة في تراث العصور الوسطى يتكلَّم عن الاختبار المباشر لله في جوهره. ويميلُ هذا إلى وضع الإنجيل وعمله الخلاصيِّ جانبًا. ويرى أوين أنَّ هذا مميت؛ فهو يعني أنَّ الخبرات التي ينالُها الناس بهذه الطريقة ليست سوى خبراتٍ نفسيَّة. إنَّهم لا يتواصلون مع الإله الحيِّ

الحقيقيّ، الذي يكشف نفسَه شخصيًّا فقط بواسطة السيِّد المسيح.[٢٠]

ورغم قلقه وانشغاله العميق بذلك الأمر، فإنَّه يكتب في النهاية: "أن تتخطَّى مشاعرُنا نورَنا بسبب عجز فهمنا، فهذا أفضل من أن يتخطَّى نورُنا مشاعرَنا بسبب فساد إرادتنا".[٢١] وهذا أمرٌ مدهشٌ أن يصدرَ من رجل ينتمي إلى التقليد البيوريتانيّ. إذا كنَّا سنفقد الاتِّزان، فالأفضل أن نكونَ ضعافًا عقائديًّا وتكون لنا حياة صلاة فعَّالة وشعورٌ حيٌّ بالرَّبّ، على أن تكون كلُّ عقائدنا سليمة بينما قلوبنا في الوقت نفسه باردة وأرواحنا قاسية. وفي مقالته "الذهن الروحيّ" (Spiritual Mindedness)، ثمَّة فِقرة تتناول هذا المفهوم وهي تستحقُّ أن نقتبسَها هنا باستفاضة.

> "في أفكارك عن السيِّد المسيح، احرِصْ جدًّا أن تُستقبَلَ هذه الأفكار وتوجَّه بناءً على قانون الكلمة، لئلَّا تخدعَ نفسَك بنفسك، وتسمحَ لخيالات باطلةٍ بإدارة مشاعرك...[لكن] يجب ألَّا نتخلَّى عن واجبنا [في التأمُّل بالسيِّد المسيح] لأنَّ آخرين أخطأوا في تأمُّلاتهم عنه، وعلينا ألَّا ننفصلَ عن المبادئ العمليَّة الأساسيَّة لممارسة الحياة الروحيَّة لمجرَّد أنَّ آخرين أساءوا استخدامها وربطوها بالخرافة...وعليَّ هنا أن أقولَ إنِّي أفضِّلُ أن أكونَ بين أولئك الذين سَقَطوا في مبالغات وأخطاء في تعبيرهم عن هذه المحبَّة، بينما كانوا يمارسون محبَّة السيِّد المسيح والتعلُّق به- على أن أكون بين الذين يحسبون أنفسَهم مؤمنين بالمسيح وهم يتنصَّلون من حيازة أفكار شخصيَّةٍ أو مشاعرَ محبَّةٍ تأمُّليَّة في شخص السيِّد المسيح".[٢٢]

يعترفُ بعضُ الكتَّاب الكاثوليك المعاصرين، مثل هانس أورس ڤون بلثاصَر (Hans Urs von Balthasar) بصعوبةِ الجمع ما بين "الكلمة الخارجيَّة" للكتاب للمقدَّس، و"الكمة الداخليَّة الساكنة" في الروح.[٢٣] ويقرُّ ڤون بلثاصَر أنَّ التقليدَ الصوفيَّ

الكاثوليكيَّ يميل إلى الاعتماد على الداخل أكثر من اللازم وصولًا إلى حالةٍ من السَّكينة والتطلُّع الهادئ إلى صورة السيِّد المسيح في القلب، بينما يميلُ الپروتستانت إلى دراسة الكلمة ليسمَعوا منها صوت الله، ثمَّ يتجاوَبون معه، ويصارعون في لقائهم معه. ثمَّ يتابعُ قائلًا إنَّ لدى الپروتستانت ضعفًا شديدًا في فهم حقيقة سكنى الروح القدس الذي يقودهم إلى الخبرة العميقة. ويعتقد أنَّهم يكتَفون فقط بالمعرفة العقائديَّة البحتة.[٢٤] وكما رأينا، فإنَّ الكثير من الپروتستانت يتردَّدون كثيرًا في قبول أيَّة خبرةٍ روحيَّة. إلَّا أنَّ أفضل النظريَّات اللاهوتيَّة الپروتستانتيَّة عن الروح القدس هي أكثر من كافية لتَحقيقِ الهدف، مثلما تشهدُ مقالاتُ أوين الهائلة ولاهوتُه الروحيُّ الرصين.

تحذيرات ومخاوف

يتماشى نقدُ جون أوين لما يسمِّيه التصوُّفَ غيرَ الكتابيِّ يدًا بيد مع تقديره لهؤلاء الذين يرغبون بشدَّة- كما كان النُّسَّاك المسيحيُّون المنتَمون إلى العصور الوسطى- في أن يستَحوذَهم مجدُ الربِّ تمامًا. لم يخشَ أوين أن يقول إنَّ علينا أن نرغبَ بشدَّة في "التأمُّل في الله في وجه يسوع المسيح حتَّى تُستحوَذَ نفوسُنا تمامًا في الإعجاب والفرح به". وفي الوقت نفسه، هو ينتقدُ بِحدَّة مَن لا يبنون تأمُّلاتهم على كلمة الله وإنجيل النعمة.

أعتقد أنَّه كان يمكن أن يكونَ أوين أكثر سخاءً في توضيح كثيرٍ من نقاط الاتِّفاق ما بين وصفه للخبرة الروحيَّة والوصف الذي يقدِّمه كثيرٌ من النُّسَّاك والمتصوِّفين. لكنْ عمومًا، أوين على حقٍّ ويقف في نقطة اتِّزان نادرة، وإن كان يفضِّل على نحوٍ طفيفٍ الانخراطَ العاطفيَّ على سلامة العقيدة.

وبالنظر إلى ذلك، أعتقد أنَّ على الپروتستانت، المعجَبين بالتصوُّف الكتابيِّ الذي يتميَّز به جون أوين أو جوناثان إدواردز، أن يقرأوا ما كتبَه متصوِّفو العصور الوسطى بإعجاب، لكنْ بحذرٍ شديدٍ أيضًا.[٢٥] وفي مقالة بعنوان "لماذا على الإنجيليِّين

المهتمِّين أن يقرأوا للنُّسَّاك المسيحيِّين؟" (Why Should Thoughtful Evageligelicals Read the Christian Mystics?) يشيرُ المؤرِّخ المسيحيُّ كارل ترومان (Carl Trueman) إلى أنَّ الروحانيَّة الكاثوليكيَّة المنتَمِية إلى العصور الوسطى تتضمَّن ما يُسمِّيه (وأسمِّيه أنا أيضًا) خطأً ضخمًا- وهو الاعتقاد أنَّ يسوعَ المسيحَ يقدِّم نفسه ذبيحةً متكرِّرة في القدَّاس، وبهذا فإنَّ غفرانَ خطايانا لم "يكتمل" تمامًا، ولا مجدَنا المستقبليَّ قد أُحرِزَ تمامًا وعلى نحوٍ مضمونٍ في موت السيِّد المسيح على الصليب. ويقود هذا إلى الكثير من التشوُّهات التي أصابَتِ الرُّوحانيَّة والتصوُّف الوسيط الذي يشير إليه أوين، أي فكرة أنَّك تستطيع أن تنقِّيَ نفسَك وتؤهِّلَها إلى خبرات أعلى، فضلًا عن الانطباع القويِّ أنَّك تستطيع أن تتواصلَ مع الله مباشرة، ومسألة الفقر العامِّ في استخدام الإنجيل نفسه في الصلاة.

ورغم ذلك فإنَّ ترومان يقول عن متصوِّفي العصور الوسط: "يوجَد في هذه الأعمال شعورٌ بقداسة الله وتَساميه قلَّما يكونُ في الكثير من الكتابات المعاصِرة والفكر المعاصِر عن الله...إنَّ ما يجعَلُهم متصوِّفين ونُسَّاكًا هو حسَّاسيَّتهم وشعورُهم العميق بصِغَرهم وعَجْزِهم أمام مجدِ الله الذي هو غير قابلٍ للمعرفة في ذاته، إلَّا أنَّه اختارَ أن يعلنَ نفسَه في هذه الأشكال الهشَّة من الكلمات البشريَّة والجسد الإنسانيّ. إذا كان اللاهوتُ يُفسحُ في المجال للكثير الذي لا يسعُنا الحصول عليه إلَّا بالشَّوق الروحيّ، فيبدو أنَّ الحلَّ ليس رفضَ ذلك الشوق، بل ربطُه باللَّاهوت الملائم."[٢٦]

في جنَّة عَدْن، أخطأنا وفَقَدْنا رؤيةَ وجه الله. كانت هذه أكبر كارثة ممكنة، لأنَّنا كنَّا مصمَّمين لكي نعيش في نور وجهه الكامل والبديع. لقد تغرَّبنا فارغين ومُعدَمين. ولاحظ موسى أنَّه يمكن إشباع كلِّ الأشواق الإنسانيَّة في رؤية وجه الله البديع. لذا طلبَ أن يرى وجه الرَّبّ، لكنَّ خطيَّته كانت فاصلةً. وفي يسوع المسيح أُزيلَ هذا الحاجز. أمَّا الآن- وإنْ كان لا يزال جزئيًّا وبالإيمان- فنستطيع أن نرى مجد الربِّ في وجه يسوع المسيح. فعندما نتأمَّل في الإنجيل ونصلِّي بما يواكبه من حقٍّ، ونقبل ذلك

الحقَّ في قلوبنا بقوَّة الروح القدس، يبدأ إشباعُ هذه الأشواق، وتصيرُ كلُّ الأشياء الأخرى في هذه الحياة مجرَّد عطايا وليست آلهة في ما بعد، وهكذا نتغيَّر ببطء، لكنْ بحقٍّ وبصورة جذريَّة في شخصيَّتنا وعلاقاتنا. وقد عبَّر أغسطينوس عن ذلك في "**الاعترافات**" *(Confessions)*. فقد أدركَ أنَّ كلَّ الأشياء التي أحبَّها، كان يحبُّها في الله، الذي هو مصدرُ كلِّ ينابيع الحياة والرغبة.

"لكن ماذا أحبُّ عندما أحبُّك؟ ليس جمال أيِّ جسد ولا إيقاع الوقت في حركته؛ ولا إشعاع النور المحبَّب لعيوننا، ولا الأنغام الجميلة في عالم الأصوات العديدة، ولا عبير الأزهار، ولا أطياب العطور، ولا المنَّ ولا العسل، ولا الأذرع التي تشتاق إلى احتضان الجسد وتبتهج به. إنِّي لا أحبُّ أيًّا من هذه الأشياء عندما أحبُّك.

غير أنِّي عندما أحبُّ إلهي فإنِّي أحبُّ بالفعل النورَ والنغمَ والعبيرَ والطعامَ والدفءَ البشريَّ- النورَ والصوتَ والعطرَ والطعامَ والحضنَ الدافئَ في قلبي. فهناك تُغمَرُ روحي بشعاع لا يمكن أن يحتويَه الفضاء كلُّه. وهناك صوتُ موسيقا لا يمكن أن يبدِّده الزمن أبدًا، ورائحةٌ زكيَّة لا تشتِّتُها أعتى الرياح، ونكهةٌ رائعةٌ لطعام لا يصيب بتُخمةٍ أو مرارة، وحضنٌ لا يُشبَع منه. إنَّ هذا هو ما أحبُّ عندما أحبُّ إلهي" (الاعترافات ١٠. ٦. ٨).

الجزء الخامس

ممارسة الصلاة

الفصل ١٢

الرهبة: مدحُ مجده

هناك ثلاثة أنواع أساسيَّة من الصلاة لله. هناك الصلاة إلى "أعلى"، وهي المدح والتسبيح والشكر، وتركِّز على الله نفسه. يمكن أيضًا أن نسمِّيَ هذه الصلوات "صلوات الرهبة والانبهار". ثمَّ هناك الصلوات إلى "الداخل"، وهي صلوات فَحصُ النفس والاعتراف التي تجعلنا نستشعرُ حقيقةَ الخطيَّة على نحوٍ عميق، فنختبرُ من ثمَّ آفاقًا أوسع للنعمة، وتأكيدًا أعمق لمحبَّة الله وغفرانه. هذه هي الصلوات الحميمة. وأخيرًا هناك الصلاة إلى "الخارج"- أي صلوات التضرُّع والتشفُّع التي تركِّز على احتياجاتنا واحتياجات الآخرين في هذا العالم. وتتطلَّب هذه الصلاة صبرًا ومثابرة، وكثيرًا ما تتضمَّن صراعًا. في الفصول الثلاثة التالية، سنتناول كلَّ واحدٍ من هذه الأشكال الثلاثة للصلاة.

الصلاة الأوَّليَّة

في تعليم يسوع عن الصلاة، أيِ في الصلاة الربَّانيَّة، يأتي التسبيح في البداية. كيف يكون التسبيح أولويَّة؟ ولماذا؟ يدفع التسبيح كلَّ الأشكال الأخرى للصلاة. وكلَّما انتبهنا لقداسة الله التامَّة وعدله الكامل، كنَّا مستعدِّين لأن نرى عيوبنا ونعترف بها. وفي سياقٍ متَّصل، تقودُنا رؤية عَظَمة الله إلى التضرُّع. وكلَّما استَشعَرنا عَظَمة الله وجلالَه، صرنا أكثر استعدادًا للُّجوء إليه في كلِّ احتياجاتنا. يمكننا أن نقول

إنَّ العبادة التي تكتنفُها الرهبة والانبهار بالله تصحِّح كلَّ أنواع الصلاة الأخرى، وتضعها في سياقها السليم.

منذ عدَّة سنوات، كنتُ أعِظُ عن الصلاة الربَّانيَّة، وألقيتُ هذا التعليق- بصورةٍ تلقائيَّة- أنَّه إذا كانَتِ العبادةُ تأتي قبل طلب "خبزنا اليوميّ"، فسنحتاجُ لأن نُمضيَ بعض الوقت لنشكرَ الربَّ ونحمده على شخصه قبل أن نبدأ في سَرْدِ طلباتنا منه. أثَّرت هذه الكلمات في إحدى النساء في الكنيسة حتَّى إنَّها بعد عدَّة أسابيع شهدت عن تأثير هذه النصيحة فقالت: "كنتُ من قبل أُهرَعُ إلى قائمة طلبات الصلاة. فكلَّما صلَّيتُ للمشكلات والاحتياجات، شعرتُ بالقلق والتثقُّل. أمَّا الآن فأنا أُمضي أوَّلًا وقتًا أفكِّر فيه في صلاح الله وحكمته، وكيف أنَّه استجاب الكثير من الصلوات في الماضي. وعندما أصلُ إلى احتياجاتي، أشعر بأنِّي أستطيع أن أضعَها في يديه وأشعرَ بأنَّ الحِملَ ينزاح من على عاتقي بدلَ أن كان يتزايَدُ فوقي". لن أنسى شهادتها؛ لأنَّها أخذت مبدأً كنتُ أنا بالكاد أفهمُه وطبَّقَتْه على حياتها، فكان لها أن امتَلَكَتْه.

يهيِّئُ التسبيح والعبادة الطريقَ، ويؤسِّسان الدافعيَّة، ويُصيغان بدقَّة كلَّ أشكال الصلاة الأخرى. هذا لا يعني بتاتًا أنَّنا لا نستطيع أحيانًا أن نذهب مباشرةً إلى الطلبة أو الاعتراف، لكنَّه يعني أنَّنا في مجمل حياة الصلاة يجب أن تأخذَ العبادة المكان الأوَّل.

الصحَّة التي في الحمد والتسبيح

سببٌ آخر لأولويَّة الحمد والتسبيح هو أنَّ لديهما القدرةَ على شفاء ما مرض في داخلنا، ويعطياننا الصحَّة الروحيَّة الداخليَّة. ومن المقالات الحديثة الأكثر تأثيرًا عن تسبيح الله هي مقالة "كلمة عن التسبيح" (A Word About Praising) في كتاب سي. أس. لِويس "**تأمُّلات في المزامير**" *(Reflections on the Psalms)*.[1] يبدأ لِويس بذكر

مشكلةٍ كان يعانيها مع الكثير من المزامير، وهي أنَّ الله يطالبُ الناسَ في هذه المزامير بأن يسبِّحوه دائمًا. ويقول لِويس: "إنَّنا نحتقرُ الإنسان الذي يطلبُ دائمًا أن نمدحَه ونؤكِّد فضائلَه وذكاءه، وكم أنَّه لطيف وحلو المعشر"، يبدو الأمر كأنَّ الله يقول: "إنَّ أكثر ما أريده هو أن تقولوا لي إنِّي صالح وعظيم جدًّا".[٢]

ثمَّ يبدأ لِويس في التأمُّل في الكتاب المقدَّس: لماذا نمتدح أيَّ شيء في الأساس؟ ماذا نقصد مثلًا عندما نقول إنَّ لوحةً أو قطعةً موسيقيَّة أو كتابًا أو أشياءَ "تستحقُّ الإعجاب"؟ نعني بذلك أنَّ الناس يجب أن تمتدحَ هذه الأشياء، وإذا لم يفعَلوا، فسيفتقدون أمرًا جيِّدًا. وقد بدأ هذا المعنى يساعد لِويس على فَهْم دَعوةِ الله للنَّاس أن يسبِّحوه. إنْ كان الله هو الموضوعَ الأعظمَ للإعجاب خلفَ كلِّ ما في هذا العالم من جمالٍ وقيمة، فتسبيح الربِّ والإعجاب به هو "ببساطة أن نكونَ مستيقظين، وندخلَ بالفعل العالم الحقيقيّ"، وعندما لا نفعل ذلك، فإنَّه يعني أن نكونَ أكثرَ عمًى وعجزًا من الذين يعانون إعاقةً جسديَّة من كلِّ نوع.[٣]

لم يكن هذا هو كلَّ ما اكتشفه. "أكثر حقيقة ساطعة عن الشكر والإعجاب- سواء كان بالله أو بأيِّ شيء آخر- كانت هاربةً منِّي". لم يلاحظ من قبل أنَّ كلَّ استمتاع في هذه الحياة ينساب تلقائيًّا إلى حالةٍ من إبداء الإعجاب "ما لم يمنع ذلك خجلٌ أو خوف من إصابة الآخرين بالملل". وعندما تجد شيئًا عظيمًا أو آسرًا للعقل، فإنَّك تجد في نفسك ردَّ فعلٍ تلقائيًّا غريزيًّا أن تمتدحَه أمام الآخرين، وتحاول أن تجعلَ الآخرين يدركون ما أدركته بنفسك. فتقول لصديقك مثلًا: "استمع لهذه الموسيقا!" أو "لا أستطيع إلَّا أنْ أشاركَك بهذا الكتاب! ستحبُّه جدًّا" أو "أليس هذا عظيمًا؟ أليس هذا رائعًا؟" لماذا نشعرُ بالحاجة لأن نمتدحَ شيئًا ما بجماله وروعته أمام الآخرين عندما يستأسرُ خيالَنا؟ يجيب لِويس:

> "أعتقد أنَّنا نُسَرُّ بأن نمتدحَ ما نستمتع به؛ لأنَّ المديحَ ليس فقط أمرٌ يعبِّر عن الاستمتاع، بل هو أيضًا يُكمِلُه ويحقِّقه. لا يُعدُّ نوعًا من

المجامَلة أنْ يستمرَّ المحبُّون في إبداء إعجابِهم بجمال بعضهم بعضًا؛ إذ لا يكتملُ الفرحُ بالجَمال إلَّا عندما يُعبَّر عنه...وهذا حقيقيٌّ حتَّى لو كانت تعبيراتُنا قاصرةً، وهي عادةً ما تكون كذلك بالفعل. لكن ماذا يحدثُ إذا كان المرء يستطيعُ فعلًا أن يمتدحَ كلَّ الاشياء بصورةٍ تصلُ إلى الكمال «يَخرُجُ» في صورةِ شعرٍ أو موسيقا أو رسمٍ في دفقات من الإعجاب والتقدير يكاد ينفجر بهما القلب؟ عندئذٍ يكون الأمرُ بالفعل قد نال التقديرَ بالكامل، ووصل الفرح به إلى أقصى اكتماله". [٤]

مثَّل هذا التبصُّر اختراقًا عند لِويس، وكان كذلك لكثيرين ممَّن قرأوا ذلك الفصل، بما فيهم أنا. فهو يكشف أنَّنا يجب أن نعبدَ الربَّ وإلَّا سنعيش في حالٍ من الفقر والابتعاد عن الواقع. نحن فقط لا نستطيع أن نصدِّق في عقولنا أنَّه حكيم ومحبٌّ وعظيم، ويجب أن نسبِّحَه على تلك الأمور ونمتدحه أمام الآخرين إنْ كنَّا نريد أن نتحرَّكَ من المعرفة المجرَّدة إلى الانخراط المغيِّر للحياة.

عندما نتعلَّم الصلاة، فإنَّنا نتغيَّر. ولم يستطع لِويس إلَّا أن يلاحظَ أنَّ:

"العقول الأكثر تواضعًا، والأكثر اتِّزانًا واستيعابًا هي الأكثر امتداحًا. أمَّا منحرفو المزاج، وغير المتأقلمين، والساخطون فهُم أقلُّ مَن يمتَدح. النُّقَّادُ الجيِّدون هم الذين يستطيعون أن يَجِدوا شيئًا يمتَدِحونَه في الكثير من الأعمال غير الكاملة، أمَّا النُّقَّاد السيِّئون فهم دائمًا ما يقلِّصون من قائمة الكتب التي يسمحون لنا بقراءتها. الإنسان الصحيح وغير المضطرب، حتَّى وإنْ تربَّى تربية مرفَّهة واختبر خبرةً عريضة في أنواع الطعام الراقي، هو القادر على امتداح أيَّة وجبةٍ متواضعة. أمَّا عَسِرُ الهضم المتعالي فيجد عيبًا في كلِّ طعام. ما لم تتدخَّل أحوالٌ سيِّئة فوق مستوى التحمُّل، يظلُّ المديح والإعجاب يُعبِّران بصوتٍ مسموعٍ عن الصحَّة الداخليَّة للبشر". [٥]

إعادة ترتيب محبّاتنا

لماذا يكون للإعجاب والمديح مثل هذه التأثيرات فينا؟ إنَّ من بين الأنواع الثلاثة للصلاة- التسبيح والاعتراف والتضرُّع- نجد أنَّ التسبيحَ هو النوع الذي يولِّدُ مباشرةً محبَّةً لله. وإذا كان أغسطينوس محقًّا، فما نحبُّه يحدِّد في الأساس مَن نحن.

في كتاب "**الرغبة في الملكوت: العبادة ورؤية العالم والتشكيل الثقافيّ**" *(Desiring the Kingdom: Worship, Worldview and Cultural Formation)* يشير جيمس كاي. إيه. سميث (James K. A. Smith) إلى العديد من نماذج الشخصيَّة والهُوِيَّة الإنسانيَّة. وفي مقابلها كلِّها يختار ما يحسبُه النموذجَ الأغسطينيّ "أنا ما أحبُّ".[٦] وهذا ما يضعُه أغسطينوس في تفسيره لرسالة يوحنَّا الرسول الأولى: "كما أنَّ كلَّ واحد هو ما يحبّ".[٧] إنَّ ما نحبُّه هو الذي يحدِّدُ أساسَ هُوِيَّاتنا وسلوكنا في الحياة.

عَلَّمَ أغسطينوس أنَّ كلَّ الناس يبحثون عن السعادة، ويتعلَّقون بأشياءَ يعتقدون أنَّها ستجعلُهم سعداء، وهم يختبرون هذا التعلُّق وكأنَّه حبٌّ حقيقيّ. غير أنَّ مشكلةَ البشر الأساسيَّة هي أنَّنا صرنا بسبب الخطيَّة نخطئ في تحديد ما سيجعَلُنا سعداء بالفعل. وكما ناقشنا من قبل، فإنَّ النتيجة تكون مَحبَّات وتعلُّقات مشوَّهة- محبَّة "مضطربة". فإمَّا أن نحبَّ ما يجب ألَّا نحبَّه، وإمَّا أن نفشلَ في أن نحبَّ ما يستحقُّ الحبّ، أو نحبَّ أكثر ما يجب أن نحبَّه أقلّ، أو بالعكس.[٨] إذا أحبَّ الإنسان كسْبَ المال أكثر من تحقيق العدل، فسيستغلُّ موظَّفيه والعاملين لديه. وإذا أحبَّ مهنتَه أكثر من أولاده، فستنهارُ علاقاتُه الأسريَّة.

إنَّ السببَ النهائيَّ لبؤسنا هو أنَّنا لا نحبُّ الله من كلِّ قلوبنا. وكما جاءت عبارةُ أغسطينوس الأشهَر في سياق صلاته: "لقد خلقتَنا يا الله لذاتك، وقلوبنا لن تهدأَ حتَّى تجدَ راحتَها فيك" (الاعترافات ١,١,١). فهذا يعني ببساطةٍ أنَّك إذا أحببْتَ أيَّ شيءٍ في هذا العالم غير الله، فستُدمِّرُ هذا الشيء تحت ثقل توقُّعاتك

وانتظاراتك منه، وفي النهاية ستَكسرُ قلبَك أنت أيضًا. مثلًا، إذا كانت زوجتك ومحبَّتها لك أهمَّ عندك من محبَّة الله، فستغضبُ غضبًا شديدًا، وتُحبَط إحباطًا بالغًا إذا فشلَتْ زوجتُك في مَنحِك المساندة والعواطف التي تنتظرها، وستخافُ من غضب زوجتك وعدم رضاها حتَّى إنَّك ستكذب عليها. فقط إذا كانت محبَّةُ الله هي أهمَّ شيء عندك، فستكونُ لديك عندئذٍ الحرِّيَّة أن تحبَّ زوجتك.

وقد كتب أغسطينوس المزيد مستَفيضًا في هذه القضيَّة في ما بعد في ''الاعترافات'':

> "مهما لجأتْ نفسُ الإنسان، فإنَّها ستلتصق بالحزن إنْ لم تلجأ إلى الله، حتَّى لو كانت الأشياء التي تلتصق بها جميلة" (الاعترافات ٤. ١٠. ١٥).[٩]

وعلى خطى أغسطينوس، يحتجُّ سميث أنَّ ما يكوِّن شخصيَّاتنا هو الأمور التي نحبُّها أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. إنَّها تحدِّد "الأمور التي نحن متَّجهون نحوها، والتي تحكمُ بصورةٍ نهائيَّة نظرتنا إلى الحياة الجيِّدة، وتشكِّل كِيانَنا في هذا العالم... وهي التي تترجم كلَّ رغباتنا وأفعالنا".[١٠] وتحدِّدُ الأمور التي نحبُّها، نحن الأفراد، ليس فقط شخصيَّاتنا، بل أيضًا ما يحبُّه المجتمع كلُّه. والأمور التي يحبُّها المجتمع كلُّه على مرِّ السنين تؤلِّف ثقافةَ ذلك المجتمع. كانت هذه الفكرة قلبَ الكتاب العظيم الذي ألَّفَه أغسطينوس بعنوان "**مدينة الله**" *(City of God)*. لقد كان يؤمن بأنَّ المجتمعات هي تكويناتٌ من الأفراد الذين تجمَعُهم الأمور التي يحبُّونها.

ماذا يعني هذا؟ يكرِّسُ سميث كلَّ كتابه لنظريَّة أنَّ عليك لكي تغيِّر الناسَ التغيير الأكثر عمقًا، أن تغيِّر ما يعبدونه. إنَّ التفكير والنظريَّات والمعتقدات هي أمورٌ مهمَّة لأنَّها تحرِّك القلب، لكنَّنا في النهاية ما نعبده. نحن نتشكَّل بما يخطفُ أبصارَنا ويتحكَّم في خيالنا، وما يدفعنا لأن نحمده ونشكره ونسبِّحه. وينتج غضبنا وقلقنا

وإحباطنا من أنَّ محبّاتنا مضطربة ومتَّجهة نحو وجهاتٍ خاطئة. ومشكلاتنا المرتبطة بالعلاقات تَنتُج من محبّاتنا المضطربة، وكذلك مشكلاتنا الاجتماعيَّة والثقافيَّة أيضًا. ما الذي يمكنه إذًا "إعادة هندسة" كِيانِنا الداخليِّ وتركيب شخصيّاتنا؟ ما الذي يمكنه أن يخلقَ مجتمعًا بشريًّا صحيحًا؟ إنَّها عبادة الله الحقيقيّ. يجب أن نحبَّ الله قبل أيِّ شيء، وفوق أيِّ شيء. ولا يمكنُ تنمية هذا إلَّا بتوجيه العبادة والحمد إلى الله.

أهمِّيَّة الشكر

يتكلَّم كثيرون عن "الحمد والتسبيح" و"الشكر" بوصفهما نوعَين من الصلاة، وهناك فروقٌ مهمَّة بينهما، فيجب أن ننتبه إليها لنحرصَ على ممارستهما كليهما. الشكرُ هو أحد فروع الحمد والتسبيح؛ فالشكر هو حمد الربِّ ومدحه على ما فعله، بينما "التسبيح" فهو حمد الربِّ على ما هو عليه (على شخصه). يدعونا المزمور ١٣٥ لأنْ نسبِّح الربَّ، ويدعونا المزمور ١٣٦ لأنْ نشكره، غير أنَّ الفحصَ الدقيقَ يكشف كيف أنَّ المزمورَين يتقاطعان معًا. المزمور ١٣٥ يحمد الله لأنَّه أنقذَ شعبَ إسرائيل من العبوديَّة في مصر، ومزمور ١٣٦ يحمدُ الربَّ لأنَّه صالح ورحيم. ويقودُنا الشكرُ على بركةٍ ما من بركاتِ الربِّ تلقائيًّا لأن نتأمَّل في صفات الربِّ ومقاصده الرحيمة من نحونا، والتي جعلَتْه يباركنا بما باركنا به. وفي السياق ذاته، يصير الحمد على محبَّة الله وصلاحه بلا أدنى مجهودٍ شكرًا لله على كلِّ مظاهر المحبَّة والصلاح التي يُبيِّنها.

إذا كنَّا نريد التقدُّم إلى الأمام في ممارسة الشكر والتسبيح، فنحتاج لأن نعرفَ ما سنواجهه. إنَّ الاعترافَ والتوبة هي صلوات تدفعها الأحوال والأحداث. إنَّنا نسقط أو نفشل ويملأنا الذَّنب والخزي، فنصلِّي بحرارة. وتعمل الأحوال والأحداث أيضًا على قيادة التضرُّع والتشُّفع. يُشخَّص أحد الأصدقاء أو الأقارب بالسرطان،

أو يبدو مثلًا كأنَّ مستقبلنا الوظيفيَّ سيتَدَهور، فنصلِّي بحرارة. في هذه الحالات تحرِّكنا الأحوال الخارجيَّة، ويقودنا إحساسنا بالعجز والاحتياج.

عندما تحدُثُ أمورٌ طيِّبة لنا، نتوقَّع أنَّها تدفعنا للحمد والشكر والتسبيح بالطريقة نفسها التي دفعتنا أمورٌ أخرى إلى الطَّلبِ والتضرُّع. لكن ليس هذا ما يحدُثُ غالبًا. في رومية ١: ١٨-٢١، يصفُ بولس طبيعةَ الخطيَّة البشريَّة، فيكتب: "لأنَّهم لمَّا عَرَفوا الله لم يُمجِّدوه أو يَشْكُروه كإله". يبدو الوضع معكوسًا. وهذا هو جوهر الخطيَّة: أنَّنا لا "نشكر". أهذا أمرٌ خَطِر؟ نعم إنَّه خَطِر.

فكِّر لِلَحظةٍ في جريمة سرقة الأفكار. لماذا يجري التعامل مع سرقة الأفكار بجِدِّيَّة شديدة؟ [لا سيَّما في الدول المتقدِّمة]. إنَّها ادِّعاء أنَّك مصدرُ فكرةٍ ما، بينما هذه ليست الحقيقة. إنَّه عدم الاعتراف أنَّك اعتمدْتَ على شخصٍ آخر وحصلتَ منه على الفكرة التي تتكلَّم عنها. إنَّها رفض "الشكر والاعتراف بالجميل"، وهي إذًا نوعٌ من السرقة. هذا ليس فقط خطأً في حقِّ صاحب الفكرة، بل هو أيضًا يضعك في موقفٍ خَطِرٍ لأنَّك لن تستطيعَ إنتاج مثل هذه الأفكار في المستقبل عندما يتوقَّع منك الآخرون ذلك.

أترى لماذا يضعُ الله أمرَ الشكر والحمد والاعتراف بالجميل محمَل الجِدّ؟ إنَّ عدم العرفان الكونيِّ هو الحياة في وَهم أنَّك مكتفٍ بنفسك روحيًّا، ولا تحتاج إلى أحد. إنَّها سرقة الفضل في شيء كان في الأصل هديَّة. إنَّها الاعتقاد أنَّك تعرفُ كيف تعيش الأفضل، وأنَّ لديك القوَّة والقدرة أن تحتفظَ بحياتك على المسار الصحيح، وتحميَ نفسَك من الخطر. إنَّ هذه ضَلالةٌ كبرى، وخَطِرةٌ أيضًا. إنَّنا لم نخلقْ أنفسَنا ولا نستطيع أن نحتفظَ بحياتنا لِلَحظة واحدة دون قوَّة الله وقدرته فهو الذي يمدُّنا بالوجود كلَّ لحظة. لكنَّنا نكره هذه المعرفة، كما يقول بولس الرسول، ونخفيها ونكبتُها. إنَّنا نكره مواجهة حقيقة أنَّنا معتَمِدون تمامًا على الله؛ لأنَّنا عندئذٍ نكون مساءلين أمامه، ولن نستطيعَ أن نعيشَ كما نريد. سيكون علينا عندئذٍ أن نلجأ دائمًا إلى الَّذي يعطينا كلَّ شيء.

لذا فإنَّ الخطيَّة التي في قلوبنا تجعلنا نريد بشدَّة أن نكون مسيطرين على حياتنا ونعيش كما نريد، وهكذا لا نستطيع أن نعترفَ بحجم مديونيَّتنا لله. لسنا شاكرين للدَّرجة التي ينبغي بها أن نكون شاكرين. وعندما تأتينا الأمور الجيِّدة، فإنَّنا نفعل كلَّ شيء ممكن لنقولَ لأنفسنا إنَّنا الذين أنجزناها، أو على الأقلّ، إنَّنا نستَحقُّها. نحن نحبُّ دائمًا أن يُنسبَ الفضلُ إلينا. وعندما تسير حياتُنا بسلاسة، ودون الكثير من الصعوبات، فإنَّنا لا نعيش في حالة من الوعي الهادئ المطمئنِّ الشاكر والمتعجِّب من إحسان الله. في النهاية، نحن نسرقُ المجدَ الواجبَ إعطاؤه لله، إذ نعتقد أنَّنا مَن نحافظ على حياتنا، كما نفترضُ أنَّنا نحرمُ أنفسَنا من الفرح والراحة اللذين يسبِّبهما الشكر والعرفان لذلك الإله كلِّيِّ القدرة. إنَّ لدينا مشكلةً مع الحمد والشكر، مع أنَّ الحمد والشكر هما أوَّليَّات الصلاة، وهما نوعا الصلاة اللذان يدفعان كلَّ أنواع الصلاة الأخرى، ويحرِّكانهما. فماذا سنفعل في هذه المشكلة؟

عادةُ الحمد والشكر

إنْ كان الشكر والحمد يتعارضان مع قلوبنا المنحصرة في أنفسنا أكثر من أيٍّ نوع آخر من الصلاة، فكيف يمكننا أن نطوِّر عاداتٍ أفضلَ للتَّفكير لنتخلَّص من هذه المشكلة؟ أعتقد أنَّ هناك ثلاثَ وسائل، وأُدين فيهم بالفضل إلى ثلاثة كتَّابٍ مسيحيِّين بريطانيِّين.

أوَّلًا، يجب أن نتعلَّم أن نفعلَ ما يتكلَّم عنه سي. أس. لِويس في كتابه عن الصلاة، "**رسائل إلى مالكوم**" *(Letter to Malcolm)*. فهو يحاول على نحوٍ مقصود أن يرى أن كلَّ أنواع الملذَّات هي طرقٌ تدفعُنا للمجد عندما تتلامس مع تفكيرنا المنطقيّ..."لقد جرَّبت...أن أجعل من كلِّ لذَّة قناةً للتَّسبيح والعبادة". ويقصدُ لِويس بالملذَّات أمورًا عديدةً من التمشِّي في وديان الجبال الجميلة، وتناوُل الطعام اللذيذ، وقراءة كتابٍ جيِّد، والإنصات إلى مقطوعة موسيقيَّة جميلة. ماذا يعني

بفكرة تحويل كلِّ لذَّة في الحياة إلى تسبيح وعبادة؟ يشير بسرعةٍ إلى ذلك، ليس فقط بأنَّنا يجب أن نعطيَ الربَّ الشكر على كلِّ لذَّة في الحياة، بل يخبرنا لِويس بأمرٍ أعمق: "يتعجَّب العرفان بالجميل قائلًا: «يا لصلاح الله الذي أعطاني هذا!» أمَّا التسبيح فيقول: «كيف يمكن أن تكونَ طبيعة هذا الكائن الذي تكون الخيالات البعيدة المخفَّفة التي بالكاد تعبِّر عنه، بكلِّ الجمال والروعة هذين!». فعقلُ الإنسان يقتَفي شعاعَ الشمس ليَصِلَ إلى الشمس".[١١] لقد تعلَّم أن يتساءلَ بطريقةٍ تلقائيَّة عندما يقابل أيَّ شيء "كيف يكون ذلك الإله الذي يخلق هذا ويعطيني إيَّاه؟" ويختتم حديثه أنَّه لا ينجح دائمًا في الحفاظ على هذا التدريب الروحيّ، إلَّا أنَّ هذا التدريب عزَّز فرحَه بالحياة اليوميَّة وبأوقات صلاته المركَّزة. يقول أيضًا: "لن نكون قادرين أن نعبدَ الله في الأوقات المشرقة إنْ لم نتعلَّم تلك العادة في أحلك الأحوال".[١٢]

الطريقة الثانية لتنمية عادة الحمد والتسبيح تأتي من المصلح الإنكليزيِّ من القرن السادس عشر توماس كرانمر (Thomas Cranmer)، واضع "**كتاب الصلوات العامَّة**" *(The Book of Common Prayer)*. كانت الصلوات الجماعيَّة (الجماهيريَّة) التي كتبها كرانمر تتبعُ بناءً عامًّا.

١. عنوان- اسم من أسماء الله.

٢. العقيدة- حقيقةٌ عن طبيعة الله تضعُ أساس هذه الصلاة.

٣. الطِّلبة- المطلوب في الصلاة.

٤. الرجاء- النتائج الإيجابيَّة التي يمكن أن تحدُثَ إذا استجاب الله الطلبة.

٥. بِاسْم يسوع المسيح- يتذكَّر هذا الدَّور الشفاعيَّ ليسوع المسيح.

نرى هذا البناء في صلاة كرانمر الشهيرة التي تصاحب المناوَلة (كسر الخبز):

١. يا الله العليّ

٢. الذي أمامه كلُّ القلوب مكشوفة، وكلُّ الرغبات معروفة، وكلُّ الأسرار معلنة،

٣. نقِّ أفكارَ قلوبنا بإلهام الروح القدس،

٤. حتَّى نحبَّك محبَّة كاملة، وباستحقاق نمجِّدُ اسمك القدُّوس،

٥. بِاسْم ربِّنا يسوع المسيح، آمين.

انظر كيف تتحرَّك الصلاة من الأساس الذي في طبيعة الله (التي تمكِّننا من الطلب أساسًا)، إلى التضرُّع والطلبة (ما نريد أن ننالَه)، إلى الرجاء (ما سنفعل عندما ننال ما طلبنا). من المدهش كيف يتضمَّن هذا النمط الحمد والتسبيح، واللاهوت السليم، وتوقَ القلب العميق والأهداف الواضحة لحياتنا اليوميَّة.[١٣]

أحد الأساليب التي يُنمَّى بها هذا النضج في الصلاة هو أن تكتبَ صلواتك لله في صورة يوميَّات، وتتابع هذا النظام حتَّى يصير الأمرُ عادة. وفي النهاية، ستجدُ نفسَك بينما تصلِّي بصوتٍ مسموع أو في السَّريرة، بأنَّ طلباتك تنظرُ إلى الله نفسه أوَّلًا قبل أن تصرخ إليه. هذا هو معنى أن تدعو بِاسْم الرَّبّ، وتطلبَه هو شخصيًّا.

المرشد الأخير هو متَّى هنري (Matthew Henry)، وهو خادمٌ مشيخيٌّ من ويلز، عاش أواخر القرن السابع عشر، وهو معروف بتفسيره للكتاب المقدس كلِّه، كما أنَّه كتب أيضًا كتاب "**طريقةٌ للصلاة**" *(A Method for Prayer)*. ويُعدُّ هذا الكتاب مُلخَّصًا موسوعيًّا للصَّلوات في الكتاب المقدَّس- من الصلوات القصيرة إلى الصلوات الطويلة- مصنَّفة على النحو التالي: التسبيح والاعتراف والطلب والشكر والتشفُّع. وفي كلِّ فصلٍ جمَّع أيضًا الصلوات ضمنَ مجموعاتٍ فرعيَّة، وقد وجدتُ أنَّه يمكن أن تكونَ هذه المجموعات الفرعيَّة مفيدةً جدًّا. اختر مثلًا واحدًا، ثمَّ انظر إلى بعضٍ من اقتباسات الكتاب المقدَّس الموجودة تحته، ثمَّ عبِّر عن

هذه الصلوات بكلماتك الخاصَّة. يساعدُنا هذا أن نفعلَ بكلِّ الكتاب المقدَّس ما يقترح لوثر أن نفعلَه مع الصلاة الربَّانيَّة: أن نحوِّلَه إلى صلاة.

وإليكم قائمةً بعناويني الخاصَّة، بناء على كتاب هنري، دون الاقتباسات من الكتاب المقدَّس. وربَّما تقترحُ لك أساليبَ تُمضي بها الوقت الذي تحدِّده للشُّكر والتسبيح.[١٤] قلْ هذه الكلمات لله، مُخاطِبًا إيَّاه مباشرةً بكلمة "أنت"؛ وستكونُ كلُّ العباراتِ عباراتِ مدح وتسبيح.

عبادة الله

- الله متسامٍ ومشرقٌ وجميلٌ ومباركٌ إلى الأبد. هو قائمٌ بذاته، ولا يَعتمِد على شيء آخرٍ، بل يَعتمِد عليه كلُّ شيء. هو الروحُ الأزليُّ الأبديُّ، الوحيد الكامل، له القوَّة والمجد الكامل والدائم.
- كمالات الله لا تُضاهَى ولا تُقارَن. فشخصه أزليٌّ أبديٌّ لا يتغيَّر، وحضوره يملأ كلَّ الوجود. علمه يسعُ كلَّ شيء، وليس لحكمته الكاملة استقصاء. قدرته المطلقة لا تُقاوَم، وسيادته على الكلِّ، كماله الأخلاقيُّ بلا شائبة، وكذا جماله وقداسته وعدله. حُكمه لا يُرَدُّ، وإرادته ستضعُ كلَّ شيء في نصابه في النهاية.
- الله إله خالق، صانع، وحامٍ، حافظٌ وحاكمٌ لكلِّ الخليقة. هو إلهُ الحقّ، وهو إله متكلِّمٌ يمكن أن نكون في علاقة شخصيَّة به. هو إله العهد، وهو أمين في كلِّ وعوده، يربط نفسه بنا لنربطَ نحن أيضًا أنفسنا به. هو الإله الثالوث، واحد وثلاثة، آب، وابن، وروح قدس. هو ليس فقط ملكَنا، بل أيضًا صديقُنا وشريكنا. قلوبنا خُلقَت له، وهو وحده فرحنا الحقيقيّ.

شكر الله

- لأنَّه مصدر حياتنا وحافظها. ولأنَّه خلقنا على صورته، لذا نحن قادرون أن نعرفَه ونحبَّه ونخدمه ونستمتعَ بالعلاقة به وبالبشر الآخرين. ولأنَّه يحافظ على حياتنا، متجاوزين الإصابات والأمراض فلا نزال على قيد الحياة اليوم. ونشكر على العون والراحة اللتين يجعلاننا نحتمل حياتنا ونرضى ونستمتع بها، وعلى النجاحات التي أحرزناها، والأهداف التي حقَّقناها، والبركات التي لم نكن نستحقُّها، لكنَّه أغدقَها علينا.

- لأنَّه أيضًا مصدر حياتنا الروحيَّة وحافظها. نشكره على خُطَّة الخلاص، وكيف خطَّط لها الآبُ والابن والروح القدس من أعماق الأبديَّة، وعلى يسوع المسيح الذي أخلى نفسه من مجده من أجلنا، ومن أجل تعليمه وشخصيَّته اللتين تَكشِفان لنا جمالَ القداسة، وعلى موت يسوع بالنيابة عنَّا، ليدفعَ ثمنَ خطايانا، متمِّمًا كلَّ متطلَّبات العدل الإلهيّ، وصانعًا لنا علاقة عهد جديد بالله بالنعمة؛ وعلى الروح القدس، وقوَّة حضوره في حياتنا ممكِّنًا إيَّانا أن نفهَمَ حقَّ الله، ونعرف محبَّته ومجده، ونتغيَّر إلى صورةِ شخصيَّةِ المسيح، ونخدم الآخرين بالمواهب التي يمنَحُنا إيَّاها. ونشكره على كلمته- الكتاب المقدَّس، وعلى الحكمة والحقّ والقوَّة التي فيه، وعلى الكنيسة، جمهورها وقيادتها، التي شكَّلتنا وساعدتنا أن ننمو في الإيمان والرجاء والمحبَّة. وعلى الأصدقاء المسيحيِّين الذين أعطونا الكثير. وكذلك على تأكيد الخلاص الذي يجعلنا نستريحُ مطمئنِّين في رجاء القيامة والحياة مع المسيح إلى الأبد. ونشكره أيضًا لأنَّنا نعرفُ أنَّه مهما يحدث، سيكون كلُّ شيء على ما يرام.

- على مظاهر رحمته التي يسبغها علينا، والطرق التي بها يمارس صبره معنا، ويساعدنا أن نتحرَّر من عاداتنا وأنماط تفكيرنا، وتوجُّهات قلوبنا، وممارساتنا

المختلفة. نشكره على حمايته لنا من النتائج الكاملة لعَمانا وحَماقاتنا، وعلى المرّات التي كشف لنا فيها نفسَه ممكّنًا إيّانًا من الاستمتاع بالشركة معه، والمرّات التي استمعَ فيها صلواتنا؛ وسار معنا لنعبرَ الألم والمعاناة.

الصلاة الختاميّة

تتميّز المزامير الختاميّة في سفر المزامير بكونها مزامير تسبيح، والمزمور الأخير يتكلّم عن التسبيح بأقوى التعبيرات:

"سبّحوا الله
في قُدسه.
سبّحوه في فلك [سموات] قُوَّته.
سبّحوه على قوّاته.
سبّحوه حسب كثرة عظمته.
سبّحوه بصَوت الصُّور [البوق]
سبّحوه برباب وعود.
سبّحوه بدُفٍّ ورَقْصٍ.
سبّحوه بأوتارٍ ومزمار.
سبّحوه بصُنوج التَّصويت.
سبّحوه بصُنوج الهُتاف.
كلُّ نسمةٍ فلتُسبّحِ الرَّبّ.
هلّلويا".

لماذا ينتهي سفر المزامير بالتّسبيح المستمرّ؟ يعتقد يوجين بيترسون أنَّ كلَّ الصلوات يجب أن تنتهيَ بالتسبيح كما أنَّ التسبيحات تشكِّلُ جميع الصلوات.

"كلُّ الصلوات [الحقيقيَّة]، التي نستمرُّ فيها بما يكفي، تصيرُ تسبيحًا. أيُّ صلاة، مهما كانت بدايتها يائسة، ومهما كانت تعبِّر عن خبرات غضب أو خوف، فإنَّها تنتهي بالتسبيح. وهي دون شكٍّ لا تصلُ إلى محطَّة التسبيح بسرعة أو بسهولة- إذ يمكن أن تمتدَّ هذه الرحلة طَوال العمر- لكنَّ النهاية دائمًا هي التسبيح...هناك إيحاءات وإشارات إلى ذلك طَوال سفر المزامير، فلأكثَرَ من مرَّة، وعلى عكس المتوقِّع منطقيًّا ودون تمهيد، ينفجر التسبيح.

لا يقفُ المزمور الأخير بمفرده في ذلك؛ فهناك أربعة مزامير تهليل وُضِعَت قبله بحيث يكون هو المزمور الأخير من خمسة مزامير تختتم السفر. وتتميَّز هذه المزامير الخمسة بعنفوان استثنائيّ... [هذا يعني] أنَّه مهما كانت معاناتنا وشكوكنا وغضبنا؛ ومهما كان عدد المرَّات التي تساءلنا فيها بيأس «إلى متى؟»، تتَّجه الصلاة دائمًا نحو التسبيح. وينتهي كلُّ شيء عند عتبات التسبيح. هذا لا يعني أنَّ أنواع الصلاة الأخرى هي أدنى من التسبيح، لكنَّ كلَّ الصلوات تنتهي بالتَّسبيح إذا استمرَّت...لا تتعجَّل، فقد يتطلَّبُ الأمر سنوات، أو حتَّى عشرات السنين، قبل أن تصلَ بعضُ الصلوات إلى المزامير ١٤٦-١٥٠. لا تتوَّج كلُّ الصلوات بالتسبيح؛ فإنَّ أغلب الصلوات لا تصلُ إلى التسبيح، إذا كان سفر المزامير يعكس بصورة حقيقيَّة حياة الصلاة. غير أنَّ الصلاةَ دائمًا تتحرَّك نحو التسبيح، وسوف تصل في النهاية إذا استمرَّتْ بما يكفي.

إذًا...تمتلئ حياتنا بالتدريج بصلاح الله. وتلتقي الأرض والسماء باقترانٍ مذهل. صنوج التصويت تعلنُ المجدَ والبركة. آمين. هلِّلويا".[١٥]

يقول سي. أس. لِويس إنَّ غياب التسبيح لله هو بُعدٌ عن الواقع، بينما يساعدُنا تسبيحه أن ندخل العالم الحقيقيّ، ونستمتع به بصورةٍ أكثر اكتمالاً. وهذا يعطينا رؤيةً مثيرةً وواضحةً للمستقبل. ويفترض لِويس أنَّنا كلَّما امتدحنا شيئًا ما بصورة كاملة، تزدادُ متعتُنا به، وكلَّما "استحقَّ هذا الشيء امتداحَنا، ازدادت شدَّة المتعة". ماذا سيحدث عندما سنتمكَّن في السماء من أن نحبَّ الله الثالوث ونستمتع به، وهو الكائن الأعظم، و"في الوقت نفسه؛ وفي كلِّ لحظة نعبِّر عن هذا الاستمتاع بأكمل التعبيرات"؟ كيف سيكون ذلك؟ إنَّ الإجابة هي أنَّ "النفس ستكون في حالة طوباويَّة عليا". ولنفهمَ إذًا السماء ومستقبل المؤمنين:

> "يجب أن نتصوَّر أنفسنا في حالة من المحبَّة الكاملة مع الرَّبّ- سكارى وغارقين ومُذابين في هذه اللذَّة التي لا يمكن أن نحبسَها داخلنا، بل إن هذه البهجة تنساب منَّا دون توقُّف في تعبير كامل وعفويّ. ولا يعودُ من الممكن أن يُفصَلَ هذا الفرح عن التسبيح الذي يحرِّره وينطق به، كما لا يمكن فصلُ النور الذي تستقبله المرآة عن الإشعاع الذي تعكسه. يقول قانون الإيمان الاسكتلنديّ: "إنَّ الهدف الأسمى للإنسان هو أن يمجِّد الله ويستمتع به إلى الأبد". غير أنَّنا عندئذٍ سنكتشفُ أنَّ تمجيدَ الله والاستمتاع به ليسا سوى أمرٍ واحد. عندما نستمتع إلى الحدِّ الأقصى، فإنَّنا نُمجِّد إلى الحدِّ الأقصى. وعندما نؤمَر أن نمجِّد فليس هذا سوى أنَّنا نُدعَى للاستمتاع به".[١٦]

ما هذه سوى صورةٍ غامرة لمستقبلنا، وهي تمكِّننا من قربُ اختبار تلك الصورة الخلَّابة هنا والآن. تبدو هذه صورة سامية، لكنَّها تتكوَّن من أكثر الحقائق بساطةً وعمليَّة.

أنت تؤمن بإلهٍ مُحِبّ. لكنْ تأتي في حياتك الانتقادات والرفض (علاقة تُكسَر مثلًا)، أو فشل يضربُ سمعتَك في مجالٍ ما. ويشعرُ أيُّ إنسانٍ في مثل هذا الموقف بأنَّه سقطَ من أعلى هوَّة، وصار منبوذًا ومتروكًا. غير أنَّ هناك فرقًا بين أن تشعرَ بالإحباط وتشعرَ بالخراب التامّ- بين أن يصيبَك بعض الجزع، وألَّا تعود قادرًا على الحياة. إنْ كانت محبَّة الله فكرةً مجرَّدةً فقط، فهي إذًا بلا قدرة على التعزية. لكنَّها إنْ كانت واقعًا يمكن الشعور به واختبار حقيقته بالصلاة، فإنَّها تجعَلُك تطفو فوق السطح.

هل لاحظتَ من قبل أنَّك إذا كنتَ تعملُ أمرًا ما، وفي الوقت نفسه تستمع إلى صوتٍ بشريٍّ أو موسيقا أو أيِّ أصوات أخرى، يكون في وُسعك أن تتجاهلَها وتكمل ما تقومُ به؟ أمَّا إذا كان ڤيديو، فإنَّك لا تستطيع أن تفعلَ ذلك. هذا ما تفعله الصلاة- إنَّها تأخذ شيئًا تؤمنُ به بشأن الله، مهما كان شيئًا منفصلًا عنك ويمكنك تجاهُلُه، وتجعلُه حيًّا بحيث لا يمكنك إلَّا أن تنتبه إليه. إنَّ المقابلة مع الله في الصلاة تأخذُ محبَّة الله وعظمتَه وقدرتَه وحكمتَه التي نفهمها على مستوى واحد (مثل الصوت المسموع بلا صورة)، وتعمل منها ڤيديوهات من صوتٍ وصورة. تجعلُنا الصلاة نقفز في ملء حقيقة الله، وتصيرُ محبَّته أكثر حقيقيَّة من أيِّ رفض أو إحباط نختبره. عندئذٍ نستطيع أن نتعاملَ مع مشكلاتنا، ونرفع رؤوسنا فوق المياه مرَّة أخرى.

ماذا يمكن أن يكونَ عمليًّا أكثر من ذلك؟

الفصل ١٣

الحميميَّة: الحصولُ على نعمته

الغفرانُ المجَّانيّ: تكلفة لانهائيَّة

الله يغفر. وللأشخاص المعاصرين، الذين يرون دائمًا من جهةٍ واحدة أنَّه روح مُحِبّ، فهذا لا يبدو أمرًا مميَّزًا. وللأنبياء وكُتَّاب أسفار العهد القديم، كانت حقيقة غفران الله أمرًا رهيبًا عجيبًا لا يكاد يُصدَّق.[١] الله إله "غفور وحنَّان ورحيم" (نحميا ٩: ١٧) له "المراحم والمغفرة" (دانيال ٩: ٩)، غير أنَّه لا ينبغي أن تؤخَذَ هذه الرحمة الإلهيَّة على أنَّها أمرٌ مُسَلَّمٌ به. يقول خروج ٣٤: ٦-٧ إنَّ الله "حافظُ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيَّة. لكنَّه لا يترك المُذنبَ بلا عقاب".

ويُعدُّ هذان التأكيدان المتتابعان أمرًا مذهلًا للقرَّاء المعاصرين. فمع أنَّ الله غفورٌ، فهو أيضًا قدُّوس حتَّى إنَّه لا يستطيع أن يترك الظلمَ والشرَّ بلا عقاب. والنقطتان في حدِّ ذاتهما واضحتان جدًّا، لكنْ كيف يتَّفقان معًا، فهذا ليس واضحًا تمامًا. على أقلِّ القليل، خروج ٣٤: ٦-٧ يكشف أنَّ غفران الله ليس بسيطًا، وليس متوقَّعًا بصورةٍ تلقائيَّة. لذا يقول داوُد في المزمور ١٣٠: ٣-٤: "إن كنتَ تراقب الآثام يا ربّ، يا سيِّد، فمَن يقف؟ لأنَّ عندك المغفرة، لكي يُخافَ منك". لا يقول داود: "بالتأكيد أنت تغفر يا ربّ؛ فهذه وظيفتك"، بل هو يرتعد مدهوشًا من أنَّ إله هذا الكون، الذي نحن مديونون له بكلِّ شيء، يمكن أن يغفرَ التمرُّدَ والخطيَّة. ويقول النبيُّ ميخا ذلك أيضًا على نحوٍ أكثر جلالًا:

"مَن هو إلهٌ مثلُك غافرُ الإثم وصافحٌ عن الذّنب لبقيَّة ميراثه! لا يحفظُ إلى الأبد غضبه، فإنَّه يُسرُّ بالرَّأفة. يعودُ يرحمُنا، يدوسُ آثامَنا، وتُطرَح في أعماق البحر جميعُ خطاياهُم (ميخا ٧: ١٨-١٩).

إنَّ لغزَ خروج ٣٤: ٦-٧ هو في الواقع التوتُّرُ الذي يدفعُ حبكَ العهد القديم كلِّه. يقيمُ الله علاقةً بشعبٍ بواسطة العهد- علاقةً مهيبةً ومُلزِمةً لكنَّها في الوقت نفسه شخصيَّةٌ وحميمةٌ جدًّا. يُقسِمُ كلا الطرفَين بالولاء بعضهما لبعض. "تكونون لي شعبًا وأكون أنا إلهًا لكم" (خروج ٦: ٧). ورغم الكثير من العهود والطقوس، فإنَّ التاريخ المكتوب في الكتاب المقدَّس هو سجلٌّ عن أشخاصٍ ومجتمعاتٍ يحنثون باستمرار بعهودهم ووعودهم والتزاماتهم تُجاهَ الله. لعلَّنا نتوقَّع أنَّ هذا العهد صار لاغيًا وفارغًا. فعدم أمانة الناس تجعلُهم غير مؤهَّلين لبركة الله. ونحن نتوقَّع من الله ببساطة أن يعزلهم من رحمته. غير أنَّ هناك تصريحاتٍ عديدةً على مدار العهد القديم تقول إنَّ الله سيظلُّ أمينًا، وسيغفر لنا خطايانا ويستردُّنا إلى نفسه (إرميا ٣١: ٣١-٣٤، حزقيال ٣٦: ٢٤-٢٩). وفي كلِّ صفحات العهد القديم نواجه السؤال: هل علاقة العهد التي لنا بالله علاقةٌ مشروطةٌ مبنيَّةٌ على طاعتنا له، أم أنها غير مشروطةٍ مبنيَّة على محبَّته لنا؟ في النهاية، هل ستكون قداسته وعدالته أعمق من محبَّته ورحمته، أم العكس؟ هل سيعاقبنا أم سيغفر لنا؟ التناقضُ الظاهريُّ الموجود في خروج ٣٤: ٦-٧ يعبِّر عن هذا اللغز الحافل بالإثارة، وهذا التوتُّر الشديد. كيف سيُحلُّ؟

يشير كُتَّاب العهد الجديد إلى الإجابة عن كلِّ ألغاز العهد القديم: "الذي قدَّمه الله كفَّارةً بالإيمان بِدَمِه، لإظْهار برِّه...ليكونَ بارًّا ويُبرِّرَ مَن هو من الإيمان بيسوع (رومية ٣: ٢٥-٢٦). هل العهد مع الله مشروط لأنَّ الله بارّ، أم هو غير مشروط لأنَّ الله يُبرِّر؟ بسبب العمل العظيم ليسوع المسيح، فالإجابة هي الأمران معًا. عندما مات يسوع المسيح على الصليب أخذ لعنةَ عدم أمانتنا، حتَّى يمكِّننا من استقبال البركة التي اكتسبها لنا بأمانته الكاملة (غلاطِيَّة ٣: ١٠-١٤). لقد أتمَّ يسوع شروطَ

العهد حتَّى يمكِّننا من التمتُّع بمحبَّة الله غير المشروطة. بسبب الصليب، يمكن أن يكونَ الله عادلًا وبارًّا من جهة الخطيَّة، وفي الوقت نفسه رحيمًا يبرِّر الخطاة.

ليس غريبًا إذًا أن نجدَ أنَّه في كلِّ مكان من العهد الجديد نرى يسوعَ مصدرًا لتلك العطيَّة غير المتوقَّعة دائمًا من الغفران الإلهيّ. لقد سُفكَ دمه من أجل الغفران (متَّى ٢٦: ٢٨)، وصعد إلى يمين الله ليحصل لنا على الغفران (أعمال ٥: ٣١)، والرسالة التي يبعث بها تلاميذه إلى العالم هي أن "يكرزوا بغفران الخطايا" (لوقا ٢٤: ٤٧). ويقدِّم بولس الرسول الخلاصةَ "الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا" (أفسس ١: ٧). فقط على خلفيَّة العهد القديم؛ وذلك اللغز العظيم عن الكيفيَّة التي يمكن أن يفي الله بعهده معنا، يمكننا أن نرى مجَّانيَّة الغفران، وفي الوقت نفسه ندرك التكلفة الباهظة الأبديَّة لذلك الغفران. ويعني هذا أنَّه لا توجد خطية الآن يمكنها أن تُدخِلَنا في دينونة، بسبب ذبيحة المسيح الكفَّاريَّة. كما يعني أيضًا أنَّ الخطيَّة خطيرة ومحزنة جدًّا لله، حتَّى إنَّه كان على يسوع أن يموت. يجب أن ندركَ هذين الجانبَين من نعمة الله، وإلَّا سننزلقُ إلى أحد هذين الخطأين القاتلَين. إمَّا أن نظنَّ أنَّ الغفران أمرٌ سهلٌ وغيرُ مُكلِفٍ لله، وإمَّا أن نشكَّ في حقيقة الغفران الذي نلناه بالمسيح يسوع، وفي شموليَّة ذلك الغفران.

كلا الخطأين مميتان روحيًّا. أن نفقد وعينا بفداحة الخطيَّة وتكلفة الغفران يجعلُ اعترافَنا وتوبتَنا ممارساتٍ سطحيَّة دون معنى لا تؤدِّي المطلوب منها لتنقية القلب، ومن ثَمَّ لا تصنع تغييرًا حقيقيًّا في القلب والحياة. وعلى الجانب الآخر، عندما نفقد إدراكَنا لمجَّانيَّة الغفران، فهذا سيؤدِّي إلى حالةٍ مستمرَّة من الشعور بالذَّنب والخزي وكراهية النفس. فقط عندما ندرك مجَّانيَّة النعمة التامَّة وتكلفتها الباهظة، يمكننا أن ننالَ الراحة والأمان من ناحية، ونحصلَ من ناحية أخرى على التغيير والحرِّيَّة من سطوة الخطيَّة وسلطانها.

تذكُّر مجّانيَّة الغفران

لقد دفع يسوع المسيح أجرة خطايانا؛ فلن تقعَ علينا عقوبة الخطايا، نحن الذين تُبْنا وآمنَّا به (رومية ٨: ١). إذا نسينا هذا، فإنَّنا نحوِّلُ الاعترافَ إلى عقابٍ شديد، وتعذيبٍ للنَّفس بدلَ التوبة التي يقدِّمُها الإنجيل.

تحدَّى مارتن لوثر السُّلطات الكنسيَّة أن تناقشَ أطروحاته الخمس والتسعين، التي علَّقها على باب كنيسة ويتينبرغ (Wittenberg) في ألمانيا سنة ١٥١٧م. كان نصُّ الأطروحة الأولى: "لقد أرادَ ربُّنا وسيِّدنا يسوع المسيح...أن تكونَ الحياة الكاملة للمؤمنين حياةً من التوبة المستمرَّة".[٢] للوهلة الأولى يبدو أنَّ هذا يقول إنَّ المؤمنين لن يحقِّقوا أيَّ تقدُّم، بل سيُخطِئون دائمًا ويفشَلون ويطلبون الغفران. غير أنَّه كان في الواقع يعلنُ العكس تمامًا: أنَّ التوبة هي الطريق الذي يحقِّقُ التقدُّم في الحياة المسيحيَّة. إنَّها مفتاح النموِّ بعمقٍ وثبات إلى شخصيَّة السيِّد المسيح.

تغيِّر نظرة لوثر إلى إنجيل التبرير المجانيّ- أي أنَّنا نخلُصُ ونُقبل بالمسيح دون أيٍّ من الأعمال الصالحة أو المجهودات البشريَّة- من طبيعة التوبة ومفهومها. عندما ننسى مجّانيَّة النعمة، يصيرُ الهدف من التوبة تهدئةَ إلهٍ غاضب. عندما لا نكون واثقين بأنَّ الله يحبُّنا في المسيح، فإنَّ التوبة والاعتراف يصيران طريقة نضع بها أنفسنا على الجانب الصحيح من الله بالتعبير عن ندمنا، لعلَّنا نستطيع أن نبهره بإخلاصنا، ونحرِّك قلبَه ليشفقَ علينا. إذا كان هذا ما ستصير عليه التوبة، فهي ليست سوى برٍّ ذاتيٍّ مُرٍّ من القمَّة إلى القاع. وستؤدِّي إلى قهرِ الإرادة، لا إلى تغيير القلب والذهن والنيَّة.

رفض لوثر هذا النوع من التوبة الناموسيَّة حاسبًا إيَّاها نوعًا من البرِّ الذاتيِّ؛ لأنَّها محاوَلةٌ بشريَّة منَّا أن نكفِّر نحن بأنفسنا عن خطيَّتنا. ويمكنها أن تتحوَّل أيضًا إلى جَلدٍ للذّات، بل صلبًا لها نحاول به أن نُقنع الله (وأنفسنا) أنَّنا حقًّا تَعِسون ونادمون حتّى إنَّنا نستحقُّ الغفران. ليس هذا اعترافًا بِاسْم يسوع، بل بِاسْمِنا نحن.

إنَّنا نحاول أن ننالَ رحمةَ الله بآلام ضمائرنا. أمَّا الإنجيل فيقول إنَّ السيِّد المسيح هو الذي تألَّم من أجل خطايانا، فلا نحتاج لأن نجعَلَ أنفسَنا نعاني لنستحقَّ الغفرانَ الذي حقَّقه لنا السيِّد المسيح.

على العكس من ذلك يكتب الرسول يوحنَّا أنَّنا إذا اعترفنا بخطايانا فالله "أمين وعادلٌ حتَّى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كلِّ إثم" (١يوحنَّا ١: ٩). لا يقول الرسول يوحنَّا إنَّنا إذا اعترفنا بخطايانا، فهو سيغفر لنا خطايانا لأنَّه رحيم (مع أنَّ هذا صحيح تمامًا)، بل يقول إنَّه سيغفر لنا خطايانا عندما نعترف بها؛ لأنَّه عادل. بكلمات أخرى، يكون من عدم العدل ألَّا يمنحَنا الغفران؛ لأنَّ يسوع حصل لنا على القبول، كما يشير يوحنَّا في ما يلي من أعداد: "إن أخطأ أحد، فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البارّ. وهو كفَّارة لخطايانا..." (١يوحنا ٢: ١-٢). كلُّ الذين في المسيح ينبغي أن ينالوا الغفران، وسينالونه. لماذا؟ لأنَّه أخذ في نفسه عقوبة الخطيَّة، ودفع دَينَ خطايانا جميعًا. سيكون من عدم العدل من جانب الله- وعدم أمانة من نحو عهده معنا- أن يستردَّ الدَّين مرَّتَين، لذا يكون من الإجحاف (عدم العدل) ألَّا يغفرَ لنا. هذا التأكيد العميق والأمان الأكيد يحوِّلُ التوبة من كونها وسيلةَ التكفير عن خطايانا، إلى وسيلةٍ لتَمجيدِ الله وإكرامه وإخضاع حياتنا له.

التوبة الناموسيَّة مدمِّرة. أمَّا بولس فيقول عن توبة الإنجيل إنَّها "تؤدِّي إلى خلاص بلا ندامة"، على العكس من "حزن العالم الذي ينشئ موتًا" (٢كورنثوس ٧: ١٠). في التديُّن المبنيِّ على الاستحقاق الأخلاقيِّ يكون رجاؤنا الوحيد أن نحيا حياةً صالحة بما يكفي لأن يباركنا الله. لذا فكلُّ مناسبةٍ للتوبة، بحسب هذا المنظور، هي حالةٌ غير طبيعيَّة من حالات الضرر والإيذاء؛ لأنَّها تؤدِّي فقط (كما نظنُّ) إلى أنَّنا نحاول كَسبَ رضى الله بواسطة بؤسنا. فدون إدراكٍ ثابتٍ لمجَّانيَّة حصولنا على التبرير، سنعترفُ بالخطأ فقط تحت إكراه شديد، وفقط بوصف الاعتراف إجراءً أخيرًا عندما نفشل في تبرير أنفسنا. سنركِّز على السلوك نفسه، ولا نرى توجُّه القلب

المنحصر في الذات الذي يقبع وراء السلوك. وسنتحمَّل أقلَّ قدرٍ ممكن من اللَّوم، ونبدأ نسردُ لأنفسنا وللآخرين كلَّ الأحوال المحيطة التي جعلتنا نخطئ لنبرِّر أنفسنا. عندما نحاول أن نتوبَ بهذا التوجُّه الناموسيِّ للتوبة- حيث إنَّنا لا يمكن أن نكون واثقين بنيلِنا رضى الله- فلا يمكنُنا بتاتًا أن نختبر راحةَ التيقُّن من غفران يسوع.

أتذكَّر ذات مرَّة أنِّي قابلتُ رجلًا كان في حالةِ ضيقٍ شديدٍ بشأن علاقة جنسيَّة خارج إطار الزواج حدثت منذ سنوات عديدة، ولم يعترف بها لزوجته، التي وقفت بدَورها بجانبه لمَّا تعرَّضَ لمرضٍ شديد، وفي أثناء مروره بمشكلات مهنيَّة خطيرة. عندما شاركني بهذا الأمر كانت زوجته قد تُوُفِّيت، لكنَّه لم يكن يصدِّق أنَّ الله غفرَ له. عندما سألتُه عن سبب ظنِّه أنَّ الله لم يغفر له، قال لي إنَّه لا يظنُّ أنَّه تاب بما يكفي من التواضع ليُغفَر له، مع أنَّه عاشَ سنواتٍ عدَّة منسحقًا تحت وطأة الشعور بالذَّنب. فاقترحتُ عليه أن يطلبَ من الله غفرانًا ليس فقط من أجل هذه العلاقة، بل لأنَّ قلبَه لم يكن متَّضعًا بما يكفي. نظر إليَّ باستغرابٍ وتساءل إنْ كان ممكنًا أن يغفرَ الله له شيئًا كهذا. فأجبته، هل مات يسوع فقط من أجل غفران العلاقات المحرَّمة، وليس من أجل القلوب القاسية؟ قد أدَّى ذلك إلى حدوث اختراق في موقفه. عندما أدرك أنَّ يسوع المسيح دفع أيضًا ثمنَ غفران قسوة القلب، شعر بأنَّ قلبه يذوب حُنوًا مرَّةً أخرى. عندما نالَ وعيًا أعمقَ بحرِّيَّة النعمة- نعمةٍ ليست مشروطةً بالقلب الذي يشعر بمشاعر ندم تامَّة- فإنَّ ذلك أدَّى عكسيًّا إلى حصوله على مزيد من التواضع أمام الله.

كلُّ هذا كان في أطروحة مارتن لوثر الأولى التي علَّقها في ويتنبرغ. إذا عرفنا أنَّنا محبوبون ومقبولون رغم خطايانا، فإنَّ هذا يسهِّلُ علينا أكثر أن نعترفَ بخطايانا؛ لأنَّه يمنحُنا الأمانَ الروحيَّ والنفسيَّ العميق والضروريَّ الذي يجعلنا نُسرعُ بالاعتراف عندما نخطئ. وهذا بدَوره يحلُّ أغلب الصراعات، إذ لا يصيرُ الاعتراف بالأخطاء مثل خلع الأضراس، كما أنَّ هذا يُبسِّط الكثير من المشكلات

الشخصيَّة؛ لأنَّنا عندما نكون قد اتَّخذنا مسارًا خاطئًا في التصرُّف، نكون أكثر استعدادًا لأن نراه ونتراجعَ عنه. والأهمُّ من ذلك كلِّه، يمكننا أن نعترف لله بخطايانا أسرع، وعلى نحو أكثر تواترًا، ونتذكَّر موت المسيح الكفَّاريِّ، ونعيش، وإن كان بصورة مصغَّرة، فرحَ الخلاص عند كلِّ مرَّةٍ نختبرُ فيها غفران خطيَّةٍ ما. ورغم أنَّ هناك دائمًا بعضًا من المرارة والحزن في التوبة، فإنَّ الإدراك الأعمق للخطيَّة يقود إلى التحقُّق الأكبر من النعمة. وكلَّما علمنا أنَّه غُفِرَ لنا، تُبنا ونَمونا بسرعةٍ وتغيَّرنا، وبهذا يتعمَّق تواضعُنا وفرحُنا.

تَذَكُّر تكلفة الغفران

من الخطأ إذًا أن نحسبَ أنَّ الاعترافَ عمليَّة شاقَّةٌ من تنقية النفس، وما يصحِّح هذا الخطأ هو مجَّانيَّة الغفران في المسيح. لكنَّ من الخطأ أيضًا اتِّخاذ الغفران بخفَّة وعلى أنَّه أمرٌ مسلَّم به، وأن ننسى الكيفيَّة التي حصلنا بها على هذا الغفران. لقد استمعتُ ذات مرَّة لعظةٍ من مارتن لويد–جونز (Martyn Lloyd-Jones) قال فيها إنَّ غفرانَ الخطيَّة كان أكبرَ مشكلةٍ واجهَتِ الإله العادلَ القدُّوس. ثمَّ فورًا أحاطَ بهذا التصريح ما يلزم من محاذير. لا شكَّ أنَّ الله كلِّيُّ القدرة والسيادة، غير أنَّ كلَّ خطيَّة هي أشبَه بدَين يجب دفعه. أن تغفرَ دَينًا فهذا يعني أنَّك تتحمَّلُ التكلفة. وقد تطلَّبَ دَيننا العظيم من نحو الله دفعَ تكلفة، والطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن يغفرَ الله لنا هي أن يتحمَّل هو تكلفةَ الخطيَّة. لذا فإنَّ الله الآب أرسلَ الله الابن ليأخذَ عنَّا هذا العقاب، وهما معًا أرسلا الروح القدس إلى قلوبنا ليشهدَ لنا، ويساعدَنا أن نقبلَ هذا الخلاص الثمين.

لماذا يعدُّ هذا مهمًّا؟ لأنَّنا إذا نسينا تكلفة الخطيَّة، فإنَّ صلواتِ اعترافنا وتوبتنا ستكونُ سطحيَّةً وتافهة. وهي لن تكرمَ الله ولن تغيِّرَ الحياة. في كتاب "**اعترف بخطاياك**" *(Confess Your Sins)*، يعترفُ اللاهوتيُّ البريطانيُّ الراحل جون ستوت

(John Stott) أنَّ كثيرًا من المؤمنين بالمسيح يعترفون بخطاياهم بصورة روتينيَّة، غير أنَّ أغلبهم لا يجدون أنَّ اعترافاتهم هذه تغيِّرهم، ويعودون ثانيةً إلى تكرار الأنماط السلوكيَّة القديمة ذاتها.

ويقول ستوت إنَّه يجب أن يتضمَّن اعترافنا بخطايانا التخلِّي عنها. ولا ينبغي الفصل بتاتًا ما بين الاعتراف والتخلِّي، لكنَّ معظم الناس يعترفون ويُقرُّون أنَّ ما فعلوه كان خطأ، دون أن يتخلَّوا في الوقت نفسه عن الخطيَّة ويتحوَّلون بقلوبهم عنها بطريقةٍ تُضعِفُ من فرصة وُقوعهم فيها مرَّة أخرى.[٣] علينا أن نحزنَ من داخلنا بسبب الخطيَّة، حتَّى ونحن نغلِّف العمليَّة بجملتها بمعرفة حقيقة أنَّنا مقبولون لدى السيِّد المسيح؛ لأنَّ من شأن ذلك الحزن أن يخفِّف من قبضة الخطيَّة علينا.[٤]

عندما كنتُ راعيَ كنيسةٍ في بلدة صغيرة في الجنوب في السبعينيَّات، قدَّمتُ مشورةً إلى زوجَين من أعضاء الكنيسة. كان الزوج يواجه مشكلةَ عدم القدرة على التحكُّم في غضبه، وعادة ما كان يتكلَّم مع زوجته بقسوة. عندما بدأتُ الاجتماع بهما، كان يتعامل مع الموقف باستخفاف شديد؛ ففي مجموعة أقرانه وفي الثقافة التي كان يعيش فيها كان هناك الكثير من الرجال الذي يسيئون إلى زوجاتهم أكثر منه. فكان يقول لنفسه: "أنا لا أضرب زوجتي، ولا ألقي بالأشياء ولا أكسرها عندما أغضب". وعندما حاولتُ أن أجعلَه يرى خطورةَ الموقف، لم يقتنع بكلامي. وأخيرًا تركَتْ زوجتُه البيت. وقتها جاء إليَّ فَزِعًا ومستعدًّا لأن يستمع إلى نصيحتي بأن يعمل التغييرات اللازمة ليصطلحَ معها، وقد أصرَّ أنَّه مستعدٌّ للتَّوبة. وعندما استجاب للإرشاد، عادت زوجتُه إلى المنزل. وبعد عدَّة شهور، عادت لغتُه المسيئة من جديد، فتركَتِ المنزلَ نهائيًّا. كان واضحًا أنَّ توبتَه كانت مدفوعة بتأثير نتائج ما يفعله، وليس باقتناعٍ قلبيٍّ عميقٍ بخطأ ما يفعل. هذا يعني أنَّه لم يَتُبْ قَطّ.

هذا مثلٌ تقليديٌّ على مبدأ ستوت. يمكن أن نعترفَ أنَّ شيئًا ما خطأ دون أن يتكوَّن لدينا تصوُّر جديد عن الصواب، حيث لا نختبر نفورًا داخليًّا من الخطأ

يعطينا القوَّة والحرِّيَّة للتغيير الحقيقيّ. بكلماتٍ أخرى أقول إنَّ هناك نوعًا مزيَّفًا من التوبة هو في الواقع نوعٌ من رثاء الذَّات. قد تعترف بخطيَّتك، لكنَّك لستَ نادمًا عليها حقيقة. أنت نادمٌ فقط على النتائج السلبيَّة التي أدَّت إليها الخطيَّة. وحيث إنَّك تريد إنهاءَ الألم المترتِّب على السلوك، فإنَّك توقِفُ السلوك، لكن دون اقتناع عميقٍ بأنَّك ارتكبتَ خطأً. لم تتغيَّر معتقداتك بشأنه، ولا تغيَّرت رغباتك ورؤيتك الخاطئة إلى نفسك وحقوقك، وهي الأمور التي تؤدِّي في الواقع إلى الخطية. مثلًا، لم يواجه هذا الزوج حقيقةَ كبريائه وعدم أمانه واحتياجه المبالغ فيه إلى الاحترام من زوجته دون أن يبادلَها هو الاحترام، وهذه الأمور الداخليَّة هي التي كانت تدفعُه نحو ذلك السلوك. كانت "توبته" أنانيَّة تمامًا، وكان يهتمُّ فقط بالألم الناجم عن سلوكه، ولم يكن يشعر بحزنٍ عميق لما سبَّبه لزوجته ولله. لقد كان يعتذرُ من نفسه، وليس من خطيَّته.

ومن هنا يقول ستوت إنَّ على التوبة الحقيقيَّة أن تتكوَّن من أمرَين: الاعتراف والرفض. نبدأ بالاعتراف والإقرار بالخطيَّة كما هي، ثمَّ نرفضُها ونتركها بأن نتبنَّى التوجُّه السليم من نحو الله، وتُجاهَ الخطيَّة نفسها.[5] ومن أمثلةِ الكتاب المقدَّس، ينظرُ ستوت إلى أعظم مزامير التوبة، وهو المزمور الذي اعترف فيه داود بخطيَّته، بل أكَّد أيضًا فيه قائلًا: "إليك وحدك أخطأت" (مزمور ٥١: ٤). لم ينكر أنَّه أخطأ في حقِّ البشر؛ فهو دون شكٍّ فعلَ ذلك، لكنَّه كان يحاول جَعْلَ نفسه ترى أنَّه أخطأ في حقِّ الله، عندما داس الناس الذي خلقهم الله. ويكشف لنا لاويِّين ٦: ٢ هذا المبدأ جيِّدًا عندما يقول: "إذا أخطأَ أحدٌ وخانَ خِيانةً بالرَّبِّ، وجحَدَ صاحبَه [بأنْ جحدَ صاحبَه] وَديعَةً أو أمانةً أو مَسلوبًا..." كان داوُد يحاول أن يجعل قلبَه يرى أنَّ "كلَّ خطيَّة هي أوَّلًا، وقبل كلِّ شيء، خطيَّة في حقِّ شريعة الله".[6]

هناك دراسةُ حالةٍ أخرى توضح هذين الجزأين من التوبة، وهي مزمور ٣٢. أوَّلًا هناك أمانة. "قُلتُ: «أعترَفُ للرَّبِّ بِذَنبي»" (العدد ٥). ثمَّ يقول داود في العدد

نفسه: "لا أكتم إثمي". هناك طرق كثيرة نكتمُ بها الإثم ونغطِّيه. قد نسوِّغ الخطيَّة أو نقلِّل من شأنها بإلقاء اللَّوم على الأحوال وعلى الآخرين. لكنَّ التوبة تعترف أوَّلًا بالخطيَّة كما هي، وتبدأ التوبة الحقيقيَّة عندما يتوقَّف إلقاء اللوم على أيِّ شيء آخر، ويتحمَّل المرءُ مسؤوليَّة الخطيَّة.

لا يتوقَّف داوُد عند هذه النقطة لكنَّه يقول: "لا تَكونوا كفرسٍ أو بَغلٍ بلا فَهم. بِلجام وزمام زينتِه يُكَمُّ لئلَّا يدنوَ إليك" (العدد ٩). لا يُحبُّك البغلُ للدَّرجة التي فيها يقترب إليك لأنَّك تريده أن يفعلَ ذلك، بل يجب السيطرة عليه بالثواب والعقاب، كما هي الحال في تدريب أيِّ حيوان. سيقتربُ إليك عندما تجعل له مكافأةً إنْ فعلَ ذلك. سيأتي إليك من أجل نفسه، وليس من أجل خاطرِك. لا يتوبُ داوُد مثل بغل؛ ليس لأنَّ الأوضاع دفعته إلى ذلك، بل هو يتوق إلى التوبة لأنَّه يفهمُ حقيقة الخطيَّة في نظر الله، وفي محبَّة يريد أن يُسِرَّ الله الذي يحبُّه. وكما أنَّ التوبة الحقيقيَّة تبدأ فقط عندما يتوقَّف إلقاء اللوم، فإنَّها تبدأ أيضًا عندما نتحوَّل عن خطيَّتنا بدافع محبَّة الله، لا بدافع المصلحة الشخصيَّة.

لا يتذلَّل داوُد خوفًا من إلهٍ قاسٍ، بل يؤكِّد أنَّ "المتوَكِّلُ على الربِّ الرَّحمَةُ تُحيطُ به" (العدد ١٠). وليست هذه إشارةً إلى محبَّة الله عمومًا، بل إلى أمانة الله، ووعده لشعبه المرتبط بالعهد معهم. أمَّا المسيحيُّون فلديهم مصدرٌ أعظم كثيرًا للفرح والعرفان ممَّا كان لداوُد. لقد كان داوُد يعرفُ الوعدَ العامَّ لله أن يكون أمينًا مع شعبه (تكوين ١٥). لكنَّنا نعرفُ التكلفةَ اللامتناهيَّة، والعمق السحيق لأمانة الله، لأنَّنا رأينا يسوع المسيح يموت من أجلنا على الصليب. ثمَّ إنَّ داود يعترف هنا بأفعاله الخاطئة، كما أنَّه يكتشفُ أيضًا توجُّهات قلبه التي أدَّت إلى تلك الأفعال، ويستبدل بها أفكارًا أخرى عن مجد الله ومحبَّته وأمانته، حتَّى إنَّ دوافع العناد والأنانيَّة تبدأ تضعف وتتآكل. يعترف بخطيَّته على مستوى الذهن، ثمَّ يتركها على مستوى القلب.

ما كتبه جون أوين عن قتل الخطيَّة

من الطبيعيِّ أن تتساءل: "ألا يمكن أن يكون هذا «الندم على الخطيَّة» نوعًا من اجترار الشعور بالذنب؟ ألا ينبغي أن ننظرَ إلى أنفسنا بوصفنا مُبرَّرين مجَّانًا وأولادًا محبوبين في أسرة الله؟" أجل، لكنْ حتَّى تكون واحدًا من أولاد الله، فيعني هذا ليس فقط أن تطمئنَّ آمنًا في محبَّته. أن تكونَ من أولاد الله الأحبَّاء، فهذا أيضًا يعني أنَّك تريد أن تُفرِّح أباك وتريد أن تمثِّله وتكون مثله. يعني هذا أنَّنا عندما نخطئ، فإنَّنا ننتهز أيَّة فرصة لنطلبَ منه أن يسامحَنا لأنَّنا أحزنَّاه، ونبذل الجهد لتغيَّر قلوبُنا وتصير تلك القلوب التي لن تحزنَه مجدَّدًا في المستقبل. ليس فقط سنعترف بالخطيَّة، بل سنتركها كما يقولُ ستوت. كيف نفعل ذلك إذًا؟

يحمل كتاب جون أوين الكلاسيكيُّ عن هذا الموضوع عنوانًا صعبًا هو "إماتة الخطيَّة"، وهو يعني إضعافَ الخطيَّة على مستوى الدوافع الداخليَّة بالتأمُّل في قداسة الله ومحبَّة يسوع المسيح، وغيرها من عقائد الكتاب المقدَّس، ثمَّ رؤية خطيَّتنا المحدَّدة في ضَوئها. وتجعلُ هذه العمليَّة الخطيَّة في حدِّ ذاتها تبدو غير جذَّابة لنا، فنرى حماقتها وشرَّها في ضوء هذا النور الحقيقيِّ، ونجدُ أنفسنا أكثر قدرةً على مقاومتها في المستقبل.

ويمكن أن يحدُثَ هذا فقط، كما يكتب أوين، إذا استهدفنا التحرُّك في ما وراء رؤية مجرَّد خطر الخطيَّة علينا- أي آثار نتائجها فينا- ونجد طرقًا بها نقنع قلوبنا بفداحة الخطيَّة لله، أي كيف أنَّها تُحزِنه وتنال من مجده، وهو الذي نُدين له بكلِّ شيء. إذا فكَّرنا فقط في خطورتها علينا ثمَّ اعترفنا، فسنجد أنَّ توبتنا ستتميَّز بتوجُّه أنانيٍّ لتحقيق المصلحة الشخصيَّة، وهذا أمرٌ يجعلنا نعود ثانيةً إلى عيوبِ الشخصيَّة نفسها مرَّة تلو الأخرى.[7] على العكس من ذلك، يحثُّنا أوين أن نكتشفَ أنماطَ الخطيَّة المعتادة في تفكيرنا ونستبدل بها أفكارًا "حيَّة روحيًّا" عن الله وخلاصه. ويمكن أن تقتلَ مثل هذه الأفكار عاداتِ الخطيَّة.[8] فما هذه الأفكار؟

يبدأ أوين بمدى رائع من العقائد التي يمكن أن نستخدمها مع أنفسنا، لنُضعِفَ من قبضة الخطيَّة علينا. يوصينا أن نفكِّر في مدى الحميميَّة التي لنا الآن مع الآب والروح القدس، وعدالة القانون الإلهيّ، وتكلفة تضحية المسيح، ومجد الله المتسامي، وصبر الربِّ من نحونا.[٩] ويشرح لنا كيف نتأمَّل في كلٍّ من هذه الحقائق الكتابيَّة بالطريقة التي تجعلُنا نجدُ الخوفَ والأنانيَّة والكبرياء والعناد وكلَّ هذه الأمور التي فينا تنزوي وتموت، كما تجفُّ قطرات الندى، ويموت الفطر النامي على الأرض المبتلَّة تحت أشعَّة الشمس الدافئة. لا يقدِّم إلينا نموذجًا لبرنامج يمكن أن يطبِّقه الجميع. غير أنَّه يدعونا لأن نتعلَّم طرقًا تلتقطُها قلوبنا بالفطرة، وأن تخترعَ قلوبُنا مقطوعاتٍ فرديَّة متنوِّعة على لحن الحقِّ الإلهيّ، وهذه طرقٌ نكلِّمُ بها قلوبَنا ونعظها، مستخدمين حقائق الكتاب المقدَّس بطرقٍ تُضعفُ المعتقدات الزائفة والتوجُّهات الخاطئة. ويقدِّم إلينا أوين بعضَ الأحاديث المهمَّة- من الواضح أنَّها مأخوذة مباشرةً من حياة الصلاة التي يعيشُها- التي تكشف بوضوح كيف تَحدُثُ هذه "الإماتة" في القلب.[١٠] لا تقولُ مقطوعات أوين شيئًا من قبيل: "يجب أن أتوقَّف وإلَّا سأُعاقَب"، إذ يُغذِّي مثل هذا الكلام إلى النفس الأنانيَّة والانحصار في النفس، وهما مصدر الخطيَّة، بينما تظنُّ أنَّك تتوب. بل هو يقول أمورًا مثل: "كيف أعامل يسوع هكذا- الذي مات لئلَّا أُعاقَب أنا؟ أهكذا أعامل ذلك الذي جَعَلَني أحيا في هذه النعمة وذلك القبول غير المشروط؟ أهكذا أعامله بعد كلِّ ما فعل؟ هل أفشل في الغفران، بينما مات ليغفرَ لي؟ هل أقلق على خسارة المال بينما أعطاني هو نفسه ليكون أماني الحقيقيَّ وثروتي الباقية؟ هل أغذِّي كبريائي بينما هو أخلى نفسه من مجده ليخلِّصني؟"

وبينما يكشف أوين أنَّه يمكن إضعاف الخطيَّة بالتأمُّل في تنويعاتٍ كبيرةٍ في عقائد الكتاب المقدَّس، فإنَّه يُفضِّل الحقائق التي تأتي من قلب الإنجيل. يقول إنَّ مجهوداتِ توقيف الخطيَّة الآتية من "إدراك الشريعة" ستوقف "بعض الخطايا"

لوقتٍ ما، أمَّا هؤلاء الذين يريدون إضعافَ الخطيَّة بواسطة "روح الإنجيل" فسيُغيِّر هذا الإنسانَ بجملته- ذهنيًّا وإراديًّا ووجدانيًّا.[١١] إنَّ ما يقوله أوين هنا هو أنَّ الإماتة الناشئة فقط من الاقتناع بالقانون- أي من الإيمان أنَّنا يمكن أن نخلِّصَ أنفسنا بجهودنا- لا يمكن أن تغيِّر قلبًا خاطئًا. يمكنها فقط توقيف الفعل مؤقَّتًا بالضغط الخارجيّ. إنَّ حقَّ الإنجيل- محبَّة السيِّد المسيح التي أدَّت إلى موته من أجلنا، والتزامه غير المشروط من نحونا، وذبيحته الثمينة لتبنِّينا في عائلة الله- هو الذي يجعل الخطيَّة نفسها كريهة في عيوننا."[١٢]

هذه الطريقة المتمركزة حول الله في الاعتراف بالخطية وتركها هي الأداة الأقوى للتغيير. أمَّا الخوف من النتائج فيُغيِّر السلوك بالقمع الخارجيِّ وليس الداخليّ، فتظلُّ الدوافع الداخليَّة كما هي. أمَّا الرغبة في إرضاء الذي خلَّصنا والذي يستحقُّ وحده كلَّ حمدٍ وشكرٍ وإكرام- فهذا يغيِّرنا من الداخل إلى الخارج. يكتب المؤلِّف المنتمي إلى التقليد البيوريتانيِّ ريتشارد سيبس (Richard Sibes)، في كتابه الكلاسيكيِّ "**القصبة المرضوضة**" *(The Bruised Reed)* أنَّ التوبة ليست "أن نحنيَ رؤوسنا انحناءةً بسيطة...بل هي عمل في قلوبنا يؤدِّي بنا إلى النوح الذي يجعل الخطيَّة [في حدِّ ذاتها] أسوأ لنا من عقابها".[١٣]

فحصُ النفس والتوبة

لا تقدِّمُ صلوات الاعتراف بوصفها ردَّ فعل مباشر لخطيَّة أنت بالفعل مدرك لها، ومقتنع بكَونها خطيَّة، بل بعد حالةٍ من فحص النفس. إنَّ حياة الصلاة هي المكان الذي فيه نمتحن حياتَنا ونبحث عن الخطايا التي بسبب ضعف حسَّاسيَّتنا أو انشغالنا، نفشل في الاعتراف بها. يجب أن تكون لنا أوقات منتظمة لممارسة فحص الذات، مستخدمين إرشادات تأتي من الأوصاف التي يقدِّمها الكتاب المقدَّس عن الحياة المسيحيَّة كما ينبغي أن تكون. ويوصي مارتن لوثر، كما رأينا من قبل،

بممارسة منتظمة، أو حتَّى يوميَّة، للوصايا العشر. وتتضمَّن طريقته للتأمُّل التفكير في الطرق التي يمكن أن نكونَ قد تجاوزنا بها أيًّا من هذه الوصايا سواء بالفعل أم بتوجُّه القلب. ويتطلَّبُ هذا النوع من فحص الذات فهمًا جيِّدًا لما تحرِّمه هذه الوصايا وما تسمح به. كثير من قوانين الإيمان المصلحة- مثل قانون إيمان هايدلبيرغ (Heidelberg) أو وستمنستر (Westminster) بنسختَيه المطوَّلة والمختصرة- تقدِّم قوائم طويلة من الأوصاف التي تساعدنا أن نعرفَ خطايانا ونعترف بها. هناك مرشد آخر لفحص النفس وهو ثمر الروح القدس كما تَرِدُ في غلاطِيَّة ٥: ٢٢-٢٣. ويتطلَّب هذا أن تدرس المحبَّة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح والإيمان والوداعة والتعفُّف. يجب أيضًا أن تكونَ لديك فكرة كيف تبدو هذه الثمار سلوكيًّا في الحياة اليوميَّة، وكيف يبدو غيابها. وبمجرَّد أن يكون لديك هذا الإطار العامُّ بالدراسة لما هو خطيَّة وما ليس كذلك، يمكن أن تطبِّقَ التأمُّل بطريقةِ مارتن لوثر على كلِّ هذه الثمار، ومن ثَمَّ يكون لديك فحصٌ روحيٌّ جيِّدٌ لنفسك.

مثلًا، كتبَ المبشِّر البريطانيُّ من القرن الثامن عشر جورج وايتفيلد (George Whitefield) ذات مرَّة ما يلي: "يا ربّ، أعطني تواضعًا عميقًا، وغَيرة في الاتِّجاه الصحيح، ومحبَّة متَّقدة وعينًا بسيطة، ثمَّ ليفعلِ البشرُ والشياطين أسوأ ما يستطيعون".[١٤] تقدِّمُ هذه الصفات الأربع ملخَّصًا جيِّدًا للحياة المسيحيَّة الحيَّة. وإليك كيف يمكننا أن نحوِّل هذه الصفات الأربع إلى فحص يوميٍّ للنَّفس.

> **فحص التواضع العميق:** هل نظرتُ إلى أحدٍ بتعالٍ وكأنِّي أفضلُ منه؟ هل تضايقتُ كثيرًا من النقد؟ هل شعرتُ بأنِّي أُعامَل من الآخرين بتعالٍ أو بتجاهل؟ يجب أن أفكِّر في نعمة المسيح المجَّانيَّة حتَّى أشعر (أ) بتناقُصِ مقدار الإدانة في داخلي، فأنا خاطئ أيضًا و(ب) تناقُص الألم بسبب الانتقاد، حيث يجب ألَّا أضعَ قبول البشر في مرتبة أعلى من محبَّة الله. وفي ضوء نعمة الله، يمكنني أن

أتخلَّى عن الحاجة لأن أحافظَ على صورة جيِّدة- إنَّه عبء أكثر من اللازم وهو غير ضروريّ. أتأمَّل في النعمة المجَّانيَّة حتَّى أختبرَ فرحًا وعرفانًا بالجميل وراحة.

فحص الغَيرة في الحُسنى (في الاتِّجاه الصحيح): هل تجنَّبتُ الأشخاصَ أو المهامِّ التي أعرف أنَّه كان عليَّ ألَّا أتجنَّبها؟ هل فشلتُ أن أكونَ واعيًا؟ هل كنتُ متهوِّرًا ومندفعًا؟ أتأمَّل في نعمة السيِّد المسيح المجَّانيَّة لأكتشفَ أنَّه (أ) لا يوجد في قلبي تجنُّبٌ جبانٌ للأمور الصعبة؛ حيث إنَّ يسوع واجهَ الشرَّ من أجلي و(ب) لا يوجد سلوكٌ قلقٌ أو مندفع؛ حيث إنَّ موت يسوع المسيح يُثبت أنَّ الله يعتني بي، وسوف يرعاني. يحتاجُ القلق إلى الكبرياء، لذا فأنا أحتاج لأن أتأمَّلَ في شخص السيِّد المسيح كما أدركُ أنِّي لستُ حكيمًا بما يكفي لأن أعرفَ كيف يجب أن تكون حياتي، وكي أختبر هدوءًا وتركيزًا وشجاعة مدفوعةً في الاتِّجاه السليم.

فحص المحبَّة المتَّقدة: هل تكلَّمتُ أو فكَّرتُ في أيِّ شخص بعدم لطف؟ هل أسوِّغُ أفعالي بتشويه صورة شخصٍ آخر في ذهني؟ هل كنتُ نافدَ الصبر ومتوتِّرًا؟ هل كنتُ منحصرًا في نفسي؟ وغير مبالٍ وغير منتبه للناس؟ أتأمَّل في نعمة المسيح المجَّانيَّة، فتتلاشى (أ) البرودة أو عدم اللطف كلَّما فكَّرتُ في محبَّة يسوع المسيح المضحِّية من أجلي، ويتلاشى (ب) نفاد الصبر، كلَّما فكَّرت في صبره معي، وتتلاشى (ج) اللامبالاة كلَّما فكَّرتُ كيف ينتبه الله إليَّ إلى ما لا نهاية. وهكذا أتأمَّل في النعمة حتَّى أشعر بدفء المشاعر مرَّة أخرى.

فحص العين البسيطة: هل أفعل ما أفعله لمجد الله وخير الآخرين؟

هل أنا مدفوع بمخاوفي وعدم أماني، أو احتياجي إلى نَيل رضى الناس أو الراحة أو الاحتياج إلى السيطرة، أو إلى الشهرة والإحساس بالقوَّة والسيطرة، أو لأنِّي أخشى الآخرين؟ (لوقا ١٢: ٤-٥). هل أنظر إلى الآخرين بغَيرة؟ هل أستسلم أمام أوَّل تحرُّك داخلي نحو الشهوة الجنسيَّة أو شهوة الطعام؟ هل أُمضي وقتي في ممارسة الأمور المُلحَّة بدلَ الأمور المهمَّة بسبب رغباتي غير السليمة؟ أفكِّر كيف أنَّ نعمة السيِّد المسيح المجَّانيَّة تمدُّني بما أبحث عنه في هذه الأشياء الأخرى.

لعلَّ الجزءَ الأهمَّ والأكثر حيويَّة من التوبة موجود في استخدام حقيقة الإنجيل لتبكيتك وتشجيعك في الوقت ذاته. مثلًا، يمكن أن تكونَ صلوات التوبة عن الكبرياء، أو البرودة وعدم المحبَّة، والقلق وعدم الثقة بالرَّبّ- على النحو التالي:

"يا ربّ، كثيرًا ما أقع في الكبرياء، لكنَّك على الصليب تخلَّيتَ عن سمعتك تمامًا، وتخلَّيتَ عن كلِّ قدرتك وسلطانك ومجدك من أجلي! كلَّما شكرتُك وتمتَّعتُ بفرحي لما فعلتَه من أجلي، قلَّ شعوري بالحاجة إلى القلق بشأن كرامتي وسمعتي، وقلَّ اهتمامي برضى الناس.

يا ربّ، كثيرًا ما أقع فريسة للبرود والتوتُّر، لكنَّك كنتَ لطيفًا وشجَّعتنا في بستان جَثسَيماني قبل أن تُسلم الروح، رغم أنَّنا تركناك ونمنا. كما قدَّمتَ نفسك على الصليب من أجل أناس تخلَّوا عنك واستهزأوا بك. كلَّما شكرتُك على ذلك وتمتَّعت بفرح أنَّك فعلتَ ذلك من أجلي، ذابت قساوةَ قلبي، وصار قلبي أكثر صبرًا واهتمامًا بالناس من حولي.

يا ربّ، كثيرًا ما أقع في القلق والخوف. لكنَّك واجهتَ الأخطار العظيمة من أجلي. لقد جابهت الموتَ بشجاعة من أجلي لأكونَ

محبوبًا وأظلَّ آمنًا فيك إلى الأبد. فما دمتَ شجاعًا على هذا النحو من أجلي وواجهتَ كلَّ هذه الشرور الكونيَّة، لذا أنا عالمٌ تمامًا أنَّك معي الآن. وهكذا أستطيع أن أثبُتَ في وجه مشكلاتي".

يستطيع يسوع أن يزيلَ البُقعة

عندما حوَّل يسوع الماء إلى خمر في قانا الجليل، استخدم أجرانًا حجريَّة ضخمة. وكانت هذه الأجران تُستخدَم في تتميم طقوس الاغتسال بحسب التقليد اليهوديّ (يوحنَّا ٢: ٦-٨). والاغتسال هو طريقةٌ يشير بها الطقسُ اليهوديُّ إلى حقيقة مهمَّة: أنْ لا أحد فينا نقيٌّ كما ينبغي أن يكون. كلُّنا نختبر الخزيَ والذَّنبَ، وعلينا أن نفعلَ شيئًا لتنقية نفوسنا من وسخ العالم، وتلوُّث الخطيَّة قبل أن ندخلَ محضرَ الله. وعندما وضع يسوع في هذه الأجران خمرًا، كان يقول رمزيًّا إنَّه جاء ليُتمِّمَ كلَّ ما كانت تشير إليه هذه الطقوس رمزيًّا- الفداء النهائيُّ والاغتسالُ من الخطيَّة.

لعلَّه لا يوجد هناك تصويرٌ آسرٌ لألم الذَّنب مثل الأحاديث المعذِّبة للسيِّدة ماكبث (Macbeth). بعد أن ساعدت زوجَها في قتل دانكان (Duncan) وبانكو (Banquo)، ينفجر عقلها تحت الخزي والذنب جرَّاء ما اقترفَت. لقد رأتْ بقعَ الدَّم على يدها. "اذهبي، أيَّتها البقعة اللعينة!...مَن كان يتخيَّل أنَّ في هذا العجوز كلَّ هذا القدر من الدماء". لقد كانت تشتَمُّ الدمَ وتراه على يديها حتَّى بعد غسلهما. وليست هذه سوى صورة الجنس البشريّ. نحن نعلمُ أنَّنا ملوَّثون، ونشعر بذلك، فنحاول أن نعذِّبَ أنفسَنا وأن نمارسَ الأفعالَ الحَسَنة لنتخلَّص من عيوبنا، غير أنَّنا لا نستطيع أن نتخلَّصَ من خِزينا وعارنا. ولا تزال البقعة عالقةً والتلوُّث عَصِيٌّ على أيِّ تنظيف. "كلُّ العطور العربيَّة النفَّاذة لا تستطيع أن تُطيِّب هذه اليد الصغيرة، أواه، أواه، أواه! ليس هناك ما يزيلُ البقعة".

إلَّا أنَّ يسوع يقول إنَّه يستطيع إزالةَ البقعة. لقد مات على الصليب لينزعَ البقعَ التي تلوِّث حياتَنا، والتي لا نستطيعُ أن نزيلَها بأنفسنا. لذا علينا أن نتوقَّفَ عن محاوَلاتِنا تنظيفَ أنفسنا بعقابِ النَّفس، أو عن الحصول على شعورٍ بالنظافة بأن نحيا في حالةٍ من إنكار الخطيَّة، وعلينا في المقابل أن نذهبَ إليه في الصلاة، ناظرين إلى عمله على الصليب، ومعترفين بخطايانا وتاركين إيَّاها.

الفصل ١٤

الصراع: طلبُ معونته

جهادُ الطلب

الشكل الثالث للصلاة هو التضرُّع، أي طلبُ أمورٍ من الله لأنفسنا ولآخرين وللعالم. إنَّ الصلاة البدائيَّة هي طلب المساعدة. "اسمَعْ يا الله صُراخي، واصغَ إلى صلاتي. من أقصى الأرض أدعوكَ إذا غُشِيَ على قلبي" (مزمور ٦١: ١-٢). يبدو هذا النوع من الصلاة بسيطًا ومباشرًا، ويكاد لا يحتاج إلى الكثير من الإرشاد لنمارسَه جيِّدًا. لكن يمكن أن تكونَ المظاهرُ خادعة.

تقول رسالة يعقوب في العهد الجديد: "تَشتَهون ولستُم تمتلكون. تقتُلون وتحسدون ولستُم تقدرون أن تَنالوا. تُخاصِمون وتُحارِبون ولستُم تمتلكون، لأنَّكم لا تطلُبون. تطلُبون ولستُم تأخُذون، لأنَّكم تطلُبون رديًّا لكي تُنفقوا في لذَّاتكُم". إنَّ من الطرق التي بها يمكن أن تؤذيَنا صلاة الطلبة هي أن نراها وكأنَّنا نقول لله بها: "لتكن مشيئتي". نحن ميَّالون إلى إشباع رغباتنا وشهواتنا، ولأنْ نقول لله كيف ينبغي له أن يديرَ الكون. ولا تُرضي مثل هذه الصلاة الله، ولا تساعدنا على النموِّ في النعمة.

يمكن ألَّا تبدوَ الصلاة متكبِّرة ظاهريًّا، لكنَّها تظلُّ مُناوِرة. كثيرٌ من الطلبات من الله هي مثل ما يُسمِّيه فريدريك هيلر (Friedrich Heiler) "الصلاة الطقسيَّة"- طرق الإنسان لنَيل البركات من إلهه بالوفاء بأشكالٍ معقَّدة من الممارسات. إنَّها طرقٌ

نحاول بها أن نضعَ الله في موضع المدين للمتضرِّع، وهي صلوات لا تطلب وجه الله ونعمتَه ومجده، بقدر ما تطلب قدرةً كي ننالَ منه الأشياء. لذلك فمن السهل جدًّا، بل من الطبيعيِّ أن نصلِّيَ صلوات خاطئة.

غير أنَّ من الممكن أمام كلِّ هذه التحذيرات الضروريَّة بشأن الخطأ في الطلب، أن نكونَ خائفين ومتردِّدين عندما نصلِّي؛ إذ ليسَتِ الصلاةُ طريقة للحصول على السلام الداخليّ، بل هي طريقة للنَّظر إلى الخارج والاشتراك في عمل الله في العالم. يقول دونالد بلويش: "ليسَتِ الصلاةُ مجرَّد طلب، بل هي أيضًا جهاد في الطلب. إنَّها...صراعٌ مع الله، وهي ليسَتْ مجرَّد التأمُّل في وعود الله، بل التمسُّك بهذه الوعود" (انظر إشَعياء ٦٤: ٧). يطلب بولس الرسول من مؤمني رومية أن "يجاهدوا معه في الصلاة من أجله إلى الله" (رومية ١٥: ٣٠). لقد سمَّى أحدهم الصلاة "التمرُّد ضدَّ الشرِّ الموجود في العالم". والصلاةُ مذكورةٌ في الواقع بوصفها أحد أسلحة الحرب ضدَّ قوى الظلام الذي يلفُّ العالم (أفسس ٦: ١٢). فمن الطبيعيِّ أن نصلِّي لنطلبَ طلباتٍ خاطئة أو لا نصلِّي بتاتًا، لذا علينا أن نتعلَّمَ أن نطلُبَ، وأن نطلبَ بصورةٍ سليمة.

قوَّة الصلاة

يزخرُ الكتاب المقدَّس بالوعود عن قوَّة الصلاة ودورها في تغيير التاريخ. وفي رسالة الرسول يعقوب، يشير الكاتب إلى النبيِّ إيليَّا، قائلًا إنَّه كان "إنسانًا تحت الآلام مثلنا"، لكنَّه صلَّى ألَّا تُمطِرَ فلم تُمطر، ثمَّ صلَّى أن تمطر السماء فأمطرت، وكانت هذه طريقته لمواجهة حاكمٍ فاسد، وخرج بالاستنتاج أنَّ "طلبة البارِّ تقتدر كثيرًا في فعلها" (يعقوب ٥: ١٦). ويقدِّم جون كالڤن، المشهور بآرائه عن التعيين السابق وسيادة الله المطلَقة، بعض التصريحات عن الصلاة بناءً على تعليم يعقوب. فيقول:

"لقد كان حدثًا مهمًّا لله أن يضعَ السماءَ بوجهٍ ما تحت سلطان

صلاة إيليَّا، حتَّى إنَّه ينفِّذُ ما يطلبه إيليَّا. فبفعل صلواته أغلقَ إيليَّا السماء سنوات. ثمَّ فتحها، وجعلها فجأة تهطل مطرًا غزيرًا. فيمكنُنا من هذا أن نرى القوَّة المعجزيَّة للصلاة". [1]

لقد كان كالڤن شجاعًا، لكنَّه كان أيضًا حذرًا في لغته؛ فهو يقول إنَّ الصلاة "بوجهٍ ما" أثَّرت في الأحوال الجوِّيَّة حيث صلَّى. من الواضح تمامًا أنَّ الله هو المسيطر على كلِّ ما يحدث، لا يمكن أن تُحدثَ صلواتُنا أيَّة سيطرة في الكون بعيدًا عن الله. غير أنَّ من صلاح الله أنَّه يسمح للعالم بأن يكون متأثِّرًا بصلواتنا. أمَّا كيف يفعل ذلك- كيف يظلُّ مسيطرًا على التاريخ الإنسانيِّ وفي الوقت نفسه يجعل من صلوات البشر وأفعالهم مؤثِّرةً ومسؤولةً في هذا العالم- فهذا أحد أعظم الأسرار العمليَّة في الكتاب المقدَّس. في نحميا ٤، عندما كان اليهود يبنون سور مدينة القدس وعرفوا أنَّهم سيتعرَّضون لهجوم من أعدائهم، ماذا فعلوا؟ "فصلَّينا إلى إلهنا وأقَمْنا حرَّاسًا ضدَّهم نهارًا وليلًا بسببهم" (نحميا ٤: ٩). وفي إشعياء ٣٨، كان الملك حزقيَّا مشرفًا على الموت، وهذا ما قاله له النبيُّ إشعياء. ثمَّ صلَّى حزقيَّا واستجابه الرَّبّ: "اذهَبْ وقُلْ لحزقيَّا: هكَذَا يَقول الربُّ إلهُ داودَ أبيكَ: قد سَمعْتُ صَلاتَك. قد رأيتُ دُموعَكَ. هأنَذا أُضيفُ إلى أيَّامكَ خمسَ عشرة سنةً" (إشعياء ٣٨: ٥). لكنْ عندما أتى إشَعياء بهذه الرسالة إلى الملك، قال له أيضًا أن يضعَ ضِمادةً ساخنة على الدُّبَّل [الخرَّاج] حتَّى يبرأ (إشَعياء ٣٨: ٢١).

لماذا أسمِّيه سرًّا "عمليًّا"؟ التعليمُ هو أنَّ الصلاةَ أمرٌ مؤثِّرٌ ويصنع فرقًا- "إنَّنا لا نأخذ لأنَّنا لا نسأل"- لكنَّ خُطَّة الله الحكيمة، في الوقت نفسه، السيادةَ وهي لا تسقط أبدًا. هاتان الحقيقتان صادقتان معًا، أمَّا كيف يكون ذلك، فهو لغزٌ يحيِّرنا. [2] نحن نشعر بأنَّه إذا كان الله مسيطرًا تمامًا، فأفعالنا إذًا لا تؤثِّر، أو العكس. لكنْ فلنفكِّر كيف يكون ذلك عمليًّا. إذا كنَّا نؤمن بأنَّ الله مسيطرٌ وأفعالنا لا تعني شيئًا، فهذا يؤدِّي إلى الإحباط والسلبيَّة. وإذا كنَّا نؤمن بالعكس بأنَّ أفعالَنا تغيِّر من خُطَّة

الله، فيؤدِّي هذا بنا إلى الخوف الذي يشلُّنا تمامًا. أمَّا إذا كان الأمران صحيحَين، فسيكون لنا الدافع الأعظم لأنْ نعملَ بجِدٍّ واجتهاد، ونشعر في الوقت ذاته بأنَّ ذراع الله تحملنا. فنحن في النهاية لا نستطيع أن نحبطَ خُطَطَ الله الصالحة لنا (انظر إرميا ٢٩: ١١).

إنَّها حقيقة هائلة. يدنو الله ليسمَعَ صلواتنا، ويسمح للعالم بأن يكون "بوجهٍ ما" تحت سلطان قوَّة الصلاة. إذًا فالصلاةُ قويَّةٌ وفعَّالة.

يقدِّم أوستن فيلبس هذه النقطة في فصل في كتابه الكبير عن الصلاة. وهو يتكلَّم عن إيثيلفريث (Ethelfrith)، الملكِ الوثنيِّ الساكسونيِّ لنورثمبريا (Northumbria) الذي كان قد غزا ويلز، وكان على وشك أن يشنَّ حربًا. كان أهل ويلز مؤمنين بالمسيح. وبينما كان إيثيلفريث يراقب جيشَ أعدائه منتشرًا أمامه، لاحظَ مجموعةً كبيرةً من الرجال غير المسلَّحين. وعندما سأل عمَّن يكون أولئك، قيل له إنَّهم رهبان بانجور، وهم يصلُّون من أجل نجاح جيشهم. وعندما أدرك إيثيلفريث خطورةَ الموقف، أصدَرَ أوامره قائلًا: "هاجموهم هم أوَّلًا".

ويستمرُّ فيلبس قائلًا إنَّ لدى غير المؤمنين بالمسيح في هذا العالم احترامًا لواقع قوَّة الصلاة ربَّما أكثر ممَّا لدينا. ليسَتْ قوَّةُ الصلاة خيالًا، مهما ظننَّا ذلك.[٣] فإذا كانت الصلاة قوَّية إلى هذا الحدّ، فكيف يمكننا أن نستخدمها؟

كيف ينبغي أن نطلب

كيف يجب أن نستخدم هذا الجانب المؤثِّر من الصلاة؟ لقد رأينا أنَّنا قد نطلب على نحوٍ خاطئ، أو قد نشعرُ بالخجل من الطَّلب. ماذا نفعل إذًا؟ أعتقد أنَّ قانون الإيمان الوستمنسريّ (النسخة المختصرة) يقدِّم إلينا إرشادًا ممتازًا: أن نرفعَ طلباتنا إلى الله مؤمنين بحكمته. هكذا يضعها قانون الإيمان:

سؤال ٩٨. ما الصلاة؟

إجابة. هي أن نرفع رغباتنا إلى الله، بشأن أمورٍ توافق إرادته، بِاسم السيِّد المسيح، والاعتراف بخطايانا، وشكر الله على مراحمه.

بالفعل علينا أن نطلبَ من الله أن يحقِّقَ رغباتنا، وعلينا ألَّا نتراجعَ عن ذلك. فالمزامير مثلًا ملآنةٌ بالأمثلة عن العابدين الذين يسكبون طلبات قلوبهم أمام الله.

إلَّا أنَّ قانون الإيمان يفترض أيضًا أنَّ طلباتنا قد تكون خاطئة، كما يمكن أيضًا أن تكونَ حسنةَ النيَّة جدًّا رغم الخطأ فيها. قد نظنُّ أنَّ طلبًا ما سيساعدنا ويساعد آخرين، لكنْ إنْ كان الله يستجيب هذا الطلب فسنُلاحظُ فيما بعد بحزنٍ ورعبٍ بالغَين أنَّنا كنَّا مخطِئين. لذا حتَّى نحميَ أنفسنا من دوافعنا الأنانيَّة وقصرِ نظرنا فإنَّنا نطلبُ من الله "بحسب ما يوافق حكمته". نحن نطلبُ من الله الأمور التي تتَّفقُ مع رغباتنا وحكمته (يوحنَّا ١٤: ١٣-١٤، ١يوحنَّا ٥: ١٤). إنَّ من الطبيعيِّ أن نسألَ عندئذٍ: "كيف نعرف ما تكونُه هذه الأشياء؟" الإجابة هي أنَّنا بالتأكيد لا نعرف دائمًا. نحن نصلِّي لهذه الأشياء بقدر ما نرى، ومع تفتُّح ذهنيٍّ واستعداد ليفعلَ الله شيئًا آخر. ويعطينا جاي. آي. باكر ثلاث طرقٍ على الأقلِّ يحدث فيها هذا.

يعني هذا بدايةً أنَّنا عندما نطلب من الله، "يجب أن نضعَ أمامه السببَ الذي يجعلنا نظنُّ أنَّ ما نطلبه هو الأفضل".[٤] هذه فكرة تمتاز بالبصيرة والعمليَّة. ويذكرُ باكر أنَّ كثيرًا من الكتَّاب المسيحيِّين القدامى يتكلَّمون عن "الجدل" مع الله في الصلاة، ولا يعني هذا افتراضهم أنَّهم أحكمُ من الله. لكنَّ الجدلَ هنا يعني أنَّهم "يقولون لله لماذا يبدو لهم أنَّ ما يطلبونه هو الأفضل، في ضَوء ما يعرفونه عن أهداف الله".[٥] ويعني هذا أيضًا تضمين الجدل اللاهوتيِّ في كلِّ صلواتنا، ويعني أنَّه بدلَ مجرَّد سردِ قائمةٍ طويلةٍ من الأشياء التي نريدها، يجب أن نتأمَّل في ما نطلبه في ضَوء ما نعرفُ من الكتاب المقدَّس عن الأمور التي تسرُّ الله والتي تحزنه، وفي ضَوء

ما نعرفه عن كيفيَّة عملِ الخلاص وما يريده الله لهذا العالم. إنَّ مَن يمارسون هذا الانضباط يجدون أنَّه يساعدهم ليُراجعوا- وأحيانًا أن يعمِّقوا أو يقلِّلوا- رغباتهم ومقاصدهم. كما أنَّه يعطي قوَّة أكبر لصلواتنا حتَّى عندما ننتهي نجدُ أنَّنا ألقَينا بالفعل همومنا على الله (مزمور ٥٥: ٢٢؛ ١بطرس ٥: ٧) ونواصل حياتنا خفيفين من هذه الأحمال.

تطبيق آخر لهذا الإرشاد من قانون الإيمان الوستمنسريّ، بحسب پاكر، هو أنَّنا عندما نجعل طلباتنا معلومةً لدى الله، فنحن نخبر الله بوضوح "أنَّه إنْ كان يرغب في شيءٍ آخر [بخلاف ما نطلب] فنحن نعرف أنَّه سيكون أفضل [من الأفضل الذي نظنُّه نحن]، وأنَّ هذا هو ما نريده أن يفعل".[٦] أن نحاول قَول مثل هذه الكلمات لله من قلوبنا، ولا سيَّما عندما نطلب شيئًا نريده بشدَّة، فهذا يُعيدُ تشكيلَ قلوبنا. وإذا وجدنا أنَّنا لا نستطيع أن نقول شيئًا بحسب هذه الإرشادات، فهذه إشارةٌ إلى أنَّنا نتعامل مع واحدة ممَّا يسمِّيها أغسطينوس "المحبَّات المضطربة"، وهو وثنٌ يسيطر على القلب، ومنافس لله على قلوبنا. ويجب أن يُثيرَ ذلك فينا الكثيرَ من فحص الذات. وإذا لم نفعَلْ ذلك، فسنجدُ أنفسنا مستَعبَدين لمشاعر معوِّقة وسلوك خارج عن السيطرة.

أمَّا إذا كنَّا نستطيع أن نقولَ هذه الكلمات من القلب، فسنرى، من جديدٍ، أنَّها تهدِّئ قلوبنا. يمكننا أن نلقيَ بهمومنا إذًا على الله، عالمين أنَّه سيَحملُها ويعمل عليها في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة. هناك سلام وثقة يأتيان من هذه الطريقة في الصلاة لا يمكن اختبارهما بطرقٍ أخرى. هنا بالتأكيد نواجه ذلك السؤال القديم الجديد: إذا كانت لله خُطَّةٌ وهو مسيطرٌ حقًّا، فلماذا نصلِّي أصلًا؟ الإجابة المثلى هي أنَّه "لايوجد شيء اسمه صلاة غير مستجابة من ابن لله".[٧] لماذا؟

إنَّ لنا تأكيدًا أنَّ الله، أبانا السماويَّ، يريدُ دائمًا الأفضل لأولاده. لذا كما يكتب جون كالڤن: "يستجيب الله صلواتنا [حتَّى لو] كان لا يستجيب دائمًا وَفقًا

للشكل الذي نطلبها به" ثمَّ يقول بعد ذلك: "حتَّى عندما لا يعطينا ما نطلبه، فهو لا يزال منتَبِهًا لصلواتنا بلُطفٍ وحنان، حتَّى إنَّ الرجاءَ المعتَمدَ على كلمته لا يسقطُ بتاتًا". باختصار، إمَّا أنَّ الله يعطينا ما نطلبه، وإمَّا أنَّه يعطينا ما كنَّا سنطلبه لو عرفنا كلَّ ما يعرفه هو.

بل أكثر من ذلك، إنَّنا نعرفُ الخيرَ ونطلبه، وقد حصلنا بالفعل على الخير الأسمى في هذه الحياة، وذلك لأنَّ لنا في الله نفسه، المصدرَ الأساسيَّ لكلِّ ما في الوجود من جود. إنَّ لنا فيه كلَّ ما نطلب أو نفتكر، حتَّى وإنْ جفَّتْ روافدُ فرحِنا في هذا العالم. "لأنَّه إنْ أحبَطَنا كلُّ شيء، فإنَّ الله لن يتركَنا بتاتًا. كلُّ شيء صالح هو كائن فيه وسيكشفه لنا. عندما يُعلَنُ ملكوتُه".[٨]

هذا هو "صِمام الأمان" في الصلاة- ومن دونه لا يمكن أن يصلِّيَ أيُّ شخصٍ حكيمٍ ثانيةً. نستطيع نحن أن نكونَ واثقين بأنَّنا إذا صلَّينا من أجل شيء ليس في مصلحتنا، فلن يعطيَه الله لنا. يجب أن نكونَ على يقينٍ أنَّه سيعطينا ما نطلبه ونحتاج إليه، لكنَّ الشكلَ والأسلوبَ اللذين سيعطينا بهما لن يكونَ مضرًّا لنا. طلبَ إبراهيم من الربِّ أن يحفظَ ابنَه إسماعيل، لكنَّ بركةَ الربِّ الخاصَّة لإبراهيم كانت الابنَ الذي لم يكن قد وُلِدَ بعدُ- إسحاق. "ليت إسماعيل يعيش أمامك!" (تكوين ١٧: ١٨). كانت إجابة الربِّ هي لا ونعم. لا! إنَّه إسحاق وليس إسماعيل هو مختار الله ليكونَ مصدرَ شعب العهد والذي يكون به خلاصُ الله للعالم. ومن جهة إسماعيل، يقول الربّ: "أمَّا إسماعيلُ فقد سَمعتُ لك فيه. ها أنا أُباركُه وأُثمِره وأكثِّره كثيرًا جدًّا. اثنَي عشرَ رئيسًا يلدُ، وأجعلُه أمَّةً كبيرةً. ولكنْ عهدي أقيمُه مع إسحاق الذي تَلِده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية" (تكوين ١٧: ٢٠-٢١).

في سنوات تدريبي في الخدمة، كنت أحاول أن أكونَ ذلك الشخص الذي يستطيع أن يكونَ واعظًا وراعيًا. عندما دخلتُ كلِّيَّة اللاهوت كنتُ مرتبطًا بفتاة، طَلَبَت منِّي في ما بعد إنهاء العلاقة. فصلَّيتُ بحرارة: "يا إلهي لا أستطيع أن أفعلَ

ذلك من دونها. أنا أحتاجُ إليها فعلًا. أرجوك ألَّا تُنهيَ هذه العلاقة". غير أنِّي بالنظر إلى الوراء الآن أرى أنَّه كان خيرًا أنِ انتهتْ تلك العلاقة؛ لأنِّي تزوَّجتُ لاحقًا بكاثي، لكنْ لم يكنْ هذا ما شعرتُ به وقتها. هل رفضَ الربُّ صلاتي؟ نعم ولا. نعم لأنَّ جوهر صلاتي كان أن يُعطيَني الله شريكةً في الحياة والخدمة. لقد كان هذا هو الطلب الضمنيّ، أمَّا الجزء الخاطئ فكان أنِّي ظننتُ أنَّ هذه المرأة بالذات هي مَن سيُساعدُني.

حتَّى عندما لا نعلم كيف نصلِّي كما ينبغي، فإنَّ الروحَ يأخذُ جوهرَ صلاتنا ويصلِّيه بدلًا منَّا أمام عرش الله (راجع رومية ٨: ٢٦). عندما تصارع في الصلاة، يمكنك أن تأتي أمام الله واثقًا بأنَّه سيُعطيك ما كنتَ ستطلبُه إذا كنتَ تعلم ما يعلمه. إنَّه يهتمُّ بك ويحبُّك بغنى.

عندما نرفع صلواتنا بما يتَّفق مع حكمة الله، فلهذا تأثيرٌ آخرُ في طلباتنا لم نذكره بعد. يجب أن نسأل أنفسنا: "ما الذي قد يتحتَّم علينا فعله لتحقيق استجابة صلواتنا؟"[٩] بدرجة ما، يمكن أن تسهِّلَ تغييراتٌ فينا استجابةَ كثير من الصلوات، لكنَّنا عادة ما لا نصرفُ الوقتَ الكافيَ للتَّفكير في ذلك بينما نصلِّي. يجب أن ندرِّبَ أنفسنا على الربط ما بين كلِّ طلبةٍ وما نعرفه عن الله، كما يجب أيضًا أن نسأل أنفسنا عمَّا تكشفه طلباتنا من دوافعنا العميقة ومحبَّاتنا، بل حتَّى خطايانا وضعفاتنا.

بسبب كلِّ هذه الأسباب، فإنَّ پاكر منزعجٌ لأنَّ مسيحيِّين كثيرين يُصلُّون من "قوائم صلوات" طويلة. أمَّا التفكير اللاهوتيُّ والتأمُّل وفحص النفس المصاحب للصلاة فيستغرق وقتًا. قد تقودنا قوائم الصلاة وغيرها من طرق الصلاة إلى التحرُّك السريع جدًّا من اسمٍ إلى آخر وما بين الاحتياجات مستخدمين عبارة "إنْ كانت مشيئتك" دون التدريب على التفكير العميق، ومحاولة معرفة ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك هو بالفعل مشيئة الله. ويكتب پاكر أنَّنا "إذا كنَّا سنستغرق بعض الوقت في التفكير في المواقف والحياة الشخصيَّة لهؤلاء الذين نتشفَّع من أجلهم"، فقد

لا نستطيع أن نصلِّيَ لهذا العدد من الناس والأشياء. "لكنَّ تفكيرنا واستطرادنا ومناقشتنا مع الله حول الأمور، سترفع من تشفُّعاتنا من مستوى قائمة المشتريات إلى ما يُسمِّيه بولس «الجهاد في الصلاة» (كولوسِّي ٢: ١-٣)".[١٠]

هدفُ صلاة الطلبة

نحاول نحن أن نرى الاتِّزان الضروريَّ ما بين هدفَين لصلاة الطلبة: أن نضعَ العالم في نصابه الصحيح ("ليأتِ ملكوتك") ونضع قلوبنا في الموقف السليم من الله ("لتكُنْ مشيئتك"). ويجب ألَّا تأخذَ أيٌّ من هاتَين الطلبتَين أولويَّة على الأخرى، وإلَّا فإنَّ طلباتنا ستصير إمَّا تشنُّجات عصبيَّة، وإمَّا صلوات سلبيَّة وانهزاميَّة. يجب أن نجاهدَ لتُعلَم طلباتُنا لدى الله، وأن نستريحَ في الوقت نفسه مطمئنِّين في حكمة الله. ونجدُ هذين العنصرَين متجاورَين في الصلاة الربَّانيَّة، ونراهما أيضًا في صلاة يسوع العظيمة في جَثسَيماني: "إنْ كان ممكنًا أن تجيزَ عنِّي هذه الكأس، لكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك" (متَّى ٢٦: ٣٩).

الهدف الأوَّل خارجيّ. فبطلباتنا، يؤثِّر الله في العالم وفي أحوال التاريخ (يعقوب ٥: ١٦-١٨). ويُجري العدلَ في العالم بصلواتنا (لوقا ١٨: ٧-٨). وهناك أمورٌ كثيرةٌ يقولُ إنَّه لن يُعطيَها أو يفعلَها ما لم نطلب (يعقوب ٤: ٢). وعندما نطلب، سيعطي فعلًا أكثر جدًّا ممَّا نطلب أو نفتكر (أفسس ٣: ٢٠) لن يمنع الله خيرًا عنَّا عندما نسأله (يعقوب ١: ٦). ويعني كلُّ هذا أنَّنا يجب أن نصلِّي بجرأةٍ وجسارةٍ وثقة. يجب أن نكونَ مثل حزقيَّا عندما أخذ خطابات التحذير التي أتَته من ملك أشور و"فرشها أمام الرَّبّ" (إشعياء ٣٧: ١٤)، ورفعَ بها صلاةً قويَّةً طالبًا الحماية من الله. إنَّ لنا إلهًا يديرُ الكونَ، وهو أيضًا أبونا السماويّ. لذا يقول يسوع إنَّ علينا أن نصلِّيَ بلَجاجةٍ (لوقا ١١: ٢٨). والكلمة اليونانيَّة هنا تسترعي الانتباه؛ فهي تقدِّمُ معنًى يقترب من الفجاجة وسوء الأدب. حتَّى مع أنَّنا يجب أن "نخدم الله خدمة

مَرضِيَّة بخشوع وتقوى" (عبرانيِّين ١٢: ٢٨)، فإنَّنا يجب أن نتقدَّم إلى محضر الله بثقةٍ ونفرش أمامه طلباتنا واهتماماتنا.

على الجانب الآخر، نرى أنَّ الهدفَ الثانيَ لصلاة الطلبة هو هدف داخليّ. فبطلباتنا، ننالُ السلام والراحة. فكما أنَّ النوم هو التخلِّي عن السيطرة على أجسادنا تعني الطلبة أنَّنا نعطي السيطرة على حياتنا لله ونثق بأنَّه يهتمُّ بنا وباحتياجاتنا. يجب أن نصلِّيَ ليس فقط بالثقة والجرأة التي لا تُخزى، بل أيضًا بخضوع هادئ مطمئنٍّ واثق بأنَّ الله أحكَمُ منَّا ويريد لنا أفضل ممَّا نريد لأنفسنا.

إنَّنا نرى هذين الهدفَين لصلاة الطلبة في بدايات سفر المزامير. المزمور الرابع هو صلاة مسائيَّة متوجِّهة نحو الهدوء والقبول لكلِّ ما حدث في أثناء اليوم والتأمُّل فيه في نور الله. والمزمور الخامس هو صلاة صباحيَّة، تتَّجه نحو الطلب من الله أن يغيِّر الوضعَ الحاليَّ في العالم. هي صلاة بسيطة ومباشرة تطلب من الله الحماية من القتلة والكذبة الذين يتهدَّدوننا (مزمور ٥: ٤-٦). لكنْ قبل الطلبات الجريئة في مزمور ٥ تأتي الصلاة الخاضعة الهادئة في مزمور ٤.

> "ارتَعدوا ولا تُخطِئوا. تكلَّموا في قلوبكُم [افحَصوا قلوبَكم] على مضاجعكُم واسكُتوا. سلاه. اذبَحوا ذبائحَ البرّ، وتوكَّلوا على الرَّبّ. كثيرون يقولون: «مَن يُرينا خيرًا؟». ارفَعْ علينا نورَ وجهك يا ربّ. جعلْتَ سُرورًا في قلبي أعظمَ من سُرورهم إذ كثُرت حنطتُهُم وخمرُهم. بسلامةٍ أضطجعُ بل أيضًا أنام، لأنَّك أنت يا ربُّ مُنفردًا في طُمأنينةٍ تُسكِّنُني".

لاحِظْ كيف أنَّ داوُد، ناظمَ المزمور، يصل إلى هدف هذه الصلاة المسائيَّة: "بسلامة [بسلام] أضطجعُ بل أيضًا أنام". تهدف الصلاة المسائيَّة إلى منح النفس الهدوءَ الروحيَّ مثلما يعطي النوم هدوءًا للجَسد. يستريحُ الجسد والنفس أكثر إذا

استراحا معًا. أمَّا الروح المضطربة فستؤدِّي إلى نوم مضطرب، ولن يحصل الجسد على ما يحتاج إليه من الراحة.

إنَّ صلاة "لتكن مشيئتك" هي صلاة القلب المستريح في مشيئة الله، وهي ليست أصلًا صلاةَ تسبيح أو توبة، بل هي طلبة نضعُ فيها احتياجاتنا وما يشغلُنا بين يدَيِ الربِّ، فلا تتثقَّل قلوبنا بها في أثناء النوم. كيف يريحُ داوُدُ قلبَه؟ في مزمور ٤ نرى نوعًا من التأمُّل الذاتيّ. يعمل داود على قلبه "جعَلْتَ سُرورًا في قَلبي أعظَمَ من سُرورهم إذْ كثُرَتْ حِنطَتُهُم وَخَمرُهم". وما يقوله يشبه: "إنْ كانت لديَّ امتيازاتُ الإنجيل- ضمان الدخول في محبَّة الله ونعمته وصداقته، فكلُّ أشكال الرفاهية الأخرى والكنوز العظيمة تفقد بريقها بالمقارنة". منذ سنوات طويلة كتب جوناثان إدواردز وكان شابًّا هذا المخطَّط لبركات الله:[١١]

١. سيتحوَّل كلُّ شيء سيِّئ في حياتنا إلى خير (رومية ٨: ٢٨).

٢. لا يمكن أن يأخذَ أحدُ الخيرَ الذي لنا من الله (مزمور ٤: ٦-٧).

٣. لا يزال الأفضل محفوظًا في المستقبل (١كورنثوس ٢: ٩).

فإذا كنَّا ونحن نقدِّم طلباتنا أمام الله، سنجدُ أنفسنا نغرقُ أعمقَ فأعمقَ في الحزن والاكتئاب، أو الغضب أو الشفقة على الذات، فذلك لأنَّنا فشلنا في العمل على قلوبنا.

ما يجب أن نصلِّي من أجله

من الأمثلة الكتابيَّة يمكننا أن نرى ثلاثة أنواع من الطلبات: السؤال، والشكوى، والانتظار. وجدير بالذكر أنَّها ليست فئات منفصلة تمامًا، بل تتقاطع بعضها مع بعض، غير أنَّ من المفيد أن نذكر كلًّا منها على حدة.

هذه صلوات عاديَّة من أجل احتياجاتنا واحتياجات الآخرين. إنَّ الصلاة من

أجل "الخبز اليوميّ"، تشملُ المدى الكامل لاحتياجاتنا الروحيَّة والنفسيَّة والمادِّيَّة، وتعني أيضًا الصلاة من أجل التحرُّر من خطايانا وتجاربنا المتكرِّرة، ومن أجل وضوح الرؤية والقوَّة لنُنجزَ أعمالَنا اليوميَّة، ومن أجل الحماية من الإصابات والأمراض، والحصول على الموارد الماليَّة لإعالتنا وإعالة أسرنا، كما تتضمَّنُ قبل كلِّ شيء طلبَ الشركة مع الله.

أمَّا الصلاة من أجل الآخرين ومن أجل العالم فتُسمَّى الصلاة الشفاعيَّة. ويتضمَّن هذا احتياجات أفراد الأسرة والأصدقاء بما في ذلك الخصوم وحتَّى الأعداء. ومن المهمِّ أن نتذكَّر أن نصلِّيَ من أجل الذين نصادفهم في أثناء اليوم، لا سيَّما مَن يعانون أو يمرُّون بضيقات. هناك أماكن كثيرة في الكتاب المقدَّس تشجِّع على الصلاة من أجل المرضى (راجع يعقوب ٥: ١٥). وتعني أيضًا الصلاة من أجل مَن لا يعرفون السيِّد المسيح ممَّن حولك، ولا سيَّما الذين يبدو أنَّهم يبحثون ويتساءلون ويختبرون الجوع الروحيّ، وهي تعني كذلك الصلاة العامَّة من أجل الكنيسة والعالم، حيث نصلِّي من أجل حيويَّة الكنيسة وحمايتها وأمانتها، ونصلِّي من أجل سلام العالم بدلَ الصراع، والرفاهية بدل الفقر والجوع، والحرِّيَّة بدلَ الطغيان والعبوديَّة واستغلال الضعفاء. نصلِّي أيضًا ليتمتَّع القادة بالفضيلة وتتمتَّع المجتمعات بالصحَّة.

فئة أخرى من فئات صلوات الطلبة تبدو واضحة في الكتاب المقدس وتُسمَّى تقليديًّا المراثي، وهي تظهر في المزامير. هي صلاة مَن يعاني ضيقًا، ويصارع مع مشيئة الله. ربَّما يتساءل عن طرق الله، ويبحث عن الفهم والاحتمال.[١٢] يسمِّي پاكر هذا النوع من الصلاة "الشكوى". وهو يعترف أنْ لا أحدَ يحبُّ مَن يشكو وينوح ويتذمَّر، لكنَّه يشير إلى أنَّه في الكتاب المقدَّس "عندما تقع أمورٌ سيِّئة لأشخاص صالحين...فإنَّهم يشعرون بالحرِّيَّة أن يشكوا ويتذمَّروا باستفاضة لإلههم. والكتاب المقدَّس يقبل هذه الصلوات ويحسبُها حكمةً".[١٣] ويستطرد قائلًا إنَّ السؤال لله

"حتَّى متى؟" قد طُرِحَ أكثر من عشرين مرَّة في صلوات المزامير، وهو يعدُّ علامةً فارقةً مميَّزةً لهذا النوع من الصلوات.[١٤]

هناك أحوالٌ كثيرةٌ تثير صلوات المراثي والشكوى. هناك صلوات هي ردُّ فعل للمقاومة، عندما نتعرَّض للخيانة والاضطهاد من أفراد أو قوى (راجع المزمورَين ١٣ و٥٥). وهناك صلواتُ مَن يواجه الحرمان، ولا سيَّما من الصحَّة أو الموارد المادِّيَّة (راجع المزمورَين ٦ و٣٨). أخيرًا هناك صلوات العُزلة التي فيها يكون المصلِّي إمَّا بعيدًا عن موطنه وإمَّا تعرَّضَ للضَّياع أو الهجر من الأهل والأصدقاء (راجع المزمورَين ٣٩ و٧٩).[١٥]

هناك أيضًا نوعٌ من صلوات المراثي نجده في المزامير، وهو يتقاطع مع الفئات الأخرى. فيمكنُنا أن نسمِّيَ المزمورَين ٣٩ و٨٨ بصلوات الظلمة الحالكة. وأحيانًا نفقدُ تمامًا الإحساس بالله وبالرَّجاء. في أغلب "مزامير الإحباط"، مثل المزمورَين ٤٢ و٤٣، نرى المرنِّم يسحبُ نفْسَه بيده ويخرجها عمدًا خارج حالة اليأس والقنوط. أمَّا مزمور ٨٨، فيبدأ وينتهي في الظلمة التامَّة. وأحيانًا يشعرُ المؤمنون بأنَّهم في ظلمة روحيَّة لوقت طويل جدًّا.

لماذا يجري تجاهُل مثل هذه الصلوات في كُتب الصلاة المعاصرة؟ الأسباب كثيرة. في كتاب "**إعادة تشكيل الألم**" *(The Reformation of Suffering)*، يشير المؤرِّخ رونالد كيه. ريتجرز (Ronald K. Rittgers) إلى أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة في العصور الوسطى والمصلحين اللوثريِّين على حدٍّ سواء قلَّلوا من مشروعيَّة الرثاء والشكوى، لأنَّهم اعتقدوا أنَّ من المهمِّ أن يُظهِرَ المؤمنون دائمًا قبولًا فَرِحًا بمشيئة الله.[١٦] ويمكن أن يكونَ هذا نوعًا من الناموسيَّة الخبيثة، أي وسيلةً للتحقُّق من نَيلِ رضى الله بأن تكون صالحًا ومؤدَّبًا ولا تتذمَّر. سببٌ آخر يجعلُ الرثاء غائبًا عن الفكر والممارسة المسيحيَّة اليوم هو الطبيعة الاستهلاكيَّة التي تميِّزُ أغلبَ الموجود من الأشكال الدينيَّة. أغلب الناس في المجتمعات الغربيَّة اليوم ممَّن يؤمنون بالله،

يرونه مُلزِمًا بترتيب كلِّ الأمور من أجل فائدتنا إذا عشنا حياةً صالحةً بما يكفي، وذلك وفقَ مقاييسنا. ويعبِّرُ كريستيان سميث (Christian Smith) عن هذا بعبارته المشهورة: "الربوبيَّة الخُلُقيَّة العلاجيَّة" (Moralistic Therapeutic Deism).[١٧] وهذه الخُلُقيَّة الرخوة الحاليَّة، مع الناموسية الأقدم والأكثر جمودًا، تشتركان معًا في إبعاد إمكانيَّة الشكوى بوصفها نوعًا مقبولًا من الصلوات.

يواجه جاي. آي. پاكر هذا الخطأ مواجهةً مباشرة. وبوصفه رجلًا بريطانيًّا، يكتب أنَّ "الثقافة المتأثِّرة بالفكر المنحدر من شمال أوروپا اعتنقت تاريخيًّا ذلك النموذج المثاليَّ للإنسان الذي يزمُّ شفتَه العُليا بإصرار وتصميم، وينظر باحتقار إلى الناس الذين يُعبِّرون عن شكواهم علنًا بوصفهم أشخاصًا ضعفاء روحيًّا وأخلاقيًّا". ويقول إنَّ هذا يتَّفقُ مع الناموسيَّة الأفلاطونيَّة أكثر من الفهم الكتابيِّ للإنسان. لقد آمن الأفلاطونيُّون بثنائيَّة العقل والجسد، حيث يكون فيها العقل هو الأعلى مقابل الجسد والشعور اللذين يمثِّلان الأمور المنحطَّة. لقد كانوا يؤمنون بأنَّنا يجب أن نسيطرَ على مشاعرنا ونقمعَها لنُتيحَ الفرصةَ لعمل العقل. أمَّا الكتاب المقدَّس فيرى، على خلاف ذلك، أنَّ القلبَ وعمله من محبَّة ورجاء وتكريس هو مكان التفكير والشعور معًا. وعلينا أن نقدِّمَ أفكارنا ومشاعرنا في الصلاة لله. ويختتم پاكر: "الشكوى...هي من الأجزاء الأساسيَّة من هذه الحياة الجديدة من الشركة والصلاة، لذا ستكونُ الشكوى، أو يجب أن تكون، عنصرًا متكرِّرًا في صلاة المولودين ثانية".[١٨]

الفئة الثالثة والأخيرة من صلوات الطلب هي التي كثيرًا ما نسمِّيها "انتظار الرَّبّ". في مثل شهير عن الصلاة، يخبرنا يسوع عن أرملة مقهورة ظلَّت "تأتي" لتقابل قاضيًا وتشكو إليه قائلًا: "أنصِفْني من خصمي" ويختتمُ يسوع المثل بهذا التصريح: "أفلا يُنصِفُ الله مُختاريه، الصَّارخينَ إليه نَهارًا ولَيلًا، وهو مُتمهِّلٌ عليهم؟" (لوقا ١٨: ١-٨). تتكوَّن النقطةُ الأساسيَّة في مثل يسوع من أمرَين:

أنّنا يجب أن نكون واثقين بأنَّ الله سيسمعنا، لكنّنا يجب أن نكونَ صبورين بشأن توقيتاته، ويجب أن نكونَ مستعدِّين لأن نصلِّي بلجاجة ومثابرة، منتظرين شهورًا وسنواتٍ ليستجيبَ الله بعض الأمور". لا يتباطأُ الربُّ عن وَعْده كما يحسبُ قَومٌ التَّباطُؤَ، لكنَّه يتأنَّى علينا، وهو لا يَشاءُ أن يَهلِكَ أناسٌ، بل أن يُقبلَ الجميعُ إلى التَّوبة" (٢بطرس ٣: ٩). ويعني هذا ببساطة، أنَّ توقيتاتنا ليست مرتبطةً بالواقع الروحيِّ النهائيِّ الذي يعلِّمه الله، ومنظورنا للوقت والتوقيت مقارنةً بالله، يشبه الفرق ما بين نظرة طفل عمره سنتان ونظرة البالغ. إنَّ لدى الله أسبابًا وجيهةً لجَعْلِنا ننتظرُ وقتًا طويلًا لنرى بعضَ الصلواتِ تُستَجاب.

غير أنَّ الأمرَ يتطلَّبُ سنواتٍ من الخبرة في صلوات الطلب لنحصل على المنظور الضروريِّ الذي به نرى بعض الأسباب من خلف توقيتاتِ الله. أحيانًا، نلاحظ أنَّنا كنَّا نحتاج لأنْ نتغيَّر قبل أن نكونَ مستعدِّين للحصول على ما كنَّا نطلبه، لنحصل عليه بصورةٍ سليمة أو دون أن نضرَّ أنفسنا. في حالات أخرى، قد يتَّضح أنَّ الانتظار صنعَ فينا صبرًا وهدوءًا وشخصيَّة أقوى. وهناك فروقٌ دقيقةٌ جميلةٌ ما بين توقيت الله وتوقيتنا، وقد لا نستطيع إلَّا أن نلمَح بعضًا منها.

صلاةُ يسوع غير المستجابة

لقد أوضحنا من قبل أنَّه لا يوجد شيء اسمه "صلاة غير مستجابة". ربَّما تبدو هذه الصيغة سطحيَّة لمن صلَّوا طويلًا وتضرَّعوا ليبقى أحدُ أحبَّائهم على قيد الحياة، لكنَّه ماتَ. بعض من الطلبات التي يرفضها الله تمزِّق قلوبَ الطالبين. وبعد خبرة كهذه، كيف يمكننا الحفاظ على ثقتنا بالصلاة ثانيةً؟ كيف يمكننا فعلًا أن نؤمنَ بأنَّ الله يسمع ويتجاوب معنا، إذا كان قد رفض مثل هذه الطلبات القلبيَّة التي رُفعَتْ بإلحاحٍ شديد؟

عندما ننظر إلى مزامير داوُد، نرى أنَّ داودَ احتفظَ بثقته بالصلاة رغم إحباطاتٍ

كثيرة في حياته، ورغم طلبات كثيرة لم يستَجِبْها الرَّبّ، مثل صلواته ليعيشَ ابنَه المريض (٢صموئيل ١٢؛ مزمور ٥١). كيف احتفظَ داوُدُ بقلب لا يزال يؤمن بالصلاة؟ لقد كان له ما يساعده. كانت له خبراته الكثيرة مع الله على مرِّ السنين والتي فيها خلَّصه الله مرَّةً تلو الأخرى، وكانت له أيضًا إعلانات من روح الله في قلبه. ونحن الذين نعيش بعد المسيح ونؤمن بالإنجيل، لدينا موارد أعظم للطُّمأنة والثقة بأنَّ الله سيستمع إلى صلواتنا. نحن نعلم أنَّ الله سيجيبنا عندما نطلبه لأنَّه في يوم رهيب لم يستمع إلى يسوع عندما طلبه.

صلَّى يسوع في جَثسَيماني أن تعبرَ عنه "كأس" الألم على الصليب، لكنَّ طلبتَه لم تُستجب. وعلى الصليب نفسه صرخ "إلهي" لكنَّ إلهَه تركه (متَّى ٢٧: ٤٦). كيف يكون ذلك؟ كان يسوع هو الإنسان المثاليَّ- خدمَ الله بكلِّ قلبه وفكره ونفسه، وأحبَّ قريبَه كنفسه (مرقس ١٢: ٢٨-٣١). وهكذا أكمَلَ ناموسَ الله. وفي مكانٍ آخر في المزامير يقول: "إنْ راعيتُ إثمًا في قلبي لا يستمع لي الرَّبّ" (مزمور ٦٦: ١٨).

يستحقُّ الخطاة ألَّا تُستَجابَ صلواتهم. أمَّا يسوع، فهو الإنسان الوحيد على وجه الأرض الذي كان يستحقُّ أن تُستَجابَ كلُّ صلواته من أجل حياته الكاملة. غير أنَّ الله لم يستمع إليه، وكأنَّه راعى إثمًا في قلبه. لماذا؟

الإجابة بالتأكيد هي الإنجيل. لقد عامَلَ الله يسوعَ في هذا الأمر ليس كما يستحقُّ هو، بل كما نستحقُّ نحن. لقد تحمَّل عقوبتنا، لذلك عندما نؤمن به، فسيُعامِلُنا كما يستحقُّ يسوع (٢كورنثوس ٥: ٢١). وقد رُفِضَتْ صلواتُ يسوع لننالَ نحن الخطاة قبولَ صلواتنا. حتَّى إنَّ المؤمنين بالمسيح عندما يصلُّون، تكون لهم الثقة بأنَّهم سينالون استماعًا واستجابة من الله بأكثر الطرق حكمةً. عندما علَّمَ يسوع تلاميذه عن الصلاة، أعطاهم هذا التشبيه.

"فمَن منكم، وهو أبٌ، يَسأَلُه ابنه خُبزًا، أفيُعطيه حَجَرًا؟ أو سمكةً، أفيُعطيه حيَّةً بدل السَّمكة؟ أو إذا سأله بَيضةً، أفيُعطيه عَقرَبًا؟ فإنْ كُنتُم وأنتُم أشرارٌ تَعرفونَ أن تُعطوا أولادكُم عطايا جيِّدةً، فكم بِالحَريِّ الآبُ الذي من السَّماء، يُعطي الروحَ القدسَ للَّذين يسألونَه؟" (لوقا ١١: ١١-١٣).

يقولُ يسوع شيئًا رائعًا وقويًّا. فإذا كان الآباء الأرضيُّون وهم خطاة، عادة ما يريدون أن يجعلوا أولادَهم سعداء، "كم بالحريِّ" يكون أبونا السماويُّ ملتزمًا سعادتَنا وخيرَنا؟ ويعني هذا أنَّه لم يوجَدْ على الأرض أبٌ يريد أن يستجيبَ طلبات أبنائه مثلما يريد الله أن يستجيبَ طلباتنا. لكنَّنا نعلم أنَّ الله محبٌّ، وهو أيضًا قدُّوس وعادل. كيف يمطر بركاتٍ على الخطاة الذين يستحقُّون العكس؟ ويعني هذا أنَّ يسوع حصل على العقرب والحيَّة لننالَ نحن على الطعام على مائدة الآب. لقد استقبل في نفسه لدغةَ الخطيَّة وسمَّ الموت بدلًا منَّا (راجع ١كورنثوس ١٥: ٥٥؛ عبرانيِّين ٢: ١٤-١٥؛ وتكوين ٣: ١٥).

نحن نعلَمُ أنَّ الله سيُجيبُنا عندما ندعوه "إلهي" لأنَّ الله لم يستَجبْ ليسوع عندما صرخَ إليه بالصَّرخة ذاتها على الصليب. وليسوع، كانت السماء "كالنحاس" حتَّى يمكنَ أن تسمعَنا السماء.

يجب أن نطلبَ من الله الأشياء بجرأة وثقة وتحديد وشجاعة وأمانة وإصرار، لكن أيضًا بخضوع صابر لمشيئته ومحبَّته الحكيمة. كلُّ هذا بسبب يسوع وبِاسْمه.

الفصل ١٥

الممارسة: الصلاة اليوميَّة

تاريخُ الصلاة اليوميَّة

يقول بولس الرسول إنَّه ينبغي لنا أن "نصلِّي كلَّ حين" (١تسالونيكي ٥: ١٧)، ويقصد بذلك أنَّ علينا، ما أمكننا، أن نفعل كلَّ شيء في أثناء اليوم بالإشارة إلى الله والوعي به (١كورنثوس ١٠: ٣١). يجب أن تكون هناك خلفيَّة موسيقيَّة من الشكر والفرح خلف كلِّ حدث من أحداث اليوم، نحن فقط مَن نسمعها (كولوسِّي ٣: ١٦-١٧). ويجب أن يكون هذا النوع من الصلاة التلقائيَّة والمستمرَّة عادةَ القلب. ولن نستطيعَ أن ننمِّيَ مثل هذه العادة، إلَّا عندما نضعُ على عاتقنا انضباطَ الصلاة اليوميَّة المنتظمة. لقد كانت الصلاة اليوميَّة ممارسةً كتابيَّةً منذ عصور قديمة جدًّا. "لمَّا عَلِمَ دانيال بإمضاءِ الكِتابةِ ذَهَبَ إلى بَيتِه، وكُواه مَفتوحَةٌ في عُلِّيَّته نحوَ أورُشليمَ، فجَثا على ركبَتَيه ثَلاثَ مرَّاتٍ في اليوم، وصلَّى وحَمَدَ قدَّامَ إلهه كما كانَ يَفعَلُ قبل ذلك" (دانيال ٦: ١٠). وكانت هناك ممارسة المسيحيَّة في العصور الوسطى، عُرِفَتْ بالساعات القانونيَّة (Horae canonicae)، وهي الساعات اليوميَّة المحدَّدة للصلوات، وسمِّيتْ أيضًا الواجب اليوميّ. وكانت تهدف هذه الممارسة إلى طاعة التحدِّي الذي قدَّمه السيِّد المسيح إلى تلاميذه النائمين: "أهكذا ما قَدَرتُم أن تَسهَروا مَعي ساعةً واحدةً؟" (متَّى ٢٦: ٤٠). وقد كانت تُقام في الأديرة خِدماتٌ عديدةٌ للصَّلاة اليوميَّة. ويحتجُّ آلن جاكوبز (Alan Jacobs) أنَّ الأوقاتَ السبعة

اليوميَّة للصلوات الرهبانيَّة- منتصف الليل، الثالثة صباحًا، والسادسة، والتاسعة والظهر (الثانية عشرة) ثمَّ السادسة والتاسعة مساءً- لم تجدْ ما يساندها ماديًّا. كثير من الأنظمة الرهبانيَّة، إمَّا قلَّلتْ من عدد الخدمات وإمَّا وزَّعت مسؤوليَّة الصلوات المختلفة على مختلف الإخوة والأخوات.[1]

وعندما جاء الإصلاح البروتستانتيُّ إلى بريطانيا العُظمى، وُوجِهَ المُصلحُ البريطانيُّ توماس كرانمر (Thomas Cranmer) بالسؤال: "كيف يُمكن أن يصلِّيَ أشخاصٌ عاديُّون يوميًّا وهم يعملون بدوامٍ كامل؟" وكان كرانمر منشغلًا بحقيقة أنَّ الصلوات في العصور الوسطى كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا برزنامة ليتورجيَّة مُفصَّلة، ولا تقدِّم إلى الناس إلَّا أجزاءً بسيطة من فِقراتِ الكتاب المقدَّس. وكان يرى أنَّ هذه الممارسات تمنعُ الناسَ من تعرُّفِ الكتاب المقدَّس كلِّه. وفي مقدِّمة أوَّل نسخةٍ من كتاب "**الصلوات العامَّة**" سنة ١٥٤٩م، كتب كيف أنَّ آباء الكنيسة الأوائل كانوا يجتهدون أن يقرأوا الكتاب المقدَّس كلَّه (أو أجزاء كبيرة منه) كلَّ سنة في خدمات الصلاة المنتظمة في الكنيسة.[2]

كان الحلُّ الذي قدَّمه هو أنَّه ألغى أوَّلًا الصلوات المرتبطة بالأوقات، ما عدا صلاة الصباح والمساء. ثمَّ قدَّمَ في بداية كتاب الصلوات، "رزنامة" فيها منهاج لقراءة أربعة أصحاحات من الكتاب المقدَّس يوميًّا: اثنان مع الصلاة الصباحيَّة واثنان مع الصلاة المسائيَّة. وكما يكتب كرانمر في مقدِّمته لرزنامة قراءة الكتاب المقدَّس، فإنَّ هذا البرنامج يتيح قراءة العهد القديم مرَّة والعهد الجديد مرتَّين في السنة، مع استثناء بعض الأصحاحات التي تحوي الأسماء والأنساب، وبعض أجزاء من سفر اللاويِّين، وبعض أجزاء من سفر الرؤيا.[3] علاوةً على ذلك، أوصى كرانمر بالإغراق في قراءة المزامير وتأمُّلها. وكان هذا أيضًا نوعًا من التدريب الذي يمارسه رجال الدين، لكنَّه كان مخفَّفًا ليلائم الأشخاص العاديِّين. فبينما كان الرهبان، في أثناء صلواتهم السبع اليوميَّة يقرأون المزامير كلَّها أسبوعيًّا، كان برنامج كرانمر يتيح قراءة

المئة والخمسين مزمورًا في صلوات الصباح والمساء في غضون شهر.[٤]

كانت النتيجة هي إعادة إحياء الأشكال القديمة بصورةٍ جِدِّيَّة وعبقريَّة. وكانت هذه الممارسة واجبًا روحيًا پروتستانتيًّا يوميًّا مع تركيز أكبر على قراءة الكتاب المقدَّس بصورة نظاميَّة. كان ذلك منهجًا يتطلَّبُ وقتَين يوميَّين للصلاة يمارسان إمَّا جماعيًّا وإمَّا فرديًّا. وكان يقدِّم كلًّا من الصلوات المكتوبة للتسبيح والاعتراف، والشكر ومساحة لصلوات الطلبة الحرَّة، فضلًا عن خُطَّةٍ للقراءة المتتابعة لأسفار الكتاب المقدَّس، وكانت تسمَّى القراءة المستمرَّة (Lectio continua).

كما هو واضح، أجرى هذا البرنامج ما يشبه الإصلاحَ الپروتستانتيَّ للصلوات اليوميَّة الكاثوليكيَّة، وتبنَّته الكنائس الأسقفيَّة (الأنغليكانيَّة)، أمَّا غيرها من الكنائس الپروتستانتيَّة فتبنَّته أيضًا مع تركيزٍ أقلَّ على الصلوات المكتوبة، إلَّا أنَّ جون كالڤن أعدَّ خمس صلواتٍ نموذجيَّة قصيرة للاستخدام مع المرَّات الخمس التي أُوصِيَ المسيحيُّون أن يصلُّوها في اليوم[٥]: عند الاستيقاظ، وقبل بدء العمل اليوميّ، وعند الجلوس لتناوُل الطعام، وبعد تناول الطعام ببركة الله، وعند الاستعداد للنوم في المساء.[٦] لكنَّ أغلب الكنائس الپروتستانتيَّة اكتفت بوقت صباحيٍّ للصلاة الشخصيَّة، ووقت مسائيٍّ للصلاة العائليَّة. أمَّا رزنامة قراءة الكتاب المقدَّس المشهورة التي وضعها الخادم المشيخيُّ روبرت موراي مكتشاين (Robert Murray McCheyne) في اسكتلندا في بدايات القرن التاسع عشر، فتضمَّنت أصحاحَين في الصباح لمرافقة الصلاة الشخصيَّة، وأصحاحَين في المساء مع الصلاة العائليَّة.[٧] فضلًا عن ذلك، مارسَتِ الكنائس المصلحة الحرَّة ترنيم المزامير جماعيًّا، بدلَ قراءة المزامير الصباحيَّة والمسائيَّة؛ لتُطبَع معاني هذه المزامير عميقًا في قلوب أفراد الشعب وعقولهم.[٨]

في العصور الأحدث صارت ممارسة وقت يوميٍّ واحد "وقت الخلوة" هي الأمرَ الإجباريَّ الذي فُرِضَ على جيلَين أو ثلاثةٍ من أجيال طلبة كلِّيَّات اللاهوت. وفي ثلاثينيَّات القرن العشرين وأربعينيَّاته، وضع القادة الإنجيليُّون البريطانيُّون

والأستراليُّون كتيِّبًا بعنوان: "وقت الخلوة: مرشد عمليٌّ للصلوات اليوميَّة" (Quiet Time: A Practical Guide for Daily Devotions). وقد نَشرَته أوَّل مرَّةٍ دار إنترڤارسيتي پرس (InterVarsity Press) في الولايات المتَّحدة سنة ١٩٤٥م.[٩]

وبيع من هذا الكتيِّب المكوَّن من ثلاثين صفحة، نحو مليون نسخة في وقت قصير، وقد أثَّرَ في كلِّ الكتب والبرامج الإنجيليَّة وشكَّلها لنحو خمسين سنة بعد ذلك.[١٠]

يصرفُ كتاب "**وقت الخلوة**" جزءًا كبيرًا من مداه القصير للتَّشديد على أنَّ الصلاة وقراءة الكتاب المقدَّس اليوميَّة هما انضباطٌ يتطلَّب عملًا مقصودًا من أعمال الإرادة. ويَنصح بأن نبحث عن مكان هادئ نُمضي فيه هذا الوقت، ونُقنعَ أرواحَنا بفكرةِ أنَّ الله نفسه يريد أن يلتقينا. وينصحُنا هذا الكتاب أيضًا أن تكونَ لنا يوميَّاتٌ روحيَّةٌ مكتوبة نضع فيها ما نستخلصه من دراسة الكتاب المقدَّس، بحيث نُمضي بعد ذلك وقتًا في الصلاة يكافئ الوقت الذي أمضيناه في دراسة الكتاب المقدَّس. أمَّا من جهة المدَّة المقترحة، فيقترحُ عشرين دقيقة على الأقلّ.

وفي قلب الجزء الأكثر عمليَّة من هذا الكتاب، هناك ملخَّصٌ لبعضِ ممارسات الصلاة التي مارسها جورج مولر (George Mueller)، وهو خادم معمدانيٌّ ألمانيٌّ شهير عاشَ ما بين ١٨٠٥ و١٨٩٨م، وهو أيضًا مؤسِّس العديد من الملاجئ، وعاش أغلب حياته في إنكلترا. كان مولر معروفًا بحياة الصلاة الغنيَّة التي كان يحياها، والتي وصفها في الكثير من كتاباته عن حياته الشخصيَّة. وكان مولر مهتمًّا كثيرًا بالتأمُّل في الكتاب المقدَّس، بوصفه نوعًا من تدفئةِ قلبه قبل الصلاة. وفي ذلك كان مولر يتبع خُطى مارتن لوثر. كما أنَّ طريقتَه في التأمُّل كانت أيضًا من الكلاسيكيَّات. كانت لديه مجموعةٌ من الأسئلة كان يطرحُها على النَّصّ، وهي شبيهة بالأسئلة التي كان يطرحها لوثر.

وقد سردَها كتاب "**وقت الخلوة**" بوضوح:

هل هناك مثالٌ يجب أن أحتذيَ به؟

هل هناك أمرٌ يجب أن أطيعه؟

هل هناك خطأ يجب أن أتجنَّبه؟

هل هناك خطيَّةٌ يجب أن أتركها؟

هل هناك وعدٌ عليَّ أن أتمسَّك به؟

هل هناك فكرة جديدة عن الله نفسه؟[١١]

بعد دارسة الكتاب المقدَّس والتأمُّل، توصَفُ معالمُ الصلاة أوَّلًا بالاقتراب من الله بالاعتراف بخطايانا، ثمَّ التجاوب معه بالشكر والحمد للخلاص المقدَّم على الصليب. وبعد الحمد والتسبيح، يأتي التشفُّع من أجل الآخرين، وفي النهاية الطلب من أجل احتياجاتنا.[١٢]

ممارسة الصلاة اليوميَّة في الوقت الحاليّ

في أواخر القرن العشرين، مال كتاب "**وقت الخلوة**" الإنجيليُّ إلى التخفيف من الجوانب الاختباريَّة في الصلاة، وجرى التركيز على الدراسة التفسيريَّة للكتاب المقدَّس، بما في ذلك تقديم موجز لمقطع وإعادة صياغته، ودراسة التركيب الأدبيِّ للصياغة. مثلًا، قد يردُ في أحد الأيَّام السؤال التالي: "هل هناك في الفقرة أفكارٌ متكرِّرة تظهر في صورة استخدام متكرِّر لكلمةٍ أو لعبارةٍ ما، أو وجود كلمات أو أفكار متضادَّة؟ ما اتِّجاه الفقرة في ما يتعلَّق بالموضوع- من الخاصِّ إلى العامّ، أم من العامِّ إلى الخاصّ؟"[١٣] ويتطلَّبُ هذا الكثيرَ من التدريب، ويصعبُ تخيُّل أنَّه يحدث في غضون دقائق قليلة كلَّ صباح. كانت النتيجة هي الترويج لدراسة كتابيَّة يوميَّة تستهدف تفسير النصوص وليس استخدامها في التأمُّل واختبار حضور الله. بعد هذا النوع من الدراسة الكتابيَّة تأتي الصلاة. غير أنَّه هذه الدراسة العقلانيَّة التحليليَّة لا تؤدِّي تلقائيًّا إلى الحمد والشكر والتسبيح. لذا سادَ على الصلاة طابع الطلبة والاعتراف بالخطايا.

وهكذا فقد وجدَ كثيرون أنَّ الخلوةَ الإنجيليَّة التقليديَّة- بتركيزها على الدراسة التفسيريَّة للكتاب المقدَّس- هي ممارسةٌ عقلانيَّةٌ على نحوٍ زائدٍ عن الحدّ. لذا توجَّه كثيرٌ من البروتستانت، في ردِّ فعلٍ ورغبةٍ في اختبارٍ أعمق لحضور الله، إلى التقاليد الكاثوليكيَّة أو الأرثوذكسية الشرقيَّة، بما في ذلك "القراءة الإلهيَّة" (Lectio Divina)، والصلوات التأمُّليَّة، والصلوات في ساعات محدَّدة.

ولعلَّ أحد أكثر نماذج إعادة إحياء صلوات الساعات المحدَّدة هو الكتاب الذي كتبته فيليس تيكل (Phyllis Tickle) بعنوان "**الساعات الإلهيَّة**" *(The Divine Hours)*، وقد وضعت فيليس بصورةٍ مفيدةٍ مزمورًا قصيرًا وقراءة من الكتاب المقدَّس، وأعدادَ ترنيمة، مع صلوات وتسبيحات كلِّها على الصفحة نفسها للتَّسهيل. لكنَّ كتابها يقاوم التجديدات البروتسانتيَّة التي أدخلها كرانمر على الصلوات اليوميَّة، فهي تدعو إلى ثلاثة أو أربعة أوقات للصلاة يوميًّا بدل وقتَين، كما تتحرَّك أيضًا بعيدًا عن القراءات المتتالية والمَنهَجة للكتاب المقدَّس والتي اتَّبعَها كرانمر، وكالڤن وكنائس مصلحة أخرى.[١٤]

في الواقع، لا يعدُّ تشجيعُ تيكل على الصلوات المكتوبة، مضادًّا للممارسات المصلحة. فبينما عارضَ بعضُ الخدَّام غير الإنغليكانيِّين، مثل جون بنيان (John Bunyan)، بشراسةٍ أيَّ شكلٍ من أشكال الصلوات المكتوبة[١٥]، فإنَّ بعضًا من معاصري بنيان، مثل جون أوين، كان يعتقد أنَّ الصلواتِ المكتوبةَ يمكن أن تكونَ مفيدةً إذا كتبَها أشخاصٌ أتقياء من واقع خبراتهم الروحيَّة الحقيقيَّة في ضَوء الكتاب المقدَّس.[١٦] إذ يمكن أن تؤثِّرَ مثل هذه الصلوات في القلب، وترشد صلواتنا الشخصيَّة.[١٧]

يبقى الأمر متروكًا لنا لنجدَ طرقًا نمارسُ بها الصلواتِ والتأمُّلات اليوميَّة. وعمومًا، أعتقد أنَّنا نحتاج لأن نتحرَّك بعيدًا عن الممارسات الإنجيليَّة التي صارت تقليديَّةً في القرن العشرين، وبعيدًا عن محاولة إعادة إحياء الأشكال التي تنتمي إلى العصور الوسطى. ولن يُدهَش قارئُ هذا الكتاب إنْ وجدني الآن أقول إنَّنا

يمكن أن نتعلَّم أكثر من ممارسات الصلاة التي مارسَها اللاهوتيُّون الپروتستانت ما بين القرنَين السادس عشر والثامن عشر. فإذا نظرنا إلى هؤلاء الكتَّاب، كما كنَّا نفعل طَوال هذا الكتاب، فسنجدُ أنَّ علينا أن نغيِّر أمورًا كثيرة.

أعتقد أنَّ الصلاةَ يجب أن تكون أكثر تواترًا من وقت الخلوة اليوميِّ. كان لوثر يؤمن مثلًا بأنَّ الصلاةَ يجب أن تكونَ مرَّتَين يوميًّا، بينما كانت وصيَّة كالڤن هي أن تكون الصلوات أقصر وأكثر. وحتَّى نقدِّمَ صورةً متكاملة، يبدو أنَّ هناك شبهَ إجماعٍ من الماضي المسيحيِّ بكلِّ فروعه على أنَّنا يجب أن نوجِّهَ فكرَنا نحو الله أكثر من مرَّةٍ في اليوم. وأنا أتَّفق مع أغلب الكنائس الپروتستانتيَّة أنَّ مرَّتَين في اليوم أمرٌ جيِّد، لكنَّنا لا يمكن أن نكونَ مصرِّين أكثر من اللازم على جدول وبرنامج واحد. شخصيًّا أجدُ فكرةَ صلاةٍ صباحيَّة وأخرى مسائيَّة هي الأفضل لي، لكنِّي أحاول أيضًا أن أمارسَ "أوقاتًا مستقطعة" في أثناء اليوم للصلوات المركَّزة لأعيدَ الاتِّصالَ بالأفكار الثاقبة التي أخذتها في أثناء صلاتي الصباحيَّة.

وأومن بأنَّ الصلوات اليوميَّة يجب أن تكونَ كتابيَّة أكثر، أي أن تكونَ أكثر تأصُّلًا في قراءة ودراسة منتظمة للكتاب المقدَّس، وتأمُّل منضبط للفقرات الكتابيَّة. وأسبابي في هذا الاقتناع قد قدَّمتُها باستفاضةٍ في هذا الكتاب. في الواقع ليست هناك خُطَّةُ قراءة الكتاب المقدَّس في السنة التي وضعها كرانمر في أغلب النسخ الموجودة حاليًّا من كتاب "**الصلوات العامَّة**" التي تستخدم حول العالم، لكن يمكن أن نجدَها في الطبعات المكرَّرة لنسخ القرن السادس عشر مثل نسخة ١٥٤٩ و١٥٥٢م. أمَّا رزنامة ماك تشاين، فهي موجودة في أشكال كثيرة على الإنترنت وفي أماكن أخرى، وهي تأخذك في الكتاب المقدَّس بإيقاعات مختلفة سريعةٍ وبطيئة. على أيَّة حال، يجب أن تسبقَ القراءة المنظَّمة والمتتالية للكتاب المقدَّس الصلاة أو تصاحبَها.

ويجب أن تكونَ الصلاة الشخصيَّة اليوميَّة أكثر انسجامًا وترابُطًا مع الصلوات العامَّة للكنيسة. لقد أرادَ كالڤن للمسيحيِّين أن يتعلَّموا الصلوات

الشخصيَّة بالصلوات الجماعيَّة، وترنيم المزامير في الاجتماعات العامَّة.[١٨] كتب لوثر أنَّه كان يصلِّي مرَّتين يوميًّا، إمَّا بأن يُهرَع إلى غرفته، وإمَّا يُهرَع إلى الكنيسة حيث يجتمع المصلُّون "إذا كان اليوم أو الوقت مناسبًا".[١٩] ويوضح هذا كيف كان مهمًّا لهذين المعلِّمَين العظيمَين للكنيسة ألَّا تكونَ حياةُ الصلاة الخاصَّة بنا شخصيَّة تمامًا. من الصائب والضروريّ أن نتعلَّم أن نصلِّي بقراءة المزامير وباقي الكتاب المقدَّس لكن، أيضًا بسماع صلوات الكنيسة وقراءتها. كثير من الكنائس اليوم، لا سيَّما التي تمارس ما يسمَّى بالعبادة المعاصرة، لا تكاد تعطي مرتاديها أيَّة مساعدةٍ في ما يتعلَّق بالصلاة بهذه الطريقة. كلُّ الصلوات التي يسمعها المجتمعون هي الصلوات التلقائيَّة لقائد التسبيح، أو الصلاة الختاميَّة التي يُصلِّيها الواعظ في ختامِ عظته. أمَّا الآن فلا تقدِّمُ الكنيسة إلى مرتاديها الصلوات التي رفعَها المؤمنون من مختلف الأجيال واختُبرت على مرِّ الزمن، وذلك فقط لأنَّها قديمة. ويعني هذا أنَّ على مسيحيِّين كثيرين اليوم أن يبحثوا عن هذه الصلوات. ويمكننا هنا الاستفادة من كتاب "**الصلوات العامَّة**" الذي فيه جمَّع كرانمر على نحوٍ لا يضاهَى العديد من الصلوات الرائعة. وكتبٌ مثل كتاب "**الساعات الإلهيَّة**" لفيليس تيكل أو كتاب آرثر بينيت (Arthur Bennette) بعنوان "وادي الرؤية" (The Valley of Vision).[٢٠]

أخيرًا، يجب أن تتضمَّنَ الصلاةُ اليوميَّة التأمُّل، لا بوصفه دراسة، بل يجب أن نكون عمومًا أكثر توقُّعًا لاختبار حضور الله بأكثر صوره اكتمالًا. يجب أن نتوقَّع صراعًا ونشكو من "ظلمة النفس"، لكن يجب أيضًا أن نتوقَّع رهبةً وحميميَّة واختبارًا حقيقيًّا لحقيقة الله. لقد كان جون أوين واضحًا جدًّا عندما قال إنَّه عندما لا تكونُ المشاعرُ القلبيَّة منخرطةً في الصلاة، فالتغيير الحقيقيُّ للشخصيَّة لتُشابِهَ شخصيَّة السيِّد المسيح يصيرُ أمرًا مستحيلًا. ولا يمكننا أن نستهدفَ أقلَّ من ذلك.

نموذجٌ للصلاة اليوميَّة

السؤالُ العمليُّ أكثر الكلِّ بين الأسئلة كلِّها هو: "كيف يمكنك أن تُمضيَ فعلًا وقتًا في الصلاة؟" من الكتب المفيدة كتاب "**مسيرتي في الصلاة**" *(My Path of Prayer)*، وهو يحتوي على سلسلةٍ من المقالات القصيرة جدًّا كتبها عددٌ من القادة المسيحيِّين، وكثير منهم يروون أسلوبَهم الرئيسيَّ للصلاة اليوميَّة.[٢١] أحدُ المشاركين، وهو سلوين هيوز (Selwyn Hughes)، قدَّم أسلوبَ صلاته: أنَّه كان يبدأ بالصلاة في أسرع وقت ممكن بعد استيقاظه في الصباح. كان يقرأ فقرةً من الكتاب المقدَّس ويتأمَّل فيها، ويضيف مزمورًا، إذا كان الوقت كافيًا. ثمَّ يأخذ فرصة فيها "يهدِّئ ذهنه" ويذكِّر نفسَه بحضور الله وامتياز الصلاة وقوَّتها. ثمَّ يبدأ في الصلاة، ودائمًا ما كان يبدأ بالتسبيح والعبادة والشكر لله. بعد ذلك يكتب أنَّه يتحرَّك نحو "الصلاة من أجل حالتي الروحيَّة الشخصيَّة". وبذلك كان يقصدُ فحصَ النفس والاعتراف والتوبة. ثمَّ يقوم بما أسمَيناه صلاةَ الطلب من أجل نفسه ومَن يعرفهم، ومن أجل الكنيسة والعالم. وأخيرًا يقول إنَّه يختمُ من جديد بتهدئة ذهنه وقلبه ليتحقَّقَ أنَّه استمعَ من الربِّ ما أراد الربُّ حقًّا أن يعلِّمه إيَّاه في ذلك الوقت من التأمُّل والصلاة.[٢٢]

هذا الأسلوب مميَّزٌ جدًّا في كونه ليس جديدًا، بل هو شبيه شبهًا مذهلًا بأسلوب الصلاة اليوميَّة الذي رأيناه في حياةِ كثيرٍ من المعلِّمين، بما فيهم مارتن لوثر. لذا أعتقد أنَّنا يمكن أن نقدِّمَ خطوطًا عريضة لأسلوب من الصلاة اليوميَّة واثقين كثيرًا بأنَّه سيساعد كثيرين، واضعين في الحسبان دائمًا أنَّ الترتيب والتفاصيل التي سأستعرضها ليستْ مكتوبة على ألواح حجريَّة، ولا في الكتاب المقدَّس، ولا في أيَّة ممارساتٍ تنتمي إلى أيِّ تقليدٍ دينيٍّ معروف. فأنا أقترح خطوطًا عريضة: التذكير ثمَّ التأمُّل ثمَّ صلاة الكلمة، ثمَّ صلاة حرَّة، وأخيرًا تأمُّل وإمعان.

التذكير. يعني أن تذكِّرَ نفسَك أن تستحضرَ إلى ذهنك أمرًا، وقد يتضمَّنُ هذا أيضًا الدعوةَ، أي أن تدعوَ الله. يكاد يكون هناك اتِّفاقٌ عامٌّ أنَّ الصلاة يجب

أن تبدأ "بالتفكير في ذلك الذي ستوجِّه كلامَك إليه: ما فعلَه ليُعطيَك إمكانيَّة دخول محضره...وموقفك أنت منه (و)تلك الحقيقة المذهلة أنَّ الربَّ يسوع يقيمُ وإيَّاك علاقة صداقة بروحه وكلمته".[٢٣] ومن الطرق التي يمكن بها أن نفعلَ ذلك هو أن نُذكِّرَ عقولَنا بلاهوت الصلاة المرتبط بالثالوث. الله الآن أبوك، وهو متلزمٌ مصلحتك. ويعطيك يسوع إمكانيَّة المثول أمام عرش الله لأنَّه شفيعك ومحاميك وكاهنك. والروح القدس هو الله نفسُه داخلك يدفعك ويعينك في أثناء الصلاة، لتستطيعَ أن تعرفَ أنَّ الله يسمعُك بينما تصلِّي.

وباختصار، يمكنك تأمُّل بعض الأعداد التي تتكلَّم إليك عن هذه الحقائق. الكثير من فِقراتِ الكتاب المقدَّس سبقَ أن نوقِشَتْ في هذا الكتاب. أو يمكنك أن تقرأ أحد المزامير التقليديَّة المستخدمة في العبادة ودخول محضر الله، مثل مزمور ٩٥. يمكن أيضًا استخدام إحدى الصلوات الكنسيَّة المكتوبة، مثل الموجود في كتاب "**الصلوات العامَّة**" لكرانمر لتبدأ وقت صلاتك.[٢٤] لا تستغرقْ أكثر من دقيقتَين لممارسة هذا الذي نُسمِّيه التذكير.

التأمُّل الكتابيّ. لكي نتجاوب مع الله بالصلاة، يجب أوَّلًا أن نستمعَ إلى كلمته. ويعني هذا تمضية بعض الوقت للتأمُّل في جزءٍ من الكتاب المقدَّس كجسر نعبُرُ به إلى الصلاة. وليس هذا أمرًا يُثري حياةَ الصلاة بين ليلة وضحاها، فالأسهل هو التحرُّك نحو التأمُّل بعد قراءة الكتاب المقدَّس وفهمه عبر السنين. الدراسة الجادَّة للكتاب المقدَّس هي أمرٌ يجبُ أن نفعلَه لننموَ نحن المؤمنين بالمسيح، غير أنَّ من الخطأ أن نُمضي أغلب وقتنا اليوميِّ مع الله في دراسةٍ تفسيريَّة عميقةٍ للكتاب المقدَّس؛ لأنَّ ذلك لا يترك لنا سوى وقتٍ قليلٍ للتأمُّل والصلاة.

إذا كنتَ ممَّن يبدأون حياتَهم المسيحيَّة، ربَّما يكون من الأفضل تحديد وقت منتظم- بخلاف وقت الصلاة- لدراسة الكتاب المقدَّس بجدِّيَّة. وهكذا يصير الكتاب المقدَّس أكثر فأكثر حميمية وأقلَّ غرابةً لنا، ويصير من السهل أن تتأمَّل في

كلماته يوميًّا. ومن الطرق التي يمكنك البدء بها في هذه الدراسة الجادَّة هي قراءة الكتاب المقدَّس كلِّه مرَّة واحدة ببطء، بمعدَّل أصحاح واحد يوميًّا، وهذا يتيح لك قراءته كلَّه في ثلاث سنوات تقريبًا، مع استخدام تفسيرٍ قصيرٍ (مكوَّنٍ من كتاب واحد مثلًا)، وتدوين الملاحظات في كرَّاسة لكتابة اليوميَّات.[٢٥] وفي أثناء ذلك، يمكنك تحديد بعض الأصحاحات التي يمكنك العودة إليها ثانيةً لمزيد من الدراسة والتأمُّل. ثمَّ يمكنك في صلاتك اليوميَّة أن تعودَ إلى هذه الفصول للقراءة التأمُّليَّة التي تكلَّمنا عنها. فيمكن أن يكونَ الترتيبُ الفعليُّ في وقتِ خلوتك اليوميِّ على النحوِ التالي: أوَّلًا التذكير، ثمَّ قراءة الكتاب المقدَّس والتأمُّل ثمَّ الصلاة.

الصلاة بكلمة الله. لقد حصلنا من مارتن لوثر على خطوةٍ مهمَّةٍ في الصلاة اليوميَّة، رغم أنَّه كثيرًا ما يُغفَل عنها. فبعد تأمُّل الكلمة المقدَّسة، يخصِّص لوثر بعضَ الوقت لكي "يصلِّي النصَّ" قبل أن يتحرَّك نحو الصلاة الحرَّة. التأمُّل، كما رأينا، ليس صلاة في حدِّ ذاته، بل هو شكلٌ من أشكال التفكير مليًّا في النفس والتواصل معها. ويقول ناظمُ المزمور عن هذا لنفسه: "ارجعي يا نفسي إلى الرَّبِّ"، فهو يمارسُ نوعًا من أنواع استمالة القلب، وهو نوع من أنواع التأمُّل. لكنَّك إذا استخدمتَ أسلوبَ لوثر في التأمُّل- استكشاف شيء في النصِّ يدعو للتَّسبيح، أو للتوبة والرغبة- فإنَّ التأمُّل في حدِّ ذاته يمكن أن يصيرَ صلاةً. المزامير مثلًا مكتوبةٌ على نحوٍ يجعل من السهل جدًّا تحويلها مباشرةً إلى صلوات تُرفَع إلى الله. "الصلاة بالمزامير" من الطرق المهمَّة والجليلة على مرِّ السنين للصلاة بنصِّ الكتاب المقدَّس (سنذكر لاحقًا بعضَ الأفكار في هذا الأمر).

لقد شرحتُ من قبل الطريقةَ المفضَّلةَ للوثر لصلاة نصِّ الكتاب المقدَّس. وهو ينصح أن يأخذَ مَن يرفعُ الصلاة الربَّانيَّة ويعيد صياغة كلِّ طلبةٍ فيها بكلماته، ويملأها بالانشغالات التي على قلبه في ذلك اليوم. أعتقد أنَّ هذه أفضل طريقة للانتقال من الكتاب المقدَّس إلى الصلاة؛ لأنَّ الصلاة الربَّانيَّة هي ببساطةٍ نموذجُ

يسوع الشامل للصلاة. وأنصح بممارسة ذلك، مرّة أسبوعيًا على الأقلّ، ضمن هذه الخطوة بأسلوب الصلاة اليوميّة.

الصلاة الحرّة. وتعني ببساطة أن تسكبَ قلبَك في الصلاة. غير أنّ أغلبَ الإرشادات الصحيحة حول الصلاة تذكّرنا بمحاولة أن نَزِنَ صلاتَنا ما بين ثلاثة أشكال: العبادة والشكر، والاعتراف والتوبة، والطلب والتشفُّع. ولا ينبغي أن يكونَ هذا الاتّزان صارمًا، إلّا أنّه من الانضباط الجيّد الانتقال ما بين هذه الأشكال بترتيب يكونُ معتادًا ومريحًا لك. ويأتي هنا دورُ قوائم الصلاة الملآنة بالقضايا والمشغوليّات، ما دمنا نتذكّر تحذير باكر الذي يقول إنّ صلوات الطلبة لا تكون قويّةً ومغيِّرةً للحياة إذا تلوناها بسرعة مثل "قائمة طلبات للشراء"، بل أن نرفعَ بدلَ ذلك كلَّ قضيّة أمام الله مشفوعة بسببٍ لاهوتيٍّ وفي إطارٍ من فحصِ الذات.

أمّا للمبتدئين، فيمكن أن يكون استخدامُ النسخة الأقدم من كتاب متّى هنري (Matthew Henry)، "**أسلوبُ الصلاة باستخدام تعبيرات الكتاب المقدّس، من المناسب استخدامه بطريقة مبوّبة**" *(A Method of Prayer, with Scripture Expressions, Proper to be Used Under Each Head)*.[٢٦] كما أشرنا سابقًا، فإنّ هنري يستخرج من الكتاب المقدّس مئات الصلوات، ثمّ ينظّمها ويضعها ضمن أبواب فرعيّة تابعة للتقسيمات الرئيسيّة: التسبيح والاعتراف والطلبة والشكر والتشفُّع، ثمّ خاتمة. وإذا شعرت بأنّ أوقات صلاتك الحرّة تعطّلت، فيقدِّمُ كتاب هنري كمًّا هائلًا من "الشحم لتزييت" هذه العجلة.

تأمُّل المعاني (Contemplation). لقد أمضَينا وقتًا طويلًا نتكلّم فيه عمّا نقصده وما لا نقصده بهذه الكلمة. يصف إدواردز هذه الأوقات بأنّنا فيها ليس فقط نعرف أنّ الله قدّوس، بل أيضًا نشعر- "نذوق" و"ننظر"- في قلوبنا بأنّه كذلك حقًّا. ويصفُ لوثر ذلك الوقت بأنّه الوقت الذي يجد نفسَه فيه "مفقودًا" في أحد جوانب حقيقة الله أو شخصيّته له المجد. وهو يقولُ حرفيًّا في الأصل الألمانيِّ إنّه أحيانًا

عندما يكون في وقت صلاته المعتاد، يكتشفُ أنَّ أفكاره "تخرج لتتمشَّى". أي أنَّ أفكاره عن الله تصيرُ "هائلةً" ومؤثِّرة. ثمَّ يتوقَّف ويخصِّصُ بعضَ الوقت ليقتَفيَ أثرَ الروح. ويكتب بهذا الشأن:

> "كثيرًا ما يحدث أنِّي أفقد نفسي...في طلبة واحدة من طلبات الصلاة الربَّانيَّة، ثمَّ أدَعُ الطلباتِ الستَّ الأخرى تمضي. عندما تأتيني هذه الأفكار الصالحة الغنيَّة، فعلى المرء أن...يستمع إليها في صمت؛ لأنَّ الروح القدس نفسه يعظك عندها، وكلمة واحدة من عظته أفضل من آلاف الكلمات من صلواتك أنت...[لذلك] إنْ كان الروحُ القدس يأتي ويعظك في قلبك، مُعطيًا إيَّاك أفكارًا غنيَّة ومنيرة...اصمت وأنصت إليه".[٢٧]

كما رأينا عندما كنَّا نتأمَّل تعليم جون أوين عن التأمُّل، فلا ينبغي أن نفترضَ أنَّنا إذا فعلنا كلَّ شيء، فسنَجِدُ بالضرورة أنَّ قلوبَنا ومشاعرَنا تحرَّكت، والروح القدس يفتح أفكارَنا بطرق جديدة كما يصف لوثر. وليس هذا هو المعتاد لأغلب الناس في معظم الأوقات. يمكننا أن نبدأ وننهي أوقات صلاتنا بإحساس من الجفاف الروحيّ، أو حتَّى الشعور بغياب الله. في هذه الحالة، يمكنُ أن يعنيَ وقتُ "التأمُّل" الختاميُّ أنَّنا نأخذُ أفضلَ الأفكار التي نلناها من الله، ثمَّ نسبِّحه ونشكره من أجلها، ثمَّ نطلب في النهاية من الله بإخلاص أن يدنوَ إلينا ويُريَنا وجهَه في الوقت الذي يراه.

في ما يلي خُطَّتان للصلاة اليوميَّة، الأولى أكثر غنًى وتحدِّيًا، بينما الأخرى أبسط وتناسب المبتدئين. لا تشعرْ بالرهبة من هاتَين الخُطَّتَين وتتبعُ هاتان الخُطَّتان الخطوطَ العريضةَ الموصوفةَ سابقًا- الاقتراب (التذكُّر)، والتأمُّل الكتابيّ، والصلاة بالكلمة، والصلاة الحرَّة، وتأمُّل المعاني- دون الشعور بالحاجة إلى فعل كلِّ المقترحات المعطاة أو الإجابة عن كلِّ الأسئلة المطروحة في كلِّ جزء. ستنمو الصلاة وتجتذبك.

نظامٌ للصلاة اليوميَّة

الصلاة الصباحيَّة (٢٥ دقيقة)

الاقترابُ من الله:

اطلُبْ حضوره ومعونتَه لك بينما تقرأ وتصلِّي. اخترْ إحدى هذه الفِقرات من الكتاب المقدَّس للاقتراب إلى الله: مزمور ١٦: ٨؛ مزمور ٢٧: ٤، ٩-١٠ ؛ مزمور ٤٠: ١٦-١٩؛ مزمور ٦٣: ١-٣؛ مزمور ٨٤: ٥-٧؛ مزمور ١٠٣: ١-٢؛ مزمور ١٣٩: ٧-١٠؛ إشعياء ٥٧: ١٥؛ متَّى ١١: ٢٨-٣٠؛ يوحنَّا ٤: ٢٣؛ أفسس ١: ١٧-١٩، ٣: ١٦-٢٠.

قراءةُ الكتاب المقدَّس والتأمُّل فيه:

(لاحظ أن أحدًا لا يستطيع أن يفعلَ كلَّ التالي في جلسة صلاة واحدة من التأمُّل والصلاة). لتدرسَ فِقرةً من الكتاب المقدَّس، اقرأها ثلاث أو أربع مرَّات. ثمَّ ضع قائمةً بكلِّ ما تقوله هذه الفِقرة عن الله (الآب والابن والروح القدس)، وقائمةً بكلِّ ما تقوله عن نفسك، ثمَّ اكتبْ أخيرًا أيَّ مثالٍ يجب أن تتبعه، أو أيَّ أمر يجب أن تطيعه (أو أمورٍ يجب أن تتجنَّبها)، ثمَّ الوعود التي يمكنك أن تتمسَّك بها. عندما تفعل كلَّ ذلك، اختَرِ العددَ أو الحقيقةَ التي تجدها مهمَّةً لك. أعِدْ صياغتَها بأسلوبك. ولكي تتأمَّل في فِقرةٍ من الكتاب المقدَّس، أجب عن الأسئلة التالية:

ما الذي يعلنه لي هذا النصُّ عن الله من أمور يجب أن أسبِّحَ الله وأشكره عليها؟

ما الذي يعلنه لي هذا النصُّ عن أمور يجب أن أعترفَ بها وأتوب عنها؟ ما التوجُّهات المزيَّفة، والسلوك الخاطئ، والمشاعر، أو الأوثان التي تنشط في حياتي عندما أنسى هذه الحقيقة؟

ما الذي يعلنه لي النصُّ عن احتياجٍ لديّ؟ ما الذي أحتاج لأن أفعله أو أكونه في ضَوء هذه الحقيقة؟ كيف يمكن أن أطلبَ هذا الأمرَ من الله؟

كيف يكون يسوع المسيح، أو النعمة التي أنالها منه أساسيًّا لمساعدتي في التغلُّب على الخطيَّة التي اعترفتُ بها أو في تسديد الاحتياج الذي عندي؟

أخيرًا، كيف يمكن أن يغيِّر هذا الأمر في حياتي إنْ أخذتُه على محمَل الجِدّ؟ وماذا يمكن أن يحدُثَ لي إذا كانت هذه الحقيقة حيَّة بالكامل لي وفعَّالة تمامًا في كِياني الداخليّ؟ أيضًا لماذا يعلن الله هذا لي الآن؟ ما الذي يحدثُ في حياتي الآن ويلفت انتباهي إلى هذه الأمور في هذا الوقت بالتحديد؟

الصلاة:

صلِّ كلَّ التأمُّلات السابقة، وخصِّصْ وقتًا للتسبيح- والاعتراف، والطلبة، والشكر على يسوع وخلاصه.

صلِّ من أجل اهتمامتك واحتياجاتك الملحَّة.

خصِّصْ وقتًا من الهدوء والصمت لتستمتعَ بحضور الله.

الصلاة المسائيَّة (١٥ دقيقة)

الاقترابُ من الله:

اطلُبْ حضوره ومعونتَه لك بينما تقرأ وتصلِّي.

قراءةُ الكتاب المقدَّس والتأمُّل فيه:

اقرأ مزمورًا، حيث يمكنك أن تقرأ المزامير مرَّتَين في السنة.

الصلاة:

حوِّلِ المزمورَ إلى صلاة، وارفَعْ صلاتَك إلى الله.

تأمَّل اليوم واعترف بأيَّة خطيَّة أو تجاوبٍ خاطئٍ كان من الأفضل ألَّا تتفاعل معه.

تأمَّلِ اليومَ وصَلِّ من أجل مَن قابلتَهم أو سمعتَ عنهم ممَّن يمرُّون بصعوبةٍ أو لديهم احتياجات.

صلِّ من أجل الأمور العاجلة أو المهمَّة على قلبك في ذلك الوقت.

نسخةٌ أبسط للمبتدئين (١٥ دقيقة)

الاقتراب إلى الله:

فكِّر في امتياز الصلاة، وفكِّر أيضًا في حضور الله، واطلب منه أن يساعدك بينما تصلِّي.

التأمُّل في الكتاب المقدَّس:

اقرأ فِقرةً من الكتاب المقدَّس. حدِّدْ حقيقةً أو حقيقتَين تتعلَّمُهما من هذه الفِقرة. اختَرِ الحقيقةَ التي تشعر بأنَّها تتكلَّم إلى قلبك، واكتبها في جملةٍ واحدة. والآن اسأل: كيف تجعلني هذه الحقيقة أسبِّح الله؟ كيف تكشفُ لي عن خطيَّة يجب أن أعترفَ بها؟ ماذا تجعَلُني أطلبُ من الله؟

الصلاةُ بكلمة الله:

الآن حوِّل إجابات الأسئلة السابقة إلى صلاة- عبادة وتسبيح وطلبة وتضرُّع.

الصلاة الحرَّة:

صلِّ من أجل الاحتياجات التي تشعر بها في قلبك. أيضًا أمضِ بعضَ الوقتِ تشكرُ الله على الطرق التي رأيتَه بها يعملُ في حياتك ويحافظ عليك.

تأمُّل المعاني:

خصِّص برهةً لتشكرَ الله وتسبِّحه على ما أراك إيَّاه في هذا اليوم. اختِمْ بالتَّسبيح.

الصلاةُ بالمزامير

منذ وقت باكر جدًّا تبنَّتِ الكنيسةُ سفرَ المزامير ليكونَ كتابَ الصلاة الخاصَّ بها. ويتَّضح هذا من رسالةٍ مشهورةٍ بعثَ بها في القرن الرابع اللاهوتيُّ العظيم أثناسيوس إلى مارسيلينيوس، حيث كتب: "مهما كان احتياجك أو اضطرابك، فيمكنك أن تختارَ من هذا السفر [المزامير] كلمات تناسب حالتك، حتَّى إنَّك...تعرف كيف تداوي داءك". ويستمرُّ أثناسيوس في سَردِ فكرته أنَّ المزامير ترينا كيف نسبِّح الله، ونتوب عن خطايانا، ونكون شاكرين، وفي كلِّ حالة يعطينا "الكلمات المناسبة" لنفعلَ ذلك. أخيرًا يختم بقوله: "في كلِّ أحوال الحياة، سنجدُ أنَّ هذه الأغاني الإلهيَّة تناسبنا وتسدِّد احتياجَ نفوسِنا في كلِّ موقف".[٢٨] ليس هناك موقفٌ أو حالة شعوريَّة يمكن أن يختبرها أيُّ إنسان ليسَتْ في المزامير. إنَّنا عندما نغمسُ أنفسَنا في المزامير ونحوِّلها إلى صلواتٍ، فهي تُعلِّم قلوبَنا "الحروف الألفبائيَّة" الخاصَّة بالصلاة، وتمنحُنا النصائحَ المناسبةَ لنرفعَ صلواتٍ تتَّفقُ مع شخصيَّة الله وإرادته.

ماذا يعني أن نصلّيَ المزامير أو نحوّلها إلى صلوات؟ هناك طرقٌ كثيرةٌ للقيام بذلك، غير أنَّ هناك طرقًا أفادت كثيرين[٢٩]، منها ما يُسمَّى صلاة المزامير حرفًا بحرف. كثير من المزامير كُتِبَت بوصفها صلواتٍ مباشرةً، فيمكننا ببساطة أن "نصلّيَها كما هي". ويمكنُ أن يكونَ المزمور ٩٠ مثلًا على ذلك: "يا ربُّ، مَلْجأً كنتَ لنا في دَورٍ فَدَورٍ. من قَبلِ أن تُولَدَ الجِبالُ، أو أبدَأتَ الأرضَ والمسكونَةَ، منذُ الأزَل إلى الأبد أنتَ الله".[٣٠]

طريقة ثانية، قد تكونُ الأشهرَ، وهي إعادة صياغة المزمور. ولعلَّ مثلَ لوثرَ بإعادة صياغة طلبات الصلاة الربَّانيَّة يكون ملائمًا هنا. عندما نحاول إعادة صياغة مزمور ٥٩ حيث يبدأ: "أنقذني من أعدائي يا ربّ"، ربَّما لا يكون لدينا أعداء بشريُّون يريدون قتلنا أو تدمير حياتنا. لكن العهد الجديد يتكلَّم عن أعدائنا الذين هم "العالم والجسد والشيطان" (١يوحنَّا ٢: ١٦، رؤيا ١٢: ٩). ويمكننا عندئذٍ أن نعيدَ صياغةَ هذه الصلاة لتتناوَلَ التجاربَ التي تواجهنا أو الفخاخ الروحيَّة التي يمكن أن نقعَ فيها".[٣١]

مثلٌ ثالثٌ وأساسيٌّ من الصلاة بالمزامير يُسمَّى أحيانًا الصلاة التجاوبيَّة.[٣٢] الكثير من المزامير طويلة وتحتوي على تعليم أكثر ممَّا تحويه من صلاة، وهي لم تُكتَبْ أصلًا في هيئةِ صلاة. وبهذه الطريقة، نأخذ مواضيعَ وعباراتٍ من المزمور، وندَعُها تثيرُ فينا التعبُّد، والاعتراف، والتضرُّع. وتستخدمُ هذه الطريقة طريقةَ لوثر في التأمُّل في المزامير. على أيَّة حال، لا ينبغي أن نكونَ جامدين في استخدام أيٍّ من هذه الطُّرق. الكثير من المزامير تناسب طريقةً أو أكثرَ من هذه الطرق، لكنْ بمرور الوقت، فإنَّ مَن يصلِّي بالمزامير يصلِّي بتلقائيَّة دون أن يدريَ الطريقة المستخدَمة، لذا يمكنك أن تستخدمَ أيَّة طريقةٍ أو حتَّى خليطًا من أكثر من طريقة.

مثلًا، لنختَرِ الأعدادَ الخمسةَ التالية من مزمور ١١٦ (١-٢، ٧، ١٧-١٨):

"أحببتُ لأنَّ الربَّ يسمع صوتي، لأنَّه أمالَ أذنه إليَّ، فأدعوه مدَّة حياتي (العددان ١ و٢).

ارجعي يا نفسي إلى راحتك، لأنَّ الربَّ أحسَنَ إليك (العدد ٧).

فلَكَ أذبحُ ذبيحةَ حمد، وباسْم الربِّ أدعو، أوفي نذوري للربِّ مقابل شعبه (العددان ١٧ و١٨)".

يمكننا أن نصلِّي هذه الأعداد على النحو التالي:

العددان ١ و٢: أحبُّك يا ربُّ، لأنِّي عندما سألتك الرحمة، منحتَني إيَّاها. يا ربُّ، لقد فعلتَها مرَّاتٍ ومرَّات. يا ربّ، لن أتوقَّف عن الاعتماد عليك بتاتًا. ليس هناك أيُّ مكانٍ آخرَ ألجأ إليه سواك (صلاة بإعادة الصياغة).

العدد ٧: يا ربّ، قلبي لا يستريح في صلاحك، ولا يتعزَّى كما ينبغي أن يتعزَّى بنعمتك. قلبي مضطرب. ساعِدْني أن أعرفك- ليَكُنْ جودُك حقيقيًّا لقلبي ليستريحَ قلبي فيه (صلاة تجاوُبيَّة).

العددان ١٧ و١٨: سأقدِّمُ ذبيحةَ حمدٍ وشكرٍ لك، وأدعو باسْم الرَّبّ. سأحيا حياةً تتَّفقُ مع معموديَّتي، وعضويَّتي في كنيستك. لن أفعلَ ذلك بمفردي، بل وسطَ جماعة شعبك (صلاة لفظيَّة، مع إعادة صياغة بسيطة).

يرجعُ الكثير من عذوبة المزامير وجمالها إلى إشارتها الدائمة إلى المسيَّا الآتي- يسوع المسيح. وإذا تعلَّمنا أن نصلِّيَ المزاميرَ بينما يسوع في أذهاننا، فلن نحدَّ قوتَّها المؤثِّرة في حياتنا. فكيف نفعل ذلك إذًا؟

في البداية، يجب أن نتذكَّر أنَّ يسوع ربَّما رنَّم المزامير وصلَّاها طَوال حياته.

وعندما تتناول أيَّ مزمور بالتحديد، تخيَّل كيف فكَّر يسوع في هذا المزمور، مع كونه يعرفُ مَن هو، وما جاء ليفعلَه. وعندما نأتي إلى أحد مزامير الرثاء والتعبير عن المشاعر السلبيَّة، فعادةً ما نفكِّر فيه بالنظر إلى المعاناة والمشاعر التي نشعرُ بها نحن الآن. على العكس من ذلك، حاول أن تتذكَّر مشاعرَ يسوع ومعاناتَه. وعندما تأتي إلى المزامير بوصفها ملجأً من أحوال الحياة، تذكَّر كيف أنَّنا "نختبئ" في يسوع، وكيف يغفر لنا ويُطهِّرُنا من خطايانا، وهي الخطر الحقيقيُّ الذي يتهدَّدنا.[٣٣]

أخيرًا، هناك عددٌ من المزامير المسيانيَّة الواضحة التي تقدِّم مناظيرَ غنيَّةً عن المسيح. وهي تتضمَّن التالي. المسيَّا المتوَّج (مزمور ٢، ١١٠)، والمسيَّا المرفوض (مزمور ١١٨)، والمسيَّا الذي تعرَّضَ للخيانة (المزموران ٦٩، ١٠٩)، والمسيَّا الذي يموت ويقوم من بين الأموات (مزمور ٢٢، ١٦)، والعريس السماويُّ لشعبه (مزمور ٤٥)، والمسيَّا المنتصر (المزموران ٦٨، ٧٢).[٣٤] هذه فُرَص للتأمُّل في جمال يسوع، والتعبُّد له والراحة فيه.

أين أنت؟

عادةً ما أطلبُ من بعضِ المؤمنين أن يقيِّموا موقفهم من جهةِ الصلاة باستخدام هذا التشبيه. تخيَّل أنَّ نفسَك قاربٌ بمجذافَين وشراع. وفي هذه الحالة هناك أربعة أسئلة:

هل "تبحر بالشراع"؟ ويعني الإبحار بالشراع أنَّك تعيشُ الحياةَ المسيحيَّةَ والريحُ خلفك تدفعك. الله حقيقيٌّ لقلبك. وعادة ما تشعرُ بمحبَّته. ترى الصلوات تُستجاب، وعندما تدرس الكتاب المقدَّس، عادةً ما ترى أمورًا مدهشةً وتشعرُ به يتحدَّثُ إليك. وترى الناس من حولك يتأثَّرون بروحه بواسطتك.

أم أنَّك "تجذِّف"؟ وأقصدُ بذلك أنَّك تشعر بأنَّ الصلاةَ وقراءةَ الكتاب المقدَّس هي واجبٌ أكثر منه متعة. يبدو الله عادةً (وليس دائمًا) بعيدًا، ونادرًا ما تشعرُ بحضوره. لا ترى الكثير من صلواتك تُستَجاب، وربَّما تصارع شكوكًا بشأن

الله وبشأن نفسك. غير أنَّك ترفضُ رغمَ هذا الشفقةَ على الذات، أو كبرياءَ البرِّ الذاتيِّ التي تفترضُ أنَّك تعرفُ أكثر من الله كيف ينبغي أن تسيرَ حياتك. تستمرُّ في قراءة الكتاب المقدَّس، وتصلِّي بانتظام، وتحضُرُ اجتماعات العبادة وتخدم الآخرين رغم جفافك الروحيِّ الداخليّ.

أم أنَّك "تنجرف"؟ وأقصدُ بذلك أنَّك تختبر كلَّ ما هو موصوف في حالة "التجذيف"- الجفاف الروحيُّ والصعوبات في الحياة، لكنَّ تجاوُبَك مع ذلك، بدلَ التجذيف، هو أن تتركَ نفسك تنجرفُ بفعل تيَّارات المياه. لا تشعرُ بالرغبة في الاقتراب من الله، فأنت لا تصلِّي ولا تقرأ. وتستسلم للانحصار في النفس الذي يأتي طبيعيًّا عندما تشعر برثاء الذات، ثمَّ تنجرف أكثر إلى سلوكيَّاتٍ من التلذُّذ الذاتيِّ لتُريحَ نفسك وتعزِّيَها ، سواء كان ذلك بالهروب إلى النوم أم التخدير بالطعام، أم الممارسات الجنسيَّة، أم ممارسةِ أيِّ شيءٍ آخر.

أم أنَّك "تغرق"؟ إذا استمرَّتِ الحالُ هكذا، فالنتيجةُ النهائيَّةُ هي أنَّ نفسَك، سفينتَك، ستبتعد عن خطوط الملاحة، وتفقد أيَّة حركة نحو الأمام في الحياة المسيحيَّة، ويصيرُ التخديرُ قساوةً، ذلك لأنَّك استسلمْتَ لأفكار الشفقة على الذات، والغضب والاستياء. وإذا وقعتْ صعوبةٌ أو جاء اضطرابٌ كبيرٌ في حياتك، فيمكن أن تهجرَ إيمانَك بالمسيح وهُويَّتك المسيحيَّة.

في هذا التشبيه نرى أنَّ هناك بعض الأمور التي تقعَ في نطاق مسؤوليَّتنا، مثل استخدام وسائط النعمة- الكتاب المقدَّس والصلاة والشركة الكنسيَّة- بطريقة منضبطة. وهناك أمورٌ أخرى كثيرة لنا بالكاد سيطرةٌ عليها، مثل أحوال حياتنا ومشاعرنا. إذا كنتَ تصلِّي وتعبدُ وتطيعُ رغم الأوضاع السيِّئة والمشاعر السلبيَّة، فلن تنجرف، وعندما تعودُ الريح مرَّة أخرى لتداعبَ شراعك، فستتمكَّن عندئذٍ من التقدُّم نحو الأمام بسرعة. وعلى الجانب الآخر، إنْ لم تستخدِمْ وسائطَ النعمة، فأفضل سيناريو هو أنَّك ستنجرف، وإذا هبَّت العواصف في حياتك، فقد تتعرَّضُ لخطر الغرق.

على أيَّة حال، صلِّ مهما كان الأمر. الصلاة هي التجذيف، وهي تكون أحيانًا مثل التجذيف في الظلام؛ حيث لا تشعر بأنَّك تُحرِزُ أيَّ تقدِّم، لكنَّك تتقدَّم حقًّا، وعندما تنقشعُ الظلمةُ وتهبُّ الرياح اللطيفة، وسوف تهبُّ لا محالة، فسُتبحِرُ ثانيةً.

الوليمةُ العظيمة

قد يجدُ مَن يستمتعون بالإبحار هذه التشبيهات البحريَّة مفيدة لهم. غير أنَّ التشبيهَ الأكثر استخدامًا في الكتاب المقدَّس لوصف الشركة مع الله هو تشبيه الوليمة. كان إشعياء يتطلَّع إلى ذلك اليوم الذي سيضعُ الله فيه حدًّا للموت، ويشفي العالم من أمراضه، ويأخذ البشر إلى أعماق محبَّته. وهو يصوِّرُ ذلك الدهر الآتي في صورةِ وليمةٍ عظيمة.

> "ويصنعُ ربُّ الجُنود لجميع الشُّعوب في هذا الجبل وليمةَ سمائن، وليمةَ خمرٍ على درديٍّ [وليمة من الخمر المعتَّقة] سمائن مُمِخَّةٍ، درديٍّ مُصفًّى [أفضل اللحوم وأفضل الخمر]، ويُفني في هذا الجبل وجه النقاب. النقاب الذي على كلِّ الشُّعوب، والغطاء المُغطَّى به على كلِّ الأُمم. يَبلعُ الموتَ إلى الأبد، ويمسحُ السيِّدُ الربُّ الدُّموع عن كلِّ الوُجوه، وينزعُ عارَ شعبه عن كلِّ الأرض، لأنَّ الربَّ قد تكلَّم" (إشعياء ٢٥: ٦-٨).

تشيرُ كلمة نقاب إلى الكفن الموضوع على الجثث في الجنائز. وعند انتهاء الدهر، ليس فقط سنَستقبل غفران الله ("سوف ينزع عارَ شعبه")، بل أيضًا سينتهي الموت "النقاب" أو "الكفن"- جميعُ الألم والموت والدموع. الأكل معًا هو أحد أكثر الصور تعبيرًا عن الشركة والصداقة في الكتاب المقدَّس (يوحنَّا ٢: ١- ١١). لأنَّ يسوعَ نفسَه يشبِّه دمَه بالخمر في عشاء الرَّبّ، فيمكننا أن نرى أنَّ مَوتَ يسوع على الصليب سيكونُ الأساس لهذا الفرح الولائميِّ الذي سنستمتعُ به وإيَّاه إلى الأبد.

هذا الخمر هو خمر روحيّ، وهذه الشركة مع الربّ ليست فقط شركة مستقبليَّة. فكما رأينا بالفعل، نحن مدعوُّون الآن أيضًا لنذوقَ وننظرَ ما أطيَبَ الرَّبّ (مزمور ٣٤: ٨). ونحن نستطيع أن "ننظر" و"نذوق" محبَّته الآن وإنْ كان جزئيًّا (٢كورنثوس ٣: ١٨). لقد كان وليَم كاوپر، كاتب الترانيم العظيم الذي عاش في القرن الثامن عشر، يعاني نَوباتِ اكتئاب، لكنَّه استَطاعَ أن يكتب:

"قد يُفاجَأ المؤمن بالنُّور وهو يشدو بترنيمته،
إنَّه الربُّ الذي يشرق والشفاء في أجنحته،
عندما تتضاءل الراحة وتخبو التعزية، فهو يعزي النفس مِرارًا،
ويأتي موسم الشمس ليشرق بعد هطول المطر مِدرارًا،

في هدوء وتأمُّل مقدَّس نعود ونتبع
خلاصَ الله قديمًا وجديدًا ينبع.
من حزن الحاضر نتحرَّر وبفرح ننشد
ليأتِ الغد بما يأتي فنحن إلى الأبد نعبد".

ربَّما يأتي هذا الفرح في هيئة دفقاتٍ ومواسمَ متقطِّعة، غير أنَّ الشركةَ مع الله متاحةٌ الآن. لنتذكَّرْ كيف أنَّ جورج هربرت أسمى الصلاة "وليمة الكنائس"، وكيف أن دوايت مودي عندما كان يصلِّي ذات يوم ولم يستطع إلَّا أن يقول: "لقد كشف لي الله نفسه، واختبرتُ اختبارَ محبَّةٍ جعلَني أطلبُ من الربِّ أن يُبقيَ يده عليَّ".[٣٥]

لماذا نكتفي بالماء، بينما نستطيع الحصول على ما هو أفضل من ذلك بكثير؟

تذييل: بعضٌ من أنماط الصلوات اليوميَّة

واجبٌ يوميٌّ للصلاة على مدى ثلاثة أوقاتٍ محدَّدة

صلاة صباحيَّة (٣٥ دقيقة)

صلاة عند الاستيقاظ من النوم (انظر "الصلوات اليوميَّة" صفحة ٢٧٧)

اقرأ وصلِّ مزمور ٩٥.

اقرأ أصحاحَين من الكتاب المقدَّس يوميًّا بحسب مخطَّط قراءة روبرت موراي مك تشاين (Robert Murray M'Cheyne).[١]

اختر أعدادًا مفضَّلةً وتأمَّلها (بطريقة مارتن لوثر).

ارفع تأمُّلاتك بصلاةٍ إلى الله.

صلواتٌ حرَّة: من العبادة والاعتراف والتضرُّع.

صلاةٌ عند بداية العمل أو الدراسة (انظر "الصلوات اليوميَّة" صفحة ٢٧٧)

صلاة في منتصف اليوم (٥ دقائق)

اقرأ وصلِّ مزمور ١٠٣.

أَعِدْ صياغةَ الصلاة الربَّانيَّة، وصلِّها بطريقة لوثر.

فحصُ الذات: هل كنتَ حادًّا ومتكبِّرًا أم بسيطًا ومتواضعًا؟ هل كنت باردًا وغيرَ مبالٍ، أم دافئًا وحنونًا؟ هل كنت قلقًا وتعاني ضغوطًا، أم متَّكلًا على الله؟ هل كنت جبانًا أم جريئًا في الحقّ؟

صلاةٌ حرَّةٌ من أجل تحدِّيات اليوم.

صلاة بعد وجبة منتصف اليوم (انظر "الصلوات اليوميَّة" صفحة ٢٧٨)

صلاة مسائيَّة (٢٠ دقيقة)

صلِّ واقرأ مزمورَين، باستخدام سفر المزامير مع تفسير.

اعترفْ وتُبْ عن خطايا اليوم.

صلِّ من أجل احتياجات الأشخاص الذين قابلتَهم اليوم.

صلاة تشفُّعيَّة من أجل الأسرة والأصدقاء والخصوم والجيران ومَن تعرفُ أنَّ عندهم همومًا وأحمالًا وآلامًا، وكذلك من أجل الكنيسة عمومًا، وكنيستك خصوصًا، واحتياجات مدينتك ومجتمعك، واحتياجات العالم.

صلاة ما قبل النوم (انظر "الصلوات اليوميَّة" صفحة ٢٧٨).

صلواتٌ يوميَّة مبنيَّة على صلوات جون كالڤن[1]

صلاة عند الاستيقاظ من النوم

إلهي وأبي ومُخلِّصي، ما دمتَ قد سُررت بأن تُعطيَني نعمةَ أن أجوزَ الليلَ وصولًا إلى هذا الصباح، فأعطِني الآنَ نعمةَ أن أوظِّفَ هذا اليوم بالكامل في خدمتك، ليكونَ كلُّ ما أعمله لمجد اسمك وبناء جميع مَن هم حولي. وحيث إنَّك سررتَ بأن تجعلَ شمسك تشرقُ على أرضنا لتعطينا نورًا محسوسًا، امنَحْني أيضًا نورَ روحك ليشرقَ على عقلي وقلبي. ولأنَّه لا يعني شيئًا أن نبدأ بدءًا حسنًا ولا نكمل، فإنِّي أسألك أن تستمرَّ في أن تزيدَ نعمتك فيَّ حتَّى تقودني إلى شركةٍ كاملةٍ مع ابنك، يسوعَ المسيحِ ربِّنا، الشمس الحقيقيَّة لنفوسنا، التي تشرق علينا كلَّ يوم وإلى الأبد. اسمَعْني يا إلهي الرحيم بِاسْم الربِّ يسوع المسيح.

صلاةٌ عند بداية العمل اليوميّ

إلهي الصالح، أبي ومخلِّصي. ساعِدْني بالروح القدس أن أبدأ الآن عملي بنجاح، وأثمر في دعوتي ومهنتي التي أعطَيتَني إيَّاها، لأحبَّك وأحبَّ الناسَ من حولي أكثر من أن يكون عملي من أجل مكسبي ومجدي الشخصيّ. أعطِني حكمةً، وحُسنَ تقدير وانضباطًا، وحرِّيَّة من كلِّ الخطايا المحيطة بي. اجعَلْني متواضعًا يا إلهي، وامنحني أن أقبلَ بصبر كلَّ قدرٍ من النجاح أو الصعاب التي ستواجِهُني في عملي اليوم. وساعِدْني في كلِّ شيء أن أستريحَ دائمًا في ربِّي يسوع المسيح، وفي نعمته وحده لأجل خلاصي وحياتي. اسمعني يا إلهي الرحيم بِاسْم الربِّ يسوع المسيح.

صلاةُ ما بعد وجبة منتصف اليوم

ربِّي وإلهي، أقدِّم إليك الشكرَ من أجل كلِّ العطايا والمنافع التي تمنحُني إيَّاها بوفرة دائمًا. أشكرك على الحفاظ على حياتي الجسديَّة بتوفير الطعام والمأوى وعلى منحي حياة جديدة بالإنجيل، وعلى تأكيد الحياة العتيدة الأفضل. وفي ضوء كلِّ هذه البركات، أسألُك الآن ألَّا تدعَ مشاعري تتَّجه إلى رغباتٍ غير سليمة نحو أمورِ هذا العالم، لكن يبقى قلبي دائمًا متعلِّقًا بالأمور السماويَّة، حيث المسيح حياتي، جالس عن يمينك. اسمعني يا إلهي الرحيم بِاسْم الربِّ يسوع المسيح.

صلاةُ ما قبل النوم

ربِّي وإلهي، امنحني الآن النعمة، ليس فقط لأريحَ جسدي في الليل، بل لأنالَ أيضًا سكونًا روحيًّا وضميريًّا في نعمتك ومحبَّتك، حتَّى ألقي كلَّ همومي الأرضيَّة لأستريح وأهدأ فيك. ولأنَّه لا يمضي يوم في حياتي بلا خطيَّة، فأرجو أن تغطِّيَ كلَّ خطاياي وتعدِّياتي برحمتك، لئلَّا أفقدَ متعةَ الحياة في محضرك. سامحني، إلهي الرحيم، على حسابِ السيِّد المسيح. والآن إذ أستلقي لأنام، أسألك أن توقظَني في الصباح فقط بنعمتك، وأبقني دائمًا متيقِّنًا بفرحٍ أنَّه مهما حدث، فسأستيقظُ يومًا ما معك في القيامة الأبديَّة وذلك فقط بسبب عملِ يسوع المسيح، إذ مات من أجل خطاياي وقام من أجل تبريري. اسمعني يا إلهي الرحيم بِاسْم الربِّ يسوع المسيح.

شكرٌ وعرفان

ليس هناك كتاب قابلٌ للقراءة يمكن أن يكتبَه شخصٌ واحد.

لقد ساهم في تحسين الكتاب ما تلقَّيتُه من محرِّري برايان تارت (Brian Tart)، وزوجتي كاثي، وزملائي في خدمة "من مدينة إلى مدينة" (City to City) سكوت كاوفمان (Scott Kaufmann)، كما يجب أيضًا توجيه الشكر إلى كلِّ مَن سمحوا لي بالكتابة في إجازات الدراسة والكتابة السنويَّة التي أمضيتُها بعيدًا عن البيت- لين لاند (Lynn Land)، وماري كورتني بروكس (Mary Courtney Brooks)، وجون وكارولين تويناي (John and Carolyn Twiname). كثيرًا ما شكرتُ محرِّري برايان تارت ومدير أعمالي ديڤيد مكورمِك (David McCormick) على معونتهم لي. لكن مع كلِّ كتاب يُنشَر- ومع كتابنا العاشر معًا- أدركُ عِظَمَ مديونيَّتي لهما.

حواشٍ مختارةٌ عن الصلاة مع شرحها

هذا الفهرس مخصَّصٌ للكتب (باللغة الإنكليزيَّة) التي كانت مفيدة لي بينما كنتُ أكتب، والتي كانت أيضًا مفيدةً لي شخصيًّا في حياة الصلاة.

لاهوتُ الصلاة

Calvin, John. *Institutes of Christian Religion*. Edited by John T. McNeill. Vol. 2. Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 1960, Book 3 Chapter 20.

لا شيءَ يضاهي معالجَةَ كالڤن للصلاة، وأعمال قليلة في اللاهوت النظاميِّ اقتدَتْ بكالڤن في تضمين فصلٍ كبيرٍ عن الصلاة. امتاز أسلوب كالڤن باللاهوتيَّة والعمليَّة في الوقت نفسه، وكان كعادته شاملًا جدًّا، وهذا أمرٌ نادر- لاهوتٌ عميقٌ مع نغمة روحانيَّة سامية- ونكهة تجعل القارئ يشعر بالرغبة في الصلاة.

Carson, D. A. *A Call to Spiritual Reformation: Priorities from Paul and His Prayers*, Grand Rapids, MI: Baker Academic, 1992.

ليس هذا الكتاب مقالةً لاهوتيَّة، ولا هو كتابٌ عمليٌّ عن الصلاة، بل هو كتابٌ يتميَّز بالكثير من الأفكار اللاهوتيَّة والعمليَّة الثاقبة، حيث يدرس صلوات بولس الرسول وحياة الصلاة التي كان يحياها.

Carson, D. A., ed. Teach Us to Pray: Prayer in the Bible and the World. Eugene, OR: Wipf and Stock, 2002.

الكتاب الأشمل ضمن هذه القائمة؛ فهو يستكشف الصلاة من كلّ زاوية- كتابيًّا، ولاهوتيًّا، وإنسانيًّا، وتاريخيًّا، ونفسيًّا، وعمليًّا. كما تمثِّلُ مقالاته رؤى ثقافيّة متعدِّدة.

Clowney, Edmund P. CM: *Christian Meditation*. Nutley, NJ: Craig Press, 1979.

توقَّفَتْ طباعةُ هذا الكتاب منذ مدّة طويلة، لكنّه مفيد على نحوٍ فريد. يقدِّم كلاوني نقدًا حادًّا للتأمّل المتسامي، الذي كان في أوج شعبيّته في سبعينيّات القرن العشرين. ولأنّ الأفكار الأساسيّة للروحانيّة والتصوّف الشرقيّ لا تزال متغلغلة في الثقافة أكثر من أيّ وقت مضى، فلا يزالُ هذا الكتاب مهمًّا. يقدِّم كلاوني اللاهوت الكتابيّ، ليس فقط للصلاة المسيحيّة، بل أيضًا للتأمّل المسيحيّ.

"لاهوت الكتاب المقدّس للصلاة" في كتاب:

Teach Us to Pray: Prayer in the Bible and in the World, edited by D. A. Carson. Eugene, OR: Wipf and Stock, 2002.

كتابٌ تصعبُ قراءته، كما أنّه ليس عمليًّا كثيرًا. غير أنّه يعدُّ ربّما المعالجةَ الوحيدة والكاملة لكلّ ما هو مكتوب عن الصلاة في الكتاب المقدّس. انظر أيضًا كتاب غولدزورثي (Goldsworthy)

Davis, John Jefferson. *Meditation and Communion with God: Contemplating Scripture in an Age of Distraction*. Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2012.

يقدِّم داڤيز لاهوتًا كتابيًّا عن التأمّل في الكتاب المقدّس. وهو يفعل ذلك بالتفكير في تأثير العديد من المواضيع والعقائد اللاهوتيّة الكتابيّة. كما يقدِّم اتِّزانًا نادرًا، حيث إنّه إيجابيٌّ من ناحية الخبرة الروحيّة، إلّا أنّه حَذِرٌ في ما يتعلّق بطرق التأمّل وما ينتسب منها إلى الأديان الشرقيّة، ما ينتسب منها إلى الأرثوذكسيّة الشرقيّة أو الكاثوليكيّة التي لا تحترم بما يكفي، بحسب رأيه، سلطان الكتاب المقدّس، أو مجّانيّة النعمة.

Goldsworthy, Graeme. *Prayer and the Knowledge of God*. Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2003.

يقطِّر غولدزورثي المادَّة الكتابيَّة للصلاة ويكثِّفها، أوَّلًا بحسب أنواع الصلاة، ثمَّ وَفقًا لمواضيعها. ثمَّ يعود ليستعرضَ كلَّ هذه المادَّة ليدرسَ الصلاة في المراحل المتتالية في التاريخ الفدائيِّ من الخلق إلى السقوط، مرورًا بالشعب العبرانيّ، إلى مجيء المسيح. وينبغي أن يُقرأ هذا بمصاحبة كتاب كارسون "**علِّمنا أن نصلِّي**"، وأيضًا الفصل الذي في كتاب كلاوني "**لاهوت كتابيٌّ للصلاة**".

ممارسة الصلاة

Edwards, Jonathan. *"Personal Narrative"* and *"A Divine and Supernatural Light."* In *A Jonathan Edwards Reader*, edited by John E. Smith, Harry S. Stout, and Kenneth P. Minkema. New Haven, CT: Yale University Press, 2003.

تكمِّلُ هاتان القطعتان اللتان كتبهما إدواردز بعضهما بعضًا. الأولى هي روايةٌ شخصيَّةٌ لخبرة روحيَّة، والأخرى دراسةٌ كتابيَّة فلسفيَّة عن كيفيَّة عمل الخبرة الروحيَّة، يمكن أن تكونَ قراءتهما معًا أمرًا مغيِّرًا للحياة، أو على الأقلِّ مغيِّرًا لحياة الصلاة.

Hallesby, Ole. Prayer. Minneapolis: Augsburg Fortress, 1975

يقدِّمُ هذا الكتَيِّب الكلاسيكيُّ حلولًا لمشكلات الصلاة. وبدلَ أن يقدِّمَ لاهوتًا للصلاة أو يشرح خطوات عمليَّة يمكن اتِّباعها في الصلاة، يتَّخذُ هالسبي مسارًا رعويًّا، يتجاوب فيه مع سلسلة الشكاوى والصعوبات التي يواجهها الناس في الصلاة. ربَّما لهذا السبب، تبدو مناقشاته أحيانًا خفيفة أو تخمينيَّة من الناحية اللاهوتيَّة. إلَّا أنَّ التأثير العامَّ لهذا الكتاب هو أنَّه يطمئن مَن يُصارِعون من أجل حياةِ صلاةٍ أفضلَ أنَّ يسوع معهم ويشجِّعهم على المثابرة والاستمرار.

Henry, Matthew. *A Method for Prayer: Freedom in the Face of God.* Edited by J. Ligon Duncan. Tain, Scotland: Christian Focus, 1994.

هذا أيضًا كتاب فريد. يستخرج متَّى هنري من الكتاب المقدَّس مئات الصلوات الفعليَّة، ثمَّ ينظِّمُها ويصنِّفُها تحت عناوين فرعيَّة ضمن مواضيع كبيرة مثل التسبيح والاعتراف والتضرُّع والشكر والتشفُّع، ثمَّ ختام الصلاة. ويقدِّم المحرِّر

جاي. ليغون دنكان (J. Ligon Duncan) مخطَّطًا عامًّا للكتاب في ملحق. ويقدِّم هذا الكتاب عشراتِ الأفكار الخاصَّة بكيفيَّة الصلاة من العبادة، إلى الاعتراف، إلى الشكر، إلى الطلب والتضرُّع. كلُّ ما عليك فعله هو أن تحوِّل هذه الصلوات إلى صلواتٍ شخصيَّة تتناول حالتك وقضاياك. لقد اكتشفتُ أنَّ في وُسع المرء بسهولة أن يُمضيَ يومًا كاملًا في الصلاة بمساعدة هذا المرشد.

Luther, Martin. *"A Simple Way to Pray"* and *"Personal Prayer Book."* In *Luther's Works: Devotional Writings II*, edited by Gustav K. Wiencke, Vol. 43. Minneapolis: Fortress Press, 1968.

نجح كتاب "**طريقة بسيطة للصلاة**" للوثر في أن يكون كتابًا عمليًّا جدًّا وعميقًا جدًّا في الوقت نفسه. وقد تناولتُ هذا الكتيِّبَ في ما سبق من كتابي. إنَّه كتابٌ يستحقُّ أن يقرأه المرء مرَّة كلَّ سنة.

Owen, John. "A Discourse on the Work of the Holy Spirit in Praye." *In Works of John Owen*, edited by William H. Goold. Carlsle, PA: Banner of Truth, 1965, 4: 235-350.

-------------. "*On the Grace and Duty of Being Spiritually Minded.*" In *The Works of John Owen*, edited by William H. Goold. Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965, 7: 262- 497.

-------------. "*Meditations and Discourses on the Glory of Christ.*" In *The Works of John Owen,* edited by William H. Goold. Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965, 1: 274- 461.

لم تكن من السهل قراءة أوين حتَّى في أيَّامه، لذا فإنَّ فهمها في هذه الأيَّام هو أمرٌ أصعب. غير أنَّ أعمالَه لا تُضاهى في ما يخصُّ الخبرة الروحيَّة. فهو يجمع ما بين التأمُّل اللاهوتيِّ الوافي، ودعوة قويَّة للخروج من خلف الاعتناق العقائديِّ إلى المعرفة القلبيَّة العميقة لله.

الصلوات اليوميَّة

Barbee, C. Frederick, ands Paul F. M. Zahl. *The Collects of Thomas Cranmer.* Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1999.

يقدِّمُ هذا الكتاب تجميعًا لأعمال كرانمر بوصفها نماذجَ للصلوات الجماعيَّة والشخصيَّة، مع شروح مختصرة للاهوت كلِّ صلاة، ونبذة تاريخيَّة عن صياغة كرانمر لهذه الصلاة. إنَّها بالفعل نماذج للصلاة لا تُقدَّر بثمن- ويرى كثيرون أنَّه لا مثيل لها خارج الكتاب المقدَّس نفسه.

Bennett, Arthur G., ed. *The Valley of Vision: A Collection of Puritan Prayers & Devotions*. Carlisle, PA: Banner of Truth, 1975.

حُرِّرت هذه المجموعة من الصلوات البيوريتانيَّة ووُضعَت في صورة أساليبَ لغويَّة معاصرة. وقد نجتْ هذه المجموعة من الصلوات في اجتياز اختبار الزمن. وأحد أسباب ذلك أنَّها صلوات تختلف عن أغلب الصلوات الموجودة في أدبيَّات الصلوات اليوميَّة؛ فهي تأخذ الخطيَّة بجدِّيَّة أكثر، كما أنَّ مجدَ الله ونعمته يشرقان فيها بنورٍ أبهى.

الأعمال المعاصرة الشهيرة

Packer, J. I. and Carolyn Nystrom. *Praying: Finding Our Way Through Duty to Delight*. Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2009.

هذا الكتاب مبنيٌّ على سلسلةٍ من الأحاديث، لذلك فهو يتميَّز أحيانًا بالتَّكرار، لكنَّه عمومًا أفضل كتاب على مستوى الكتب المعاصرة الشهيرة عن الصلاة. وهو يشملُ جميعَ المواضيع، ويدعونا إلى حياة الصلاة، ويحثُّنا ويشجِّعنا عليها.

Peterson, Eugene H. *Answering God: The Psalms As Tools for Prayer,* San Francisco: Harper & Row, 1989.

هذا أفضلُ كتابٍ عن كيفيَّة استخدام المزامير في الصلاة، وهو يتضمَّن أيضًا لاهوتَ صلاةٍ غاية في القوَّة. إنَّ بيترسون هو أحد أبطال رَبْطِ الصلاة بالكتاب المقدَّس لاهوتيًّا وعمليًّا في الوقت نفسه.

Ward, Timothy. *Words of Life: Scripture as the Living and Active Word of God.* Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2009.

رغم أنَّ هذا الكتاب هو عن العقيدة الخاصَّة بالكتاب المقدَّس، ونادرًا ما يلمس الصلاة، فإنَّ وارد يدافع عن قضيَّة أنَّ الكتاب المقدَّس هو "الطريق الأساسيُّ الذي أعطانا الله إيَّاه للقائه". وهو يشدِّدُ على ذلك في سياق تأكيده رؤيتَه العالية جدًّا لسلطان الكتاب المقدَّس وعصمته. أمَّا تداعيات ذلك على الصلاة فكبيرة. بهذه النظرة إلى الكتاب المقدَّس، يمكن أن تصيرَ الصلاةُ المقترنةُ بتأمُّل الكتاب المقدَّس حوارًا حقيقيًّا مع الله.

الصلاة الربَّانيَّة

Packer, J. I. *"Learning to Pray: The Lord's Prayer." In Growing in Christ.* Wheaton, IL: Crossway, 2007, 153-220.

يُعدُّ تفسير باكر للصلاة الربَّانيَّة المعالجةَ المعاصرةَ الأسهل والأكثر تركيزًا لهذه الصلاة. وللحصول على معالجةٍ أكثر إسهابًا، انظرْ أيضًا:

Goekin, Richard. Our Father: *Enjoying God in Prayer.* Nottingham, UK: InterVarsity Press, 2012

Lloyd-Jones, D. Martyn. *Studies in the Sermon on the Mount.* Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1984.

Stott, John R. W. *The Message of the Sermon on the Mount.* Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1985.

Wright, N. T. *The Lord and His Prayer.* Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1997.j

الروحانيَّة التأمُّليَّة

لقد قدَّمتُ نقدًا وافيًا للتراث المسيحيِّ الصوفيِّ التأمُّليِّ. لكن لا تزال هناك أمورٌ يمكن أن نتعلَّمها نحن الذين نقف خارجها.

Bloom, Anthony, *Beginning to Pray.* Mhawah, NJ: Paulist, 1970

هذا أيضًا كتابٌ معروف، وهو من كلاسيكيَّات التقليد الأرثوذكسيِّ الشرقيِّ.

Hall, Thelmal. *Too Deep for Words: Rediscovering Lectio Divina.* Mahwah: NJ: Paulist, 1988.

يقدِّمُ كتاب هال هذا مقدِّمةً واضحةً وسهلةَ الفهم لهذا التقليد المسيحيّ.

Von Balthasar, Hans Urs. Prayer. Ignatius, 1986.

ربَّما يكون هذا الكتاب الأفضل والأكثر إلمامًا بشأن الروحانيَّة الكاثوليكيَّة، وهو يقدِّم شرحًا لاهوتيًّا مركَّزًا للروحانيَّة التأمُّليَّة.

الملاحظات

المقدِّمة: لماذا تأليفُ كتابٍ عن الصلاة؟

١. يُمثِّل جوناثان إدواردز أحد الأمثلة. إنَّ معالجة إدواردز لطبيعة الخبرة الروحيَّة معالَجة لا مثيل لها. مثلًا، كتابه "المشاعر الدينيَّة" وعظته "نورٌ إلهيٌّ فائق للطبيعة" يشرَحان بالتفصيل ما يُمكن أن نُسمِّيَه "الإحساس القلبيّ" الذي هو جَوهرُ اللقاء الروحيِّ مع الله. غير أنَّ إدواردز يتكلَّم قليلًا جدًّا عن المنهجيَّة، أي عن كيفيَّة التأمُّل والصلاة.

2. Austin Phelps, *The Still Hour: On Communion with God* (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1974), 9.

3. Donald Bloesch, *The Struggle of Prayer* (Colorado Springs: Helmers and Howards, 1988).

يتبع بلويش بأمانةٍ المنطقَ والرموزَ التي يقدِّمها فريدريك هيلر، والذي كتب عن الصلاة "التصوُّفيَّة" في مقابل الصلاة "النبويَّة". وسنتأمَّلُ في أعمال هيلر وندرس هذه الفروق بتفصيل أكبر في الفصل الثالث.

4. Bloesch, *Struggle of Prayer*, 131.

٥. المرجع السابق نفسه، ١٥٤.

٦. المرجع السابق نفسه، ٩٧-١١٧.

بصفتي پروتستانتيًّا مقتنعًا، فأنا أتَّفق مع دونالد بلويش هنا. يؤمن الپروتستانت بما يُسمَّى "كفاية" الكتاب المقدَّس، أي أنَّهم يؤمنون بأنَّ روحَ الله يتكلَّم إلينا بالكلمة المقدَّسة. ويكتب تيموثي وارد عن "الكتاب المقدَّس...حاسبًا إيَّاه الوسيلة التي يعمل الله بها في العالم، ومن ثَمَّ فهو الطريقة التي بها يقدِّم نفسَه إلى العالم ليتواصلَ معنا".

Timothy Ward, *Words of Life: Scripture as the Living and Active Word of God* (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2009), 113.

يقدِّمُ وارد مقابلة ما بين مفهوم كفاية الكتاب المقدَّس، ووجهة النظر الكاثوليكيَّة. لقد عَلَّم المُصلحون الپروتستانت، مثل مارتن لوثر وجون كالڤن، أنَّ الروح القدس كان يتكلَّم "بواسطة الكتاب المقدَّس" وليس من "مركَز الكنيسة في روما، والذي تتزايدُ سُلطتُه" (١٠٩). ولهذا المنظور المُصلح القويِّ لكفاية الكتاب المقدَّس تأثيره في شكل ممارسة الصلاة. لقد أنكر

المصلحون التعليمَ الكاثوليكيَّ أنَّ الروح يتكلَّم بواسطة الكنيسة (وتفسيرها للكتاب المقدَّس) أكثر مَّا يتكلَّم بواسطة الكتاب المقدَّس نفسه. وأيضًا فرضيَّة الأناباپتس (Anabaptist) أنَّ الروح القدس أعطى الأفراد إعلانات جديدةً في ما وراء الكتاب المقدَّس. انظر قانون الإيمان الوستمنستريّ (١٦٤٦)، وستجدُ ملخَّصًا لهذا المفهوم. هاتان الفكرتان تدمِّران مفهومَ الصلاة بوصفها حوارًا مع الله بالكلمة المقدَّسة. حيث يقلِّلُ المفهومُ الكاثوليكيّ، وكذلك الأناباپتست من فكرة أنَّ الله يتكلَّم إلينا مباشرة بالكتاب المقدَّس. وفي مفهوم الأناباپتست (الكويكر في ما بعد)، نحن نستمع إلى الله بأن يكلِّمَنا في قلوبنا مباشرة.

٧. راجع تناوُل جون پايپر (John Piper) لذلك المفهوم في كتابه:

Desiring God: Meditations of a Christian Hedonist (Colorado Springs: Multnomah, 1987).

٨. يعلِّقُ بلويش على "العنصر التصوُّفيّ الممتدّ" الموجود في تعليم لوثر عن الصلاة في كتابه: *"Struggle of Prayer"*، ١١٨

9. Hans Urs von Balthasar, Prayer (Ignatius Press, 1986), 28, cited in Bloesch, Struggle of Prayer, 118-19.

انظر المزيد من مناقشة آراء بلثاصَر في ما يلي من هذا الكتاب

الفصل ا: ضرورة الصلاة

1. Flannery O'Conor, *A Prayer Journal* (New York: Farrar, Straus, 2013), 3.

٢. المرجع السابق نفسه، ٤.

٣. المرجع السابق نفسه، ٢٠.

٤. المرجع السابق نفسه، ٨.

٥. المرجع السابق نفسه، ٢٠.

٦. المرجع السابق نفسه، ٤.

٧. المرجع السابق نفسه، ٢٣.

8. http://goindia.about.com/od/spiritualplaces/tp/Top-10-Rishikesh-Ashrams.htm.

9. David Hochman, *"Mindfullness: Getting Its Share of Attention,"* The New York Times, November 1, 2013.

١٠. انظُرْ إلى مقالةِ الغلاف في مجلة "المسيحيَّة اليوم" (Christianity Today) عدد شباط/فبراير ٢٠٠٨م بعنوان "المستقبل يقع في الماضي: لماذا يرتبط الإنجيليُّون بالكنيسة الأولى وهم يعبرون إلى القرن الحادي والعشرين"، بقلم كريس أرمسترونغ (Chris Armstrong)، والشريط الجانبيّ "الرهبانيُّون الإنجيليُّون" للكاتب نفسه أيضًا والمنشور بتاريخ ٨ شباط/فبراير. للوصول إليه http://www.christianitytoday.com/ct/2008/february/22.22.html.

١١. داخل الكنيسة الكاثوليكيَّة، كان هناك نقدٌ مستمرٌّ لما يُسمَّى "الصلاة التمركُزيَّة" (Centering

Prayer) بوصفها تُدين بأصولها للديانات الشرقيَّة أكثر من الفهم المسيحيّ للألوهة. انظر أيضًا إلى وثيقة ١٩٨٩م "جوانب التأمُّل المسيحيّ"، وكذلك "تأمُّلات مسيحيَّة حول حركة العصر الجديد".

http://www.vatican.va/roman_cu-ria/congregations/cfaith/documents/rc_con_c-faith_doc_19891015_meditazione-cristian_en.html http://www.vatican.va/roman_curia/potentifical_councils/interelg/documents/rc_pc_interelg_doc_20030203_new-age-en.html.

للاطِّلاع على النقد البروتستانتيّ للاهتمام الإنجيليّ الحاليّ بالروحانيَّة القديمة والوسيطة (المنتمية إلى العصور الوسطى) راجع

D. A. Carson, *"Spiritual Disciplines,"* in *Themelios* 36, no. 3 (November 2011).

أيضًا مقالة كارسون الأقدم "متى تكون الروحانيَّة روحيَّة؟"

"When is Spirituality Spiritual?" Journal of the Evangelical Theological Society 37, no. 3 (September 1994).

12. D. Martyn Lloyd-Jones, *The Sons of God: An Exposition of Chapter 8: 5- 17* (Romans Series)

يتبنَّى لويد جونز وجهة النظر (التي يعترف بأنَّها خاصَّةٌ به) أنَّ "شهادة الروح" الموصوفة في رومية ٨: ١٥-١٦ و"ختم الروح" الموصوف في أفسس ١: ١٣ (انظر أيضًا Lloyd-Jones, God's Ultimate Purpose: An Exposition of Ephesians 1: 1-23 (Grand Rapids MI: Baker, 1978), 243-48)، و"معموديَّة الروح" الموصوفة في سفر الأعمال (راجع أيضًا Lloyed-Jones, Joy Unspeakable: Power and Renewal in the Holy Spirit (Marietta, CA: Shaw, 2000) كلُّها تعبيراتٌ تشير إلى خبرةٍ واحدة. لقد كان يرى هذه المعموديَّة للروح القدس أمرًا لاحقًا للتحوُّل، وأمرٌ يناله بعضُ المؤمنين فقط بوصفه عطيَّة لتمكينهم. لقد كان لويد-جونز يفهم أنَّ "النهضات" هي أوقاتٌ تُسكَبُ فيها هذه المعموديَّة على عددٍ كبيرٍ من الناس بصورة استثنائيَّة. ومثلي مثل الكثير من المعجبين بلويد جونز، لا أقبل أن أحسبَ كلَّ هذه التعبيرات الكتابيَّة تشيرُ إلى خبرة واحدة. وأظنُّ أنَّ فَهْمَ لويد جونز لهذه النصوص الكتابيَّة نابعٌ عن خبرةٍ قويَّة كان قد تعرَّض لها في أثناء إجازةٍ كان يُمضيها في ويلز سنة ١٩٤٩م، بينما كان يعاني الإجهادَ والظُّلمةَ الروحيَّة. (انظر "ويلز وصيف ١٩٤٩" "Wales and the Summer of 1949" in Ian H. Murray, David Martyn Lloyd-Jones: The Flight of Faith 1939 -1981 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1990), 201- 21.) إلَّا أنَّ لويد-جونز يقفُ على أرضيَّةٍ تفسيريَّةٍ أكثر تيقُّنًا عندما يصفُ "شهادة الروح" التي في رومية ٨: ١٦ على أنَّها خبرةٌ من خبرات التيقُّن العالية التي يمكن أن تأتي إلينا في الصلاة. وأعتقد أنَّه محقٌّ في هذا الأمر، وتفسيره لها يقدِّمُ قدرًا وافرًا من الاستنارة والإلهام. أيضًا وصفُه خبرةَ محبة الله في تفسيره صلاة بولس الرسول في أفسس ٣: ١٣-٢١ يتميَّز بالغنى والدقَّة.

13. Thomas R. Schreiner, *Romans: Baker Exegetical Commentary on the New Testament* (Marietta, GA: Baker, 1998), 427.

لاحِظِ اختلافَ شراينر مع لويد جونز في أنَّ شهادة الروح هي خبرةٌ خاصَّةٌ متاحةٌ فقط لبعض المؤمنين (٤٢٧).

14. William H. Goold, ed., *The Works of John Owen,* vol. 9 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1967), 237.
15. John Murray, Redemption: *Accomplished and Applied* (Grand Rapids: MI: Eerdmans, 1955), 169-70.
16. Karen H. Jobes, *1Peter: Baker Exegetical Commentary on the New Testament* (Marietta, GA: Baker Academic, 2005), 91.

هذا العدد من الكتاب المقدَّس كان أحدَ الأعداد المفضَّلة لدى لويد جونز، وقد وَضَعَ هذا العنوان لكتابه عن معموديَّة الروح القدس.

١٧. للمزيد عن كيفيَّة "الصلاة بالمزامير" أو استخدام المزامير في الصلاة، راجع الفصل الأخير من هذا الكتاب.

18. D. Martyn Lloyd-Jones, Preaching and Preachers (Peabody, MA: Zondervan, 1971), 169-70.
19. P. T. Forsyth, The Soul of Prayer (reprint of the 1916 edition; Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2012), 9.

الفصل ٢: عَظَمةُ الصلاة

١. كما أشرنا من قبل أكثر من مرَّة، فإنَّ "الحياة الداخليَّة مع الله" تعني ليس فقط حياةَ الصلاة الخاصَّة والشخصيَّة، بل تنمِّيها أيضًا العبادة والصلاة الشخصيَّة والجماهيريَّة معًا. كان جون كالڤن وغيره من المصلحين واضحين في كونِ الصلاة الجماهيريَّة والعبادة وسط الجماعة المسيحيَّة هما الأساس الذي علَّمنا كيف نصلِّي ونتعامل مع الله في المخدع. ويكتب مايكل هورتون، واصفًا فهمَ كالڤن للحياة المسيحيَّة: "الخدمة العلنيَّة هي ما يشكِّل العبادة الشخصيَّة، وليس العكس". انظر Michael S. Horton, Calvin on Christian Life: Glorifying and Enjoying God Forever (Wheaton, IL: Crossway, 2014), 154.

2. Isak Dinesen, *Out of Africa* (New York: Modern Library, 1992), 154.
3. John Owen, cited in I. D. E. Thomas, *A Puritan Golden Treasury,* (Banner of Truth, 1977), 192.
4. Phelps, *The Still Hour,* 9.

٥. للاطِّلاع على حياة الصلاة الخاصَّة بالآباء الأوائل، انظر تكوين ٢٠: ١٧، ٢٥: ٢١، ٣٢: ٩، ١٢: ٢. حصل إسحاق على زوجة بصلاة عبد إبراهيم (تكوين: ٢٤: ١٢، ١٥، ٤٥) استعان موسى بالصلاة في صراعه مع فِرْعَون (خروج ٨: ٨-٩، ٢٨-٣٠، ٩: ٢٨-٢٩، ١٠: ١٧-١٨).
٦. اشتُهِرَ صموئيل بصلواته وبحياة الصلاة (انظر ١صموئيل ١: ١٠-١٦؛ ٢: ١).
٧. ١ملوك ٨: ٢٢-٥٣؛ ٢أخبار ٦: ١٤-٤٢.
٨. ١ملوك ٨: ٣٠، ٣٣، ٣٥، ٣٨، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٩.
٩. يتميَّز سفر يونان عمومًا أنَّه سِجلٌّ للصَّلوات- صلاةُ البحَّارة الخائفين (يونان ١)، واعترافات يونان في بطن الحوت (يونان ٢)، ثمَّ شكوى يونان الصادمة ضدَّ (ما شعر) بأنَّه رحمة سخيَّة

مبالَغٌ فيها وغير مسؤولة من الله تُجاه نينوى (يونان ٤: ٢). وبواسطة الصلاة، طلبَ إيليّا أنْ تنزل نارٌ من السماء أمام الشعب في أحد أهمّ إظهارات القوّة الإلهيّة (١ملوك ١٨: ٣٦)، وبعد ذلك، صلّى إلى الله وهو مكتئبٌ ومستَنزَف ونالَ من الله عونًا ورحمة (١ملوك ١٩: ٤). أمّا أليشع خليفة إيليّا، فقد أنقذَ حياةَ طفلٍ، وأنقذَ مدينةً من الحصار بواسطة الصلاة (٢ملوك ٤: ٣٣، ٦: ١٨). وعندما تلقّى الملك حزقيّا خطابًا شديدَ اللهجة من ملك أشور مهدِّدًا إيّاه بإفناء أورشليم، أخذَ حزقيّا الخطاب "ونشره أمام الربّ" وصلّى، فأنقذَ الله المدينة (٢ملوك ١٩: ١٤-٢٠). وبعد ذلك أنقذَ الربُّ حزقيّا من المرض بالصلاة. أمّا سفر حبقّوق فليس هو سوى صلاةٍ في صورة حوار ما بين النبيّ والله (حبقّوق ٣: ١). لقد انتظرَ حبقّوق مجاوَبةَ الله له عن أسئلته (حبقّوق ٢: ١-٣).

١٠. هذه هي وجهة نظر ثومسون في مقالته "الصلاة" في *The New Bible Dictionary*, ed. J. D. Douglas (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1973), 1020.

راجع إشعياء ٦: ٥، ٣٧: ١-٤؛ إرميا ١١: ٢٠-٢٣، ١٢: ١-٦.

١١. نرى الإشارة إلى ممارسة دانيال بالصّلاة ثلاث مرّاتٍ يوميًّا في دانيال ٦: ٧-١٢، صلاة التوبة، وطلب العودة من السبيِّ في دانيال ٩: ١-١٨، والاستجابة في الأعداد ٢١-٢٣.

١٢. يطلبُ نحميا معروفًا من الإمبراطور ليَبنيَ سورَ أورشليم بواسطة الصلاة (نحميا ١: ١-١١، ٢: ٤). كما استخدم الصلاة أيضًا للحصول على الحماية حتّى إتمام العمل (نحميا ٤: ٩، ٦: ٩). ثمّ بعد ذلك يطلبُ عزرا حمايةَ الشعب العائد إلى يهوذا من السبي في بابل بالصلاة (عزرا ٩: ١) ويتوب نحميا عن خطايا الشعب بالصلاة أيضًا.

١٣. علّمَ المسيح تلاميذه الصلاةَ في متّى ٦: ٥-١٥، ٢١: ٢٢؛ ومرقس ١١: ٢٤-٢٥؛ لوقا ١١: ١-١٣، ١٨: ١-٨. ووضعَ يده على الأطفال ليصلّي من أجلهم (متّى ١٩: ١٣). وأقامَ لعازر من الأموات، بصلاته إلى الآب (يوحنّا ١١: ٤١-٤٢). وأنقذ بطرس من التقسّي الروحيّ بالصلاة (لوقا ٢٢: ٣٢). وقال إنَّ الهيكل ينبغي أن يكون "بيت الصلاة" (متّى ٢١: ١٣؛ مرقس ١١: ١٧؛ لوقا ١٩: ٤٦). وعلّمَ أنَّ بعضَ الشياطين لا تخرجُ إلّا بالصلاة والصوم (مرقس ٩: ٢٩). كان يسوع يصلّي كثيرًا وبانتظام (متّى ١٤: ٢٣؛ مرقس ١: ٣٥، ٦: ٤٦؛ لوقا ٥: ١٦، ٩: ١٨)، وأحيانًا طَوال الليل (لوقا ٦: ١٢). وسُجِّلَت صلاة يسوع في بستان جثسيماني في متّى ٢٦: ٣٦-٤٥؛ مرقس ١٤: ٣٢-٤٠؛ لوقا ٢٢: ٣٩-٤٦. وصلاته أن يجيزَ عنه الآب كأسَ آلام الصليب- لم تُستَجَب. ومات وهو يصلّي ويصرخُ إلى الله في ألم (مرقس ١٥: ٣٥)، مُصلّيًا من أجل أعدائه (لوقا ٢٣: ٣٤)، مُسلّمًا نفسَه إلى الله (لوقا ٢٣: ٤٦).

١٤. تُحضر الصلاة قوّةَ الروح القدس في أعمال ٤: ٢٤، ٣١. جرى اختيار القادة وتنصيبهم بالصلاة في أعمال ٦: ٦، ١٣: ٣، ١٤: ٢٣. وقد كان الرسل- وهم قادة الكنيسة الأولى ومعلّموها- يؤمنون بأنّهم يجب أن يُعطوا اهتمامًا بالصلاة مساويًا لاهتمامهم بتعليم الكلمة (أعمال ٦: ٤). وكان المتوقّع والمنتظر من كلِّ المؤمنين أن تكونَ لهم حياةُ صلاةٍ حارّة (رومية ١٢: ٢، ١٥: ٣٠؛ كولوسّي ٤: ٢)، مصلّين بكلِّ الطرق وبجميع أنواع الصلوات (أفسس ٦: ١٨). وكان متوقّعًا أيضًا أن يبتعدَ الأزواجُ والزوجاتُ بعضهم من بعض لأوقاتٍ من الصلاة والصوم (١كورنثوس

٧: ٥). ويعطينا الروح القدس الثقة والرغبة في الصلاة لله الآب (غلاطيَّة ٤: ٦؛ رومية ٨: ١٤-١٦) ويمكّننا من الصلاة حتَّى ونحن لا نعرف ما علينا قوله (رومية ٨: ٢٦). يجب أن نضعَ كلَّ رغباتنا وطلباتنا أمام الله في الصلاة- والبديل الوحيد لذلك هو القلق (فيلبِّي ٤: ٦). يجب أن تصلّي من أجل كلّ من هم حولك (١تيموثاوس ٢: ١). ويجب الصلاة من أجل المرضى بصورة خاصَّة (يعقوب ٥: ١٣-١٦). يسمعُ الله الصلوات ويستجيبها (يعقوب ٥: ١٧-١٨). كلُّ عطيَّةٍ وكلُّ بركةٍ ننالُها يجب أن "تُقدَّس" بالصلاة- يجب أن تشكرَ الله من أجل عطاياه لئلَّا يتقسَّى قلبُك وتعتقد أنَّك أنت الذي حصلتَ عليها بقوَّتك (١تيموثاوس ٤: ٥) يجب أن تتخلَّلَ الصلاة كلَّ حياتك، يجب أن "نصلّي بلا انقطاع" (١تسالونيكي ٥: ١٧)، طالبين مجدَ الله على نحوٍ واعٍ في كلِّ ما نفعله (١كورنثوس ١٠: ٣١). صلواتُنا وتسبيحاتُ شفاهنا هي أكثر ذبيحة تُسرُّ الله (عبرانيِّين ١٣: ١٥؛ رؤيا ٥: ٨).

15. Charles Summers, cited in Helen Wilcox, ed., *The English Poems of George Herbert* (New York: Cambridge University Press, 2007), 177.

الفصل ٣: ما معنى الصلاة؟

1. Philips and Carol Zaleski, *Prayer: A History* (Boston: Houghton Mifflin, 2005), 4-5.

في كانون الأوَّل/ ديسمبر ٢٠١٣م احتشدَ المئاتُ في بود جايا في الهند، وهي المكان الذي يعتقد أنَّه مسقط رأس بوذا، ليَطلبوا من أجل سلام العالم. وقد وردَ هذا في مقالة:

"Karampa Begins Prayer for World Peace at Bodh Gaya," The Times of India, December 14, 2013.

٢. انظر مثلًا مقالة "تناسخ الأرواح *(Reincarnation)*" في الموقع الرسميِّ للدالاي لاما، والتي تقول إنَّ الناس يمكنهم أن يختاروا مكانَ مولدهم وزمانَه في الحياة التالية، وأن يختاروا أيضًا آباءهم وأمَّهاتهم بفضلِ صلواتهم http://www.dalailama.com/biography/reincarnation.

3. Zaleski, *Prayer: A History,* 6-8, 23.

استخدام الأغاني والغياب المؤقَّت عن الوعي لاستحضار القوَّة من العالم الروحيِّ إلى العالم المادِّيِّ، يُسمَّى الشامانيَّة (Shamanism). ويُعدُّ هذا المنظور الدينيُّ قديمًا جدًّا، ويبدو أنَّه تغلغَلَ في كلِّ الثقافات حول العالم. الكاليڤالا (Kalevala)، وهي تجميع للأشعار الملحميَّة الفنلنديَّة القديمة، وهي تقدِّمُ سجلًّا للأنشطة الشامانيَّة: الخلق والشفاء والحرب، ومختلف الأنشطة الإنسانيَّة وذلك بالأغاني المصاحبة لقوَّةٍ سحريَّة.

4. Cited in Bernard Spilka and Kevin L. Ladd, *The Psychology of Prayer: A Scientific Approach* (New York: Guilford, 2012), 3.
5. http://www.bbc.co.uk/pressoffice/pressreleasses/stories/2004/02-february/26/world-god.shtml.

أُدرِجَتْ كذلك هذه النسبة من الملحدين واللّاأدريِّين الذين يُصَلُّون في المسح الاجتماعيِّ العامِّ المذكور في كتاب سبيلكا ولاد Spilka and Ladd, Psychology of Prayer, 37.

٦. يتزايدُ عدد من يحسبون أنفسهم بلا انتماء دينيّ، وقد وصلَ عددهم إلى نحو واحد من كلّ خمسة، Pew Forum on Religion and Public Life, October 9, 2012.

٧. انظر مقالة "الدين في عصر الألفيّة" (Religion among the Millenials)

Pew Forum on Religion and Public Life Project, February 17, 2010,

٨. يمكن الوصول إليه عبر الموقع الإلكترونيّ: -http://www.pewforum.org/2010/02/17/religion among-the-millenitals Giuseppe Giordan, "Toward a Sociology of Prayer" "نحو دراسة اجتماعيّة للصلاة" in Religion, Spirituality and Everyday Practice, ed. Giuseppe Giordan and William H. Swatons Jr. (New York: Springer, 2011), 77.

يؤكّد جيوردان أنّ الصلاةَ هي "خبرة كونيّة" تهدف إلى الوصول إلى علاقةٍ ما بين بشرٍ ضُعَفاء محدودين وشيء أكبرٍ وأقوى منهم (٧٨). ويقول برنارد سپيلكا، وكيڤن لاد، وهما اللذان نشرا أكثر الدراسات شمولاً في ما يتعلّق بالدراسة النفسيّة للدِّين حتّى الآن، شيئًا مشابهًا لذلك حيث يقولان: "الصلاة هي...أمرٌ مهمٌّ للطريقة التي يديرُ بها معظم الناس حياتهم". انظر كتابَهما "سيكولوجيّة الدين" *(Psychology of Religion, 4)*.

أيضًا أحد أهمِّ الدراسات المعاصرة عن الصلاة، والتي أجراها فليپس وكارول زاليسكي، وهما عالمان درّسا في جامعات هارڤرد وسميث وتافت تَخلُص إلى التالي: "كلّما وجدتَ بشرًا، تجدهم مصلّين". وإذا صارَتِ الصلاة في أيِّ وقت من الأوقات ضدَّ القانون، فإنّها تنزل إلى ما تحت الأرض لتستمرَّ في طريقها إلى أعماق النفس الإنسانيّة (Zaleski and Zaleski, *Prayer: A History,* 4.).

وهناك دراسة كلاسيكيّة أقدَمُ قدَّمَها الباحث الألمانيُّ فريدريك هيلر، وهي تخلُصُ إلى النتائج ذاتها، وتلفت النظر إلى "التعدُّد المذهل لأشكال الصلاة" حول العالم.

Friedrich Heiler, *Prayer: A Study in the History and Psychology of Religion* (Oxford University Press, 1932), 353.

٩. أحيانًا كانت هناك ادّعاءات أنّ بعض القبائل النائية عاشت دون أيِّ دين. كتب دانيال إيڤرت عن قبيلة البيراها (وهي قبيلة صغيرة يصل عددها إلى أقلّ من ٥٠٠ شخص في الغابات المطيرة في الأمازون، البرازيل) "يؤمنون بأنّ العالم موجود هكذا منذ الأزل، وليس هناك أيُّ نوعٍ من الآلهة العُليا". وكانوا راضين بالحياة "دون إله أو دين أو أيّة سُلطةٍ سياسيّة".

Daniel L. Everett, author of *Don't Sleep, There are Snakes* (London: Profile Books, 2010).

ورغم هذه المزاعم، فإنّ هذه القبيلة كانت تؤمن بالأرواح إيمانًا قويًّا، وكانوا يرتدون ملابسَ خاصّة لحماية أنفسهم. انظر -http://freethinkers.com.uk/2008/11/08/how-an-amazonian tribe-turned-a-missionary-into-an-athiest.

10. Heiler, *Prayer: A Study,* 5.
11. Quoted in Bloesch, Struggle of Prayer, vil.

١٢. وُصِفُ أغلب أنواع الصلاة ونوقِشَ باستِفاضةٍ في كتاب زاليسكي *Prayer: A History*.

إحدى الدراسات التجريبيَّة المنشورة في مجلَّة الدراسة العلميَّة للدِّين "Journal of the Scientific Study of Religion" سجَّلتْ على الأقلِّ واحدًا وعشرين نوعًا من الصلوات المسيحيَّة.

Kevin L. Ladd and Bernard Spilka, "Inward, Outward, and Upward: Cognitive Aspects of Prayer," Journal of the Scientific Study of Religion 41, 475-84P and "Inward and Outward ,and Upward: Scale Reliability and Validation," Journal of the Scientific Study of Religion 45, 233-51.

كان لاد وسپيلكا يحاولان أن يستخدما مقاييسَ موضوعيَّةً وتحليلَ العوامل ليتحقَّقا من التصنيفات التي قدَّمها ريتشارد فوستر في كتابه "الصلاة: الوصول إلى الموطن الحقيقيِّ للقلب الإنسانيّ" Richard Foster, *Prayer: Finding the Heart's True Home* (San Francisco: Harper, 1992).

١٣. Zaleski and Zaleski, *Prayer: A History, 27*. توجَد معالجتهم للنظريَّات الباكرة للصلاة في الصفحات ٢٤-٢٨

١٤. المرجع السابق نفسه، ٢٧.

١٥. لم يرَ كارل يونغ، على عكس معاصره سيغموند فرويد، أنَّ الدِّين هو أحَدُ أعراضِ الكبت الجنسيّ، وأحد مظاهر عدم النضج النفسيّ. في الواقع كان يونغ يؤمنُ بأنَّ الخبرات الدينيَّة يمكن أن تكونَ عناصرَ مساعدة للنموِّ نحو الاكتمال والصحة النفسيَّين. كان يونغ يعلِّمُ أنَّ لكلِّ البشر لاوعيًا خاصًّا كوَّنته خبراتهم، وأنَّهم يشتركون أيضًا في "لاوعي جمعيّ"، وهو الذي يكوِّن وعيًا برموزٍ ومواضيع يولَدُ فيها كلُّ البشر، وهي ليست نتيجةً للخبرات الشخصيَّة الفرديَّة. انظر أيضًا كتاب: Robert H. Hopcke, *A Guided Tour of the Collected words of C. C. Jung,* 10th Anniversary edition (Boston: Shambhala, 1999), 13- 20, 68.

١٦. كان مفهوم اللَّاوعي الجمعيِّ ممكنًا عند يونغ لأنَّه كان يؤمن، حاله حالُ المفكِّرين الشرقيِّين، بأنَّ "العالم حقلٌ واحد، تشترك فيه كلُّ المواضيع والذوات، وهي كلُّها تعبيراتٌ مختلفةٌ عن واقع واحد أساسيّ" (Hopcke, C. G. Jung, 72.) ومن ثَمَّ فإنَّ عمليَّةَ النموِّ نحو النُّضج هي عمليَّة من إحداث التواصل بين اللَّاوعي الفرديِّ ورموز اللَّاوعي الجمعيِّ حتَّى يحدثَ نوعٌ من التوازن ما بينهما. يحتاج الأشخاص لأن يكونوا "متفرِّدين"، ولكلٍّ منهم "صورته الذاتيَّة"، وفي الوقت نفسه، يحتاجون لأن يرَوا أنفسَهم أجزاءً من كلٍّ واقع متكامل ليستطيعوا الفَرارَ من محوريَّة الذات ووهم أنَّهم خارج منظومة الواقع الكلِّيَّة (Hopcke, C. G. Jung, 14-15).

١٧. انظر Hopcke, C. G. Jung, ٦٨.

كان يونغ يرى أنَّ الدِّين هو الخبرة الدينيَّة، الاتِّصال المباشر بالله، والذي كان يسمِّيه "numinosum" والذي يمكن أن نترجمَه "الحضور الإلهيّ"، وهو تعبير مقتبس من رودلف أوتو (Rudolf Otto) والذي يظهر في الأحلام والرؤى والخبرات الصوفيَّة. ثانيًا، كان الدين يتكوَّن من ممارسة دينيَّة ومعتقدات وطقوس وممارسات. كان يونغ يرى أنَّها ضروريَّةٌ لحماية الناس من القوَّة الغامرة الناتجة من خبرةِ الحضور. كان كلٌّ من الخبرة الدينيَّة والممارسة الدينيَّة ليونغ ظواهرَ نفسيَّة مصدرها الداخليُّ والخارجيُّ في اللَّاوعي الجمعيّ". انظر أيضًا ص.٩٧، والتي يكتب فيها هوپك عن مفهوم "الطراز البدائيّ" (Archetype) الذي يقع داخلَ اللَّاوعي الجمعيِّ

"للذات"، والذي يعني إدراك أنّنا نعيش في وحدة واتّصال بكلّ الواقع. "كان يونغ يرى أنّ الإنسان استقبلَ هذا الطراز البدائيَّ من الوحدة والاكتمال وطوّره بالتصوُّر الدينيّ، ومن ثَمَّ وصلَ إلى فهم أنّ المظاهرَ النفسيَّة للذات هي اختبارٌ لحضور الله أو "للصورة الإلهيَّة في النفس الإنسانية". ويَصرُّ هويك أنَّ يونغ لم يكن يسعى إلى "النزول بالكيان الإلهيِّ المتسامي وحسبانه مجرَّدَ خبرةٍ نفسيَّة"، بل كان يحاول أن يوضحَ كيف أنَّ "صورة الله في الأصل مطبوعةٌ في نفوسنا" (٩٧). غير أنَّ إيمان يونغ بأنَّ الإنسان يختبرُ الله بالدخول في أعماق نفسه ولاوَعيه بدلَ الاستماع إلى الكلمات التي يتكلَّم الله بها بأنبيائه، كان يكشف أنَّ إيمانه بالله قريبٌ من الصورة الشرقيَّة التي لا ترى الله شخصًا متساميًا عن الخليقة بقدر ما هو قريبٌ ومتماهٍ معها. راجع أيضًا إستر هاردنغ Esther Harding in "What Makes the Symbol Effective as a Healing Agent?"in Current Trends in Analytical Psychology, ed. Gerhard Adler (Arbington, Uk: Routledge reprint, 2001), 3. وتشرح هاردنغ أنَّ مدرسة يونغ النفسيَّة تصف "اللاوعي الجمعيّ" للبشر بالأوصاف التي يستخدمها المتديِّنون للإشارة إلى الله.

١٨. كتب يونغ مقدِّمة إلى كتاب دي. تي. سوزوكي الكلاسيكيِّ D. T. Suzuki An Introduction to Zen Buddhism (New York: Grove Press, 1964), 9- 29. في هذه المقالة يقول يونغ إنَّ وجهة نظره بشأن اللاوعي الجمعيِّ تلتقي مع وجهة النظر البوذيَّة أنَّ "هناك حياة كونيَّة أو روحًا كونيَّة. وفي الوقت نفسه هناك حيوات فرديَّة وأرواح فرديَّة" (١٣). ويشير يونغ أيضًا متَّفقًا على وجود تشابُهٍ ما بين خبرة "ساتوري" البوذيَّة وخبرات المتصوِّف المسيحيِّ مايستر إيكهارت (Meister Ekhart) في العصور الوسطى. ويقتبسُ من إيكهارت قوله: "عند الاختراق...فأنا أكثر من كلِّ المخلوقات: أنا ما أنا وما سأظلُّ عليه، الآن وإلى الأبد. ثمَّ أشعرُ بانتفاضة، ترفعني فوق كلِّ الملائكة. في هذه الانتفاضة صارَ غنيًّا حتَّى إنَّ الله لا يكفيني، مع كلِّ ما يكونه ويفعله بوصفه الله؛ لأنّي في هذا الاختراق أستقبلُ ما هو مشترك بيني وبينه. عندئذٍ أكونُ ما كنت، ولا أنمو إلى ما هو أكثر أو أقلّ، لأنّي عندئذٍ أكونُ كِيانًا غير قابلٍ للتَّحريك، ويحرِّكُ كلَّ شيء" (١٤).

١٩. راجع كتاب هاردينغ *"Symbol Effective"* ص. ١٤. تكتبُ أنَّ الخبرة الدينيَّة يمكن أن تساعد شخصًا أن يُسلِّم ذاته إلى كِيانٍ أكبر وأعظم متجنِّبًا الانحسار في النفس وعدم النضج، أمَّا العقائد المحدَّدة فلا ضرورة حقيقيَّة لها. إلَّا أنَّ المسيحيِّين، مثلًا، يرَون أنَّ انحسارَهم في أنفسهم لا يقاومه إلَّا إيمانهم "بفاعليَّة ذبيحة المسيح"، يؤمن علماء النفس بأنَّ هذا لا يمكن الحصول عليه بالإيمان، بل بالفهم الواعي للنَّفس" (١٥).

٢٠. راجع كتاب إيرا بروغوف Ira Progoff, trans., The Cloud of Unknowing (New York: Julian Press 1957), 24.

والمقتبسة في Zaleski and Zaleski, Prayer: A History, 208.

أغلبُ المفكِّرين المسيحيِّين الذين استخدموا الافتراضات والتبصُّرات التي قدَّمها يونغ عن اللَّاوعي كانوا منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة. انظر تي. إي. كلارك أيضًا T. E. Clarke, Jungian Types and Forms, Review for Religion 42, 661-76.

وأيضًا تشستر مايكل وماري نوريسي Chester Michael and Marrie Norrisey, Prayer

and Temperament: Different Prayer Forms for Different Personality Types (Charlottesville, VA: Open Doors, 1985).

لقد جمعَتْ حركة الصلاة التمركُزية (Centering Prayer)، والتي قادها باسيل پيننغتون (Basil Pennington) وتوماس كيتينغ (Thomas Keating)، ما بين فكر يونغ واللاهوت الكاثوليكيّ. راجع سپيلكا ولاد .Spilka and Ladd, Psychology of Prayer, 49

٢١. في التفريق الذي يقدّمه هيلر ما بين الصوفيّة والدين النبويّ، يتبع هو اللاهوتيَّ اللوثريَّ السويديَّ ناثان سوديربلوم (Nathan Soderblom)، مع أنَّ هيلر كان يؤمن بأنَّ الأشكال الأكثر نقاءً من الصلوات الصوفيَّة، كانت في الأديان الشرقيَّة، ولا سيَّما في الأوپنشاد (Upanishads) والبوذيَّة، فإنَّه كان يرى ديناميَّةً مشابهة في التصوُّف المسيحيّ، بداية من كتابات ديونيسيوس المستعار (أواخر القرن الخامس)، إلى أعمال من القرن الثالث عشر لمايستر إيكهارت، وجون تاولر (John Tauler) وسحابة الغموض *(Cloud of Unknowing)*، وأيضًا من القرن السادس عشر حيث يوحنَّا الصليبيّ (John of the Cross) وتيريزا الآﭬيليَّة (Theresa of Avila) (Heiler, Prayer: A Study, 129, 136). كان يؤكِّد أنَّ "صوفيَّة الإله المسيحيّ" تُظهر المزيدَ من "الدفء الشخصيّ والحماسة" أكثر من "البرود والرتابة والصرامة" التي تتميَّز بها الأديان الشرقيَّة (هيلرو ١٣٦).

٢٢. تُعرَّف الصوفيَّة بأنَّها "هذا النوع من التواصل مع الله، الذي فيه تُنكَرُ النفس والعالم تمامًا، وتذوب الشخصيَّة الإنسانيَّة، وتختفي في وَحدة أزليَّةٍ مع الله" (Heiler, Prayer: A Study, 139).

٢٣. المرجع السابق نفسه، ٢٨٤.

٢٤. وكما يقول هيلر في أحد المواضع، فإنَّ الأنواع المختلفة من الصلوات تختلف اختلافًا جليًّا- ليس فقط خارجيًّا، بل في أعماقها أيضًا. إنَّها مختلفة "بكلِّ صورة: في الدوافع، والشكل، والمضمون، والمفهوم عن الله والعلاقة المتضمَّنة به ومستوى الصلاة" (المرجع السابق نفسه، ٢٨٣).

25. Anthony Bloom, Beginning to Pray (Mhawah, NJ: Paulist Press, 1970), 45- 56.

يقتبس بلوم هنا لوقا ١٧: ٢١. لكنَّ يسوع كان يستخدم صيغةَ المخاطب الجمع عندما يقول لتلاميذه: "ها ملكوت الله داخلكم [جميعكم]". ويرى أغلب الدارسين أنَّ يسوع لم يكن يقصدُ أنَّ ملكوت الله داخلَ قلبِ كلِّ فرد، بل داخلهم بوصفهم مجتمعًا. وقد ترجمَ بعضٌ: "ملكوت الله وسطكم". ومن المهمِّ ملاحظة أنَّ بلوم يحرصُ أن يقولَ إنَّ مع كَونه يرشدهم كي يدخلوا في أنفسهم للصلاة، فهو لا يقصد الدخول النفسيّ. لا أقصد به ذلك الدخول الذي يمارسه المحلِّلون النفسيُّون أو في إطار علم النفس. إنَّها ليست رحلةً إلى داخلي أنا، بل رحلةٌ بواسطة نفسي، لأخرجَ من أعماق نفسي إلى المكان الذي يوجَد هو فيه، والنقطة التي فيها ألتَقي الله".

٢٦. الإيمان بشخصانيَّة الله هي افتراضٌ ضروريٌّ. وكلَّما خَفَتَ نورُ الإعلان بشخصانيَّة الله، تذوبُ الصلاة الأصيلة في إطار المثل الفلسفيِّ أو التصوُّف الحلوليّ، وتصيرُ مجرَّد استغراقٍ وعبادة تأمُّليَّة" (Heiler, *Prayer: A Study,* 356).

٢٧. المرجع السابق نفسه، ٣٥٨.

٢٨. المرجع السابق نفسه، ٢٨٥.

٢٩. المرجع السابق نفسه، ٣٠.

٣٠. المرجع السابق نفسه، ٤.

٣١. Zaleski and Zaleskii, *Prayer: A History,* 204-08. بحسب ديونيسيوس المستعار، يمكنُ أن يُعرَفَ الله فقط بواسطة "ظلمة اللامعرفة"، لا بواسطة العقل. يجب التخلّي عن العقلانيّة على أنّها نوعٌ من أنواع النُّسك وإنكار الذات، "ارفض كلَّ ما يُمكن أن يفكّر العقل فيه" لكي "ترتفع إلى مستوى الظلِّ الإلهيّ" يُعيدُ كتاب "سحابة الغموض" إحياء تبصُّرات ديونيسيوس وتفعيلها، مؤكّدًا أنَّ كلَّ ما يأخذنا في ما وراء الفكر والفهم هو حالة من المحبّة الكاملة. لكنَّ وصولنا إلى ذلك يتطلّبُ نموًّا في الفضيلة وتنقيةً للنفس من الخطيّة، وشوقًا ووجدًا عميقًا للاتّحاد بالله، وأخيرًا تطبيقًا صارمًا للمنهج التأمُّليّ. الهدف هو الدخول في "سحابة الغموض"- إلى محضر الله-والبقاء هناك، منفتحين عليه. كلُّ الكلمات والأفكار تبدو مثل مشتّتاتٍ للوعي به- حتّى ما يُسمُّونها أفكارًا في شأنه. يعني إذًا البقاءُ في محضر الله "رفض كلِّ الأفكار العالميّة"، ولا سيّما كلِّ "تداعي المعاني والخيال والتحليل". ويوجّه الكاتب قرّاءه لأنْ يكرّروا كلماتٍ قصيرة، ويفضّلُ أن تكونَ من مقطع واحد. ويقترح كلمتَي الله أو محبّة. وتلعبُ هذه الكلمات دَورًا مُزدَوَجًا: "أوّلًا، توقفُ التفكيرَ المنطقيّ تحت سحابة النسيان والغموض". ثمّ، ثانيًا، تحرّرُ المتأمِّل كي "يُجمّعَ كلَّ شوقه ويركّزه نحو الله حول كلمة واحدة"، كما أنّها "تحرّر الإرادة الخالصة لتخترقَ سحابة الغموض في عملٍ هو أحد أعمال المحبّة الكاملة"، ٢٠٦-٢٠٧.

٣٢. راجع الملخّص الطويلَ عن الفروق ما بين الصلاة الصوفيّة والصلاة النبويّة في Zaleski and Zaleski, *Prayer: A History,* 283- 285.

٣٣. يقول دونالد بلويش: "إنَّ تحليلَ هيلر تعرَّضَ لنقدٍ شديد، لا سيّما من جانب الدارسين الكاثوليك والأسقفيّين، المهتمّين بالدِّفاع عن الأُسس الكتابيّة للتصوُّف المسيحيّ". ويلخّصُ بلويش الانتقادات في صفحة ٥ من كتابه "صراع الصلاة" *(Struggle of Prayer)*. ويساندُ بلويش هيلر. في الواقع، يُعدُّ كتابُه أشبَه بإعادة نشرٍ لنظريّة هيلر أنَّ الصلاة الكتابيّة أفضل من صوفيّة الديانات الشرقيّة ومن الكاثوليكيّة. ويقدِّمُ بلويش تفريقًا ما بين بعض أشكال الصلاة الكاثوليكيّة وغيرها (راجع قبوله "صلاة السكون" التي تقدّمها تريزا الأڤيلية في ص. ٥). ويقدِّم بلويش في كتابه مقابلةً ما بين الصوفيّة وما يسمّيه "الشخصانيّة الكتابيّة". ويستخدم هذا التعبيرَ الأخيرَ ليصفَ ذلك المنظور إلى الصلاة الذي يفترض أنَّ الله صديقٌ شخصيٌّ وأب، وليس مجرَّدَ قوّةِ الوجود غير الشخصانيّة. وفي الوقت نفسه- وهو محقٌّ في ذلك- يهتمُّ بعدم التطرُّف في موقفه المضادِّ للصوفيّة، وعدم التقليل من أهمّيّة العناصر الاختباريّة والصوفيّة في الصلاة الكتابيّة (راجع فصل "الصلاة والصوفيّة"، ٩٧-١٣٠).

34. Zaleski and Zaleski, Prayer: A History, 30

٣٥. حتّى الزوجَان زاليسكي. لا يمكنهما أن يكونا متّسقَين في فكرة أنّنا يجب أن نقبَلَ كلَّ أشكال الصلوات الإنسانيّة. مثلًا، هما يحسبان أنَّ تقديمَ الذبائح البشريّة خطٌّ أحمر، على أساس أنَّ هذا عمل "انتحاريّ"، كما أنّهما أشارا إلى أنَّ "التقاليد الدينيّة الكُبرى رفضَته" (المرجع

السابق نفسه، ٦٥). لكنَّهما لا يصرِّحان بسبب كَونِ هذا الأمر خاطئًا؛ إذ يقولان فقط إنَّ أغلبَ الناس لا يقومون به حاليًا.

٣٦. المرجع السابق نفسه، ١٦١-١٧١، ١٧٩-١٨٩.

37. Agehananda Bharatyi, *The Light at the Center: Context and Pretext of Modern Mysticism* (Santa Barbara: Ross-Erikson, 1976), 28, 43. Cited by Edmund P. Clowney in *"A Biblical Theology of Prayer,"* in *Teach Us to Pray: Prayer in the Bible and the World,* ed. D. A. Carson (Eugene, OR: Wipf and Stock, 2007), 336.

٣٨. "الإيمانُ بشخصانيَّة الله هو الافتراض المُسبَّق الضروريّ. وكلَّما خفت نور الإعلان بشخصانيَّة الله، فستذوب الصلاة الأصيلة في إطار المثال الفلسفي أو التصوف الحلولي فإن الصلاة الأصيلة تذوب وتتحول إلى مجرد استغراق وعبادة تأملية" (Heiler, Prayer: A Study, 356)..

٣٩. "الرواية الشخصيَّة" (The Personal Narrative)

In *The Works of Jonathan Edwards,* vol. 16: Letters and Personal Writings, ed. Gorge S. Claghorn (New Haven, CT: Yale University Press, 1998), 801.

٤٠. المرجع السابق نفسه ٧٩٣.

٤١. لا أريد أن أعطيَ الانطباعَ أنَّ الإجابةَ هي "الطريق الثالث" المتَّزن ما بين زالسكي وهيلر. الحقيقةُ هي أنَّ الفهمَ البروتستانتيَّ التقليديَّ للصلاة- والذي سأصفه- أكثر قربًا من موقفِ هيلر وبلويش كلَيهما. وهذا ليس أمرًا عجيبًا؛ فهيلر صار بروتستانتيًا وأنا خادم بروتستانتيٌّ في التقليد المصلح. لكنَّ الدراسةَ البارعة والواسعة النطاق التي أجراها الزوجان زاليسكي حول ممارسة الصلاة وتاريخها تذكِّرنا بقوَّةٍ أنَّ الصلاةَ هي أمرٌ ينتمي إلى كلِّ البشريَّة. إنَّها غريزةٌ إنسانيَّةٌ، وليست مجرَّدَ موهبةٍ روحيَّةٍ للمؤمنين بالمسيح.

٤٢. الاقتباس الأوَّل هو من John Calvin's Institutes of Christian Religion, 1.3.1.

أمَّا الاقتباس الثاني فهو من تفسير كالڤن ليوحنَّا ١: ٥، ٩. كلا الاقتباسَين موجودان في John T. Mcneill, ed. Calvin: Institutes of the Christian Religion, vol. 1 (Louiseville, KY: Westminster, 1960), 43, 43n2.

يقتبس كالڤن شيشرون، الذي يتساءل: "أين يوجد ذلك الجنس أو تلك القبيلة التي ليست لها، بصورةٍ فطريَّة، بعضُ التصوُّرات المسبَّقة عن الألوهة؟" (from Cicero's On the Nature of the Gods, 44n4).

لم يقل كالڤن أو شيشرون إنَّه لا يمكن أن يعترف الإنسان بالإلحاد بقوَّة وصدق. توجَدُ مقولةٌ لشيشرون في أحد الكتب الذي يحوي حوارًا بينه وبين ڤيليوس (Velleus) الأبيقوريّ، الذي أنكرَ وجودَ الآلهة القديمة. غير أنَّ كالڤن وشيشرون كلَيهما يقولان إنَّه بسبب الوعي الفطريِّ بالألوهة، فالصلاة هي ردُّ فعلٍ طبيعيٌّ إلَّا إذا كبتَها الإنسان. ويصعبُ القضاءُ على كلِّ ما هو غريزيٌّ وفطريّ. انظر في Calvin's Institutes, 1.3.2.

"إنَّهم بالتأكيد يبحثون عن أيَّة حيلةٍ ليختبئوا من محضر الله، ويطمسونه مرَّةً أخرى من عقولهم. لكن رغمًا عنهم فهُم دائمًا ما يَقعون في الشَّرَك مرَّةً أخرى. ورغم أنَّه يبدو أحيانًا أنَّه قُضِيَ عليه

لبرهة، فإنّه يعود فجأة ويندفع بقوّةٍ جديدة...حتّى غير الأتقياء أنفسهم يقدّمون المثالَ على حقيقةِ أنّ ثمّةَ وعيًا بالألوهة يكون حيًّا في الأذهان البشريّة" (McNeill, Calvin: Institutes, 45).

43. William H. Goold, ed., *The Works of John Owen,* vol. 4 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1967), 251- 252.

٤٤. راجع، *"The Most High a Prayer-Hearing God,"* in *The Works of Jonathan Edwards,* vol. 2, ed., Edwards Hicks (Calrisle, PA: Banner of Truth, 1974), 117.

45. McNeill, Calvin: Institutes, 1.4.1., 47,

"كما يظهر من الخبرة، زرع الله بذرةَ الدِّين في كلّ إنسان. غير أنّ إنسانًا من كلّ مئة يتقابَلُ مع مَن زُرعَت فيه هذه البذرة، بجدٍ أن يستَقبلَها في قلبه. الكلُّ يفسد ويتدَهور بعيدًا عن المعرفة الحقيقيّة لله. فلا يفهمون إذًا الله كما يقدّمُ الله نفسه، بل يتخيّلونَه كما أرادوا في افتراضاتهم المسبَّقة".

٤٦. من بين هؤلاء اللاهوتيّين البروتستانتيّين الذين يعترفون بهذين المستَوَيَين من الصلاة ذلك اللاهوتيّ المنتمي إلى القرن التاسع عشر من برنستون تشارلز هودج (Charles Hodge) والذي كتب: "بواسطة فعاليّة الصلاة ننالُ التواصلَ مع الروح القدس. الصلاة ليست مجرَّد غريزةٍ تمارسُها كائنات ذات طبيعة مُعتَمِدة، طالبةً المعونة دائمًا من الذين أوجدوها؛ وليست مجرَّدَ تعبيرٍ طبيعيٍّ عن الإيمان والرغبة، أو طريقة في الشركة مع أبي أرواحنا، بل يجب أيضًا أن يُنظَرَ إليها حاسبين إيّاها الوسيلةَ الموضوعة لقبول الروح القدس". يشرح هوج كيف أنّ لدى المؤمنين بالمسيح "غريزة الطبيعة المعتمدة"، غير أنّ لديهم أيضًا الصلاةَ بوصفها وسيلة بها يوصِلُ الروح القدس مواهبه إليهم. ويستمرُّ بالقول: "لذلك فنحن نعظ أن نكونَ مثابرين بلَجاجةٍ في الصلاة، مصلّين من أجل هذه العطايا من التأثير الإلهيّ التي بها نحافظ على الحياة التي من الله ونشحذها في نفوسنا" Charles Hodge, *The Way of Life: A Guide to Christian Belief and Experience* (Carlisle: PA: banner of Truth, 1978; reprint of an 1841 work), 231. Similarly, J. G. Vos says: يقول جوناثان ڤوس: "إنّ الصلاةَ بالتحديد ظاهرةٌ كَونيّةٌ في الجنس البشريّ...كلُّ الأنظمة الدينيّة غير المسيحيّة تحاول الاقتراب من الله بالصلاة. غير أنّ الصلاة غير المسيحيّة ليس موجّهة إلى الإله مثلّث الأقانيم الذي نجده على صفحات الكتاب المقدّس. ولا تقترب من الله بشفاعةِ يسوع المسيح...هذا الإله يستمع برحمته العظيمة إلى صلاة غير المسيحيّين، ويجب ألّا ننكر ذلك. لكنّ مثل هذه الصلوات تختلفُ جوهريًّا عن صلوات المسيحيّين" Jonathan G. Vos, The Westminster Large. Catechism: A Commentary, ed. G. I. Williamson (Phillipsburg, NJ: Presbyterian and Reformed, 2002), 512- 513.

٤٧. كتاب يوجين بيترسون (Eugene Peterson) عن الصلاة بالمزامير هو كتاب *Answering God: The Psalms as Tools for Prayer* (San Francisco: Harper & Row, 1989).

ورغم أنّه يستخدم عنوان "التجاوب مع الله" ليَصفَ المزامير نفسها، فإنّي أومن بأنّ هذا التعبير ممتازٌ وغنيٌّ بالمعاني لوَصفِ الصلاة عمومًا. أيضًا أستَمدُّ الكثير من كلاوني الذي يُعرِّف الصلاة على أنّها "حديث شخصيٌّ مع إله شخصيّ" (Clowney, "Biblical Theology." 136) الكثير ممّا في هذا الفصل متأثّر بالخطوط العريضة لمقالة كلاوني، والتي يصفُ فيها الصلاةَ على أنّها

حديث شخصيٌّ مع إله يتميَّز بأنَّه شخصٌ وإلهُ عهدٍ وإلهٌ مثلَّث الأقانيم.

٤٨. يقتبس دونالد بلويش كارل بارت: "رغم أنَّ هذا يبدو صعبًا، فإنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الاستماعَ يسبقُ السؤال، وهو أساسه، وهو الذي يجعلُ السؤالَ سؤالًا حقيقيًّا. إنَّه سؤال الصلاة المسيحيَّة". (Bloesch,Struggle for Prayer, 55).

49. C. S. Lewis, The Hideous Strength (New York: Macmillan, 1965), 318.

٥٠. المرجع السابق نفسه، ٣١٩.

٥١. نعلم أنَّ لِويس قرأ كتاب مارتن بوبر (Martin Buber) بعنوان "أنا وأنت" (I and Thou). راجع C.S. Lewis, Collected Letters, vol. 2 (New York: HarperOne, 2004), 526, 528), والذي يحوي عبارة "كلُّ الحياة الحقيقيَّة تلتقي" راجع Martin Buber, I and Thou, trans. Ronald Gregor Smith (Edinburgh: T. & T. Clark., 1937), 20.

52. J. I. Packer, Knowing God (Downers Grove: IL: Intervarsity, 1993), 39-40.

٥٣. راجع المناقشة الأطوَل للقصَّة في كتاب تيموثي كلر، Timothy Keller, *Walking with God Through Pain and Suffering* (New York: Dutton, 2013), 279- 293.

٥٤. يقتبس بلويش جون نوكس (John Knox) في كتابه *Struggle of Prayer,* 50. الاقتباس الأوَّل، والثاني من جون كالڤن مأخوذان من McNeill, Calvin: *Institutes,* 3.20.16, 3.20.2, 872 and 851, بالترتيب.

الفصل ٤: الحوار مع الله

١. للمزيد عن العقيدة الكتابيَّة بشأن الثالوث، اقرأ الفصل الخامس.

٢. يتكلَّمُ الآبُ إلى الابن والابن إلى الآب: "أَنَا مَجَّدتُكَ عَلَى الأرض. العَمَلَ الَّذي أَعطَيتَني لأعمَلَ قَد أَكمَلتُه. والآنَ مَجِّدني أَنتَ أيُّهَا الآبُ عندَ ذاتكَ بالمَجد الذي كَانَ لي عندَكَ قَبلَ كَون العَالَم. «أَنَا أَظهَرتُ اسمَكَ للنَّاس الَّذينَ أَعطَيتَني منَ العَالَم. كَانوا لَكَ وَأَعطَيتَهُم لي، وَقَد حَفظُوا كَلامَكَ. وَالآنَ عَلمُوا أنَّ كلَّ مَا أَعطَيتَني هو من عندكَ، لأَنَّ الكَلامَ الَّذي أَعطَيتَني قَد أَعطَيتُهُم، وَهُم قَبلُوا وَعَلمُوا يَقينًا أَنّي خَرَجتُ من عندكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنتَ أَرسَلتَني" (يوحنَّا ١٧ : ٤-٨). والآبُ والابن يتكلَّمان إلى الروح: "وأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الحَقِّ، فَهُوَ يُرشدُكُم إلَى جَميع الحَقّ، لأَنَّه لاَ يَتَكَلَّمُ من نَفسه، بَل كلُّ مَا يَسمَعُ يَتَكَلَّمُ به، وَيُخبرُكُم بأُمورٍ آتية. ذاكَ يُمَجِّدُني، لأَنَّه يأخذُ ممَّا لي ويخبرُكُم. كلُّ ما للآب هُو لي. لهذا قُلتُ إنَّه يَأخُذُ ممَّا لي وَيُخبرُكُم" (يوحنَّا ١٦ : ١٣-١٥).

٣. انظر Von S. Poythress, God-Centered Biblical Interpretation (philipsburg, NJ: Presbyterian and Reformed, 1999, 16- 25, والذي أُخذتُ منه الكثير من الأفكار التي في هذا الكتاب.

٤. يقتبس نيكولاس واترستورف (Nicholas Waterstorf) ساندرا أم. شنايدر (Sandra M.

Schneider) بوصفها مثالًا لهذا الرأي. تكتب ساندرا: "لا يمكن أن يؤخَذَ الكلامُ الإلهيُّ حرفيًّا...الكلمات...هي أصوات قابلةٌ للفهم تخرجُ من جهاز النطق (أو ما يمثِّل بديلًا عن هذا الجهاز)...اللغة...هي ظاهرة إنسانيَّة متجذِّرة في جسدانيَّتنا وفي طريقتنا الاستطراديَّة في الفهم، وهي بحالتها هذه لا يمكن أن تخبرَ حرفيًّا بشأن الروح المجرَّد". بكلماتٍ أخرى، الكلمات هي أصواتٌ جسديَّةٌ أو (علامات على صفحة) موجودة فقط للمخلوقاتِ الجسديَّة. وأن تتكلَّم اللغةَ عن الله، الروح المجرَّد، فالكلامُ يخطِئ. هذا مقتبس من Sandra M. Schneider, The Revelatory Text, (San Francisco: Harper, 1991), 27- 29 وهو متقبس في Nicholas Wolterstorff, Divine Discourse: Philosophical Reflections on the Claim That God Speaks (Cambridge: Cambridge University Press, 1995), 11.

5. Clowney, "Biblical Theology," 136.
6. Ward, Words of Life. يُعدُّ هذا من المهامِّ الرئيسيَّة في كلِّ ذلك الكتاب.

٧. المرجع السابق نفسه، ٢٢.

٨. المرجع السابق نفسه، ٢٥.

٩. المرجع السابق نفسه، ٢٧.

١٠. المرجع السابق نفسه، ٣١-٣٢.

11. Eugene Peterson, *Working the Angles: The Shape of Pastoral Integrity* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1987), 49.

١٢. المرجع السابق نفسه، ٤٨.

13. Peterson, *Answering God,* 14.
14. Bloesch, *Prayer: A Study,* 101.
15. Thomas Merton, The Ascent to Truth (New York: Harcourt, Brace, 1951), 83. مقتبس في المرجع السابق.

١٦. مقتبس في Bloesch, Prayer: A Study, 101

17. John Jefferson Davis, Meditation and Communion with God: Contemplating Scripture in an Age of Distraction (Downers Grove IL: InterVarsity Press, 2012), يقتبسُ دايفز دايانا إيك التي تقول إنَّ عبورَ التأمُّل الشرقيِّ إلى المسيحيَّة هو أحد "أهمِّ الحركات الروحيَّة في العصر الحالي". ويصيرُ التأمُّل البوذيُّ حاليًّا مسارًا من المسارات المعاصرة للروحانيَّة المسيحيَّة". الاقتباس من: Diana I. Eck, Encountering God: A Spiritual Journey from Bozeman to Banaras (Boston: Beacon Press, 1993), 153. ويسرد دايفز أيضًا البحثَ الذي أجرته دايانا، والذي يكشف كيف أنَّ كثيرًا من المعلِّمين الكاثوليك أخذوا الكثير من الممارسات البوذيَّة والهندوسيَّة في صلاتهم وتأمُّلاتهم (Davis, Meditation and Communion, 16n22).

١٨. راجع، Thomas Keating "The Origins of Centering Prayer," في Intimacy with God (New York: Crossroads, 1994), 11-22 وكذلك Open Mind Open Heart: The Contemplative Dimension of the Gospel (New York: Continuum, 1992).

١٩. في كتاب "Prayer: A History, 204- 208" يقدِّمُ الزوجان زاليسكي ملخَّصًا ممتازًا لتعليم الكتاب مجهولِ المؤلف "سحابة الغموض"، وجذوره في النصِّ الأفلاطونيِّ الجديد "The Mystical Theology" لديونيسيوس المستعار الآريوباغيّ، من القرن السادس. لكنَّهما ينتقدان- وصولًا إلى الرفض- حركة الصلاة التمركزيَّة التي قادَها توماس كيتنغ (Thomas Keating) ووليَم مننغر (William Meninger)، وباسيليوس پننغتون (Basil Pennington)، لا سيَّما أنَّ هذه الحركة استأنَسَتِ الطريق البرِّيَّ الوعرَ للتأمُّل الذي سار فيه كتَّاب العصور الوسطى المسيحيُّون مثل كاتب "السحابة". الخطوات الأساسيَّة الثلاث لصلاة التمركز هي:

قانون رقم ١: في بداية الصلاة نأخذُ دقيقةً أو دقيقتَين لنَهدأ، ثمَّ نتحرَّكُ بالإيمان إلى مكانِ سُكنى الله في داخلنا، وفي نهاية الصلاة نأخذُ بعضَ الدقائقِ للخروج، ونصلِّي بالذِّهن الصلاة الربَّانيَّة أو أيَّة صلاةٍ أخرى.

قانون رقم ٢: بعد الراحة قليلًا في مركَز المحبَّة الملآنة بالإيمان، نأخذ كلمةً واحدةً بسيطةً (مثل الله أو أغاپي). تُعبِّر عن التجاوُبِ مع الله ونتركُها تكرِّر نفسَها داخلنا.

قانون رقم ٣: في أيِّ وقت في أثناء هذه الصلاة، يتشتَّتُ وَعيُنا بأيِّ شيء آخر، حاوِلْ بلُطفٍ أن تعودَ إلى محضر الله باستخدام كلمة الصلاة.

(M. Basil Pennington, O. C. S. O, Centering Prayer, Renewing An Ancient Christian Prayer Form (Garden City, NY: Image, 1982), 65).

ويعلِّق الزوجان زاليسكي في كتابهما (Prayer: A History, 208) بالقول: "من السهل أن نميِّزَ في هذا البرنامج الآثار الواضحة لكتاب "سحابة الغموض"، ولا سيَّما ذلك المجهود المبذول لتقليل الوعي بالأمور المخلوقة، واستخدام كلمة واحدة في الصلاة. غير أنَّ هذا البرنامج يفتقدُ إلى جرأة الممارسة القديمة التي استُبدِلَت بها تلك التعبيرات المهذَّبة. من جهة "السحابة"، فإنَّ الصلاة التأمُّليَّة هي رحلةٌ غامضةٌ إلى نهايةٍ غير مؤكَّدة. لكنَّ حركة "صلاة التمركز"...حوَّلَتْها إلى تدريبٍ مريح ذي ختام معروف مسبَّقًا". ويختمان تعليقهما بملاحظة هي أنَّ صلاة التمركُز الحاليَّة تشترك في القليل مع واقعيَّة السحابة مفتوحة العينَين، ويبدو أنَّها تشترك أكثر مع مزاج الجزء الأخير من القرن العشرين الذي يتميَّز بالشموليَّة والتفاؤل.

٢٠. يمكن العثور على انتقادات جون جيفرسون دايڤز المؤثِّرة لصَلاة التمركُز وصلاة يسوع في الصفحات من ١٣٤-١٤٢ من كتابه "التأمُّل والمجتمع" (Meditation and Communion). وينتقد دايڤز صلاةَ التمركُز، وهو محقٌّ في ذلك، ليس فقط بسبب عدم التزامها التعليم الكتابيَّ عن كلام الله وشخصه، ولكنْ أيضًا في عدم توافُقِها مع المعتقدات المسيحيَّة التي تؤمن بالطبيعة الصالحة (في مقابل الطبيعة الوهميَّة) للخليقة، وحقيقة التجسُّد الدائم ليسوع. فالتصوُّف الشرقيُّ والأفلاطونيَّة الحديثة التي تمثِّلهما "سحابة الغموض" يَريان أنَّ العالمَ المادِّيَّ والشخصيَّة/العقلانيَّة ليسا سوى وهم، أو على الأقلِّ، ظواهرَ ثانويَّة ومؤقَّتة. لكنَّ هذه ليست وجهة نظر الكتاب المقدَّس. يكتب دايڤز: "إنَّ حقيقةَ التجسُّد تعني أنَّ يسوع التاريخيَّ موجودٌ الآن في السماء، وسيظلُّ إلى الأبد بشكله الجسديِّ المحدَّد، لكن المُمَجَّد...وفي الأبديَّة كلِّها سيحتَفظُ يسوع الممجَّد بطبيعته وخبرته البشريَّتَين في معرفة الله- وهي معرفة لله تفوقُ معرفتنا،

غير أنَّها لا تختلف عنها بتاتًا. وعندما نتركُ الكلمات والصور، فإنَّ مثل هذا الأسلوب المُمعن في التنزيه لله، يميلُ إلى محو الفوارق ما بين التأمُّل المسيحيِّ والأشكال الشرقيَّة للتأمُّل (البوذيَّة والهندوسيَّة)".

21. Davis, Meditation and Communion, 141.
22. Zaleski and Zaleski, Prayer; A History, 143.

يتناول الزوجان زاليسكي الصلاةَ الربَّانيَّة بتعاطفٍ شديد، لكنَّهما يعترفان أنَّ الصلاةَ عادةً ما تلعبُ دورَها مثل "عمليَّة سحريَّة" (١٤٣- ١٤٤).

٢٣. المرجع السابق نفسه ١٣٨.

٢٤. المرجع السابق نفسه. السؤال يفرض نفسه: إذا قبلنا كلَّ التحذيرات بشأن الصوفيَّة، فكيف يمكن لنا أن نفسِّرَ خبراتِ المتصوِّفين المسيحيِّين في العصور الوسطى؟ هل كانوا يتَّصلون بالإله الحقيقيِّ أم لا؟ أعتقد أنَّ علينا أن نجيبَ عن هذا السؤال بالتعامل مع كلِّ حالةٍ على حِدة. يبدو أنَّ كثيرًا من هؤلاء المتصوِّفين كانوا يُصلُّون إلى الإله الشخص، مثلَّث الأقانيم، إله المحبَّة والقداسة، الإله المتسامي والمتنازل في آنٍ معًا. غير أنَّ طريقةَ صَلاتِهم لا تجعَلُ صلواتهم مؤسَّسةً على الكلمة بالقَدْر الذي يرغبُ فيه البروتستانت. ويبدو أنَّ قلوبَهم وخيالَهم كانا قد تشكَّلا بفعلِ الكتاب المقدَّس حتَّى إنَّه يسعُنا القولُ إنَّ الإله الذي كانوا يلتقون معه هو إله الكتاب المقدَّس. ويبدو أنَّ بعضَ الكتَّاب الصوفيِّين المسيحيِّين اختبروا هذا التغيُّر في الوعي النفسيِّ الذي يمكن أن يحدث بالأنواع الأخرى من التأمُّل والحرمان المادِّيّ. لذلك فإنِّي لا أستطيع أن أكونَ متيقِّنًا أنَّ خبراتهم هي نفسها خبراتِ كتَّاب الأسفار المقدَّسة. أيضًا يمكن أنَّ بعضَ هؤلاء الكتَّاب المتصوِّفين اجتازوا هم أنفسهم في كلا النوعَين من الخبرات. بعضها كان مع الله وبعضها لم يكن.

25. J. I. Packer and Carolyn Nystrom, Praying: Finding Our Way through Duty to Delight (Downers Grove, IL.: Intervarsity Press, 2009) 65.

٢٦. المرجع السابق نفسه.

27. Anne Lamott, Help, Thanks, Wow: The Three Essential Prayers (New York: Penguin, 2012), 2-3.
28. Lamott (Help, 67)

تشير باختصار إلى الاعتراف العابر. "فصلَّيت: ساعدني لئلَّا أكونَ أحمقَ بهذه الصورة". ثمَّ تضيفُ لاموت بين قوسين "هذه في الواقع هي الصلاة العظمى الرابعة، التي قد نتناولها في وقتٍ آخر". ومع أنَّها أسمتها الصلاة الرابعة، فهي لم تسمِّها أو تتناولها في أيِّ مكانٍ آخر في الكتاب.

٢٩. راجعْ خطاب أغسطينوس رقم ١٣٠ (٤١٢م) إلى بروبا والموجود في كتاب Philip Schaff, ed., Nicene and Post-Nicene Fathers, First Series, vol. 1, 1887 (Christian Ethereal Library), 997- 1015; Martin Luther, " A Simple Way to Pray' in Luther's Works: Devotional Writings II, ed. Gustav K. Wiencke, vol. 43 (Philadelphia: Muhlenberg Press, 1968), 187- 211.

٣٠. أعتقد أنَّ من العدل أن نقولَ إنَّ لاموت لا تتبع مبدأها باتِّساق. فمثلًا، تكتب: "أغلب

الصلوات الجيِّدة تذكِّرني أنّي لست المسيطرة، وأنّي لا أستطيع أن أُصلحَ أيَّ شيء، وتذكِّرني أنَّ عليَّ أن أكونَ منفتحةً على المساعدة بواسطة شيء أو قوّة ما، أو بعض الأصدقاء، أو أيِّ شيء. فأنا لا أعلم ماذا أفعل، لكنَّ غيري يعلم". (Help, 35) وهذا تأكيد لقوّة الله وسيادته واعتمادنا الكامل عليه. مثل هذا التصريح اللاهوتيّ هو أمرٌ لا يمكن تجنُّبه؛ لأنّنا في الواقع لا يمكن أن نصلّيَ إلى الله دون أن نعرفَ في أذهاننا ما هي طبيعته. لكنْ لأنَّ لاموت لم تختبرْ أن تؤسِّسَ صلواتها على الروايات الكتابيّة، فنحن لا نعلم السبب الذي يجعلنا نؤمنُ بأنَّ الله "يعلم ماذا يفعل"، ومن أين حصلَتْ على مثل هذه المعرفة.

٣١. يقارن كلاوني في كتابه "لاهوت كتابيّ" (A Biblical Theology) كلمات آرثر دبليو. پينك (Arthur W. Pink): "في الغالبيّة العظمى من الكتب المؤلَّفة، وفي العظات التي أُلقِيَتْ عن الصلاة، يملأ العنصرُ الإنسانيُّ المشهدَ بصورةٍ تكاد تكونُ كاملةً: الشروط التي ينبغي أن نَفِيَ بها، والوعود التي ينبغي أن نتمسَّك بها، والأشياء التي يجب أن نفعلها لننالَ استجاباتِ صلواتنا، أمَّا مطالبُ الله وحقوقُ مجده فغالبًا ما يجري تَجاهُلُها". من كتاب Arthur W. Pink, The Sovereignty of God (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1961), 109.

٣٢. يستكشف كتاب المؤلِّف كريستيان سميث (Christian Smith) بعنوان "بحث الروح: الحياة الدينيَّة والروحيَّة لليافعين الأميركيّين" (Soul Searching: The Religious and Spiritual Lives of American Teenagers New York: Oxford University Press, 2005) الإيمان والحياة الروحيَّة للشباب الأميركيّ، ووصفها بأنّها تتميَّز "بالربوبيّة الأخلاقيّة العلاجيّة". وهذا هو إيمان بإله موجود، ولكنّه لا ينخرطُ بأمور الحياة اليوميّة، حيث تتحدَّدُ الأمور وَفقًا للإرادة الإنسانيّة والاختيار الإنسانيِّ الحرّ. وبحسب هذا المنظور، فإنَّ رغبتَنا الأساسيَّة هي أن نعيشَ حياةً جيِّدة، ونكون عادلين ورُحَماء مع الآخرين. وإذا عِشْنا بهذه الطريقة، فسيقدِّمُ إلينا عندئذٍ "منافع علاجيّة"- سعادة ونظرة إيجابيّة إلى النفس (الصفحات ١٦٣-١٦٤). ولهذا المنظور إلى الله تأثيره العميق في الصلاة. وقد وجدَ سميث أنَّ المراهقين الأميركيّين يصلّون كثيرًا: ٤٠٪ منهم يصلُّون يوميًّا أو أكثر من ذلك، وفقط ١٥٪ قالوا إنَّهم لم يصلُّوا بتاتًا. غير أنَّ دوافعهم للصلاة كانت في معظمها لتسديد احتياجاتهم النفسيّة والعاطفيّة. "كلَّما صادفَتْني مشكلة، أذهب للصلاة". "تساعدني الصلاةُ على التعامُل مع مشكلاتي؛ لأنَّ لديَّ مشكلةً مع الغضب، فغالبًا ما تهدِّئني الصلاة". "كلَّما واجهتُ مشكلةً ألقيها على الربِّ في الصلاة، وهو دائمًا ما يسندني". "تجعلني الصلاةُ أشعر بمزيد من الأمان؛ إذ أشعرُ بأنَّ شيئًا ما يساعدني". "يمكنني القولُ إنَّ الصلاة جزءٌ أساسيٌّ من نجاحي في الحياة" (الصفحات ١٥١-١٥٣). يشيرُ سميث إلى أنَّ هناك على الأقلِّ أمرين غائبين عن صلوات الشباب الأميركيّ: أوّلًا، صلاة التوبة غائبةٌ عمليًّا، وثانيًا، غالبًا ما تخلو الصلاة لهذا الإله من التسبيح والعبادة؛ لأنَّه "إله بعيد" وأيضًا إله "لا يطالب بشيء". وفي الواقع هو لا يستطيع لأنَّ وظيفتَه هي أن يحلَّ المشكلات ويجعل الناسَ سعداء. وليس في ذلك أيُّ شيء يثيرُ الإعجاب والانبهار" (ص. ١٦٥).

في دراسة سميث التالية عن إيمان "الجيل الصاعد" (صفحة ١٨-٢٩) بعنوان "أرواحٌ في مرحلة انتقاليَّة: الحياة الدينيَّة والروحيَّة للجيل الصاعد" (Souls in Transition: The Religious and Spiritual Lives of Emerging Adults, New York: Oxford University Press,

(2009، يلاحظ سميث "زيادة في الاستخدام الأنانيّ للصلاة الشخصيَّة" (١٠٢). باختصار، بدلَ التسبيح والتوبة- وهما نوعان من الصلاة يَضَعان المصلِّي في وضعه الطبيعيِّ بوصفه كائنًا صغيرًا، ضعيفًا معتمدًا على الله- يصلِّي الشباب على نحو يكاد يكون حصريًّا من أجل حلِّ مشكلاتهم؛ لكي يشعروا بمزيدٍ من السعادة. وقد أظهرَتْ دراساتٌ مشابهةٌ للشباب في أوروبا أنَّ هناك تغيُّرًا في الهدف من الصلاة من كونها وسيلةً لطلب الله، إلى كونها "طريقًا لتعرُّف الذات الحقيقيَّة"...وبحسب هذه اللقاءات التي تضمَّنتْها هذه الدراسة، فإنَّ الله موجودٌ فقط في داخل الإنسان، في "ذاته الحقيقيَّة". راجع Giordan and Swatons, Religion, Spirituality, 87. أيضًا Giuseppe Giordan and Enzo Pace, eds., Mapping Religion and Spirituality in a Postsecular World (Leiden, Netherlands: Brill, 2012).

ويقلِّلُ مثل هذا التصوُّر الضعيف والمبهَم عن الله من محتوى الصلاة، وهو يغيِّرُ أيضًا هدفَها تغييرًا تامًّا. في صلاة الشباب الأميركيّ، ليس الله سوى وسيلةٍ للوصول إلى السعادة الشخصيَّة. أمَّا تمجيد الله فليس في منظورهم- وفي الواقع يمكن أن يكونَ هذا المفهوم مفهومًا غائمًا ومحيِّرًا لهم.

33. Peterson, Answering God, 5-6.

٣٤. تُروى هذه القصَّة في كتاب John Pollock, George Whitefield and The Great Awakening (Oxford: Lion Publishing, 1972), 205- 208

وكتاب Arnold A. Dalimore, George Whitefield: The Life and Times of the Great Evangelist of the Eighteenth-Century Revival, vol. 2 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1979), 168- 169), 168-169.

راجع أيضًا كتاب Harry S. Stout, The Divine Dramatist: George Whitefield and the Rise of Modern Evangelicalism (Grand Rapids: MI: Eerdmans, 1991), 170.

يشير بولوك إلى أنَّ حادثةَ سير وشيكة نجَتْ زوجته منها وهي حامل في ابنهما، جعلته يعتقد أنَّ حياةَ ابنه نجَتْ لأنَّ لدى الله أمورًا عظيمةً في حياةِ هذا الولد. ويضيف داليمور أنَّ افتراضَ وايتفيلد أنَّ الله تكلَّم إليه بواسطة انطباعاته، كان عادةً ذهنيَّةً حذَّره منها جوناثان إدواردز من قبل. ويبدو أنَّها كانت نصيحة لم يهتمَّ بها وايتفيلد. ويساهم ستوت بإضافةِ حقيقةِ أنَّ وايتفيلد كان يلوم نفسه على موت ابنه ظانًّا أنَّه جعل منه "وثنًا". ورغمَ أنَّ ستوت يظنُّ أنَّ وايتفيلد كان مخطئًا في افتراضه أنَّ موتَ ابنه كان عقابًا إلهيًّا عن خطاياه، فإنَّ وايتفيلد كان محقًّا في أنَّ قلبه كان قد تعلَّقَ بابنه بطريقةٍ جعلت من ذلك الطفل بؤرة (لا تخلو من زنًى روحيّ) تكثَّفتْ فيها أحلامُ وايتفيلد بالاستخدام والتأثير. وإذا كان قد قُدِّرَ لهذا الطفل أن يكبر، لتثقَّلَ تثقُّلًا كبيرًا بتوقُّعات والده وأحلامه.

الفصل ٥: اللقاء مع الله

1. Ward, Words of Life, 48.

يستمرُّ وارد في شرح كيف أنَّ الكتاب المقدَّس هو وثيقةُ عهد. عندما يدخل الله في علاقة بنا، نحن البشر، فهي ليست مجرَّد علاقة شخصيَّة، بل هي أيضًا علاقةُ عهد. ويعني هذا أنَّنا نكون مرتَبطين

بالله وهو بنا بوعودٍ أمينة من واحد إلى آخر- وهذا يعطينا حقَّ الدخول إليه. وهو يشبه عهد الزواج، لذا فإنَّ كلًّا من الكتاب المقدَّس والصلاة هما امتيازات العهد. ويتكلَّمُ الله (بواسطة الكتاب المقدَّس) ويستمع (بواسطة الصلاة) إلى هؤلاء الذين يرتبطُ بهم بعلاقة عهد، (ص ٢٢-٢٣).

٢. يحتجُّ كثيرون على عقيدة الثالوث من جهة أنَّ كلمة ثالوث ليست موجودة في الكتاب المقدَّس، وعلى أساس أنَّ هذه العقيدة لم تتشكَّل إلَّا في القرن الثالث الميلاديّ، ويقولون إنَّها فُرضت عقائديًّا على نصِّ الكتاب المقدَّس. والحقيقة أنَّ هذا الاحتجاج هو أبعد ما يكونُ عن الحقيقة. وهناك ثلاثة أمورٍ يقولها الكتاب المقدَّس عن الله بصورةٍ متكرِّرة: (١) هناك إله واحد (٢) الآب والابن والروحُ القدس هو الله. "كلُّ ملء اللاهوت يسكنُ في كلٍّ منهم" (راجع كولوسِّي ٢: ٩)، وليس كلٌّ منهم ثُلث الله، وأخيرًا (٣) يحبُّ الآب والابن والروح القدس معًا، كما يعملون معًا بطرقٍ مميَّزة لتحقيق خلاص البشريَّة. ولا يعبِّر عن هذه الفرضيَّات الثلاث سوى عقيدةِ الثالوث. ويستخدم پاكر بهذا الشأن تشبيهَ "المحلول". السكر المُذاب في الشاي ليس منظورًا؛ لأنَّه في حالةِ "محلول" ذائب، لكنَّ الكيمياويَّ يستطيعُ بلوَرَته متى أراد. ويصرُّ پاكر، مُحِقًّا، أنَّ عقيدة الثالوث موجودة في الكتاب المقدَّس في صورة "محلول"، وهي ذائبةٌ في كلِّ الكتاب المقدَّس. وكلُّ ما فعلته الكنيسة الأولى هو أنَّها بَلوَرَت هذه العقيدة. راجع Packer and Nystrom, Prayer: Finding Our Way, 23- 24

٣. عندما قال الله إنَّه سوف "يجعل اسمه يسكن" في خيمة الاجتماع (تثنية١٢: ٥، ١١؛ ١ملوك ٨: ١٦، ٢٩)، كان يقصد أنَّه سيعيشُ فيها بنفسه. وعندما يقول كاتب المزمور عن الربِّ إنَّ "اسمه قريب"، فقد قصدَ أنَّ الله نفسه قريب (مزمور ٧٥: ١). وفي كلِّ مرَّةٍ يمرُّ إنسان في الكتاب المقدس بخبرة تغيير في الشخصيَّة، أو في الطبيعة، فإنَّ اسمه يتغيَّر، من إبرام إلى إبراهيم، ومن سمعان إلى بطرس، ومن شاول إلى بولس. وفي الكتاب المقدَّس، يعبِّر اسمُ الإنسان عن طبيعة شخصيَّته. وعندما يقول يسوع إنَّ الآب والابن والروح القدس اسمٌ واحد، هو اسم الله، وليس أسماء، فيعني هذا أنَّهم شخصٌ واحدٌ وطبيعة واحدة.

4. R. T. France, The Gospel of Matthew: New International Commentary on the New Testament (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2007).

ويضيف قائلًا: "حقيقةُ أنَّ للشخصيَّات الإلهيَّة الثلاث "اسم" واحد هي إشارة مهمَّةٌ إلى عقيدة الثالوث عن ثلاث أشخاص في جوهر واحد".

٥. راجع قانون الإيمان الوستمنستريّ (المطوَّل) السؤال رقم ٩ و١٠: "كم شخصًا في جوهر الله؟" الإجابة: هناك ثلاث أشخاص في جوهر الله: الآب والابن والروح القدس؛ ولهم الجوهر نفسه، وهم متساوون في القوَّة والمجد؛ لكنَّهم متميِّزون بصفات شخصيَّة. السؤال العاشر. ما السمات الشخصيَّة للشخوص الثلاث في جوهر الله؟ الإجابة: من المناسب أنَّ الآب يلدُ الابن، والابن يكون مولودًا من الآب، وأنَّ الروح القدس ينبثق من كلٍّ من الآب والابن منذ الأزل وإلى الأبد". ويلخِّصُ هذا عقيدةَ الثالوث. (١) هناك إلهٌ واحدٌ في ثلاثة أقانيم، و(٢) كلٌّ من هذه الشخوص متساويةٌ في القوَّة والألوهة والمجد. وهم ليسوا مجرَّدَ حالات ثلاث للشخص الواحد، وليسوا قابلين للحلول محلَّ بعضهم بعضًا. وهم يعرفون ويحبُّون بعضهم بعضًا ويعملون معًا من أجل خلاص العالم؛ حيث إنَّ الآبَ يرسلُ الابن، والآبُ والابنُ يرسلان الروح القدس.

وتتّفقُ على هذا فروعُ المسيحيَّة الثلاثة- الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة والپروتستانتيَّة. وإذا لم تؤمنْ بالثالوث، فليس الأمر فقط أنَّك ستُسيء فهمَ الصلاة، بل ستُسيء أيضًا فهْمَ المسيحيَّةِ كلِّها، وتشوِّه شكلَها بالكامل. إذا كنتَ تنكرُ الحقيقة رقم (١) فيعني هذا إمَّا أنَّك تؤمنُ بإلهٍ واحدٍ في شخصٍ واحد، فهذه هي التوحيديَّة (Unitarianism) وإمَّا أنَّك تؤمن بأنَّ هناك ثلاثةَ آلهةٍ بثلاثِ شخصيَّات. وإذا كنتَ تنكرُ الحقيقة رقم (٢)، فإمَّا أنَّك تعني أنَّ الله الآب هو الإله الحقيقيُّ والباقون متفرِّعون منه، فهذه هي ما يسمَّى بالتبعيَّة (Subordinationism) وإذا كنتَ تنكرُ الحقيقةَ رقم (٣) قائلًا إنَّ هناك إلهًا واحدًا لكنَّه يسكن أشكالًا مختلفة، ويمرُّ بحالاتٍ مختلفة في أوقاتٍ مختلفة، فهذه هي الحاليَّة (Modalism). وليس أيٌّ من هذه هو التثليث (Trinitarianism). غير أنَّ هناك إلهًا واحدًا في ثلاثِ شخوصٍ متمايزة ومنفصلة، يشتركون في الجوهر ويعملون معًا في تناغمٍ تامٍّ ليَخلقوا العالم ويفتَدونه. كلُّ الكنيسةِ المسيحيَّة على مرِّ القرون اعترفَتْ بهذا. ودون ذلك يختلطُ فهمُك لكلِّ شيء آخر في المسيحيَّة.

ورغمَ أنَّه يمكنُ استخدامُ الكثيرِ من التشبيهات لشَرْح الجوانب المختلفة للثالوث، فإنَّ كلَّ تشبيهٍ ينحاز بصورةٍ ما إلى جانب من الجوانب (سواء الوحدانيَّة أم التعدُّديَّة أم المساواة أو التفرُّد) عندما يؤخذ على نحو حصريّ. ومن بين التشبيهات الشائعة، تشبيه متوازي المستطيلات بطولٍ وعرضٍ وارتفاع، وتشبيه الشمس بوصفها مصدرًا وحرارةً ونورًا، والتشبيهات الاجتماعيَّة التي يشبَّه فيها الله بالمجتمع أو الأسرة، أو التشبيهات النفسيَّة مثل المُحبِّ والمحبوب والحبّ. ويمكن مراجعة المجهودات التي بذلها القدِّيس أغسطينوس للعثور على صور للثالوث في العقل البشريِّ في الكتاب رقم ٩ من "De Trinate". ورغم إثارة هذه التشبيهات للاهتمام والاستنارة، فإنَّ أيَّ تشبيهٍ يجري تبنّيه حصريًّا يقودنا إلى واحد من هذه الاتِّجاهات المهرطقة السابقة.

6. Paul Ramsey, ed., Ethical Writings: The Works of Jonathan Edwards, vol. 8 (New Haven, CT: Yale University Press, 1989), 403- 536.
7. William G. T. Shedd, "Introductory Essay" to Augustine's On the Trinity, in A Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church, ed. Philip Schaff, vol. 3 (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1979), 14.

"نجدُ هنا مجتمعًا داخلَ الجوهر الواحد، مستقلٌّ استقلالًا تامًّا عن الكون كلِّه. وينتجُ من هذا المجتمع التواصل والبركة، وهما مستحيلا الحدوث من جوهرٍ دون تمايُز في الشخصيَّات. مثلما هي الحال في رؤية الله من المنظور الربوبيِّ أنَّه وحدةٌ واحدةٌ غيرُ متمايزة. أمَّا الوحدة الغنيَّة التي في الإيمان بالثالوث تشرح ذلك. فالعارف دون الأمور التي يعرفها لا يمكن أن يعرف، فماذا هناك ليعرفَه؟ والمُحبُّ دون ما يُحبُّه، لا يستطيع أن يكونَ محبًّا، فماذا هناك ليحبَّه؟ ولا يستطيع أن يفرح. فبمَ يفرح؟ ولا يمكن أن يكون الكون هو مصدر المعرفة أو الحبِّ أو الفرح لله؛ فالله أصلًا مستقلٌّ عن الكون وغير محتاج إليه. إنَّ موضوع معرفة الله الأزليِّ الأبديِّ ومحبَّته وفرحه لا يمكن أن يكونَ الخليقة؛ لأنَّها ليست أزليَّة، ولا غير محدودة. لقد كان هناك وقتٌ لم توجَدْ فيه الخليقة. وإذا كان وعي الله بنفسه أو شعوره بالنعيم معتمدًا على الكون، فيعني هذا أنَّ الله مرَّ بوقت لم يشعُرْ بنفسه ولم يشعُرْ بالنَّعيم" (١٤-١٥).

٨. تعني هذه الحقيقة- أنَّ تشبيه التبنّي يجمع ما بين الجوانب الشرعيَّة للخلاص (العفو والتبرير)

والجوانب العلائقيَّة (التجديد والتقديس)- أنَّ عقيدةَ التبنِّي بحسب الكتاب المقدَّس تلقى الكثيرَ من الاهتمام في الدراسات اللاهوتيَّة المعاصرة. انظر J. Todd Billings, "Salvation as Adoption in Christ: An Antidote to Today's Distant yet Convenient Deity,"

في كتاب Union with Christ: Reframing Theology and Ministry for the Church (Grand Rapids, MI: Baker Academic, 2011), 15- 34.

يرى بيلينغز عقيدةَ التبنِّي بوصفها ترياقًا قويًّا "للربوبيَّة الأخلاقيَّة العلاجيَّة" والتي تكلَّم عنها سميث ووصف بها روحانيَّة الشباب الأميركيِّ المعاصر. ويشيرُ هذا التعبير إلى الإيمان بالله الموجود فقط لحلِّ المشكلات العاجلة التي تصادفنا، والذي ليس له أيُّ مَطلب من نحونا. راجع أيضًا Michael S. Horton, "Adoption: Forensic and Relational, Judicial and Transformative,"

في كتاب Covenant and Salvation: Union with Christ (Louiseville, KY: Westminster John Knox Press, 2007), 244-247.

وكما يتَّضحُ من العنوان الفرعيِّ لكتاب هورتون، فإنَّ عقيدة التبنِّي في المسيح تقدِّمُ للپروتستانت ردًّا على تهمةِ أنَّ إيمانهم بالقبول الشرعيِّ التامِّ- التبرير بالإيمان وحده بمعزل عن التغيير الداخليِّ أو الاستحقاق الشخصيِّ- يشجِّعُ المسيحيِّين على عدم إجراء أيِّ تغيير أو مجهود للحياة المقدَّسة البارَّة. ويربطُ التبنِّي ما بين الشقِّ الشرعيِّ/القانونيِّ والشقِّ الشخصيِّ/الذي يتضمَّن تغييرًا. فللطِّفل المتبنَّى وضعٌ قانونيٌّ، وقد تغيَّرت حياته جذريًّا بسبب العلاقة الجديدة التي يعيش فيها. ويحدُ الأمران معًا في الوقت نفسه. كلُّ مَن هو مبرَّرٌ بالإيمان بالمسيح، وليس بأعماله، سيعملُ بالضرورة أعمالًا حَسَنة. يمنعُنا مفهوم التبنِّي من أن نضعَ جوانبَ خلاصنا في المسيح في حالة من الصراع والتناقض.

٩. الاقتباس هو من حديث إذاعيٍّ قدَّمه جاي. غريشام ماتشِن (J. Gresham Machen) بعنوان "الطاعة الفاعلة للمسيح" (The Active Obedience of Christ) منذ وقت مبكِّر من القرن العشرين. الاقتباس الأكمل: "كان عهد الأعمال نوعًا من الامتحان. لو حفظَ آدمُ شريعةَ الله، لنالَ حياةً أبديَّة. ولو عصى، لنالَ الموت. وما دامَ قد عصى، كانت العقوبة هي الموت، وانسحَبَ عليه وعلى نسله. ثمَّ ماتَ المسيح على الصليب ودفع ثمنَ هذه العقوبة. لكن إذا كان هذا هو كلُّ ما فعله المسيح من أجلنا، أفلا ترَونَ أنَّه ينبغي لنا أن نعودَ إلى الوضع نفسه الذي كان فيه آدم قبل أن يخطئ؟ ينبغي أن تكون قد أُزيلَتْ عقوبةُ خطيَّته عنَّا؛ لأنَّها دُفعَت تمامًا بواسطة المسيح. أمَّا من جهة المستقبل، فإنَّ حصولَنا على الحياة الأبدية سيكونُ معتَمِدًا على طاعتنا الكاملة لشريعة الله. ينبغي أن نكونَ قد عُدْنا إلى الامتحان مرَّةً أخرى. في واقع الأمر، لم يدفع المسيح مجرَّدَ عقوبة خطيَّة آدم الأولى (وعقوبة الخطايا التي ارتكبناها نحن على نحوٍ فرديّ)، لكنَّه إيجابيًّا منحَنا الحياة الأبديَّة. بكلماتٍ أخرى، كان المسيح ممثِّلنا في دَفْعِ أجرةِ العقوبة وفي الوفاء بالتزام الامتحان. لقد دفعَ عقوبةَ فشلنا في الامتحان، وجازَ في الامَتحان نيابةً عنَّا... لقد أخذَ المسيحُ العقابَ بموته، ومنحنا كذلك المكافأةَ بطاعته الكاملة لناموس الله...هذان هما الأمران اللذان فعلَهما من أجلنا". يمكن أن نجدَ هذا في J. Gresham Machen, God Transcendent (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1982), 187- 188.

١٠. راجع عظة إدواردز "Justification by Faith Alone, " in The Works of Jonathan Edwards, vol. 19, Sermons and Discourses, 1734- 1738, ed. M. X. Lesser (New Haven: Yale University Press, 2001), 204.

11. C. E. B. Cranfield, A Critical and Exegetical Commentary on the Epistle to the Romans, vol. 1 (Edinburgh: T. & T. Clark, 1975), 400.

في المقال الشهير "Abba isn't Daddy," The Journal of Theological Studies 39 (1988), 28- 47,

يحاول جيمس بار (James Barr) أن يصحِّحَ التركيزَ الذي قام به يواكيم جيرمياس (Joachim Jeremias) وغيره من الذين أكَّدوا أنَّ كلمة "آبا" تعني "بابا" (Daddy)، والذي كان تعبيرًا عن الحميميَّة البالغة. ويؤكِّد بار أنَّ كلمة "آبا" كانت تُستخدَم ليس فقط من الأطفال الصغار، بل أيضًا من البالغين في الإشارة إلى آبائهم. وهناك كلمة يونانية أخرى باباس (pappas)- وهي التي كان يستخدمها الأطفال في صغرهم، ثمَّ يتخلَّون عنها عندما يكبرون. وكان قصد بار أن يشيرَ إلى أنَّه لم يكن مقبولًا مخاطبةُ الله العليِّ في الصلاة بكلمة مثل بابا. غير أنَّه لا يمكننا أن نبالغ في مقصد بار. في أغلب الثقافات، يميل الأطفال، ولا سيَّما الذكور، إلى التخلِّي عن التعبيرات الطفوليَّة. غير أنَّ البالغ عندما يستمرُّ في مخاطبًا والده "بابا"، فهو إشارة إلى المزج ما بين الاحترام والحميميَّة، والاستمتاع، والقدرة على الاقتراب من الآباء مثلما كانت الحال في الطفولة.

12. Cranfield, Critical and Exegetical Commentary, 400.

13. Martin Luther, "Personal Prayer" in Luther Works: Devotional Writings II, ed. Gustav K. Wiencke, vol. 43 (Minneapolis: Fortress Press, 1968), 29.

١٤. يقول بعض المفسِّرين إنَّ الأنَّات هنا هي أنَّاتُ الروح، وليست أنَّاتنا. لذلك فنحن لسنا على أيِّ وعيٍ بها. إنَّها تخرجُ إلى الله بجانب طلباتنا. لذلك فإنَّ تشفُّعات الروح تخرجُ باستمرار وتَحدُثُ بغضِّ النظر وبمعزلٍ عن صلواتنا (مفسِّرون لرومية ٨: ٢٦-٢٧). ومَن يتبنَّون وجهة النظر هذه هم دوغلاس جاي. مو (Douglas J. Moo) وجوزيف فيتزماير (Joseph A. Fitzmyer)، ويعتقد آخرون أنَّه رغم أنَّ التركيبة اللغويَّة تقول إنَّ هذه أنَّات الروح القدس، فإنَّ الغرضَ من الوعد هو أنَّنا عندما نشعرُ بالضَّعف ولا ندري كيف نصلِّي فالروح يُعينُنا في الصلاة. مفهومُ أنَّ الله هو "فاحص القلوب" (رومية ٨: ٢٧)، ويعني هذا أنَّه ينظر إلى قلوب المؤمنين. لذا فإنَّ أنَّات الروح هي أنَّاتُ أرواح المؤمنين وتَوقُهم إلى التوافق مع مشيئة الله الناشئة من الروح القدس. ويتبنَّى هذا الرأيَ الأخير مفسِّرون مثل جون موراي (John Murray) وبيتر أوبرين (Peter O'Brien) وجون ستوت (John Stott) وتوماس شراينر (Thomas Schreiner) راجع Schreiner, Romans: Baker Exegetical, 445- 447.

١٥. "بناءً على ذلك، فإنَّنا لا نعلم ما نصلِّي من أجله كما ينبغي في وقت الضيقات". Augustine Letter 130, in Schaff, Nicene and Post Nicene Fathers," 170.

16. Clowney, "Biblical Theology," 170.

17. Graeme Goldsworthy, Prayer and the Knowledge of God (Downers Grove, IL: InterVarsity, 2003), 169- 170.

18. John Murray, The Epistle to the Romans (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1968), 330.

19. See Nicomachean Ethics, Book VIII. 7, trans. W. D. Ross, Digireads, 20005.

٢٠. هذا هو تفسير دي. إيه. كارسون في The Gospel According to John, Pillar New Testament .Commentary series (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1991), 496- 497

21. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 2. 36. 585-584.
22. McNeill, Calvin: Institutes, 1. 2. 1. 41.
23. McNeill, Calvin: Institutes, 1. 2. 2. 43.

٢٤. دون شكّ، كثيرٌ من الأمور التي نفعلها الآن، بما في ذلك الصلاة والتسبيح، يمكن أن نسمّيها "ذبيحة سرور" (عبرانيّين ١٣: ١٥-١٦)، لكنّها ليست ذبيحةً لإرضاء الله. في عبرانيّين ١٣، يجري تصوير الصلاة المسيحيَّة على أنّها ذبيحةُ شكرٍ من أجل خلاص قد تمّ بيسوع المسيح. الصلاة، بحسب العهد الجديد، ليست كفّارةً لتهدئة غضبِ الله وللحصول على رضى الله ونوال اهتمامه.

٢٥. ترجَمَتي الشخصيَّة. للحصول على نسخة حرفيَّة لذلك، انظر The New American Standard Bible "لأنَّ أبي وأمّي تركاني والربُّ يضمُّني".

26. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 850.

الفصل٦: رسائلُ عن الصلاة

١. يعدُّ كتاب كالفن "أساسيَّات الإيمان المسيحيّ" (Instituttes) ما يمكن أن نسمّيه الآن كتابًا في اللاهوت النظاميّ. من المثير للاهتمام، وربّما الحَيرة أيضًا، أنَّ كُتَّاب اللاهوت النظاميّ المنتمين إلى التقليد المصلح نفسه الذي ينتمي إليه كالفن، عادة ما لا يكون هناك في كتبهم فصلًا عن الصلاة. يمثّل تشارلز هودج استثناءً لذلك. وهودج هو أحد لاهوتيّي القرن التاسع عشر المنتمين إلى مدرسة برنستون (Princeton)، يضمُّ كتابُ اللاهوت النظاميّ الخاصّ به قسمًا كبيرًا عن الصلاة، ولا سيّما عن تأثير العقيدة المسيحيَّة عن الله في الصلاة. راجع كتاب Charles Hodge, Systematic Theology, vol. 3 (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1965), 692-700

2. Schaff, Nicene and Post-Nicene Fathers, 997- 1015.

٣. المرجع السابق نفسه.

٤. راجع الفصل الثامن للمزيد عن شرح القدّيس أغسطينوس للصلاة الربّانيّة.

٥. مقتبس في Mark Rogers, "Deliver Us from the Evil One": Martin Luther on Prayer," .Themelion 34, no. 3 (November 2009)

6. Luther, "A Simple Way to Pray," 193.

من الجدير بالذّكر أنَّ لوثر يقولُ إنَّ نظامَ الصلاة مرّتَين في اليوم يمكن أن يكونَ أمرًا شخصيًّا في المخدع أو في الكنيسة مع جماعة المتعبّدين. ويكتب: "عندما أشعرُ بأنّي صرتُ باردًا وغير فرِح في صلاتي...فإنّي أهرَع إلى غرفتي، أو إلى الكنيسة، إذا كان الوقت هو أحد أوقات الصلاة في الكنيسة" (١٩٣). هذه شهادة عن أهمّيّة الصلاة الجماعيَّة في لاهوت لوثر. إنّنا لا نستطيع بمفردنا التغلُّبَ على القلب البارد غير المصلّي. بيت الصلاة الجماعيَّة لشعب الله هو المكان

الذي يمكنك فيه الاستماع إلى كلمة الله في صورة وعظ، وليس فقط الكلمة المقروءة في المخدع، وحيث يكون التجاوُب مع كلمة الله بالصلاة والتسبيح أمرًا تمارسه الجماعة معًا وليس فرديًّا.

7. Martin Luther, Luther's Large Catechism, trans. F. Samuel Janzow (St. Louis: Concordia, 1978), 79.

٨. كان كالڤن يؤمنُ أيضًا بأنَّ من المهمّ إشراكَ العقل والقلب معًا في الصلاة. وكان مثل لوثر ينصح بذلك بالتأمُّل في معاني الكلمة المقدَّسة وما يُقال من صلوات. ويكتب كالڤن: "هناك خطأ آخر يبدو أقلَّ خطورةً لكنَّه غير محتمل، وهو خطأ أولئك الذين يثرثرون بالصلوات دونما تأمُّل في ما يُقال، بسبب تشبُّعِهم بفكرةِ أنَّنا ينبغي أن نهدِّئ غضبَ الله بواسطة تعبُّدنا. الآن يجب أن يكونَ الأتقياء حَذِرين من تقديم أنفسهم أمام الله لطَلَب أيِّ شيء إلَّا بعدَ أن تكون قلوبُهم قد امتلأت بشوقٍ قلبيٍّ مخلصٍ وبرغبةٍ صادقةٍ في نَيلَ ما يطلبون من الله. في الواقع، حتَّى الأمور التي نطلبها فقط من أجل مجد الله، من المناسب أن نطلبها بالشوق والتطلُّع نفسه. فمثلًا عندما نصلِّي أن "يتقدَّسَ اسم" الله (متَّى ٦: ٩؛ لوقا ١١: ٢)، يجب أن نكونَ بالفعل جائعينَ وعطشى إلى هذا التقديس (McNeill, Calvin: Institutes, 3.20. 6, 857).

9. Luther, "A Simple Way to Pray," 194.

١٠. الموضوع الوحيد الذي لا يُعدُّ نصًّا كتابيًّا صريحًا بين المواضيع التي يقترحها لوثر للتأمُّل، هو قانون الإيمان الرسوليّ؛ ربَّما لأنَّ لوثر كان يعتقد كثيرًا أنَّ قانون الإيمان لم يكن سوى تقطيرٍ وتكثيفٍ لحقِّ الكتاب المقدَّس. يقدِّمُ لوثر أمثلةً عن طرق التأمُّل في قانون الإيمان في مقالة "A Simple Way to Pray," 209- 211

١١. المرجع السابق نفسه، ٢٠٠.

١٢. المرجع السابق نفسه، ٢٠٠-٢٠١.

١٣. المرجع السابق نفسه، ١٩٦-١٩٧.

١٤. المرجع السابق نفسه، ١٩٨.

١٥. يمكن تطبيق نصيحة لوثر بالتأمُّل وإعادة صياغة الصلاة الربَّانيَّة على أيِّ نصٍّ في الكتاب المقدَّس. وتُعدُّ الصلاة بالمزامير، وبأيِّ نصٍّ من الكتاب المقدَّس، من الطرق القديمة والمختبَرة على مدار التاريخ المسيحيّ، لكن لم يجرِ شرحها وتقديمها من قبل بهذه الطريقة السهلة مثلما يقدِّمها لوثر. نجد أيضًا في مقال لوثر "طريقة بسيطةٌ للصلاة" (A Simple Way to Pray) موافَقةً ضمنيَّة باستخدامِ الصلوات المكتوبة. بينما يعترض بعضٌ، مثل جون بنيان، على الصلوات المكتوبة تمامًا، إلَّا أنَّ كتابَ لوثرِ "قانونِ الإيمان الصغير" (Small Catechism) يقدِّمُ بعضَ الصلوات المكتوبة يمكن أن تُصلِّيها الأُسر قبل الذهاب إلى العمل أو المدرسة في الصباح، أو قبل الذهاب إلى النوم ليلًا. كما قدَّم كالڤن الأشياء نفسها. لم تكن لدى لوثر مشكلةٌ في الصلاة بالصلوات المكتوبة، ما دُمنا صلَّيناها داخليًّا، وإلَّا فإنَّها تصيرُ "ثرثرة فارغة". راجع "Daily Prayers" in Luther's Small Catechism with Explanation (St. Louise: Concordia, 1986), 30-32.

16. Luther, "A Simple Way to Pray," 198.

١٧. المرجع السابق نفسه، ٢٠١-٢٠٢

الفصل ٧: قواعدُ الصلاة

1. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 5., 854.
2. Kenneth Grahame, The Wind in the Willows, chapter 7, "The Piper at the Gates of Dawn."
3. McNeill, Calvin: Institutes, 856.

هذا هو عنوان الفصل ٣. ٢٠. ٦. وقد رُقِّمَ بعلامةٍ أضافَها المحرِّر، ولم تكن موجودةً في الأصل الذي كتبه كالڤن. لكنَّه تلخيصٌ جيِّدٌ لهذه القاعدة الثانية من قواعد كالڤن للصلاة.

٤. المرجع السابق نفسه، ٨٥٧.

5. Francis Spufford, Unapologetic: Why Despite Everything, Christianity Can Still Make Surprising Emotional Sense (New York: HarperOne, 2013), 27.
6. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 7. 858.
7. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 8. 859.
8. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 11. 862.
9. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 13. 867.
10. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 15. 872.
11. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 16. 872.
12. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 17. 874-75.
13. McNeill, Calvin: Institutes, 3. 20. 15. 870.

١٤. المرجع السابق نفسه.

١٥. المرجع السابق نفسه.

16. R. A. Torrey, The Power of Prayer and The Prayer of Power (Grand Rapids, MI: Fleming H. Revell, 1924), 106- 107.

الفصل ٨: صلاة الصلوات

١. من جهة لوثر، راجع ليس فقط مقالة "طريقة بسيطة للصلاة"، بل أيضًا: "كتاب الصلاة الشخصيَّة" (Personal Prayer Book) في كتاب "أعمال لوثر" (Luther's Works)، وقانوني الإيمان الكبير والصغير (Large Catechism and Small Catechism) وأيضًا كتاب Luther Works: The Sermon on the Mount and the Magnificat, vol. 21 (St. Louise: Concordia, 1968).

ومن جهة كالڤن، فعلاوة على "الأساسيَّات" راجع David and Thomas Torrance, eds., A Harmony of the Gospels: Matthew, Mark, and Luke, vol. 1 (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1994).

ومن جهة القدِّيس أغسطينوس، راجع Paul A. Boer, ed., St. Augustine of Hippo:

Our Lord's Sermon on the Mount according to Matthew & the Harmony of the Gospels (CreateSpace, 2012), taken from Philip Schaff, Nicene and Post-Nicene Fathers, vol. 6 (Christian Literature, 1886).

2. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.36., 899.
3. Luther, "Personal Prayer Book," 29.
4. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.36., 901.
5. Luther's Large Catechism, 84.
6. Augustine, Letter 130, in Schaff, Nicene and Post-Nicene Fathers, chapter 12.
7. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.41., 903-04.
8. Augustine, "Our Lord's Sermon on the Mount," trans. S. D. F. Salmond, in Nicene and Post-Nicene Fathers, ed. Philip Schaff, vol. 6, 1886 (Electronic edition, Veritatis Splendor, 2012), 156.
9. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.42., 905.
10. Luther, "Personal Prayer Book," 32.

١١. المرجع السابق نفسه، ٣٣.

12. Augustine, "Our Lord's Sermon on the Mount," 158-59.
13. Luther, "Personal Prayer Book," 34.
14. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.43., 907.
15. George Herbert, "Discipline," in The English Poems of George Herbert, ed. Helen Wilcox (New York: Cambridge University Press, 2010), 620.
16. Augustine, Letter 130. In Schaff, Nicene and Post-Nicene Fathers, chapter 12.
17. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.44., 907-08.
18. Luther's Large Catechism, 92.
19. Luther's Large Catechism, 93.
20. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.45., 912.
21. Augustine, "Our Lord's Sermon on the Mount," 167.
22. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.46., 913.

٢٣. المرجع السابق نفسه.

24. Luther's Large Catechism, 96- 97.
25. Augustine, Letter 130. In Schaff, Nicene and Post-Nicene Fathers, chapter 12. انظر أيضًا "Our Lord's Sermon on the Mount," 171.
26. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.47., 915-16.
27. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.49., 917.
28. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.47., 915.
29. Horton, Calvin on the Christian Life, 154.
30. C. S. Lewis, The Four Loves (New York: Harcourt, 1960), 61.

٣١. المرجع السابق نفسه، ٦٢.

الفصل ٩: الصلاةُ على المحكّ

1. Forsyth, Soul of Prayer, 9-10.

٢. المرجع السابق نفسه، ٦٢.

3. Phelps, The Still Hour, 61-62.

4. Ole Hallesby, Prayer (Minneapolis: Augsburg, 1975), 89- 90.

٥. راجع أيضًا المناقشة المهمّة والمستَفيضة للصراع ما بين التطهُّريّين (البيوريتانيّين) والكويكرز في Peter Adam, Hearing God's Word: Exploring Biblical Spirituality (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2004), 175- 201.

ينحاز آدمُ إلى التطهريّين الذين كانوا يتّهمون الكويكرز بالفصل ما بين الروح والكلمة، لكنّه يضيف أنّه يمكن الإفراط في التوحُّد بين الروح والكلمة حتّى يصيرَ الروح القدس غير قادر على التأثير فينا بمعزل عن قراءة الكتاب المقدّس. "يسقط مثل هذا التطرُّف في التوحُّد ما بين الروح والكلمة عندما نتأمّل كيف أنّ الروح يسكن في المؤمنين حتّى عندما لا يفكّرون في الكتاب المقدّس. وفي الوقت نفسه، فإنّ التطرُّف في الفصل بينهما يقلّلُ من عملِ الكتاب المقدّس، ومعلّم الكتاب المقدّس (الروح القدس)" (١٩٩).

6. J. I. Packer, "Some Lessons in Prayer," in Knowing Christianity (Wheaton, IL: Harold Shaw, 1995), 129-30.

٧. راجع الدليل على هذا الاستنتاج في: Wayne R. Spear, The Theology of Prayer: A Systematic Study of The Biblical Teaching on Prayer (Grand Rapids, MI: Baker, 1979), 28- 30; وأيضًا في Graeme Goldsworthy, Prayer and Knowledge of God, 82- 83.

8. Packer, Knowing Christianity, 127.

9. Westminster Larger Catechism, Q. 189.

10. Phelps, The Still Hour, 55.

11. Hallesbey, Prayer, 16.

12. Packer, Knowing Christianity, 128.

13. Forsyth, Soul of Prayer, 10.

١٤. في اللحظة التي نؤمن فيها بالمسيح، نكون "في المسيح"- متّحِدين به. ويميّز سنكلير فيرغسون (Sinclair Ferguson) عدّة جوانب لاتّحادنا بالمسيح: الاتّحاد به شرعيًّا وإيمانيًّا وروحيًّا وحيويًّا (S. Ferguson, The Christian Life, (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1981), 107-10).

15. Clowney, "A Biblical Theology of Prayer."

16. Westminster Larger Catechism. Q. 182.

17. John Newton, "Letter II to Mr. B****," in The Works of John Newton, vol. 1 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1985), 622.

18. Westminster Larger Catechism. Q. 174.

19. William Guthrie, The Christian's Great Interest (Glasgow: W. Collins, 1828), 156.

20. Forsyth, Soul of Prayer, 18-19.

21. Westminster Larger Catechism. Q. 105.

هنا يشرح الوصيَّة الأولى من الوصايا العشر- ألَّا يكونَ للإنسان آلهةٌ أخرى أمام الإله الحقيقيّ- يخبرنا قانون الإيمان بأنَّ علينا أن نقتَلع "محبَّة النفس، والسعيَ نحو الذات وكلَّ توجُّهٍ مُفرط وجامح للإرادة أو العقل أو المشاعر نحو أيِّ شيء آخر يحملُنا بعيدًا عن الله، سواءٌ جزئيًّا أم كليًّا...ونمتنع عن أن ننسبَ أيَّ صلاح أو مجدٍ إلى أيِّ وثنٍ أو مخلوق، أو إلى أنفسنا، أو إلى أيِّ شيء فينا أو نملكه أو نستطيع أن نفعلَه.

22. McNeill, Calvin: Institutes, 1.1.1.
23. Clowney, "A Biblical Theology of Prayer," 142.
24. Hodge, Systematic Theology, 703.
25. Hallesby, Prayer, 61-118.
26. Cited in Bloesch, Struggle of Prayer, ix
27. Hallesby, Prayer, 76.
28. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 40.

٢٩. المرجع السابق نفسه.

٣٠. إعادة صياغة في الإنكليزيّة لرومية ٧: ١٩-٢٠، ٢٢-٢٣

31. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.1., 850.

الفصل ١٠: التأمُّل في كلمة الله بوصفه حوارًا

1. Peterson, Answering God, 23- 24.
2. Edmund P. Clowney, CM: Christian Meditation (Nutley, NJ: Craig Press, 1979), 11.

٣. قد يعتقد الأشخاص الحداثيُّون أنَّ تعبير "ناموس الربّ" يعني فقط الوصايا العشر أو أسفار الكتاب المقدَّس الزاخرة بالتشريعات الإلهيَّة. لكنَّ الاستخدام الأوسع لتعبير "ناموس الربّ" في الكتاب المقدَّس يكشف أنَّ هذا التعبير يشير- وهو كثيرًا ما يشير- إلى الكتاب المقدَّس كلِّه. الكتاب المقدَّس كلُّه "ناموس"، أي أنَّه "قياسيّ"، ومُلزم للمؤمن لكَونه تعبيرًا عن مشيئة الله المعلَنة، سواء أخذت شكل تشريعاتٍ قانونيَّة أم قصصًا أم دروسًا.

4. Derek Kidner, Psalms 1- 72, Tyndale Old Testament Commentaries, vol. 15 (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1973), 48.

٥. تتضمَّنُ كلماتُ العهد الجديد المرتبطة بعملِ التأمُّل كلمة لوغيزادوماي (logizadomai)، وهي كلمةٌ مفضَّلةٌ لدى بولس، وتعني أن "تحسبَ أو تقيس القيمة أو تَعُدّ" (١كورنثوس ١٣: ٥؛ ٢كورنثوس ٢: ٦) أو "تُقيِّم أو تُقدِّر قيمة أو تفحص" (رومية ٢: ٢٦؛ ٩: ٨) أو "تفكِّر في، أو تتأمَّل في، أو تجعل عقلك يفحصُ باستمرار شيئًا ما" (فيلمون ٤: ٨؛ ٢كورنثوس ١٠: ١١).
راجع بي. تي. أوبرين P. T. O'Brien, The Epistle to the Philippians: A Commentary on the Greek Text (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1991), 436.

هناك تعبيراتٌ مشابهةٌ يستخدمها بولس نجدها في أفسس ٣: ١٨، حيث يصلِّي من أجل "القدرة على إدراك الطول والعرض والعمق والعلو لمحبَّة المسيح"- ويشيرُ التعبير المستخدم إلى الفهم أو الاستيعاب، بصورة تشمل العقل والمشاعر كلَيهما.

6. Luther, «A Simple Way to Pray," 200.
7. Lindsay Gellman, "Meditation Has Limited Benefits, Study Finds," The Wall Street Journal, January 7, 2014.

لم تجد الدراسة أيّة فائدةٍ للتأمُّل المعروف باسْم "مانترا"، وبعض الفوائد المحدودة القليلة لما يُسمَّى "التأمُّل الواعي" (Mindfulness) أو "الوعي المنتبه للحاضر" (Present focused awareness).

8. Clowney, CM, 7.
9. Douglas J. Moo, The Letters to the Clossians and to Philemon, Pillar New Testament Commentary (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2008), 286.

يشير مو محقًّا إلى مسألةِ أنَّ الضمير "أنتم" في كولوسِّي ٣: ١٦ هو صيغة جمع، فهو يتكلَّم ليس فقط عن التأمُّل الشخصيِّ في الكتاب المقدَّس، بل أيضًا عن الدراسة والتأمُّل الجماعيِّ للكلمة.

١٠. هناك معالجتان بروتستانتيَّتان كلاسيكيَّتان للتأمُّل من القرن السابع عشر كتبهما ريتشارد باكستر (Richard Baxter) في "The Saints' Everlasting Rest" وجون أوين (John Owen) في "The Grace and Duty of Being Spiritually Minded".

كتب باكستر عن حركتَين رئيسيَّتَين داخل التأمُّل. أوَّلًا كان هناك ما يمكن أن نسمِّيه "الدراسة"، وتعني التأمُّل والتفكير الطويل- والثانية هي "المناجاة"، وتعني أن يَعِظَ الإنسانُ نفسَه، ويتواصل مع نفسه، ويحثَّ نفسه. راجع: Richard Baxter, The Saints Everlasting Rest, abridged by Benjamin Fawcett (The American Tract Society, 1759).

انظر تلخيصَ Peter Adam, Hearing God's Words, 202-10.

كان عمل جون أوين الأساسيُّ عن التأمُّل هو The Works of John Owen, ed. William H. Goold, vol. 7 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965), 262-497.

خطوات أوين للتأمُّل- "تركيز الذهن" على الحقِّ ثمَّ "استمالة القلب" نحو الحقّ- وهي خطواتٌ موازيةٌ للحركتَين اللتين كتبَهما باكستر. انظر أيضًا مقالةَ أوين: "Meditations and Discourses on the Glory of Christ," in Works of John Owen, ed. William H. Goold, vol. 1 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965), 274- 461.

ونجد هناك مثلًا ممتدًّا لتأمُّلٍ فعليٍّ لأوين للنواحي المختلفة لمجد يسوع المسيح.

11. Owen, The Grace and Duty of Being spiritually Minded, 384. See also p. 270,

حيث يكتبُ فيه قائمةً بالمراحل الثلاث أو الأجزاء الثلاثة للتأمُّل. "هناك ثلاثة أمورٍ يمكن تمييزها في أثناء ذلك العمل العظيم، وهو أن يكونَ للإنسان ذهنٌ روحيّ...(١- تركيز الذهن) التدريب الفعليُّ للذهن، في أفكاره وتأمُّلاته ورغباته التي تصيرُ رغباتٍ روحيَّة وسماويَّة... (٢- استمالة القلب) وتجعل هذه الاستمالة الإنسانَ كلَّه بفكره ومشاعره ملتَصقًا ومرتبطًا بالأمور الروحيَّة، يفرح ويستمتع بها بكلِّ جوارحه (٣-الاستمتاع بالرَّبّ) هي حالةٌ من الرضى الذهنيِّ الناتجة عن الاستمتاع والفرح والتلذُّذ بالأمور الروحيَّة، ومدى ملاءمتها واكتمال قوانينها وميولها ورغباتها. هناك "ملح" في هذه الأمور الروحيَّة يُصلح طعمَها ويجعلها مستَساغةً للذِّهن المتجدِّد، مع كونها بلا طعم للآخرين. تقع في هذا الاستمتاع والتلذُّذ "حلاوة" الحياة

الروحيَّة. أمَّا المعرفة العقليَّة بمفردها، فهي جافَّةٌ وقاحلةٌ وبلا طعم. في هذا الاستمتاع نتذوَّقُ نعمة الله ونختبرها، وكيف أنَّ محبَّة المسيح أطيب من الخمر، أو أيِّ شيء آخر يطيبُ لحواسِّنا. هذا هو الأساس السليم لما يسمِّيه العهد الجديد "فرح الذي لا يُنطَق به ومجيد"، ٢٧٠-٢٧١.

١٢. المرجع السابق نفسه.

١٣. مُدرجة في Adam, Hearing God's Words, 209.

١٤. هذا مأخوذ من John Owen, Meditations and Discourses on the Glory of Christ, 400- 401.

١٥. المرجع السابق نفسه، ٤٠٠.

١٦. المرجع السابق نفسه، ٤٠١.

17. Owen, Works, vol. 7, 270- 271.

١٨. المرجع السابق نفسه. ٣٩٣.

١٩. المرجع السابق نفسه.

٢٠. المرجع السابق نفسه، ٣٩٤.

٢١. من المثير للاهتمام مقارنة خطوات أوين الثلاث للتأمُّل بتلك الممارسات الكاثوليكيَّة التقليديَّة والبندكتيَّة لما يُسمَّى "القراءة الإلهيَّة" (Lectio Divina) كما هو موصوف في Thelma Hall, Too Deep for Words: Rediscovering Lectio Divina (Mahwah, NJ: Paulist Press, 1988).

الخطوات الأربعة للقراءة الإلهيَّة هي القراءة ثمَّ اللهج ثمَّ الصلاة ثمَّ التأمُّل (١) قراءة الجزء الكتابيِّ في القراءة الإلهيَّة يعني القراءة البطيئة التأمُّليَّة التمَعُّنيَّة لذلك الجزء. وليس مطلوبًا في هذه القراءة تقديم تحليلٍ لاهوتيٍّ أو عقائديٍّ للنَّصِّ، بل أنت تنتظر من الروح القدس أن يكشفَ لك شيئًا خاصًّا في ذلكَ النصِّ شخصيًّا. بينما تقرأ ببطء وتأمُّل، فإنَّك تنتظرُ أمرًا خاصًّا يجذب اهتمامك ويستَحوذُ على انتباهك لتلاحظه وتمتلكَه. في هذه الأثناء، ابحث عن شيء يبدو ذا أهمِّيَّة خاصَّة "لِي أنا" في حالتي الحاضرة (الصفحات ٣٦-٣٨). بمجرَّد أن تفعلَ ذلك، تحرَّك إلى (٢) اللهج. تقترح هال طريقتَين للتأمُّل. الأولى باستخدام الخيال، ووضع نفسك داخل المشهد الكتابيِّ (إذا كان الجزء الكتابيُّ قصصيًّا) والتفكير في الكيفيَّة التي كنت لتَشعرَ بها إذا كنتَ تشاهد ما يحدث وتسمع هذه الكلمات نفسها من فم يسوع مباشرة. تخيَّله ينظرُ إليك في عينَيك ويقول هذه الكلمات لك أنت (ص. ٤٠). أمَّا الأسلوبُ الثاني فهو أن تأخذَ الكلمات وتكرِّرَها لنفسك، متأمِّلًا معنى كلِّ كلمةٍ أو جملة. تقول هال إنَّ أيَّ شكل من أشكال اللهج هو عملٌ معرفيٌّ ونشاطٌ عقليّ. لكنَّ هدف اللهج، مهما كان الأسلوب، هو أن تبدأ تشعر بمحبَّةٍ تتخلَّل كِيانَك كلَّه، (الصفحات ٤٠-٤١). بمجرَّد أن تبدأ تشعر أنَّ قلبَك استدفأ بهذه المحبَّة، فتكون عندئذٍ جاهزًا للمرحلة (٣) الصلاة. في هذه النقطة تستخدمُ هال تشبيهَ النار، وهو تشبيهٌ مقتبَسٌ من تيريزا الآڤيليَّة. عندما يقودُ اللهج إلى جذوة نار صغيرة من المحبَّة في القلب، لا تستمرَّ في اللهج؛ فهذا أشبه بإلقاء مزيدٍ من الحطب في النار، بل حان الآن وقت الصلاة.

تكلَّمْ مع الله كما تتكلَّمُ مع شخصٍ محبوب. هذا أشبَه "بالتهوية على النار" لتضطرم. يمكن أن تنظرَ نظرةً عابرةً من وقتٍ إلى آخر إلى الفقرة الكتابيَّة، وتستمرَّ في الصلاة والتعبير عن شوقك إلى الاتِّصال والاتِّحاد بالمحبوب، وأخيرًا نأتي إلى المرحلة الرابعة (٤) التأمُّل الصامت. تُعرِّفُ هال هذا على أنَّه "الصمت الداخليّ"، أيِّ شكلٍ من أشكال التفكير، أو التحليل يجعلُنا "مسيطرين" وغير مستَسلِمين لله. عند تلك النقطة تقترح هال عدَّة كتب عن "صلاة التمركُز" لتساعدنا على الوصول إلى حالة عدم التفكير في أيِّ أمرٍ عنه بل اختبار حضوره الحيِّ المباشر غير المُصاحَب بالكلام والتمتُّع بالوعي المتعبِّد به (الصفحات ٤٤-٤٥).

من السهل ملاحظة الفروق والتشابهات ما بين هذا الأسلوب للقراءة الإلهيَّة وأسلوب أوين/لوثر. يوافق المفكِّرون البروتستانت على أنَّه يجب التأمُّل في الكتاب المقدَّس لإشراك المشاعر بوصفها طريقةً للتجاوُب والصلاة بكلِّ الكِيان، وليس بالعقل فقط. وهم أيضًا يريدوننا أن نأخذَ الحقائق الكتابيَّة إلى قلوبنا حتَّى "تضطرم بالنار" ويؤمنون بأنَّه يمكن أن يطبِّقَ الروح القدس مباشرةً الكلمةَ على حياتنا. غير أنَّ أوين ولوثر لا ينصَحانِنا أن نُهمِلَ لاهوتَ النصِّ ولا تعليمَ الرسل بأن نبحثَ فقط عن "كلمة شخصيَّة". في الواقع، يقترح لوثر أن نمارسَ التأمُّل المنتظَم لقانون الإيمان. أوين ولوثر يريداننا أن نفكِّر في التطبيقات العمليَّة والتداعيات السلوكيَّة للاهوتنا وعقائدنا حتَّى يجعلَها الروح القدس حقيقةً لمشاعرنا وكِياننا الأعمق. ثانيًا، لا يتوقَّع أوين ولوثر ولا ينصحاننا أن نستهدفَ فقط اختبار محبَّة الله. دون شكٍّ، فإنَّ معرفةَ محبَّة الله ونعمته يجب أن تكونَ حاضرةً دائمًا، وإلَّا فلن تكونَ لدينا ثقةٌ بأنَّنا نستطيعُ الاقتراب منه أصلًا. إنَّنا نصلِّي فقط "باسْم يسوع". لكنَّ قوَّة الله وقداسته ومجده وجلاله وجبروته وسيادته وحكمته، كلَّها يمكن أيضًا أن تكونَ الموضوعَ المحوريَّ للنصِّ الكتابيِّ. أخيرًا فإنَّ أوين ولوثر لا يقولان إنَّنا نستهدفُ الوصول إلى نوعٍ من الوعي في ما وراء التفكير، بل يفترضان أنَّ الكتاب المقدَّس هو الطريقة التي بها يوجد الله فعَّالًا في العالم وفي حياتنا (راجع بداية الفصل الرابع، "الحوار مع الله")، وهو لا يريد أن يضعَ التفكيرَ والشعورَ في صراع بعضهما مع بعض كما يميل التقليد التأمُّليُّ لأن يفعل.

بعد تسجيل كلِّ هذه الانتقادات، من الجدير بالذكر أنَّ الترتيبَ الذي تقدِّمه هال- القراءة (تركيز الذهن)، اللهج (استمالة القلب)، والصلاة (الاستمتاع بحضور الله)- هو عمومًا مشابهٌ لنصائح أوين ولوثر وإرشاداتهما.

22. Richard F. Lovelace, Dynamics of Spiritual Life: An Evangelical Theology of Renewal, (Eugene, OR: Wipf and Stock, 2012), 213.

الفصل ١١: لقاء: طلبُ وجهه

1. Westminster Large Catechism, Q. 182.
2. McNeill, Calvin: Institutes, 3.1.1., 537.
3. McNeill, Calvin: Institutes, 3.2.36.

٤. راجِع لويد جونز (D. M. Lloyd-Jones) للوقوف على شرحٍ وعظيٍّ مستَفيضٍ لهذه الصلاة. وأَدين بالكثير من التبصُّرات التي في هذا الفصل لكتابٍ جونز "The Unsearchable

Riches of Christ: An Exposition of Ephesians 3:1 to 21" (Grand Rapids, MI: Baker, 1979), 106- 315.

٥. هذا هو فهم لويد جونز لما كان يعنيه بولس هنا. راجع أيضًا. P.T. O'Brien, The Letter to the Ephesians (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1999).

"للوهلة الأولى، يبدو غريبًا أن يصلّيَ بولس أن يسكنَ المسيح في قلوب المؤمنين. ألا يعيش بالفعل داخلهم لكونهم مؤمنين؟ للإجابة، يذكر لويد أنَّ بؤرةَ هذه الطلبة ليست السُّكنى المبدئيَّة للمسيح في قلوب المؤمنين، بل الحضور المستمرّ...لكي يضعَ المؤمنين على أساسٍ متينٍ من المحبّة" (الصفحات ٢٥٨- ٢٥٩).

٦. راجع الفصل الخامس، "ليلة النار" (The Night of Fire) في كتاب Marvin Richard O'Connell, Blaise Pascal: Reasons of the Heart (Grand Rapids, IM: Eerdmans, 1997), 90.

7. William R. Moody, The Life of Dwight L. Moody (Albany, OR: Book for the Ages, Ages Software, 1997), 127.
8. O'Brien, Letters to the Ephesians, 258.

٩. "يا يسوع ، أيُّها الملك العجيب". (O' Jesus. King Most Wonderful) بقلم كاتب مجهول من القرن الثاني عشر، ترجمة Edward Caswall, 1814- 1878

10. O'Brien, Letters to the Ephesians, 255.
11. Suzanne McDonald, "Beholding the Glory of God in the Face of Jesus Christ: John Owen and the "Reforming" of the Beatific Vision"

"رؤية مجد الله في وجه يسوع المسيح: جون أوين و «إصلاح» مفهوم «الرؤية المبهجة»".

في كتاب The Ashgate Research Companion to John Owen's Theology, ed. Kelly M. Kapic and Mark Jones (Surrey: Ashgate, 2012), 142.

12. Owen, Works, vol. 1, 288. Cited also McDonald,

"معاينين المجد" (Beholding the Golry) ص. ١٤٣.

١٣. المرجع السابق نفسه ٣٠٧-٣٠٨.

١٤. سيلاحظ كثيرون أنّه لدى مناقشة أوين للرؤية المبهجة، هناك الكثير من الأفكار الأساسيَّة للخبرة الروحيَّة التي طوَّرها لاحقًا جوناثان إدواردز. لقد آمن إدواردز بأنَّ الفرق ما بين المؤمن المُجدَّد بفعل الروح القدس، والإنسان المتديِّن والأخلاقيّ فقط، يقع في الخبرات الروحيَّة. "إنَّه التغيير الذي يحدث في قناعات الفكر، ومتعة القلب، اللذين يستطيع بهما استيعاب الجمال والمجد والخير الأسمى الذي في طبيعة الله، كما هو بالحقيقة" The Works of Jonathan Edwards, vol. 2, Religious Affections, ed. John E. Smith, (New Haven: Yale, 1959), 241.

وفي مكان آخر يصف التغيير هكذا: "تغتبط الروح بالجلال الأسمى للطبيعة الإلهيَّة، ويُستَمالُ القلب نحو الله بوصفه مصدرَ الصلاح الأقصى". (The Works of Jonathan Edwards, vol. 21, Writings on the Trinity, Grace, and Faith, ed. Sang Hyun Lee, (New Haven: Yale, 2002), 173.

الأمران اللذان يميِّزهما إدواردز في الخبرة الروحيَّة الأصيلة هما: (١) تغيير في الإنسان بجملته (آراء العقل ومتعة القلب) و(٢) عندما لا يصيرُ الله لاحقًا وسيلةً لتحقيق أهدافٍ ومصالحَ أخرى، ولكنَّه يصيرُ هو نفسه الخير الأسمى للإنسان. ويضع إدوادز ذلك في طرقٍ أخرى- أوَّلًا كان الله مفيدًا لنا، والآن صار حلوًا لنا ومُشبعًا في ذاته. إنَّ مجدَ الله وسعادته الآن صارا مَجدَنا وسعادتَنا. وخلفَ أوين وإدواردز، يقعُ بالتأكيد أغسطينوس، بتعليمه عن أنَّ الخطيَّة هي محبَّةٌ مضطربة، وإذا جرى تغيير متعةِ الإنسان القصوى، وصارت هي محبَّة الله، فإنَّ كلَّ الفضائل الأخرى تبدأ في الظهور وتتجدَّد الشخصيَّة.

15. Owen, Works, vol. 1, 307.

انظر أيضًا .McDonald, “Beholding the Glory,” 143

١٦. في مقالة مهمَّة، تشير سوزان ماكدونالد (Suzanne McDolnald) إلى أنَّ تركيز جون أوين على الرؤية المبهجة تضعه على خلافٍ مع غيره من البروتستانت في عصره. وأغلب زملائه كانوا يرون أنَّ هذه الرؤية خارج العالم و"كاثوليكيَّة" أكثر من اللازم. فقط فرنسيس توريتين (Francis Turretin) اللاهوتيُّ البروتستانتيُّ المصلح في جنيف، والذي كان معاصرًا لأوين، هو مَنِ اهتمَّ بذلك الأمر. غير أنَّ توما الإكوينيَّ وتوريتين كانا يعتقدان أنَّ هذه الرؤية هي أصلًا إدراكٌ عقليٌّ لله ويسوع بوصفه نوعًا من الوسيط الموصل إلى ذلك الإدراك (راجع McDonald, "Beholding the Glory" 151-154) وقد قبل أوين فكرة الرؤية المبهجة ثمَّ "أصلحَها" على أسس أقلَّ ظنِّيَّةً وأكثر كتابيَّة، واضعًا إيَّاها في إطار لاهوتيٍّ بروتستانتيٍّ مصلح. وبدل فَهْمِها على أساس كونها فهمًا عامًّا لأزليَّة الله، فَهِمَها بوصفها مستندةً إلى شخصِ المسيح وعمله. لم يكن المسيحُ مجرَّدَ قناةٍ موصلةٍ إلى هذه الرؤية؛ بل كان موضوعَها المحوريَّ. في الواقع، يصرِّح أوين أنَّه حتَّى في المستقبل، سنستمرُّ في رؤيةِ الله في صورة الطبيعة الإنسانيَّة الممجَّدة ليسوع المسيح. وبدل أن تكونَ خبرةً عقليَّةً مستقبليَّة بالكامل، وصفَ أوين الرؤية المبهجة على أنَّها شيء يمكن أن يحدُثَ جزئيًّا بالإيمان هنا والآن، ويمكن أن يؤثِّرَ في الإنسان بجملته بالتأثير في قلبه. لقد حوَّلَ أوين مفهومَ الرؤية المبهرة من مفهوم خاصٍّ وسرِّيّ، إلى مبدأ عمليٍّ للصلاة والاختبار الحاليّ. ولأنَّ هذا التذوُّق للرؤية المبهرة يمكن أن يشكِّلنا، فيمكن أن يغيِّرَ طريقةَ حياتنا اليوميَّة في هذا العالم بصورةٍ عميقة.

تأمَّلَ أوين في النصوص الواردة في رسالة كورنثوس الثانية ولاحظ الطبيعةَ غير المعتادة لفعل "ننظر كما في مرآة". في ١يوحنَّا ٣: ٢، نقرأ أنَّ رؤية المسيح مستقبليَّة، لكنْ في ٢كورنثوس ٣: ١٨، يخبرنا بولس بأنَّنا يمكن أن نتأمَّلَ مجدَ المسيح هنا والآن. الفعل اليونانيُّ كاتوپتريزدومنوي (Katoptrizdomenoi) هو كلمة مركَّبة، تعني "التطلُّع إلى صورة منعكسة من مرآة". ويفسِّرُ هذا النَّصَّين. فعندما ننظر في مرآة، لا نرى الشيء نفسه، بل نرى انعكاسًا ثنائيَّ الأبعاد لشيء ثلاثيِّ الأبعاد. نستطيع أن "نرى" المسيح الآن، ولكن فقط بالإيمان.

ماذا يعني أن نرى يسوع بالإيمان؟ «يقول أوين إنَّ المرآة التي بها يمكن أن نتطلَّعَ إلى وجه المسيح هي الإنجيل. ليس لدينا دخولٌ مباشرٌ إلى شخص المسيح في مجده بعد الصعود، بل نرى مجد المسيح، في ألوهته وإنسانيَّته بمرآة الكتاب المقدَّس" (المرجع السابق، ١٤٩. كما أنَّ أوين

يقدِّم هذا المفهوم أيضًا في Works, vol. 1, p. 305 "إنَّنا ننالُ إشراقةَ معرفةِ مجد الله في وجهه وحده". هذا هو السرُّ والحقُّ الأساسيُّ والأصيل للإنجيل". راجع الفصل الثاني في Meditations and Discourses on the Glory of Christ, 293-309.

كما أنَّ أوين يقدِّمُ النقطة نفسها بواسطة ممارسته "نعمة أن يكونَ الإنسان صاحبَ ذهنٍ روحيٍّ، وواجب أن يكونَ كذلك" (The Grace and the Duty of Being Spiritually Minded).

لذلك فعندما يُكرَزُ بإنجيل خلاص المسيح ويُشرَح، يظهرَ مجدُ شخصِ يسوع وعمله. وعندما نتأمَّل في حقائق الإنجيل كما يقدِّمها الكتاب المقدَّس، فإنَّ هذه الحقائق، بمعونة الروح القدس، تبدأ تُشرق، وتصيرُ محبَّة المسيح ملموسةً، وهكذا فإنَّ مجدَ المسيح يبهرنا، ويؤثر فينا، ويصهرُنا كالمعدِن ليُعيدَ تشكيلَنا ثانيةً.

تساندُ هذه القراءة في الفقرات من رسالة كورنثوس الثانية تفسيراتٌ معاصرة (راجع Paul Barnett, The Second Epistle to the Corinthians (Grand Rapids: Mi: Eerdmans, 1997), 206).

"ماذا عساها تكون الشعلة التي يستخدمها بولس ليعكسَ مجدَ هذا النور في قلوب الآخرين؟ إنَّها "الإنجيل"، "كلمة الله" التي بها تنير "معرفة الله" قلوبَ مَن يسمعون بولس (٢كورنثوس ٤: ٤، ٦ راجع أيضًا غلاطيَّة ١: ١٦). بشكلٍ ما، فإنَّ قارئي بولس يرَون مجدَ المسيح عندما يسمَعون الإنجيل، الذي بدَوره يقدِّم إليهم معرفةَ الله (٢٠٦). راجع Murray J. Harris, The Second Epistle to the Corinthians: A Commentary on the Greek Text (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2005).

"مجد الربِّ هو مجد الله كما يظهر في المسيح، الذي هو صورة الله. إذا كان علينا تعرُّف «المرآة» التي يمكننا بها رؤية مجد الله، فتكونُ في صورة المسيح في الإنجيل، الذي جوهره المسيح، أو الإنجيل مع الحياة المسيحيَّة التي تُعاشُ في الروح، أكثر من خدَّام الإنجيل أو المسيحيِّين عمومًا" (٣١٥).

لذا فإنَّ أوين يخلُصُ إلى القول إنَّ "رؤيتنا" للمسيح هي فقط بالإيمان بواسطة الإنجيل، وهي رؤية جزئيَّة. أمَّا في المستقبل، فسنراه وجهًا لوجه (١كورنثوس ١٣: ١٢).

17. Owen, Works, vol. 7, 348.
18. Owen, Works, vol. 4, 329- 330.
19. Owen, Works, vol. 1, 401.

٢٠. كلُّ هذه العناصر مأخوذة من الفصل الذي كتبه أوين عن الصلاة الذهنيَّة لروما. المرجع السابق نفسه ٣٢٨-٣٣٨.

21. Owen, Works, vol. 1, 401.
22. Owen, Works, vol. 7, 345- 346.
23. Von Balthasar, Prayer, 28.

٢٤. المرجع السابق نفسه ٢٨-٢٩. يقول ڤون بلثاصَر إنَّ الحركة التقويَّة البروتستانتيَّة والنهضَويَّة حاولت أن تعيدَ امتلاكَ العناصر المفقودة في حقيقةِ سكنى الروح القدس، غير أنَّ المحاولات باءت بالفشل بسبب "غياب عمل عبادة موضوعيٍّ رسميٍّ كنسيٍّ يضمُّ من حولها من رجال

الكنيسة" ٢٩. من الواضح أنَّ قولَ إنَّ المجهودات البروتستانتيَّة لتنمية الخبرة الروحيَّة قد فشلت عمومًا، لهي عبارةٌ تعسُّفيَّة.

٢٥. أقف مع آخرين في محاولة التفريق ما بين حركة الصلاة التمركزيَّة المعاصرة والمتصوِّفين المنتمين إلى العصور الوسطى من جهة- هذا مع حقيقة أنَّ أنصارَ هذا النوع من الصلاة يذهبون إلى أبعاد بعيدة للتَّدليل على أنَّ مقاربتَهم هي فقط تحديثٌ للتراث الوسيط- ونقَّاد صلاة التمركز الذي يشكِّل نقدُهم مفاجأةً، الزوجان زاليكسي من جهة أخرى. فمع كلِّ تعاطفهما (المبالغ فيه) مع كلِّ ألوان الصلاة الإنسانيَّة، فهما يريان صلاةَ التمركُز هي شكلًا من الأشكال الاستهلاكيَّة التي تسطِّحُ التقليدَ الصوفيَّ القديم لكتاب "سحابة الغموض". "من السهل أن نميِّز في هذا البرنامج الآثار الواضحة لكتاب سحابة الغموض، ولا سيَّما ذلك المجهود المبذول لتقليل الوعي بالأمور المخلوقة، واستخدام كلمة واحدة في الصلاة. لكنَّ هذا البرنامج يفتقدُ إلى جرأة الممارسة القديمة التي استُبدلَت بها تلك التعبيرات المهذَّبة. من جهة السحابة، فإنَّ الصلاة التأمُّليَّة هي رحلةٌ غامضةٌ إلى نهايةٍ غير مؤكَّدة. غير أنَّ حركةَ "صلاة التمركز"...حوَّلتها إلى تدريبٍ مريح ذي ختامٍ معروف مسبَّقًا". ويختمان تعليقهما بملاحظة أنَّ صلاة التمركز الحاليَّة تشتركُ في القليل مع واقعيَّة السحابة مفتوحةِ العينَين، ويبدو أنَّها تشترك أكثر مع مزاج الجزء الأخير من القرن العشرين الذي يتميَّز بالشموليَّة والتفاؤل (Zaleskis, Prayer, 208). وللوقوف على نقد بروتستانتيٍّ حادّ، لكنْ يتميَّز بالتَّقدير للتقليد الأقدم والممارسات الحاليَّة مثل "صلاة يسوع"، راجع John Jefferson Davis, Meditation and Communion.

وأيضًا Edmund P. Clowney, CM: Christian Meditation; و Peter Adam, Hearing God's Words.

26. Carl Trueman, "Why Should Thoughtful Evangelicals Read the Midieval Mystics?" Themelios 33, no. 1 (May 2008).

الفصل ١٢: الرهبة: مدحُ مجده

1. Trueman, 90- 98.

٢. المرجع السابق نفسه، ٩٠-٩١.

٣. المرجع السابق نفسه، ٩٢.

٤. المرجع السابق نفسه، ٩٥.

٥. المرجع السابق نفسه، ٩٤.

6. James K. A. Smith, Desiring the Kingdom: Worship, World-view and Cultural Formation (Grand Rapids, MI: Baker, 2009), 46- 47.

٧. مقتبس من David K. Naugle, Reordered Love, Reordered Lives: Learning the Deep Meaning of Happiness (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2008), XI.

٨. "الآن هو رجلٌ يتمتَّعُ بحياةٍ مقدَّسة يقيِّمُ الأمورَ بموضوعيَّة، ويحافظ على مشاعره تحت سيطرة

بالغة، حتّى إنّه لا يحبُّ ما لا ينبغي أن يُحَبّ، ولا يفشل في حبّ ما يجب أن يُحَبّ، ولا يحبُّ بالدرجة نفسها ما ينبغي أن يُحبَّ أكثر أو أقلّ، ولا يحبُّ أكثر ولا أقلَّ ما يجب أن يُحبَّ بالدرجة نفسها. لا يُحبُّ الخاطئَ لكونه خاطئًا، بل لكونه إنسانًا من أجل الله، أمّا الله فهو وحده الذي يجب أن يُحَبَّ لذاته. وإذا كان الله ينبغي أن يُحَبَّ أكثر من أيِّ إنسان، فإنَّ كلَّ إنسانٍ يجب أن يحبَّ الله أكثر من نفسه" (Augustine, On Christian Doctrine, vol. 1, 27, 28)

مقتبس في David K. Naugle's 1003 paper "St. Augustine's Concept of Disordered Love and its Contemporary Application,"

متاح على الإنترنت في http://www3.dbu.edu/naugle/pdf/disordered_love.pdf

٩. المرجع السابق نفسه.

10. Smith, Desiring the Kingdom, 51.
11. C. S. Lewis, Letters to Malcolm: Chiefly on Prayer (New York: Harcourt, Brace, 1963), 90.

١٢. المرجع السابق نفسه، ٩١.

من الشخصيّات الأخرى التي استَخدَمَتْ مباهجَ الحياة لمواضيع للتسبيح والعبادة كان جوناثان إدواردز. راجع " صور الأمور الإلهيّة" (Images of Divine Things).

في Typological Writings: The Works of Jonathan Edwards, ed. Wallace E. Anderson, vol. 11 (New Haven, CT: Yale University Press, 1993).

13. C. Frederick Barbee and Paul F. M. Zahl, The Collects of Thomas Cranmer (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1999), IX-XII
14. Matthew Henry, Methods for Prayer: Freedom in The Face of God, ed. J. Ligon Duncan (Christian Heritage, 1994), A Way to Pray, ed. And rev. O. Palmer Robertson (Carlisle, PA: Banner of Truth, 2010).
15. Peterson, Answering God, 128.

١٦. المرجع السابق نفسه ٩٦-٩٧

الفصل ١٣: الحميميَّة: الحصول على نعمته

١. أُدين بالاقتباسات الكتابيّة والشرح اللاهوتيّ لهذه الفقرة وما بعدها، لكتاب كارسون "Love in the Hard Places" (Wheaton, IL: Crossway, 2002), 74-77.

٢. المناظرة مع د. مارتن لوثر عن قوّة الانغماس وفاعليّته، ١٥١٧، مقالة ١.

3. John R. W. Stott, Confess Your Sins: The Way of Reconciliation (Word Books, 1974), 19.

٤. لعلَّ مقال جون أوين "On the Mortification of Sin" في Works, ed. William Goold, vol. 6 (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965).

يعدُّ المرشد الأوَّل، والذي لا مثيل له، لما يسمِّيه ستوت "ترك" الخطيَّة، وما كان يسمِّيه اللاهوتيُّون الأقدم إماتةَ الخطيَّة. يأتي هذا العمل الذي يقدِّمه أوين في لغة إنكليزيَّة عتيقة تصعب قراءتها، لكنَّه عملٌ فريدٌ من تراث الروحانيَّة البروتستانتيَّة المصلحة.

5. Stott, Confess Your Sins, 20.

في هذا الكتاب يفرِّق ستوت ما بين "الاعتراف بالخطيَّة" (والتي يحسبُها أيضًا الإقرار بارتكاب الخطيَّة بالفعل) و"ترك الخطيَّة" (والتي يرى أنَّها عملٌ عميقٌ في توجُّهاتِ القلب المتواضع والمنكسر). أتَّفقُ أنَّ "الاعتراف فقط" هو مجرَّدُ عملٍ عقليٍّ يجري فيه التوقُّف عن إلقاء اللَّوم على آخر وتحمُّل مسؤوليَّة الخطيَّة بوصفها خطيَّة. أمَّا ما يسمِّيه ستوت "ترك الخطيَّة" وهجرها، فهو عملٌ قلبيٌّ يسمِّيه جون أوين والتطهريُّون "الإماتة". وأميل لأن أشيرَ إليهما معًا، الاعتراف العقليُّ والانكسار القلبيّ، بوصفهما جزأين من الاعتراف والتوبة.

6. Stott, Confess Your Sins, 21.

٧. راجع مقال أوين "إماتة الخطيَّة" (On Mortification of Sin). "وقتَ حدوث بعض الدينونة، والمصائب، أو الآلام الضاغطة، تسيطر على القلب أفكارٌ وتطلُّعاتٌ للهرب من الضيق الحاليّ، والمخاوف والمخاطر. ومثلما يستنتجُ شخصٌ مقتَنع، فإنَّ هذا ممكنٌ فقط بالتَّخلِّي عن الخطيَّة، والحصول على السلام مع الله. إنَّ ما يمرِّرُ المؤمنَ بوقت التجربة، هو غضبُ الله. للتخلُّص من كلِّ هذا، فإنَّ البشر يلجأون في مثل هذه الحالات إلى التخلُّص من خطاياهم. عندئذٍ لا يصير للخطيَّة مكانٌ فيهم، ولن يُعطوا أنفسهم لخدمتها في ما بعد. وبناء على ذلك، تهدأ الخطيَّة، ولا تثير الإنسان في ما بعد، ويبدو أنَّها ماتت، ليس لأنَّها تعرَّضت لأيَّة طعنة، بل لأنَّ النفسَ استعادَتْ قدراتِها التي تقود بها نفسها بأفكارٍ لا تتماشى مع فكر الخطيَّة. وعندما يتنازلُ الإنسان عن هذه القدرات، يمكنُ أن تعودَ الخطيَّة بكلِّ قوَّتها وعنفوانها" (الصفحات ٢٦-٢٧).
"إنَّ المبادئ الصحيحة والمقبولة للإماتة ستُصرُّ على...كراهية الخطيَّة لكونها خطيَّة، ليس فقط المرارة والانزعاج منها...الآن، من المؤكَّد أنَّ هذه الكراهية التي أتكلَّم عنها تنبعُ من محبَّة النفس. يجب أن تُعدَّ نفسَك بكلِّ اجتهاد وجدِّيَّة لتُميتَ مثل هذه الشهوات والخطيَّة. لماذا؟ لأنَّ هذه الخطيَّة تُزعجُك، وتأخذُ منك سلامك، وتملأ قلبَك بالأسف والاضطراب والخوف؛ ولا تشعر في ما بعد بالراحة بسببها" (ص. ٤١).

٨. "لتملأها يوميًّا بكل الأمور التي سأذكرها تاليًا، وهي خَطِرةٌ وقاتلة ومدمرة لها؛ فهنا تكمنُ قمَّة هذا الصراع" المرجع السابق نفسه، ٣٢.

٩. المرجع السابق نفسه، ٥٤-١١٨.

١٠. المرجع السابق نفسه، ٥٨.

11. Owen, "A Discourse Concerning the Holy Spirit, " in Works, vol. 3, 547.

١٢. ليس هذا لنقولَ إنَّ المسيحيِّين الذين يفهمون حقَّ الإنجيل لا يستطيعون أن يذهبوا إلى ناموس الله لينالوا المساعدة لإضعاف الخطيَّة. في أماكن كثيرة يقول للمؤمنين بالمسيح أنْ "يُحضِروا خطاياهم" إلى الناموس وإلى الإنجيل ("Mortification of Sin" in Works, vol. 6, 57-58). إلَّا أنَّ مثل هذه النصيحة تأتي مع تحذير أن نتذكَّر أنَّ المؤمنين بالمسيح لا يمكن أن يعودوا ليكونوا

تحت الإدانة الشرعيَّة لخطيَّتهم، والتركيز المبالغ فيه على خطر الخطيَّة والناموس يمكن أن يقودَ إلى روحٍ شرعانيَّة يمكنها فقط أن توقفَ الأفعال الخاطئة إيقافًا مؤقَّتًا دون تغييرٍ للقلب.

13. Alexander B Grasart, ed. Works of Richard Sibbes (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1973), 47.
14. George Whitefield, quoted in Arnold Dallimore, George Whitefield: The Life and Times, vol. 1, 140.

الفصل ١٤: الصراع: طلبُ معونته

١. مقتبس في Horton, Calvin on the Christian Life, 159.

٢. للمزيد عن هذا الموضوع، راجع Keller, Walking with God through Pain and Suffering، ولا سيَّما الفصل السادس بعنوان "سيادةُ الله" (The Sovereignty of God) ص. ١٣٠–١٤٦.

3. Phelps, The Still Hour, 27-28.
4. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 157.

٥. المرجع السابق نفسه، ١٥٨.

٦. المرجع السابق نفسه، ١٥٧.

7. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 55.
8. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.52.919.

٩. المرجع السابق نفسه، ١٧٨.

١٠. المرجع السابق نفسه، ١٧٩.

١١. هذه هي صياغتي لعناوين إدواردز. العظة هي "السعادة المسيحيَّة" (Christian Happiness) ويمكن أن نجدها في Wilson H. Kimnach, ed., The Works of Jonathan Edwards, vol. 10, Sermons and Discourses 1720-1723 (New Haven, CT: Yale, 1992), 296- 307 وتتلخَّص أطروحة إدواردز في أنَّ المؤمن بالمسيح يمكن أن يكونَ سعيدًا مهما كانت الأوضاع الخارجيَّة.

١٢. أتناول هذا النوع من الصلاة على نحوٍ إسهابًا وتفصيلًا في الفصل الثاني عشر "Weeping" – in Walking with God through Pain and Suffering, 240-254.

13. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 181.

١٤. المرجع السابق نفسه.

١٥. تأتي هذه التعبيرات الوصفيَّة لفئات صلاة الشكوى في هذه الفقرة من: Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 194-199.

16. Keleer, Walking with God through Pain and Suffering, 240- 242.
17. Smith, Soul Searching.

18. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 192- 193.

للمزيد عن التعامل مع شكاوانا ومعاناتنا في الصلاة، راجع "Walking with God through Pain and Suffering"، لا سيَّما الفصول ١٢-١٦، ٢٤٠-٣٢٢.

الفصل ١٥: الممارسة: الصلاة اليوميَّة

1. Alan Jacobs, The "Book of Common Prayer": A Biography (Princeton: Princeton University Press, 2013), 24.

يعتمد جاكوبز على كتاب Eamon Duffy, The Stripping of the Altars: Traditional Religion in England c. 1400- c. 1580 (New Haven, CT: Yale University Press, 1992).

2. Edgar C. S. Gloucester, ed. The First and Second Prayer Book of Edward VI (Wildside Press, reprint of 1910 edition), 3.

٣. المرجع السابق نفسه، ٨.

4. Jacobs, The "Book of Common Prayer," 24 – 27.

٥. يمكنُ الحصول على الترجمات الإنكليزيَّة في: Elsie Anne McKee, John Calvin: Writings on Pastoral Piety (Mhawah, NJ: Paulist Press, 2001), 210-217.

6. McNeill, Calvin: Institutes, 3.20.50. 917- 918.

يضيف كالفن أنَّ الساعاتِ المحدَّدة للصلاة اليوميَّة يجب ألَّا تصيرَ "طقس سحريًّا"...كأنَّنا ندفع دَينًا لله.

٧. هناك العديد من النسخ للرزنامة موجودة على الإنترنت. راجع http://www.mcheyne.info/calender.pdf

8. Matthew M. Boulton, Life in God: John Calvin, Practical Formation, and the Future of Protestant Theology (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2011)

لمناقشةٍ مستَفيضةٍ لفكرةِ أنَّ ممارسات التشكيل الروحيِّ التي يقترحها كالفن هي نوعٌ من "الرهبنة للشخص العاديّ". هذا مثيرٌ للاهتمام لا سيَّما في ضَوء ما يُسمى حاليًّا برهبنة الشخص العاديِّ أو الرهبنة للعَلمانيِّين. وقد كانت الحياة الرهبانيَّة المثاليَّة في الأصل نوعًا من الحياة والعمل اليوميِّ في إطارٍ من الصلاة وقراءة الكتاب المقدَّس والتعليم الروحيِّ وترتيل المزامير والعبادة الجماعيَّة. وقد كان هذا يعني مقاطَعةَ العملِ اليوميِّ للقيام بصلواتٍ محدَّدةِ الوقت سواء كانت صلواتٍ خاصَّة أم جماعيَّة. كان الرهبان أيضًا يَخضَعون للمساءلةِ الشخصيَّة اللصيقة عن حياتهم مع الآخرين، ويمارسون مستويات من الحياة البسيطة والالتزام المتبادل نحو خدمة بعضهم بعضًا. وقد نمت الرهبانيَّة الحديثة نموًّا كبيرًا وسط الإنجيليِّين غير الراضين عن الحياة والممارسات الكنسيَّة الحاليَّة. وهي تسعى إلى خَلْقِ نَوعٍ من الرهبنة العَلمانيَّة، بمعنى أنَّها لا تتطلَّبُ من الأشخاص تَرْكَ أعمالهم، أو أن يعيشوا معًا تحتَ سقفٍ واحدٍ حرفيًّا، لكنَّها تتطلَّبُ منهم أن يعيشوا بالقرب بعضهم من بعض، لممارسة المحاسبة، والاهتمام بالمهمَّشين، وممارسة الصلوات اليوميَّة المحدَّدة التي يقتضيها التقليد الروحانيُّ التأمُّليّ. لعلَّ أحد مسوِّغات

هذه الحركة هو موت المؤسَّسة المسيحيَّة. وحيث إنَّه صارت ثقافتُنا أكثر فأكثر ثقافة ما بعد المسيحيَّة، فإنَّ المؤمنين يحتاجون لأن يُغرِقوا أنفسهم في المزيد من الممارسات المسيحيَّة الجماعيَّة لئلَّا يذوبوا أكثر من اللازم في الثقافة المادِّيَّة المحيطة.

انظر كتاب Jonathan Wilson-Heartgrove, New Monasticism: What it has to say to Today's Church (Brazos, 2008); و Rob Moll, "The New Monasticism," Christianity Today, April 24, 2008.

وعادةً ما يتطلَّعُ هؤلاء الذين يروِّجون للرهبنة الحديثة إلى التقاليد الكاثوليكيَّة أو الأناباپتست؛ لأنَّ الپروتستانت الأناباپتست كانوا، بدرجةٍ ما، يمثِّلون أقلِّيَّات مضطهَدة لقرونٍ عديدة، وأنَّ النموذجَ الرهبانيَّ الأصيل هو موروث من التراث الكاثوليكيّ. لكنَّ فكرةَ أنَّ كالڤن هو مَن اقترحَ القيام بالمجهودات الأولى نحو الرهبنة العَلمانيَّة، فهي فكرةٌ يمكن مناقشتها والاحتجاج عليها. كان برنامجه أكثر شموليَّة من برنامج لوثر. وكما يشرح بولتون، فإنَّ كالڤن كان مهتمًّا بإعادة تشكيل المدينة بأسرها التي عاشت في وسط أوروبا العصور الوسطى الكاثوليكيَّة، وذلك وَفقًا لما كان يرى أنَّه الإيمان المسيحيُّ بحسب الكتاب المقدَّس. لذا فيمكنُ أن يوفِّرَ كالڤن الكثيرَ من المصادر التي يمكنها أن تساعدَ مَن يريدون إنشاءَ مجتمعاتٍ تلمذة وتشكيلٍ روحيٍّ في واقع الغرب ما بعد الحداثيّ.

راجع أيضًا Scott Manetsch, Calvin's Company of Pastors (New York: Oxford University Press, 2012).

9. Quiet Times: An InterVarsity Guidebook for Daily Devotions (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1945).

رغم أنَّ المؤلِّفين قُدِّموا على أساسِ أنَّهم فريق إنترڤارسيتي (Intervarsity)، فإنَّ الكتاب هو تجميع لكتاباتِ الكثير من المرسَلين الإنجيليِّين، بما فيهم فرانك هاوتون (Frank Houghton) ودبليو. غراهام سكورجي (W. Graham Scroggie) وپاغيت وايكس (Paget Wilkes) والسيِّدة هاري ستراتشان (Mrs. Harry Strachan).

وقد أخذ الكنديُّ الأستراليُّ، سي. ستايسي وودز (C. Stacey Woods) مؤسِّس إنترڤارسيتي في الولايات المتَّحدة، هذا الكتاب البريطانيَّ وحرَّره لتخليصه من "أسقفيَّته" (أي من كونه كتابًا أسقفيًّا)، ونشره في الولايات المتَّحدة. راجع: A. Donald McLeod, C. Stacey Woods and the Evangelical Rediscovery of the University (Downers Grove, IL; InterVarsity, 2007), 107.

١٠. من أفضل الكتب في هذا المجال كان "Appointment with God: A Practical Approach to Developing a Personal Relationship with God" (The Navigators, 1973).

11. Quiet Times, revised edition 1976 (InterVarsity Press), 21.

١٢. المرجع السابق نفسه ١٥-١٦. في مكان متأخِّر من الكتيِّب، وُضِعَ تقسيمٌ آخر للصلاة- الشكر والعبادة والتسبيح باستخدام أسماء الله، ثمَّ الاعتراف، والتشفُّع من أجل الآخرين، وتسليم اليوم الجديد للربّ (ص. ٢١). ويعكسُ هذا حقيقةَ أنَّه رغم أنَّ الكتاب قصيرٌ جدًّا، فإنَّه تجميعٌ للتأمُّلات التعبُّديَّة اليوميَّة بأقلام سبعة كتَّاب مختلفين.

13. Appointment with God, 16.
14. Phyllis Tickle, The Divine Hours, Prayers for Springtime: A Manual for Prayer (Image, 2006); The Divine Hours, Prayers for Summertime: A Manual for Prayer (Image,2006); The Divine Hours, Prayers for Autumn and Wintertime: A Manual for Prayer (Image, 2006).
15. John Bunyan, Prayer (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1965).
16. Owen, Works, vol. 4, 348.

١٧. راجع الفصل الكامل الذي كتبه أوين بعنوان: "فحص الأشكال المقترحة للصلاة" (Prescribed forms of Prayer examined) في vol. 4, 338-351. Works,

18. Horton, Calvin on the Christian Life, 154.
19. Luther, "A Simple Way to Pray," 193.
20. Arthur G. Bennet, The Valley of Vision: A Collection of Puritan Prayers and Devotions (Carlisle, PA: Banner of Truth, 1975).
21. David Hanes, ed. My Path of Prayer (Wales: Crossway UK books, 1991).

٢٢. المرجع السابق نفسه ٥٧-٦٥.

23. Packer and Nystrom, Praying: Finding Our Way, 286.
24. Barbee and Zahl, Collects or Thomas Cranmer.

يقدِّمُ هذا الكتاب ليس فقط سنةً كاملةً من صلواتِ كرانمر، بل أيضًا شرحًا مختصرًا لكلِّ صلاة وتأمُّلًا. هذا يجعل من الكتاب مفيدًا جدًّا لوقت طلب الله في الصلاة اليوميَّة.

25. D. A. Carson et al., eds., New Bible Commentary, 21st Century Edition (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1994).
26. Henry, A Method for Prayer.

انظر أيضًا النسخة الأقصر وهي: Henry, A Way to Pray.

محرِّرُ النسخة الأولى هو ليغون دنكان (Ligon Duncan)، وهو يقدِّم خطوطًا عريضةً لكلِّ الكتاب في فهرس، ويقدِّمُ هذا الفهرس بمفرده عشراتٍ من الأفكار المحدَّدة عن كيفيَّة العبادة والاعتراف والشكر والطلب والتشفُّع مع الله. لكي تستخدم هذا الكتاب في الصلاة، تحتاج فقط لأنَ تشخصِنَ العناوين وتصلِّيها بكلماتك واحتياجاتك الشخصيَّة.

٢٧. هذا مقتبس من مقالة لوثر "طريقة بسيطة للصلاة"، والتي اقتُبسَتْ في كتاب: Packer and Nystrome, Praying: Finding Our Way, 288.

وهنا يقتبس باكر من ترجمة أنجزَها ولتر تروبيش (Walter Trobisch) في كتيِّبه الكلاسيكيّ: Martin Luther Quiet Time.

٢٨. مقتبس في: Gordon Wenham, The Psalter Reclaimed: Praying and Praising with the Psalms (Crossway, 2013), 39.

٢٩. ما يلي مأخوذ من: T. M. Moore, God's Prayer Program: Passionately Using the Psalms in Prayer (Christian Focus, 2005).

٣٠. المرجع السابق نفسه، ٨٣.

٣١. المرجع السابق نفسه، ٨٨.

٣٢. المرجع السابق نفسه، ٩٥.

٣٣. كثير ممَّن يريدون أن يصلُّوا المزامير يجدون أنفسَهم في حَيرة، وربَّما يحبَطون بسبب بعض المزامير التي يصلِّي فيها كاتبُ المزمور طالبًا حلول غضب الله وانتقامه على أعدائه. وعادة ما يكون ذلك باستخدام تعبيرات عنيفة. أحد هذه الصلوات يأتي في نهاية مزمور ١٣٧، حيث يتمنَّى كاتب المزمور أن يفعل أحدهم بالبابليِّين مثلما فعلوا عندما نهبوا أورشليم. ويرجو أن يمسك المحاربون أطفالهم من أقدامهم، ويضربون رؤوسهم بالصخور (الأعداد ٨-٩). ويشير باحث العهد القديم دَريك كيندر (Derek Kidner) بحكمةٍ إلى أنَّه يجب على المسيحيِّين ألَّا يصلُّوا هكذا الآن، في ضَوء الصليب، لكن يجب أن يستمرُّوا في فهم مثل هذه الصلوات. يكتب هذا الباحث عن مزمور ١٣٧: "نقترح أن يكونَ ردُّ فعلنا على مثل هذه النصوص مكوَّنٌ من ثلاثة أمور: أوَّلًا، أن نحلِّلَ النصَّ للوصول إلى جوهره، كما فعل الله نفسه مع صرخات أيُّوب وإرميا. ثانيًا، أن نستقبل تأثيره. يمنعُنا هذا الجرح النازف، الموضوع أمامنا، من أن نقدِّمَ إجاباتٍ بسيطةً عن حقيقة ذلك العنف. وإذا اقتَطَعْنا هذه الشهادة من الكتاب المقدَّس، فهذا يقلل من قيمته بوصفه إعلانًا، عما في الإنسان، وعمَّا فعله الصليب ليُحقِّقَ خلاصَنا. ثالثًا، يجب أن يكونَ تجاوُبُنا هو إدراكَ أنَّ دعوتنا، منذ الصليب، هي أن نصلِّي للمصالحة وليس للانتقام. لذا فإنَّ هذا المزمور موضوع كأنَّه صرخةُ اعتراض، دونما أيِّ تجاهل أو تخفيف، ليس فقط ضدَّ عملٍ محدَّدٍ من أعمال القسوة، بل أيضًا ضدَّ كلِّ الآراء الفلسفيَّة المستريحة عن الشرِّ الإنسانيّ، سواء في ما يتعلَّق بالإدانة التي يستحقُّها أم للذكرى التي يتركها؛ وليس أقلَّ من ذلك، التكلفة التي تحمَّلَها الله والإنسان لإزالة ما يسبِّبه هذا الشرُّ الإنسانيُّ من عداوة ومرارة".

(Derek Kidner, Psalms 73- 150: An Introduction and Commentary (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1975), 497).

٣٤. للمزيد عن هذا الموضوع، اقرأ: Eugene Peterson, Answering God; Tremper Longman, How to Read the Psalms (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1988). وأيضًا: Derek Kidner, Psalms: An Introduction and Commentary in 2 volumes (Downers Gvove, IL: InterVarsity Press, 1973).

35. Moody, Life of Dwight L. Moody, 127.

تذييل: بعض الأنماط الأخرى للصلاة اليوميَّة

١. بقراءة فصلَين يوميًّا من رزنامة ماكتشين لقراءة الكتاب المقدَّس- صباحًا ومساء- ستقرأ الكتاب المقدَّس بعهدَيه مرَّتين في غضون سنتَين.

انظر http://www.mcheyne.info/calender.pdf

٢. هذه أشكال معدَّلةٌ بتصرُّف للصَّلوات التي كتبها كالڤن، ووضعت في "قانون الإيمان الجينيڤيّ" (Geneva Catechism) سنة ١٥٤٥م لتقديم إرشاد لفترات الصلاة الشخصيَّة التي كان كالڤن يريد أن يمارسها الأفراد والأُسَر. الترجمات الإنكليزيَّة الأصليَّة موجودة في: Elsie A. McKee, ed. And trans., John Calvin: Writings on Pastoral Piety, 210- 217.

كتب أخرى بقلم

تيموثي كَلِر

Timothy Keller

للمؤلِّف عدَّة كتبٍ منشورة، وقد تُرجمَ منها إلى العربيَّة من أوفير للطباعة والنشر:

"الإيمان في عصر التَّشكيك"

"مَثلُ الابنَين الضَّالَّين"

"حرِّيَّةُ نِسيان الذَّات"

"لقاءاتٌ شخصيَّة مع يسوع"

للمزيد عن هذه الكتب، انظُرِ الصفحات التالية.

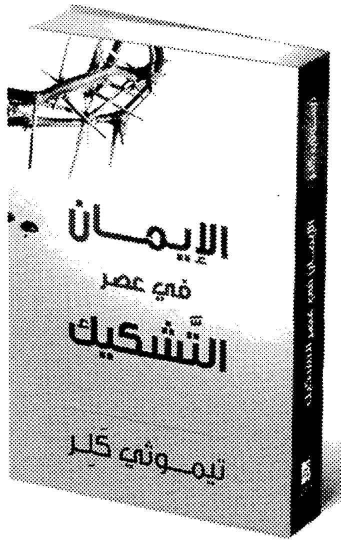

الإيمان في عصر التَّشكيك

(The Reason for God)

- لماذا يَسمَحُ الله بالألم؟
- كيف يُمكنُ لله المحبِّ أن يُرسلَ أُناسًا إلى جهنَّم؟
- هل يُعقَلُ أن يكونَ هناك طريقٌ واحدٌ فقط إلى الله؟

هذه فقط بعضُ الأسئلة والشُّكوك التي تُساورُ ليس المشكِّكين فقط، بل أيضًا المؤمنينَ المتمكِّنين بشأن الدِّين. لقد جمع تيموثي كَلِر لائحةً بأكثر "الشُّكوك" شيوعًا، وفي هذا الكتاب يُفكِّكُ ببراعةٍ كلًّا منها مستخدمًا الأدبَ والفلسفةَ والمحادثاتِ الشخصيَّةَ والتَّحليلَ المنطقيَّ، ليُبيِّنَ أنَّ الإيمانَ بالله يُمثِّلُ عقيدةً عقلانيَّةً وطيدة، يعتنقُها مفكِّرون ذوو سلامةٍ عقليَّة ولهم حنوٌّ شديد على أولئك الذين يُريدون حقًّا أن يعرفوا الحقيقة.

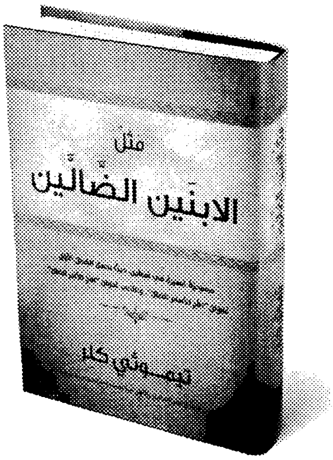

مَثلُ الابنَين الضَّالَّين

(The Prodigal God)

يستخدمُ كَلِر الأسلوبَ العقلانيَّ الذي عُرِفَ به لفَهْم المسيحيَّة، ليُبيِّنُ الرسالةَ الجوهريَّةَ ليسوع المسيح، المخبَّأة في مَثله الأشهر "**الابن الضَّالّ**". في ذلك المثَل يكشفُ يسوع عن نعمة الله السخيَّة من نحوِ أولئك البعيدين عن الله والمتديِّنين الأخلاقيِّين الذين يعتقدون أنَّ التديُّن هو الطريق للوصول إلى الله. إنَّ هذا الكتابَ يضعُ التحدِّيَ سواءً أمام مَنِ اختاروا طريق التديُّن أم أولئك السالكين في طريق التَّشكيك والبُعد عن الله، ويُعلنُ أنَّ في المسيحيَّة طريقًا ثالثًا جديدًا كلِّيًا.

حرِّيَّةُ نِسيان الذَّات

(The Freedom of Self Forgetfulness)

في هذا الكتيِّب المؤثِّر، يُبيِّن لنا تيموثي كَلِر (وهو أحَدُ المؤلِّفين الأكثر رَواجًا) أنَّ التَّواضُع- بالمعنى الذي يُعلِّمه الكتاب المقدَّس- يَعني أن نتوقَّفَ عن رَبْط كلِّ خبرةٍ حياتيَّة أو مُحادثةٍ بذواتنا لكي نتحرَّرَ من إدانة أنفسنا. فالشَّخص المتواضع، وَفقًا لمفهوم الكتاب المقدَّس، هو شخصٌ لا يَكرَهُ نفسَه وليس مُغرمًا بنفسه، بل هو شخص غير مُنهمكٍ في نفسه.

ويمكنُك أنت أيضًا أن تَنعُم بهذه الحرِّيَّة...

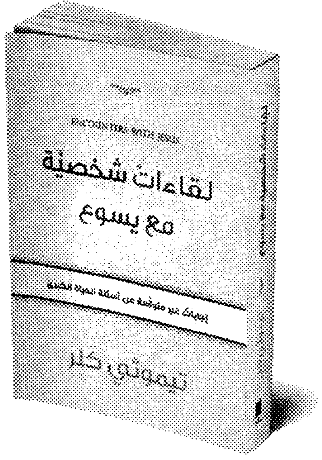

لقاءاتٌ شخصيَّة مع يسوع

(Encounters with Jesus)

يتناول هذا الكتاب لقاءات شخصيَّة مع يسوع المسيح، وكيف تعاملَ يسوع مع تساؤلات أولئك الذين التقاهم. وتركِّز الفصول الخمسة الأولى على لقاءات مع شخصيَّات كالمرأة السامريَّة المنبوذة، ونيقوديموس المقبول اجتماعيًّا، ونثنائيل المتشكِّك، ويستمرُّ في فصوله الخمسة التالية في عرضِ أحداث مفصليَّة في حياة يسوع المسيح.

يقدِّم إلينا الكتاب إجاباتٍ عن أسئلة الحياة الكبرى؛ فلن يبدأ التغيير الحقيقيُّ في حياتنا إلَّا إذا غيَّرنا إجاباتِنا عن بعض تلك الأسئلة. ويبيِّن الكتابُ أيضًا كيف يمكننا اليومَ أن نلتقيَ يسوع المسيح، ليتجاوَب بنفسه مع وضعنا كما حدثَ في اللقاءات الشخصيَّة التي نقرأ عنها هنا.

تيموثي كَلِر

وُلِدَ ونشأ في ولاية بنسلفانيا الأميركيَّة، وحصَّل علومَه في جامعة بَكنل (Bucknell University) ومعهد وستمينستر اللَّاهوتيّ (Westminster Theological Seminary)، وكلِّيَّة غوردون-كونويل اللَّاهوتيَّة (Gordon-Conwell Theological Seminary).

هو راعي كنيسة الفادي المشيَخيَّة في مَنهاتن، التي أسَّسها في ١٩٨٩م. ويحضُر تلك الكنيسةَ اليومَ جمهورٌ منتظمٌ يبلغُ نحو ستَّة آلاف شخص، في خمس خدمات كلَّ أسبوع، وقد ساعدَتْ أيضًا على تأسيس أكثر من مئتَين وخمسين كنيسةً في ثمانٍ وأربعين مدينةً حول العالم. حقَّقت كتب كَلِر السابقة مبيعاتٍ ضخمةً تتجاوز المليون نسخة. ونُشر له من أوفير للطباعة والنشر الكتب التالية: "الإيمان في عصر التَّشكيك" *(The Reason for God)*، و"مثل الابنَين الضالَّين" *(The Prodigal God)*، و"حرِّيَّة نسيان الذات" *(Freedom of Self-forgetfulness)*، و"لقاءات شخصيَّة مع يسوع" *(Encounters with Jesus)*.

الصّلاة

اختبار الرهبة والحميميَّة مع الله

قد يعرف الكثيرون منَّا أنَّ الصلاةَ هي أقوى طريقة لاختبار العلاقة بالله، غير أنَّ قليلين منَّا مَن يحصلون على إرشاد عن الكيفيَّةِ التي نجعل بها من الصلاة أمرًا ذا معنًى حقيقيٍّ وأصيل في حياتنا.

في هذا الكتاب يدخل الكاتب في تفاصيل هذه الممارسة اليوميَّة وأوجُهِها المتعدِّدة. وبأسلوبه الذي يتميَّز بالحيويَّة والأفكار الثاقبة، يقدِّم إلينا إرشادًا من كلمة الله عن الصلاة. كما يقدِّم أيضًا بعض الصلوات المقترَحة للمواقف المختلفة مثل النَّوح وفقدان الأعزَّاء والتعبير عن المحبَّة والغفران. كما يناقش أيضًا طرقًا يُمكنُ بها جَعْلُ الصلاة شخصيَّةً وقويَّةً أكثر، كما يقدِّمُ اقتراحاتٍ للمساعدة على جَعْلِ الصلاة ممارسةً مُمكنةً للجميع على اختلاف أحوالِهم.

ISBN 978-90-5950-246-8

9 789059 502468

www.ophir.com.jo
@ophirpub
ophirpub

أوفير
ophir